الأعمال الكاملة

الطيب صالح

دار العودة - بيروت

علي مولا

الطيّب صالح

الأعمال الكاملة

موسم الهجرة إلى الشمال
عرس الزّين
ضوّ البيت (بندرشاه)
مريود (بندرشاه)
دومة ود حامد

دار العودة - بيروت

الغلاف : سعيد ترياقي

يطلب من دار العودة ـ بيروت
كورنيش المزرعة ـ بناية ريفييرا سنتر
تلفون: ٨١٨٤٠٥ـ٨١٨٤٠٦
ص. ب: ١٤٦٢٨٤/ برقياً: العودة
فاكس : ٨١٨٤٠٦

لمحة عن الطيب فناناً وانساناً

بقلم احمد سعيد محمدية

رأيت الطيب الصالح أول مرة في بيت سفير السودان في لندن جمال محمد احمد ، وكان وديعاً رقيقاً ويكاد أن يكون حيياً .

وأخذت أرقبه وكأنني استطلع فيه صورة غريبة من صور الكون العجيب .. كم تختلج وراء هذا المظهر الهادىء براكين فنية !! وكم تختفي وراء هذه البساطة عوالم جياشة ، وحيوات محتدمة .

كنت قد قرأت أعماله العملاقة القليلة والنادرة « موسم الهجرة إلى الشمال » و « عرس الزين » – روايتيه الخالدتين – وقصتيه « دومة ود حامد » و « حفنة تمر » ، وكنت أحس أن موهبة عظيمة قد انفجرت في وطننا العربي ، وانها قد بدأت تنساب رافداً دافقاً في نهر الادب العربي المعاصر ، وأن هذه الموهبة تتويج للرواية العربية ، وتصعيد لمكانتها في الفن الروائي العالمي .

وكان الضوء قد بدأ يشع حول الطيب صالح وينير أعماله الفذة ، وكان عن تواضع جم يستغرب هذا الاحتفاء ، ويكاد أن ينكره ، وكان الذي يرون هذا الجانب فيه يدركون أن الطيب لا يرفض هذا الاحتفاء عن عدم ثقة

ولكن عن أصالة ، وعن إيمان الفنان فيه بأن دورته الفنية لم تكتمل ، وأنه لم يعط بعد كل ما يريد .

وعندما جالسته - وكان بسيطاً ومتبسطاً - أدركت كيف أعطى هذا الفنان هذين العملين العملاقين المتتاليين بهذه الجودة الفنية ، وهذا المستوى العالمي . فقد رأيت فيه القدرة الخارقة على الرؤية والاستبصار والنفاذ إلى أدق الامور - وهذه ملكة الفنان فيه - وأدركت انه لم يعتمد على هذه الموهبة وحسب بل شحذها شحذاً حاداً بالثقافة العربية فتزود منها كل ما وسعته المقدرة على التزود ، فقرأ المعاصرون وتمثلهم وهضم أعمالهم ، وغاص في التراث فاستلهم روحه ، وتسلح بمعرفة شوامخه . وعايش الثقافة الغربية فكراً مكتوباً فقرأ أعمال الكلاسيكيين والمعاصرين الاوروبيين ، وعاش الحضارة الاوروبية انماط سلوك وطريقة حياة ومنهج تفكير - وبهذه قدرة على الاجتهاد والتحصيل والتشبع .

كان يذكر المتنبي والنواس ، ويذكر شكسبير وييتس ، وكانت لديه مقدرة على استخراج اللؤلؤ من أعماق الادب العربي ، والجواهر من أعماق الآداب الغربية - والانكليزية منها خاصة - وكانت لديه المقدرة على فهم روحيّ الحضارتين والمقارنة الذكية بينهما ، وكان يستطيع وهو يفعل ذلك أن لا يتحول إلى طريقة الباحث والعالم بل أن يحتفظ برؤية

الفنان وشفافيته ، وهذا ما يلمسه كل الذين قرأوا أعماله : فالبساطة هي غلاف رقيق - مثل قشرة الجليد فوق سطح البحر ، سرعان ما تخترق إلى الاعماق البعيدة السحيقة ، والثقافة ليس استعراض ذهني ومقدرة في التقديم السطحي بل هي تفاعل مع الفكرة والكلمة في المحتوى والشكل ، والاصالة هي الارتباط بجذور الوطن وترابه - رغم البُعد الجغرافي عنه - وهذا هو الطيب صالح باختصار : البساطة والثقافة والاصالة ثلاثة أقانيم في روح واحدة .

★★★

من هو الطيب أيضاً !!

أنه باختصار شديد ابن التمازج الحضاري والعرقي العربي الافريقي .. - السودان - ولد في الشمال وعاش طفولته وفتوته فيه ، ثم انتقل إلى الخرطوم ، وأكمل دراسته الجامعية فيها ، وحصل على بكالوريوس في العلوم ، ثم انتقل إلى لندن وأكمل تحصيله العالي في الشؤون الدولية ، ثم عمل في الاذاعة البريطانية ، وتحول فرأس قسم الدراما فيها ، وعاد إلى السودان وعمل مدير للاذاعة ، ثم طلب إليه أن يكون مديراً للأعلام أو وكيلاً للوزارة فاعتذر ، لأنه كان يرى المهمة شاقة وعاد إلى لندن .

تزوج من امرأة انكليزية قريبة من عالمنا العربي وقادرة على فهم مشاكله وهي امرأة شديدة الحساسية والذكاء وهي

تمثل التطلع الذهني للطيب في المرأة عامة ، وأنجب منها ثلاث بنات .

والآن انتقل الطيب إلى قطر وعمل فيها وكيلاً لوزارة الأعلام ومشرفاً عاماً على أجهزتها ، واستطاع في مدة وجيزة أن يصنع من دائرته واحة خصبة للثقافة ومركزاً للاشعاع الادبي .

★★★

وشمال السودان هي المادة التي يختار الطيب نماذجه الانسانية منها ، وشخوص أعماله هي الرجال والنساء والاطفال الذين يحفل بهم هذا الجزء من التراب السوداني ، وهم على أية حال لا يختلفون كثيراً عن نماذج بقية أجزاء السودان الأرض والناس .

★★★

مَوسم الهجَرة إلى الشمَال

- ١ -

عدت الى أهلي يا سادتي بعد غيبة طويلة ، سبعة اعوام على وجه التحديد ، كنت خلالها أتعلم في أوربا . تعلمت الكثير ، وغاب عني الكثير ، لكن تلك قصة أخرى. المهم انني عدت وبي شوق عظيم الى أهلي في تلك القرية الصغيرة عند منحنى النيل . سبعة أعوام وأنا أحن اليهم وأحلم بهم ، ولما جئتهم كانت لحظة عجيبة ان وجدتني حقيقة قائما بينهم ، فرحوا بي وضجوا حولي ، ولم يمض وقت طويل حتى احسست كأن ثلجاً يذوب في دخيلتي ، فكأنني مقرور طلعت عليه الشمس. ذاك دفء الحياة في العشيرة ، فقدته زماناً في بلاد « تموت من البرد حيتانها » . تعودت أذناي أصواتهم ، وألفت عيناي أشكالهم من كثرة ما فكرت فيهم في الغيبة ، قام بيني وبينهم شيء مثل الضباب ، اول وهلة رأيتهم . لكن الضباب راح ، وأستيقظت ثاني يوم وصولي ، في فراشي الذي أعرفه في الغرفة التي تشهد جدرانها على ترهات حياتي في طفولتها ومطلع شبابها وأرخيت أذني للريح . ذاك لعمري صوت أعرفه ، له في

بلدنا وشوشة مرحة . صوت الريح وهي تمر بالنخل غيره وهي تمر بحقول القمح . وسمعت هديل القمري ، ونظرت خلال النافذة الى النخلة القائمة في فناء دارنا ، فعلمت ان الحياة لا تزال بخير ، أنظر الى جذعها القوي المعتدل ، والى عروقها الضاربة في الارض ، والى الجريد الاخضر المنهدل فوق هامتها فأحس بالطمأنينة . أحس انني لست ريشة في مهب الريح ، ولكني مثل تلك النخلة، مخلوق له أصل ، له جذور له هدف.

وجاءت أمي تحمل الشاي . وفرغ أبي من صلاته وأوراده فجاء . وجاءت أختي ، وجاء اخواي، وجلسنا نشرب الشاي ونتحدث ، شأننا منذ تفتحت عيناي على الحيـــاة . نعم ، الحياة طيبة ، والدنيا كحالها لم تتغير .

فجأة تذكرت وجها رأيته بين المستقبلين لم أعرفه .سألتهم عنه ، ووصفته لهم . رجل ربعة القامة ، في نحو الخمسين أو يزيد قليلا، شعر رأسه كثيف مبيض ، ليست له لحية وشاربه أصغر قليلا من شوارب الرجال في البلد . رجل وسيم .

وقال أبي : « هذا مصطفى »

مصطفى من ؟ هل هو أحد المغتربين من ابناء البلد عاد ؟

وقال أبي ان مصطفى ليس من أهل البلد ، لكنه غريب جاء منذ خمسة أعوام ، أشترى مزرعة وبنى بيتاً وتزوج بنت محمود .. رجل في حاله ، لا يعلمون عنه الكثير .

لا أعلم تماماً ماذا أثار فضولي ، لكنني تذكرت أنه يوم

وصولي كان صامتاً . كل أحد سألني وسألته . سألوني عن أوربا . هل الناس مثلنا أم يختلفون عنا؟ هل المعيشة غالية أم رخيصة ؟ ماذا يفعل الناس في الشتاء ؟ يقولون ان النساء سافرات يرقصن علانية مع الرجال . وسألني ود الريس: «هل صحيح انهم لا يتزوجون ولكن الرجل منهم يعيش مع المرأة بالحرام ؟ »

أسئلة كثيرة رددت عليها حسب علمي . دهشوا حين قلت لهم ان الاوربيين ، اذا استثنينا فوارق ضئيلة ، مثلنا تماماً ، يتزوجون ويربون اولادهم حسب التقاليد والاصول ، ولهم أخلاق حسنة ، وهم عموماً قوم طيبون .

وسألني محجوب . « هل بينهم مزارعون ؟ »

وقلت له : « نعم بينهم مزارعون وبينهم كل شيء . منهم العامل والطبيب والمزارع والمعلم ، مثلنا تماماً » . وآثرت ألا أقول بقية ما خطر على بالي : « مثلنا تماماً . يولدون ويموتون وفي الرحلة من المهد إلى اللحد يحلمون أحلاماً بعضها يصدق وبعضها يخيب . يخافون من المجهول ، وينشدون الحب ، ويبحثون عن الطمأنينة في الزوج والولد . فيهم أقوياء ، وبينهم مستضعفون ، بعضهم أعطته الحياة أكثر مما يستحق ، وبعضهم حرمته الحياة . لكن الفروق تضيق وأغلب الضعفاء لم يعودوا ضعفاء » . لم أقل لمحجوب هذا ، وليتني قلت ، فقد كان ذكياً . خفت ، من غروري ، ألا يفهم .

وقالت بنت مجذوب ضاحكة : « خفنا أن تعود إلينا بنصرانية غلفاء » .

لكن مصطفى لم يقـل شيئاً . ظـل يستمع في صمت ، يبتسم أحياناً ، ابتسامة أذكر الآن أنها كانت غامضة ، مثل شخص يحدث نفسه .

نسيت مصطفى بعد ذلك ، فقد بدأت أعيد صلتي بالناس والأشياء في القرية . كنت سعيداً تلك الأيام ، كطفل يرى وجهه في المرآة لأول مرة. وكانت أمي لي بالمرصاد ، تذكرني بمن مات ، لأذهب وأعزي ، وتذكرني بمن تزوج ، لأذهب وأهنىء . جبت البلد طولاً وعرضاً معزياً ومهنئا . ويومـاً ذهبت إلى مكاني الأثير ، عند جذع شجرة طلح على ضفة النهر . كم عدد الساعات التي قضيتها في طفولتي تحت تلك الشجرة ، أرمي الحجارة في النهر وأحلم ، ويشرد خيالي في الأفق البعيد ؟ أسمع أنين السواقي على النهر ، وتصايح الناس في الحقول ، وخوار ثور أو نهيق حمار . كان الحظ يسعدني أحياناً ، فتمر الباخرة أمامي صاعدة أو نازلة . من مـكاني تحت الشجرة ، رأيت البلد يتغير في بطء . راحت السواقي . وقامت على ضفة النيل طلمبات لضخ الماء ، كل مكنة تؤدي عمل مائة ساقية . ورأيت الضفة تتقهقر عاماً بعد عام أمام لطمات الماء ، وفي جانب آخر يتقهقر الماء أمامها . وكانت تخطر في ذهني أحياناً أفكار غريبة . كنت أفكر ، وأنا أرى

الشاطىء يضيق في مكان ، ويتسع في مكان ، أن ذلك شأن الحياة ، تعطي بيد وتأخذ باليد الأخرى . لكن لعلني أدركت ذلك فيما بعد . أنا الآن ، على أي حال ، أدرك هذه الحكمة ، لكن بذهني فقط ، إذ أن عضلاتي تحت جلدي مرنة مطواعة وقلبي متفائل . انني أريد أن آخذ حقي من الحياة عنوة ، أريد أن أعطي بسخاء ، أريد أن يفيض الحب من قلبي فينبع ويثمر . ثمة آفاق كثيرة لا بد أن تُزار ، ثمة ثمار يجب أن تُقطف ، كتب كثيرة تقرأ ، وصفحات بيضاء في سجل العمر ، سأكتب فيها جملاً واضحة بخط جريء . وأنظر إلى النهر بدأ ماؤه يربد بالطمي — لا بد أن المطر هطل في هضاب الحبشة — وإلى الرجال قاماتهم متكئة على المحاريث ، أو منحنية على المعاول. وتمتلىء عيناي بالحقول المنبسطة كراحة اليد إلى طرف الصحراء حيث تقوم البيوت. أسمع طائراً يغرد ، أو كلباً ينبح ، أو صوت فأس في الحطب — وأحس بالاستقرار . أحس انني مهم ، وانني مستمر ، ومتكامل . « لا .. لست أنا الحجر يلقى في الماء ، لكنني البذرة تبذر في الحقل » . وأذهب إلى جدي ، فيحدثني عن الحياة قبل أربعين عاماً ، قبل خمسين عاماً ، لا بل ثمانين ، فيقوى إحساسي بالأمن . كنت أحب جدي ، ويبدو أنه كان يؤثرني . ولعل أحد أسباب صداقتي معه ، انني كنت منذ صغري تشحذ خيالي حكايات الماضي ، وكان جدي يحب أن يحكي ، ولما سافرت خفت أن يموت في غيبتي . وكنت حين

يلم بي الحنين إلى أهلي ، أراه في منامي . قلت له ذلك ، فضحك وقال : « حدثني عراف وأنا شاب ، انني إذا جاوزت عمر النبوة – يعني الستين – فانني سأصل المائة » . وحسبنا عمره ، أنا وهو فوجدنا انه بقي له نحو اثني عشر عاما .

كان جدي يحدثني عن حاكم غاشم ، حكم ذلك الاقليم أيام الأتراك . ولست أعلم ما الذي دفع بمصطفى إلى ذهني ، لكني تذكرته بغتة ، فقلت أسأل عنه جدي ، فهو عليم بحسب كل أحد في البلد ونسبه ، بل باحساب وأنساب مبعثرة قبلي وبحري ، أعلى النهر وأسفله . لكن جدي هز رأسه وقال انه لا يعلم عنه سوى انه من نواحي الخرطوم ، وانه جاء الى البلد منذ نحو خمسة أعوام ، واشترى أرضاً تفرق وارثوها ، ولم تبق منهم إلا امرأة.فأغراها الرجل بالمال واشتراها منها . ثم قبل أربعة أعوام زوجه محمود إحدى بناته . قلت لجدي : « أي بناته ؟ » فقال : « أظنها حسنه » . وهز جدي رأسه وقال : « تلك القبيلة . لا يبالون لمن يزوجون بناتهم » . لكنه أردف ، كأنه يعتذر ، ان مصطفى طول إقامته في البلد ، لم يبدو منه شيء منفر ، وانه يحضر صلاة الجمعة في المسجد بانتظام ، وانه يسارع « بذراعه وقدحه في الأفراح والأتراح » .. هكذا طريقة جدي في الكلام .

* * *

بعد هذا بيومين ، كنت وحدي أقرأ وقت القيلولة .

كانت أمي وأختي تلفطان مع بعض النسوة في أقصى البيت ، وكان أبي نائماً ، وقد خرج أخواي لشأن ما ، فخلوت بنفسي. سمعت نحنحـة خارج البيت ، فقمت ، فإذا هو مصطفى ، يحمل بطيخة كبيرة ، وزنبيلاً مملـوءاً برتقالاً . ولعله رأى الدهشة على وجهي ، فقال : « أرجو ألا أكون أيقظتك من نوم . لكنني قلت أجيئك بعينة من ثمر الحقل ، تذوقـه . كذلك أحب أن أتعرف إليك . وقت الظهيرة ليس وقت زيارة . اعذرني » .

لم يغب عني أدبه الجم ، فأهل بلدنا لا يبالون بعبارات المجاملة . يدخلون في الموضوع دفعة واحدة ، يزورونك ظهراً كان أو عصراً ، لا يهمهم أن يقدموا المعاذير . رددت الود بالود ، ثم جيء بالشاي .

دققت النظر في وجهـه ، وهو مطرق . انه رجل وسيم دون شك ، جبهته عريضة رحبة ، وحاجباه متباعدان ، يقومان أهـلة فوق عينيه ، ورأسه بشعره الغزير الأسيب متناسق تماماً مع رقبته وكتفيه ، وانفه حاد منخاراه مليئان بالشعر . ولما رفع وجهه أثناء الحديث ، نظرت إلى فمـه وعينيه ، فأحسست بالمزيج الغريب من القوة والضعف في وجه الرجل. كان فمه رخواً ، وكانت عيناه ناعستين، تجعلان وجهه أقرب إلى الجمال منه إلى الوسامة . ويتحدث بهـدوء ، لكن صوته واضح قاطع. حين يسكن وجهه يقوى . وحين يضحك

يغلب الضعف على القوة . ونظرت إلى ذراعيه ، فكانتـــا قويتين ، عروقهما نافرة ، لكن أصابعه كانت طويلة رشيقة ، حين يصل النظر إليها بعد تأمل الذراع واليد ، تحس بغتة كأنك انحدرت من الجبل إلى الوادي .

قلت أدعه يتحدث ، فهو لم يجيء إليّ في حمأة القيظ ، إلا ليقول لي شيئاً . ولعله من ناحية أخرى جاء بوازع من حسن النية . لكنه قطع علي حدسي . فقال : « لعلك الوحيد من أهل البلد ، الذي لم أسعد بالتعرف عليه من قبل » . لمـــاذا لا يترك هذا الأدب ، ونحن في بلد إذا غضب فيها الرجال ، قال بعضهم لبعض : يا ابن الكلب .

« سمعت كثيراً عنك من أهلك وأصدقائك » – لا غرو ، فقد كنت أعد نفسي زينة الشباب في البلد .

« قالوا انـــك نلت شهادة كبيرة – ماذا تسمونها ؟ الدكتوراه ؟ » يقول لي ماذا تسمونها؟ لم يعجبني ذلك ، فقــد كنت أحسب أن الملايين العشرة في القطر كلهم سمعوا بانتصاري.

« يقولون انك لامع منذ صغرك » .

« العفو » – هكذا قلت ، لكنني ، والحق يقال ، كنت تلك الايام مزهواً بنفسي ، حسن الظن بها .

« دكتوراه . هذا شيء كبير » .

فقلت له ، وأنا أتصنع التواضع ، ان الامر لا يعدو أنني قضيت ثلاثة أعوام ، أنقب في حياة شاعر مغمور من شعراء

الانكليز . واغتظت ، لا اخفي عليكم انني اغتظت ، حين ضحك الرجل ملء وجهه ، وقال :

« نحن هنا لا حاجة لنا بالشعر . لو انك درست علم الزراعة أو الهندسة أو الطب ، لكان خيراً » . انظر كيف يقول « نحن » ولا يشملني بها ، مع العلم بأن البلد بلدي ،وهو – لا أنا – الغريب .

لكنه ابتسم في وجهي برقة ، ولاحظت كيف طغى الضعف في وجهه على القوة ، وكيف أن عينيه في الواقع جميلتان كعيني انثى ، وقال :

« لكن نحن مزارعون نفكر فيما يعنينا ، انما العلم ، مهما كان ، ضروري لرفعة الوطن » .

صمت برهة ، فازدحمت اسئلة كثيرة في رأسي : من أين هو ؟ ولماذا استقر في هذا البلد ؟ وما هي قصته ؟ لكنني آثرت التريث ، واسعفني هو فقال :

« الحياة في هذا البلد هينة خيرة . الناس طيبون عشرتهم سهلة » .

فقلت له : « انهم يذكرونك بالخير . جدي يقول انك رجل فاضل » .

ضحك حينئذ، ربما لانه تذكر مقابلة له مع جدي ، وبدأ كأنه سر من قولي ، وقال :

« جدك .. ذاك رجل . ذاك رجل.. تسعون عاماًوقامته منتصبة ، ونظره حاد ، وكل سن في فمه . يقفز فوق الحمار

خفيفاً ، ويمشي من بيته للمسجد في الفجر . هاه ذاك رجل».
كان مخلصاً وهو يقول هذا . ولم لا ؟ وجدي ، في واقع الامر ، اعجوبة .

وخفت ان يفلت الرجل قبل أن أعلم عنه شيئاً – الى هذا الحد بلغ فضولي – فجرى السؤال على لساني قبل أن افكر :

« هل صحيح انك من الخرطوم ؟ » .

وفوجىء الرجل قليلاً وخيل لي ان ما بين عينيه قد تعكر ، لكنه بسرعة ومهارة عاد إلى هدوئه ، قال لي وهو يتعمد أن يبتسم : «من ضواحي الخرطوم في الواقع . قل الخرطوم ».

وصمت برهة قصيرة ، وكأنه يناقش بينه وبين نفسه ، هل يصمت أم يعطيني المزيد ثم رأيت الطيف الساحر يحوم حول عينيه ، تماماً كما رأيته أول يوم ، وقال وهو ينظر الي وجهاً قبالة وجه :

« كنت في الخرطوم أعمل في التجارة. ثم لاسباب عديدة، قررت ان اتحول للزراعة . كنت طول حياتي أشتاق للاستقرار في هذا الجزء من القطر ، لا أعلم السبب . وركبت الباخرة ، وأنا لا أعلم وجهتي . ولما رست في هذا البلد، أعجبتني هيئتها. وهجس هاجس في قلبي : هذا هو المكان . وهكذا كان ، كما ترى . لم يخب ظني في البلد ولا أهله » . ثم صمت ، وقام قائلاً انه ذاهب للحقل ، ودعاني للعشاء في بيته بعد يومين .

ولما أوصلته للباب ، قال لي وهو يودعني ، والطيف الساحر اكثر وضوحاً حول عينيه :

« جدك يعرف السر » .

ولم يمهلني حتى أسأله : « أي سر يعرفه جدي ؟ جدي

ليست له أسرار » . ولكنه مضى مبتعـداً بخطوات نشيطة متحفزة ، رأسه يميل قليلاً الى اليسار .

* * *

ذهبت للعشاء فوجدت محجوبا، والعمدة ، وسعيد التاجر، وأبي . تعشينا دون ان يقول مصطفى شيئاً يثير الاهتمام. كان كعادته يسمع أكثر مما يتكلم . كنت ، حين يخفت الحديث وحين أجد أنه لا يعنيني كثيراً ، أتلفت حولي كأنني أحاول ان أجد في غرف البيت وجدرانه الجواب على الاسئلة الـتي تدور في رأسي . لكنه كان بيتاً عادياً ، ليس أحسن ولا أسوأ من بيوت الميسورين في البلد . منقسم الى جزءين كبقية البيوت ، جزء للنساء ، والقسم الذي فيه « الديوان » للرجال ورأيت الى يمين الديوان غرفة من الطوب الاحمر ، مستطيـلة الشكل ، ذات نوافذ خضراء . سقفها لم يكن مسطحا كالعادة ولكنه كان مثلثا كظهر الثور .

قمنا أنا ومحجوب وتركنا الباقين . وفي الطريق سألت محجوبا عن مصطفى . لم يخبرني بجديد لكنه قال : « مصطفى رجل عميق » .

قضيت في البلد شهرين ، كنت خلالها سعيداً . وقـــد جمعتني الصدف بمصطفى عدة مرات . مرة دعيت لحضور اجتماع لجنة المشروع الزراعي . دعاني محجوب ، رئيس اللجنة وقد كان صديقي ، نشأنا معاً منذ طفولتنا . دخلت عليهم

وكان مصطفى بينهم ، وكانوا يبحثون أمراً يتعلق بتوزيع الماء على الحقول . ويبدو أن بعض الناس ، ومنهم من هو عضو في اللجنة ، كانوا يفتحون الماء في حقولهم قبل الموعد المحدد لهم . واحتد النقاش وتصايحوا بعضهم على بعض وفجأة رأيت مصطفى يهب واقفاً . هدأ اللغط واستمعوا اليه باحترام زائد . وقال مصطفى ان الخضوع للنظام في المشروع أمر مهم والا أختلطت الامور وسادت الفوضى ، وان على اعضاء اللجنة خاصة أن يكونوا قدوة حسنة لغيرهم ، فاذا خالفوا القانون عوقبوا كبقية الناس . ولما فرغ من كلامه هز أغلب اعضاء اللجنة رؤوسهم استحسانا ، وصمت من عناهم الكلام .

لم يكن ثمة أدنى شك في ان الرجل من عجينة أخرى ، وأنه أحقهم برئاسة اللجنة ، لكن ربما لأنه ليس من أهل البلد لم ينتخبوه .

* * *

بعد هذا بنحو أسبوع ، حدث شيء أذهلني . دعاني محجوب لمجلس شراب . وبينما نحن نسمر جاء مصطفى يكلم محجوبا في شأن من شؤون المشروع . دعاه محجوب ان يجلس فاعتذر ، ولكن محجوبا حلف عليه بالطلاق . مرة أخرى لاحظت سحابة التبرم تنعقد ما بين عينيه ، ولكنه جلس ، وعاد بسرعة الى هدوئه الطبيعي . وناوله محجوب كأساً من الشراب ، فتردد برهة ثم أمسك بها ووضعها الى جانبه

دون ان يشرب منها . ومرة أخرى أقسم محجوب ، فشرب مصطفى . كنت أعرف محجوبا متهوراً ، فخطر لي أن أمنعه عن مضايقة الرجل ، اذ من الواضح أنه غير راغب في الجلسة أصلا . لكن خاطراً آخر هجس في ذهني ، فتوقفت .شرب مصطفى الكأس الاولى باشمئزاز واضح ، شربها بسرعة ، كأنها دواء مقيت. لكنه لما وصل الى الكأس الثالثة ، أخذ يبطىء ويمص الشراب مصا ، بلذة. حينئذ ارتخت عضلات وجهه ، وغاب التوتر في أركان فمه ، وأصبحت عيناه حالمتين ناعستين ، أكثر من ذي قبـــل . القوة التي تحسها في رأسه وجبهته وأنفه ، ضاعت تماماً في الضعف الذي سال ، مع الشراب ، على عينيه وفمه . وشرب مصطفى كأساً رابعة ، وكأساً خامسة . لم يعد في حاجة إلى تشجيع ، لكن محجوباً كان يحلف بالطلاق على أي حال . دفن مصطفى قامته في المقعد ، ومدد رجليه . وأمسك الكأس بكلتا يديه ، وسرحت عيناه ، كما خيـــل لي ، في آفـــاق بعيدة ، ثم ، فجأة ، سمعته يتلو شعراً إنكليزياً ، بصوت واضح ونطق سليم . قرأ قصيدة وجدتها فيما بعد بين قصائد عن الحرب العالمية الأولى :

« هؤلاء نساء فلاندرز
ينتظرن الضائعين ،
ينتظرن الضائعين الذين أبداً لن يغادروا الميناء ،
ينتظرن الضائعين الذين أبداً لن يجيء بهم القطار ،

إلى أحضان هؤلاء النسوة ، ذوات الوجوه الميتة ،
ينتظرن الضائعين ، الذين يرقدون موتى في الخنـــدق
والحاجز والطين في ظلام الليل .
هذه محطة تشارنغ كروس . الساعة جاوزت الواحدة .
ثمة ضوء ضئيل
ثمة ألم عظيم » .

بعد ذلك تأوه ، وهو لا يزال ممسكاً بالكأس بين يديه ، وعيناه سارحتان ، في آفاق داخل نفسه .

أقول لكم ، لو أن عفريتاً انشقت عنــه الأرض فجأة ، ووقف أمامي ، عيناه تقدحان اللهب ، لما ذعرت أكثر مما ذعرت . وخامرني ، بغتة ، شعور فظيـع ، شيء مثـــل الكابوس ، كأننا نحن الرجال المجتمعين في تلك الغرفة ، لم نكن حقيقة ، إنما وهماً من الأوهام . وقفزت ، ووقفت فوق الرجل ، وصحت فيه : « ما هذا الذي تقول ؟ ما هذا الذي تقول ؟ » نظر إلي نظرة جامدة ، لا أدري كيف أصفها ، لكن لعلها كانت خليطاً من الاحتقار والضيق . ودفعني بعنف بيده ، ثم هب واقفاً ، وخرج من الغرفة في خطوات ثابتة ، مرفوع الرأس، كأنه شيء ميكانيكي . كان محجوب مشغولاً، يضحك مع بقية من في المجلس ، فلم ينتبه لما حدث .

ذهبت اليه ثاني يوم في حقله ، فوجدته مكباً يحفر الأرض حول شجرة ليمون . كان مرتدياً سروالاً من الكاكي قصيراً

متسخاً ، وقميصاً من الدبلان يصل إلى ركبتيه ، وعلى وجهه بقع من الطين . حياني بأدبه الجم كعادته وقال لي : « بعض فروع هذه الشجرة تثمر ليموناً ، وبعضها يثمر برتقالاً » . فقلت له بالانجليزي ، عمداً : « شيء مدهش » . فنظر إلي مستغرباً وقال : « ماذا ؟ » فأعدت الجملة . ضحك وقال لي: « هل أنستك إقامتك الطويلة في انجلترا العربي ، أم تحسب اننا خواجات ؟ » قلت له : « لكنك ليلة أمس قرأت الشعر باللغة الانجليزية » .

غاظني صمته . فقلت له : « من الواضح انك شخص آخر غير ما تزعم . من الخير أن تقول لي الحقيقة » . لم يبد عليه أي تأثر بالتهديد الذي ضمنته كلامي ، ومضى يحفر حـــول الشجرة . ولما فرغ من حفره ، قال وهو ينفض الطين عن يديه دون أن ينظر إلي :

« لا أدري ماذا قلت وماذا فعلت في الليـلة الماضية . السكران لا يؤاخذ على كلامه . إذا كنت قلت شيئـاً ، فهو كخترفة النائم ، أو هذيان المحموم . ليست له قيمة . أنا هو هذا الشخص الذي أمامك، كما يعرفه كل أحد في البلد . لست خلاف ذلك ، وليس عندي شيء أخفيه » .

ذهبت إلى البيت ، ورأسي يضج بالأفكار . أنا واثق ان وراء « مصطفى » قصة ، أو شيئاً لا يود أن يبوح به . هل خانتني أذناي ليلة البارحة ؟ الشعر الانجليزي الذي قرأه ،

كان حقيقة . لم أكن سكران ، ولم أكن نائماً ، وصورته وهو جالس في ذلك المقعد ، ممدداً رجليه ، ممسكاً بالكأس بكلتا يديه ، صورة واضحة لا مراء فيها . هل أحدث أبي ؟ هل أقول لمحجوب ؟ لعل الرجل قتل أحداً في مكان ما وفر من السجن ؟ لعله .. لكن أية أسرار في هذا البلد ؟ لعله فقد ذاكرته ؟ يقال أن بعض الناس يصابون « بالامنيزيا » أثر حادث . وأخيراً قررت أن أمهله يومين أو ثلاثة ، فإذا لم يأتني بالحقيقة ، كان لي معه شأن آخر .

لم يطل انتظاري ، فقد جاءني مصطفى عشية ذلك اليوم. وجد أبي وأخوي أيضاً، فقال أنه يريد أن يحدثني على انفراد. قمت معه ، فقال لي : « هل تحضر إلى بيتي مساء غد ؟ أريد أن أتحدث إليك » . ولما عدت سألني أبي : « ماذا يريد مصطفى ؟ » فقلت له انه يريدني أن أفسر له عقداً بملكية أرض له في الخرطوم .

رحت إليه عند المغيب ، فوجدته وحده ، أمامه آنية شاي . عرض علي الشاي فأبيت ، فقد كنت في الحقيقة أتعجل سماع القصة . لا بد أنه قرر أن يقول الحقيقة. أعطاني سيجارة فقبلتها .

تفرست في وجهه وهو ينفث الدخان ببطء ، فبدا هادئاً قوياً . أبعدت الفكرة ، وأنا أنظر في وجهه ، أن يكون قاتلاً . إستعمال العنف يترك أثراً في الوجه لا تخطئه العين .

أما أنه فقد ذاكرته ، فهذا محتمل . وأخيراً بدأ مصطفى يتحدث ، ورأيت الطيف الساخر حول عينيه أوضح من أي وقت رأيته فيه . شيء محسوس ، كأنه لمع البرق .

« سأقول لك كلاماً لم أقله لأحد من قبل . لم أجد سبباً لذلك قبل الآن . قررت هذا حتى لا يجمح خيالك ، وأنت درست الشعر » . ضحك حتى يخفف حدة الاحتقار التي بدت في صوته وهو يقول هذا .

« خفت أن تذهب وتتحدث إلى الآخرين . تقول لهم أنني لست الرجل الذي أزعم . فيحدث . . يحدث بعض الحرج ، لي ولهم. لذا فان لي عندك رجاء واحداً . أن تعدني بشرفك ، أن تقسم لي بأنك لن تبوح لمخلوق بشيء مما سأحدثك به الليلة » . ونظر إلي نظرة مركزة . فقلت له :

« هذا يعتمد على ما ستقوله لي . كيف أعدك وأنا لا أعلم عنك شيئاً ؟ » .

فقال : « انني أقسم لك بأن شيئاً مما سأقوله لك لن يؤثر على وجودي في هذا البلد . انني رجل في كامل عقلي ، مسالم ، لا أحب لهذا البلد وأهله إلا الخير » .

لا أكتمك أنني ترددت . لكن اللحظة كانت مشحونة بالاحتمالات ، وكان فضولي عارماً ليس له حد . خلاصة القول أنني وعدت وأقسمت ، فدفع مصطفى إلي برزمة أوراق وأومأ لي أن أنظر فيها فتحت ورقة فاذا هي وثيقة ميلاده .

مصطفى سعيد ، من مواليد الخرطوم ، ١٦ أغسطس عـام ١٨٩٨ ... الأب متوفي ، الأم فاطمة عبد الصادق ، فتحت بعد ذلك جواز سفره ، الاسم ، المولد ، البلد ، كما في شهادة الميلاد . المهنة « طالب » . تاريخ صدور الجواز عام ١٩١٦ في القاهرة وجدد في لندن عام ١٩٢٦ . كان ثمـة جواز سفر آخر ، انكليزي ، صدر في لندن عام ١٩٢٩ . قلبت صفحاته فاذا أختام كثيرة ، فرنسية وألمانية وصينية ودنماركية . كل هذا شحذ خيالي بشكل لا يوصف ، فـلم أستطع المضي في تقليب صفحات جواز السفر ، وانصرف ذهني عن بقية الأوراق. ولا بد أن وجهي كان مشحوناً بالترقب حين نظرت إليه . مضى مصطفى ينفث في دخان سيجارته برهة ، ثم قال :

- ٢ -

انها قصة طويلة . لكنني لن أقول لك كل شيء . وبعض التفاصيل لن تهمك كثيراً ، وبعضهـــا ... المهم انني كما ترى ولدت في الخرطوم . نشأت يتيماً ، فقد مات ابي قبل أن أولد ببضعة أشهر ، لكنه ترك لنا ما يستر الحال . كان يعمل في تجارة الجمال . لم يكن لي أخوة ، فلم تكن الحياة عسيرة عليّ وعلى أمي . حين أرجع الآن بذاكرتي ، أراها بوضوح ، شفتاها الرقيقتان مطبقتان في حزم ، وعلى وجهها شيء مثل القناع . لا أدري . قناع كثيف ، كأن وجهها صفحة بحر ، هل تفهم ؟ ليس له لون واحد بل ألوان متعددة ، تظهر وتغيب وتتمازج . لم يكن لنا أهل . كنا ، أنا وهي ، أهلاً بعضنا لبعض . كانت كأنها شخص غريب جمعتني به الظروف صدفة في الطريق . لعلني كنت مخلوقاً غريباً ، أو لعل أمي كانت غريبة . لا ادري . لم نكن نتحدث كثيراً ، وكنت ، ولعلك تعجب ، أحس احساساً دافئاً بأنني حر ، بأنه ليس ثمة مخلوق أب أو أم ، يربطني كالوتد الى بقعة معينة ومحيط معين . كنت

أقرأ وانام ، أخرج وأدخل ، العب خارج البيت ، أتسكع في الشوارع ، ليس ثمة أحد يأمرني أو ينهاني . الا أنني منذ صغري ، كنت أحس بأنني ... انني مختلف . أقصد انني لست كبقية الاطفال في سني ، لا أتأثر بشيء لا أبكي اذا ضربت ، لا أفرح اذا أثنى عليّ المدرس في الفصل ، لا أتألم لما يتألم له الباقون . كنت مثل شيء مكور من المطاط ،تلقيه في الماء فلا يبتل ، ترميه على الارض فيقفز . كان ذلك الوقت أول عهدنا بالمدارس أذكر الآن الناس كانوا غير راغبين فيها . كانت الحكومة تبعث أعوانها يجوبون البلاد والاحياء ، فيخفي الناس ابناءهم . كانوا يظنونها شراً عظيماً جاءهم مع جيوش الاحتلال . كنت العب مع الصبية خارج دارنا ، فجاء رجل على فرس ، في زي رسمي ، ووقف فوقنا . جرى الصبية ، وبقيت انظر الى الفرس والى الرجل فوقه . سألني عن اسمي فأخبرته . قال لي كم عمرك ، فقلت له لا ادري . قال لي : « هل تحب ان تتعلم في المدرسة ؟ » قلت له : « مـــا هي المدرسة ؟ » فقال لي : « بناء جميل من الحجر وسط حديقة كبيرة على شاطيء النيل . يدق الجرس وتدخل الفصل مـــع التلاميذ . تتعلم القراءة والكتابة والحساب » . قلت للرجل : « هل البس عمامة كهذه ؟ » وأشرت الى شيء كالقبة فوق رأسه . فضحك الرجل وقال لي : « هذه ليست عمامة . هذه برنيطة . قبعة » . وترجل من على فرسه ووضعها فوق رأسي فغاب وجهي كله فيها .ثم قال الرجل : « حين تكبر ،وتخرج

من المدرسة ، وتصير موظفاً في الحكومة ، تلبس قبعة كهذه» قلت للرجل : « اذهب للمدرسة » . أردفني الرجل خلفه فوق الحصان ، وحملني الى مكان ، كما وصفه ، من الحجر ، على ضفة النيل ، تحيط به أشجار وأزهار . ودخلنا على رجل ذي لحية ، يلبس جبة ، فقام وربت على رأسي ، وقال لي : « لكن أين أبوك ؟ » فقلت له ان أبي ميت . فقال لي : « من ولي امرك ؟ » قلت له : « أريد أن أدخل المدرسة » . نظر اليّ الرجل بعطف ، ثم قيدوا اسمي في سجل ، وسألوني كم عمري فقلت لهم لا أدري . وفجأة دق الجرس . فررت منهم، ودخلت احدى الحجرات فجاء الرجلان وساقاني الى حجرة أخرى واجلساني في مقعد بين صبية آخرين . عدت الى أمي في الظهر فسألتني أين كنت ، فحكيت لها القصة . نظرت اليّ برهة نظرة غامضة ، كأنها أرادت أن تضمني الى صدرها . فقد رأيت وجهها يصفو برهة ، وعينيها تلمعان ، وشفتيها تفتران كأنها تريد أن تبتسم ، أو تقول شيئاً . لكنها لم تقل شيئا . وكانت تلك نقطة تحول في حياتي . كان ذلك أول قرار اتخذته ، بمحض إرادتي .

إنني لا أطلب منك أن تصدق ما أقوله لك . لك أن تعجب وأن تشك . أنت حر . هذه وقائع مضى عليها وقت طويل ، وهي كما ترى الآن ، لا قيمة لها . أقولها لك لأنها تحضرني ، لأن الحوادث بعضها يذكر بالبعض الآخر .

المهم انني انصرفت بكل طاقاتي لتلك الحياة الجديدة . وسرعان ما اكتشفت في عقلي مقدرة عجيبة على الحفظ والاستيعاب والفهم . أقرأ الكتاب فيرسخ جملة في ذهني . ما ألبث أن أركز عقلي في مشكلة الحساب حتى تتفتح لي مغالقها ، تذوب بين يدي كأنها قطعة ملح وضعتها في الماء . تعلمت الكتابة في أسبوعين ، وانطلقت بعد ذلك لا ألوي على شيء . عقلي كأنه مدية حادة ، تقطع في برود وفعالية . لم أبال بدهشة المعلمين وإعجاب رفقائي أو حسدهم . كان المعلمون ينظرون إليّ كأنني معجزة ، وبدأ التلاميذ يطلبون ودي. لكنني كنت مشغولاً بهذه الآلة العجيبة التي أتيحت لي. وكنت بارداً كحقل جليد ، لا يوجد في العالم شيء يهزني .

طويت المرحلة الأولى في عامين ، وفي المدرسة الوسطى اكتشفت ألغازاً أخرى ، منها اللغة الانكليزية . فمضى عقلي يعض ويقطع كأسنان محراث . الكلمات والجمل تتراءى لي كأنها معادلات رياضية ، والجبر والهندسة كأنها أبيات شعر . العالم الواسع أراه في دروس الجغرافيا ، كأنه رقعة شطرنج . كانت المرحلة الوسطى أقصى غاية يصل إليها المرء في التعليم تلك الأيام . وبعد ثلاثة أعوام ، قال لي ناظر المدرسة ، وكان انكليزياً : « هذه البلد لا تتسع لذهنك ، فسافر . إذهب إلى مصر أو لبنان أو انكلترا . ليس عندنا شيء نعطيك إياه بعد الآن » . قلت له على الفور : « أريد أن أذهب إلى القاهرة » . فسهّل لي ، فيما بعد ، السفر ، والدخول مجاناً

في مدرسة ثانوية في القاهرة ، ومنحة دراسية من الحكومة . وهذه حقيقة في حياتي ، كيف قيضت الصدف لي قوماً ساعدوني وأخذوا بيدي في كل مرحلة ، قوماً لم أكن أحس تجاههم بأي إحساس بالجميل . كنت أتقبل مساعداتهم ، كأنها واجب يقومون به نحوي .

حين أخبرني ناظر المدرسة بأن كل شيء أعد لسفري للقاهرة ، ذهبت إلى أمي وحدثتها . نظرت إلى مرة أخرى، تلك النظرة الغريبة . افترت شفتاها لحظة كأنها تريد أن تبتسم ، ثم أطبقتها ، وعاد وجهها كعهده ، قناعاً كثيفاً ، بل مجموعة أقنعة . ثم غابت قليلاً ، وجاءت بصرّة وضعتها في يدي ، وقالت لي :

« لو أن أباك عاش ، لما اختار لك غير ما اخترته لنفسك . افعل ما تشاء . سافر . أو ابقَ ، انت وشأنك . انها حياتك ، وأنت حر فيها. في هذه الصرة ما تستعين به». كان ذلك وداعنا . لا دموع ولا قبل ولا ضوضاء . مخلوقان سارا شطراً من الطريق معاً ، ثم سلك كل منهما سبيله . وكان ذلك في الواقع آخر ما قالته لي ، فإنني لم أرها بعد ذلك . بعد سنوات طويلة ، وتجارب عدة ، تذكرت تلك اللحظة ، وبكيت . أما الآن ، فإنني لم أشعر بشيء على الإطلاق . جمعت متاعي في حقيبة صغيرة ، وركبت القطار . لم يلوّح لي أحد بيده ولم تنهمر دموعي لفراق أحد.

وضرب القطار في الصحراء ، ففكرت قليلاً في البلد الذي خلفته ورائي ، فكان مثل جبـــل ضربت خيمتي عنده ، وفي الصباح قلعت الأوتاد وأسرجت بعيري ، وواصلت رحلتي . وفكرت في القاهرة ونحن في وادي حلفا ، فتخيلها عقلي جبلاً آخر ، أكبر حجما ، سأبيت عنده ليلة أو ليلتين ، ثم أواصل الرحلة إلى غاية أخرى .

أذكر أنني جلست في القطار قبالة رجل في مسوح وعلى رقبته صليب كبير أصفر . ابتسم الرجل في وجهي وتحدث معي باللغة الانـكليزية ، فأجبته . أذكر تماماً أن الدهشة بدت على وجهه واتسعت حدقتا عينيه أول ما سمع صوتي . دقق النظر في وجهي وقال لي : « كم سنك؟ » فقلت له خمسة عشر. كنت في الواقع في الثانية عشرة، لكنني خفت أن يستخف بي. فقال الرجل : « إلى أين تقصد ؟ » فقلت له : « إنني ذاهب للالتحاق بمدرسة ثانوية في القاهرة » . فقال : « وحدك ؟ » قلت نعم . نظر إلي مرة أخرى نظرة طويلة فاحصة ، فقلت له قبل أن يتكلم : « إنني أحب السفر وحدي . مم أخاف؟» حينئذ قال لي جملة لم أحفل بهـا كثيراً وقتذاك . وأضاءت وجهه ابتسامة كبيرة وأردف : «إنك تتحدث اللغة الانـكليزية بطلاقة مذهلة » .

وصلت القاهرة ، فوجدت مستر روبنسن وزوجتـــه في انتظاري ، فقد أخبرهما مستر ستكول بقدومي . صافحني

الرجل وقال لي : « كيف أنت يا مستر سعيد ؟ » فقلت له : « أنا بخير يا مستر روبنسن ». ثم قدمني إلى زوجته . وفجأة أحسست بذراعي المرأة تطوقانني ، وبشفتيها على خدي . في تلك اللحظة ، وأنا واقف على رصيف المحطـــة ، وسط دوامة من الأصوات والأحاسيس ، وزندا المرأة ملتفان حول عنقي ، وفمها على خدي ، ورائحة جسمها ، رائحة أوروبيــة غريبة ، تدغدغ أنفي ، وصدرها يلامس صدري ، شعرت وأنا الصبي ابن الاثني عشر عاماً بشهوة جنسية مبهمة لم أعرفها من قبل في حياتي ، وأحسست كأن القاهرة ، ذلك الجبـل الكبير الذي حملني اليه بعيري ، امرأة أوروبية ، مثل مسز روبنسن تماماً ، تطوقني ذراعاها ، يمـــلأ عطرها ورائحة جسدها أنفي . كان لون عينيها كلون القاهرة في ذهني ، رمادياً ، أخضر ، يتحول بالليل إلى وميض كوميض اليراعة.

كانت مسز روبنسن تقـــول لي : « أنت يا مستر سعيد إنسان خال تماماً من المرح » . صحيح انني لم أكن أضحك . وتضحك مسز روبنسن وتقول لي : « ألا تستطيع أن تنسى عقلك أبداً ؟»ويوم حكموا عليّ في الأولد بيلي بالسجن سبع سنوات ، لم أجد صدراً غير صدرها أسند رأسي اليه . ربتت على رأسي وقالت : « لا تبك يا طفلي العزيز » . لم يكن لهما أطفال . كان مستر روبنسن يحسن اللغـــة العربية ، ويعنى بالفكر الإسلامي والعمارة الإسلامية ، فزرت معهما جوامع القاهرة ، ومتاحفها وآثارها . وكانت أحب مناطق القاهرة

اليها ، منطقة الأزهر . كنا حين تكل أقدامنا من الطواف ، نلوذ بمقهى بجوار جامع الأزهر ، ونشرب عصير التمر هندي ، ويقرأ مستر روبنسن شعر المعري . كنت وقتهـا مشغولاً بنفسي ، فلم أحفل بالحب الذي أسبغـاه علي . كانت مسز روبنسن ممتلئة الجسم ، برونزية اللون ، منسجمة مع القاهرة ، كأنها صورة منتقاة بذوق ، لتناسب لون الجدران في غرفة . وكنت أنظر إلى شعر ابطيها وأحس بالذعر .. لعلها كانت تعلم أنني أشتهيها، لكنها كانت عذبة ، أعذب امرأة عرفتها. تضحك بمرح ، وتحنو علي كما تحنو أم على إبنها .

وكانا على الرصيف حين أقلعت بي الباخرة من الاسكندرية. ورأيتها من بعيد وهي تلوح لي بمنديلها ، ثم تجفف به الدمع من عينيها ، وإلى جوارها زوجها ، واضعاً يديه على خصره ، وأكاد أرى ، حتى من ذلـك البعد ، صفاء عينيـه الزرقاوين . إلا أنني لم أكن حزيناً ، كان كل همي أن أصل لندن ، جبلاً آخر أكبر من القاهرة ، لا أدري كم ليلة أمكث عنده . كنت في الخامسة عشرة ، يظنني من يراني في العشرين ، متماسكا على نفسي ، كأنني قربة منفوخة . ورائي قصة نجاح فذ في المدرسة ، كل سلاحي هـذه المدية الحادة في جمجمتي ، وفي صدري إحساس بارد جامد ، كأن جوف صدري مصبوب بالصخر ولما ابتلعت اللجـة الساحل ، وهاج الموج تحت السفينة ، وإستدار الأفـق الأزرق حوالينا ، أحسست تواً

بألفة غامرة للبحر. انني أعرف هذا العملاق الأخضر اللامنتهي، كأنه يمور بين ضلوعي. واستمرأت طيلة الرحلة ذلك الاحساس في أني في لا مكان، وحدي، أمامي وخلفي الأبد أو لاشيء وصفحة البحر حين يهدأ سراب آخر، دائم التبدل والتحول، مثل القناع الذي على وجه أمي. هنا أيضاً صحراء مخضرة مزرقة ممتدة، تناديني، تناديني. وقادني النداء الغريب إلى ساحل دوفر، وإلى لندن، وإلى المأساة. لقد سلكت ذلك الطريق بعد ذلك عائداً وكنت أسائل نفسي طوال الرحلة، هل كان من الممكن تلافي شيء مما وقع؟ وتر القوس مشدود، ولا بد أن ينطلق السهم. وأنظر إلى اليسار واليمين، إلى الخضرة الداكنة، والقرى السكسونية القائمة على حوافي التلال. سقوف البيوت حمراء، محدودبة كظهور البقر، وثمة غلالة شفافة من الضباب، منشورة فوق الوديان. ما أكثر الماء هنا وما أرحب الخضرة. وكل تلك الألوان. ورائحة المكان غريبة، كرائحة جسد مسز روبنسن. والأصوات لها وقع نظيف في أذني، مثل حفيف أجنحة الطير. هذا عالم منظم، بيوته وحقوله وأشجاره مرسومة وفقاً لخطة. الغدران كذلك، لا تتعرج، بل تسيل بين شطآن صناعية. ويقف القطار في المحطة، بضع دقائق. يخرج الناس مسرعين، ويدخلون مسرعين، ثم يتحرك القطار. لا ضوضاء. وفكرت في حياتي في القاهرة. لم يحدث شيء ليس في الحسبان. زادت معلوماتي. وحدثت لي أحداث صغيرة، وأحبتني زميلة لي ثم كرهتني

وقالت لي : « أنت لست انساناً . أنت آلة صماء ».تسكعت في شوارع القـــاهرة ، وزرت الأوبرا ، ودخلت المسرح ، وقطعت النيل سابحاً ذات مرة . لم يحدث شيء اطلاقاً، سوى أن القربة زادت انتفاخاً ، وتوتر وتر القوس . سينطلق السهم نحو آفاق أخرى مجهولة . وانظر إلى دخان القطار ، يتلاشى، حيث تهب به الريح ، في غلالة الضباب المنتشرة في الوديان . وأخذتني سنة من النوم . وحلمت أنني أصلي وحدي في جامع القلعة . كان المسجد مضـــاء بآلاف الشمعدانات ، والرخام الأحمر يتوهج ، وأنا وحـدي أصلي . واستيقظت وفي أنفي رائحة البخور ، فاذا القطار يقترب من لندن . القاهرة مدينة ضاحكة ، وكذلك مسز روبنسن . كانت تريدني أن أناديها باسمها الأول ، اليزابيت ، لكنني كنت أناديها باسم زوجها . تعلمت منها حب موسيقى باخ ، وشعر كيتس ، وسمعت عن مارك توين لأول مرة منها . لكني لم أكن أستمتع بشيء . وتضحك مسز روبنسن وتقول لي : « ألا تستطيع أن تنسى عقلك أبداً ؟ » هل كان من الممكن تلافي شيء مما حـدث ؟ كنت عائداً حينذاك وتذكرت ما قاله لي القسيس ، وأنا في طريقي إلى القاهرة : « كلنا يا بني نسافر وحدنا في نهـــاية الأمر » . كانت يده تتحسس الصليب على صدره . وأضاءت وجهه ابتسامة كبيرة وأردف : « انك تتحدث اللغة الانكليزية بطلاقة مذهلة » . اللغة التي أسمعها الآن ليست كاللغة الـــتي تعلمتها في المدرسة . هذه أصوات حية ، لهـا جرس آخر .

كان عقلي كأنه مدية حادة . لكن اللغة ليست لغتي . تعلمت فصاحتها بالممارسة . وحملني القطار إلى محطة فكتوريا ، وإلى عالم جين مورس .

كل شيء حدث قبل لقائي إياها ، كان ارهاصاً . وكل شيء فعلته بعد أن قتلتها كان اعتذاراً ، لا لقتلها ، بل لاكذوبة حياتي . كنت في الخامسة والعشرين حين لقيتها ، وفي حفل في تشلسي . الباب ، وممر طويل يؤدي الى القاعة . فتحت الباب ، وتريثت ، وبدت لعيني تحت ضوء المصباح الباهت كأنها سراب لمع في صحراء . كنت مخموراً ، كأسي بقي ثلثها ، وحولي فتاتان ، أتفحش معهما ، وتضحكان . وجاءت تسعى نحونا بخطوات واسعة ، تضع ثقل جسمها على قدمها اليمنى ، فيميل كفلها الى اليسار . وكانت تنظر الي وهي قادمة .وقفت قبالتي ونظرت الي بصلف وبرود..وشيء آخر . وفتحت فمي لاتكلم، لكنها ذهبت . وقلت لصاحبتي « من هذه الانثى ؟ » .

كانت لندن خارجة من الحرب ومن وطأة العهد الفكتوري. عرفت حانات تشلسي ، وأندية هامبستد ، ومنتديات بلومزبري . اقرأ الشعر ، واتحدث في الدين والفلسفة ،وانقد الرسم ، واقول كلاماً عن روحانيات الشرق . أفعل كل شيء حتى أدخل المرأة في فراشي. ثم أسير الى صيد آخر . لم يكن في نفسي قطرة من المرح ، كما قالت مسز روبنسن . جلبت

النساء الى فراشي من بين فتيات جيش الخلاص ، وجمعيات الكويكرز ، ومجتمعات الفابيانيين . حين يجتمع حزب الاحرار او العمال او المحافظين أو الشيوعيين ، أسرج بعيري واذهب . وفي المرة الثانية ، قالت لي جين مورس : « أنت بشع . لم أر في حياتي وجهاً بشعاً كوجهك » . وفتحت فمي لأتكلم لكنها ذهبت . وحلفت في تلك اللحظة، وأنا سكران انني سأتقاضاها الثمن في يوم من الايام . وصحوت وآن همند الى جواري في الفراش . أي شيء جذب آن همند اليّ ؟ابوها ضابط في سلاح المهندسين ، وامها من العوائل الثرية في لفربول كانت صيداً سهلاً ، لقيتها وهي دون العشرين ، تدرس اللغات الشرقية في اكسفورد . كانت حية ، وجهها ذكي مرح وعيناها تبرقان بحب الاستطلاع . رأتني فرأت شفقاً داكناً كفجر كاذب . كانت عكسي تحن الى مناخات استوائية ، وشموس قاسية ، وآفاق أرجوانية . كنت في عينها رمزاً لكل هذا الحنين . وأنا جنوب يحن الى الشمال والصقيع . آن همند قضت طفولتها في مدرسة راهبات . عمتها زوجة نائب في البرلمان . حولتها في فراشي الى عاهرة . غرفة نومي مقبرة تطل على حديقة ، ستائرها وردية منتقاة بعناية ، وسجاد سندسي دافيء والسرير رحب مخداته من ريش النعام . وأضواء كهربائية صغيرة ، حمراء ، وزرقاء ، وبنفسجية ، موضوعة في زوايا معينة . وعلى الجدران مرايا كبيرة ، حتى اذا ضاجعت امرأة ، بدا كأنني اضاجع حريماً كاملاً في آن واحد . تعبق

في الغرفة رائحة الصندل المحروق والند ، وفي الحمـام عطور شرقية نفاذة ، وعقاقير كيماوية ، ودهون ، ومساحيق ، وحبوب . غرفة نومي كانت مثل غرفة عمليات في مستشفى. ثمة بركة ساكنة في اعماق كل امرأة . كنت أعرف كيف أحركها . وذات يوم وجدوها ميتة انتحاراً بالغاز ووجدوا ورقة صغيرة باسمي . ليس فيها سوى هذه العبارة : مستر سعيد . لعنة الله عليك » . كان عقلي كأنه مدية حادة.وحملني القطار الى محطة فكتوريا . والى عالم جين مورس

في قاعة المحكمة الكبرى في لندن ، جلست أسابيع أستمع إلى المحامين يتحدثون عني ، كأنهم يتحدثون عن شخص لا يهمني أمره . كان المدعي العمومي سير آرثر هغنز عقـل مريع ، أعرفه تمام المعرفة ، علمني القانون في أكسفورد ، ورأيته من قبل ، في هذه المحكمة نفسها وفي هـذه القاعة ، يعتصر المتهمين في قفص الاتهام اعتصارا . نادراً ما كان يفلت متهم من يده . ورأيت متهمين يبكون ويغمى عليهم، بعد أن يفرغ من استجوابهم . لكنه هذه المرة كان يصارع جثة .

« هل تسببت في انتحار آن همند ؟ »

« لا أدري »

« وشيلا غرينود ؟ »

« لا أدري »

« وإيزابيلا سيمور ؟ »

« لا أدري »

« هل قتلت جين مورس ؟ »

« نعم »

« قتلتها عمدا ؟ »

« نعم »

كان صوته كأنما يصلني من عالم آخر . ومضى الرجل يرسم بحذق صورة مريعة لرجل ذئب ، تسبب في انتحار فتاتين ، وحطم امرأة متزوجـــة ، وقتل زوجته ، رجل أناني ، انصبت حياته كلها على طلب اللذة . ومـــرة خطر لي في غيبوبتي ، وأنا جالس هناك أستمع إلى أستاذي ، برفسور ماكسول فستر كين ، يحاول أن يخلصني من المشنقة ، أن أقف وأصرخ في المحكمة : « هذا المصطفى سعيد لا وجود له . انه وهم ، أكذوبة . وانني أطلب منكم أن تحكموا بقتل الأكذوبة » . لكنني كنت هامداً مثل كومة رمـــاد . ومضى برفسور ماكسول فستر كين يرسم صورة لعقل عبقري دفعته الظروف إلى القتل ، في لحظة غيرة وجنون . روى لهم كيف انني عينت محاضراً للاقتصاد في جامعة لندن ، وأنا في الرابعة والعشرين . قال لهم أن « آن همند » و « شيلا غرينود » كانتـــا فتاتين تبحثان عن الموت بكل سبيل ، وانهما كانتا ستنتحران سواء قابلتا مصطفى سعيد أو لم تقابلاه . « مصطفى سعيد يا حضرات المحلفين إنسان نبيل ، استوعب عقله حضارة الغرب ، لكنها حطمت قلبه . هاتان الفتاتان لم يقتلهما مصطفى سعيد ولكن قتلهما جرثوم مرض

عضال أصابها منذ ألف عام » . وخطر لي أن أقف وأقول لهم : « هذا زور وتلفيق . قتلتها أنا . أنا صحراء الظمأ . أنا لست عطيلا . أنا أكذوبة . لماذا لا تحكمون بشنقي فتقتلون الأكذوبة ! » لكن برفسور فستر كين حوّل المحاكمة إلى صراع بين عالمين ، كنت أنا إحدى ضحاياه . وحملني القطار إلى محطة فكتوريا ، وإلى عالم جين مورس .

لبثت أطاردها ثلاثة أعوام . كل يوم يزداد وتر القوس توتراً ، قربي مملوءة هواء ، وقوافلي ظمأى ، والسراب يلمع أمامي في متاهة الشوق ، وقد تحدد مرمى السهم ، ولا مفر من وقوع المأساة . وذات يوم قالت لي : « أنت ثور همجي لا يكل من الطراد . إنني تعبت من مطاردتك لي ، ومن جريي أمامك . تزوجني » . وتزوجتها . غرفة نومي صارت ساحة حرب . فراشي كان قطعة من الجحيم . أمسكها فكأنني أمسك سحابا ، كأنني أضاجع شهابا ، كأنني أمتطي صهوة نشيد عسكري بروسي . وتفتأ تلك الابتسامة المريرة على فمها . أقضي الليل ساهراً ، أخوض المعركة بالقوس والسيف والرمح والنشاب ، وفي الصباح أرى الابتسامة ما فتئت على حالها ، فاعلم انني خسرت الحرب مرة أخرى . كأنني شهريار رقيق ، تشتريه في السوق بدينار ، صادف شهرزاد متسولة في أنقاض مدينة قتلها الطاعون . كنت أعيش مع نظريات كينز وتوني بالنهار ، وبالليل أواصل الحرب بالقوس والسيف والرمح والنشاب . رأيت الجنود يعودون ، يملؤهم

الذعر ، من حرب الخنادق والقمل والوباء . رأيتهم يزرعون بـذور الحرب القـادمة في معاهدة فرساي ، ورأيت لويـد جورج يضـع أسس دولـة الرفاهية العـامة . وانقلبت المدينة إلى امرأة عجيبة ، لهـا رموز ونداءات غامضة ، ضربت اليها أكباد الابل ، وكاد يقتلني في طلابها الشوق ، غرفة نومي ينبوع حـزن ، جرثوم مرض فتاك . العدوى أصابتهن منذ ألف عام ، لكنني هيجت كوامن الداء حتى استفحل وقتل . وكان المغنون يرددون أهازيج الحب الحقيقي والمرح في مسارح لستر سكوير ، فلم يخفق لها قلبي . من كان يظن أن شيلا غرينود تقدم على الانتحار ؟ خادمة في مطعم في سوهو . بسيطة حلوة المبسم ، حلوة الحديث . أهلهـا قرويون من ضواحي هل . أغريتها بالهدايا والكلام المعسول ، والنظرة التي ترى الشيء فـلا تخطئه . جذبها عالمي الجديد عليها . دوختها رائحة الصندل المحروق والند ، ووقفت وقتاً تضحك لخيالها في المرآة ، وتعبث بعقد العاج الذي وضعته كانشوطة حول جيدها الجميـل . دخلت غرفة نومي بتولاً بكراً ، وخرجت منها تحمل جرثوم المرض في دمها . ماتت دون أن تنبس ببنت شفة . ذخيرتي من الأمثـال لا تنفد . ألبس لكل حالة لبوسها ، شنٍ يعرف متى يلاقي طبقه .

« أليس صحيحاً أنك في الفترة مـا بين أكتوبر ١٩٢٢ وفبراير ١٩٢٣ ، في هذه الفترة وحدها على سبيل المثال ، كنت تعيش مع خمس نساء في آن واحد ؟ » .

« بلى » .

« وانك كنت توهم كلاً منهن بالزواج ؟ »

« بلى » .

« وانك انتحلت إسماً مختلفاً مع كل منهن ؟ »

« بلى » .

« انك كنت حسن ، وتشارلز ، وأمين ، ومصطفى ، ورتشارد ؟ »

« بلى » .

« ومع ذلك كنت تكتب وتحاضر عن الاقتصاد المبني على الحب لا على الأرقام ؟ أليس صحيحاً انك أقمت شهرتك بدعوتك الانسانية في الاقتصاد ؟ »

« بلى » .

ثلاثون عاماً . كان شجر الصفصاف يبيض ويخضر ويصفر في الحدائق ، وطير الوقوق يغني للربيع كل عام . ثلاثون عاماً وقاعة البرت تغص كل ليلة بعشاق بيتهوفن وباخ ، والمطابع تخرج آلاف الكتب في الفن والفكر . مسرحيات برنارد شو تمثل في الرويال كورت والهيماركت . كانت ايدث ستول تغرد بالشعر ، ومسرح البرنس اف ويلز يفيض بالشباب والالق . البحر في مده وجزره في بورتمث وبرايتن ، ومنطقة البحيرات تزدهي عاماً بعد عام . الجزيرة مثل لحن عذب ، سعيد حزين ، في تحول سرابي مع تحول الفصول . ثلاثون عاماً

وأنا جزء من كل هذا ، أعيش فيه ، ولا أحس جماله الحقيقي، ولا يعنيني منه إلا ما يملأ فراشي كل ليلة .

نعم . في الصيف . قالوا ان صيفاً مثله لم يأتهم منذ مائة عام . وخرجت من داري يوم سبت اشمشم الهواء ، وأحس بانني مقبل على صيد عظيم . وصلت ركن الخطباء في حديقة هايد بارك . كان غاصاً بالخلق . وقفت عن بعد أستمع إلى خطيب من جزر الهند الغربية يتحدث عن مشكلة الملونين . استقرت عيني فجأة على امرأة تشرئب بعنقها لرؤية الخطيب، فيرتفع ثوبها إلى ما فوق الركبتين ، مظهراً ساقين ملتفتين من البرونز . نعم هذه فريسقي . وسرت اليها ، كالقارب يسير إلى الشلال . ووقفت وراءها ، والتصقت حتى أحسست بحرارتها تسري إلي . وشممت رائحة جسدها ، تلك الرائحة التي استقبلتني بها مسز روبنسون على رصيف محطة القاهرة . واقتربت منها حتى أحست بي، فالتفتت إلي فجأة، فابتسمت في وجهها ابتسامة لم أكن أعلم مصيرها ، لكنني عزمت على ألا تضيع هباء . وضحكت أيضاً ، حتى لا تنقلب الدهشة في وجهها إلى عداء فابتسمت . ووقفت إلى جانبها نحواً من ربع الساعة ، أضحك حين يضحكها قول الخطيب، وأضحك بصوت مرتفع لكي تسري فيهـــا عدوى الضحك ، حتى جاءت لحظة ، أحسست فيها انني وهي صرنا كفرس ومهرة، يركضان في تناسق ، جنباً إلى جنب . وهنا خرج الصوت من حلقي ، كأنه ليس صوتي : « مـــا رأيكِ في شراب ،

بعيداً عن هذا الزحام والحر ؟ » أدارت رأسها بدهشة ، فابتسمت هذه المرة ابتسامة عريضة بريئـــة ، حتى أحول الدهشة إلى حب استطلاع على الأقل . وفي أثناء ذلك تفرست في وجهها ، فوجدت كل سمة من سماته يزيدني اقتناعاً بأن هذه فريستي . كنت أعلم ، بطبيعة المقامر ، ان تلك اللحظة حاسمة . كل شيء في هذه اللحظة محتمل . وتحولت ابتسامتي إلى سرور كاد يفلت زمامه من يدي حين قالت : « نعم . ولم لا ؟ » وسرنا معاً ، أحس بها إلى جانبي وهجاً من البرونز تحت شمس يوليو ، أحس بهـــا مدينة من الأسرار والنعيم . وسرني انهـا تضحك بسهولة . هذه السيدة ، نوعها كثير في أوربا ، نساء لا يعرفن الخوف ، يقبلن على الحياة بمرح وحب استطلاع . وأنا صحراء الظمأ ، متاهة الرغائب الجنونية . وسألتني ونحن نشرب الشاي عن بلدي . رويت لها حكايات ملفقة عن صحاري ذهبية الرمال ، وأدغال تتصايح فيهـــا حيوانات لا وجود لهـا . قلت لها ان شوارع عاصمة بلادي تعج بالأفيال والأسود ، وتزحف عليها التماسيح عند القيلولة . وكانت تستمع إلي بين مصدقة ومكذبة . تضحك ، وتغمض عينيها ، وتحمر وجنتاها . وأحياناً تصغي إلي في صمت ، وفي عينيها عطف مسيحي . وجاءت لحظة أحسست فيهـا انني انقلبت في نظرها مخلوقاً بدائياً عاريـاً ، يمسك بيده رمحاً ، وبالأخرى نشاباً ، يصيد الفيلة والأسود في الأدغال . هذا حسن . لقد تحول حب الاستطلاع إلى مرح ، وتحول

المرح إلى عطف ، وحين أحرك البركة الساكنة في الأعماق ، سيستحيل العطف إلى رغبة أعزف على أوتارها المشدودة كما يحلو لي . وسألتني : « ما جنسك ؟ هـل أنت أفريقي أم أسيوي ؟ »

قلت لها : « أنا مثل عطيل . عربي أفريقي » .

نظرت إلى وجهي وقالت : « نعم . أنفك مثل أنوف العرب في الصور . لكن شعرك ليس فاحماً ناعماً مثل شعر العرب » .

« نعم . هذا أنا . وجهي عربي كصحراء الربع الخالي ، ورأسي أفريقي يمور بطفولة شريرة » .

ضحكت وقالت : «أنت تصور الأشياء بشكل غريب» .

وقادنا الحديث إلى أهلي ، فقلت لها ، غير كاذب هذه المرة ، انني يتيم وليس لي أهل . ثم عدت إلى الكذب ، فوصفت لها وصفاً مهولاً كيف فقدت والدي ، حتى رأيت الدمع يطفر إلى عينيها . قلت لها انني كنت في السادسة من عمري ، حين غرق والداي مع ثلاثين آخرين في مركب كان يعبر بهم النيل من شاطىء الى شاطىء . وهنا حدث شيء كان أفضل من الرثاء . الرثاء في مثل هذه الأمور عاطفة غـــير مضمونة العواقب . لمعت عيناها ، وصاحت في نشوة :

« نايل ؟ »

« نعم النيل » .

أنتم إذن تسكنون على ضفاف النيل ؟ »

« أجل ، بيتنا على ضفة النيل تماماً بحيث انني كنت ، إذا استيقظت على فراشي ليـــلاً ، أخرج يدي من النافذة وأداعب ماء النيل حتى يغلبني النوم » .

الطائر يا مستر مصطفى قد وقـــع في الشرك . النيل ، ذلك الإله الأفعى ، قد فاز بضحية جديدة . المدينة قـد تحولت إلى امرأة . وما هو إلاّ يوم أو أسبوع ، حتى أضرب خيمتي ، وأغرس وتدي في قمة الجبل . أنت يا سيدتي قـد لا تعلمـين ، ولكنك ، مثـل « كارنارفون » حين دخل قبر توت عنخ آمون ، قد أصابك داء فتاك لا تدرين من أين أتى ، سيودي بك إن عاجلاً وان آجلا . ذخيرتي من الأمثال لا تنفد . شنى يعرف متى يلاقي طبقه . وأحسست بزمام الحديث في يدي ، كفنان مهره مطواع ، اشده فتقف ، اهزه فتمشي ، احركه فتتحرك وفقاً لإرادتي ، إن يميناً وإن شمالا . وقلت لها :

« مضت ساعتان دون أن أحس بها . لم أحس بمثل هذه السعادة منذ زمن بعيد . وبقي كثيراً أقوله لك وتقولينه لي . ما رأيك في ان نتمشى معاً ، ونواصل الحديث ؟ »

صمتت برهة ، فلم أقلق ، لأنني احسست بذلك الدفء الشيطاني ، تحت الحجاب الحاجز حين احسه أعلم انني مسيطر على زمام الموقف . لا ، انها لن تقول لا . وقالت : « هـذا لقاء عجيب . رجل غريب لا اعرفه يدعوني . هذا لا يجوز ،

لكن .. » وصمتت ثم قالت :« نعم . لم لا ؟ هيئتك لا تدل على انك من آكلة لحوم البشر » .

قلت لهـا ، وموجة الفرح تتحرك في، جـذور قلبي : « ستجدين انني تمساح عجوز سقطت اسنانه . لن أقوى على أكلك حتى لو أردت » . قدرت انني اصغرها بخمسة عشر عاماً على الأقل ، امرأة في حدود الأربعين ، مهما حدثت لها من التجارب فإن الزمن قد عامل جسدها بحنو . التجـاعيد الدقيقة على جبهتها وعلى اركان فمها لا تقول لك انها شاخت ، بل تقول انها نضجت .

حينئذ فقط سألتها عن اسمها فقالت : « إيزابيلا سيمور».

رددته مرتين ، وأنا أملأ به فمي ، كأنني آكـل ثمرة كمثرى .

« وانت ما اسمك ؟ »

« أنا .. أمين . امين حسن » .

« سأسميك حسن » .

ومع الشواء والنبيذ ، انفرجت اساريرها ، وتدفق حب تحس به نحو العالم بأسره ، عليّ انا . وانا لا يعنيني حبهـا للعالم . ولا سحابة الحزن التي تعبر وجهها من آن لآن ، بقدر ما تعنيني حمرة لسانها حين تضحك ، واكتناز شفتيها ، والأسرار الكامنة في قاع فمها . وتخيلتها عارية ، وافحشت التخيل وهي تقول لي : « الحياة مليئة بالألم . لكن يجب علينا أن نتفاءل ، ونواجه الحياة بشجاعة » .

نعم أنا اعلم الآن ان الحكمة القريبة المنـال ، تخرج من افواه البسطاء ، هي كل املنا في الخـلاص . الشجرة تنمو ببساطة ، وجدك عاش وسيموت ببساطة . ذلك هو السر . صدقت يا سيدتي ، الشجاعة والتفاؤل . ولكن إلى ان يرث المستضعفون الأرض ، وتسرح الجيوش ، ويرعى الحمل آمناً بجوار الذئب ، ويلعب الصبي كرة الماء مع التمساح في النهر ، إلى ان يأتي زمان السعادة والحب هذا ، سأظل انا اعبر عن نفسي بهذه الطريقة الملتوية . وحين اصل لاهثاً قمة الجبل ، وأغرس البيرق ، ثم ألتقط أنفاسي وأستجم – تلك يا سيدتي نشوة اعظم عندي من الحب ، ومن السعادة . ولهذا ، فـأنا لا أنوي بك شراً ، إلا بقدر ما يكون البحر شريرا ، حين تتحطم السفن على صخوره ، وبقدر ما تكون الصاعقة شريرة حين تشق الشجرة نصفين . وتركزت الفكرة الأخيرة في رأسي ، بشعيرات على ذراعها الأيمن ، قريباً من الرسغ ، ولاحظت أن شعر ذراعيها أكثف مما هو عند النساء عادة ، وقادني هذا إلى شعر آخر . لا بد انه ناعم غزير مثل نبات السعدة على حافة الجدول . وكأنما سرت الفكرة من ذهني إليهـا ، فاعتدلت في جلستها وقالت : « مـا بالك تبدو حزيناً ؟ »

« هل أبدو حزيناً ؟ أنا على العكس ، سعيد جداً » .

وعادت النظرة الحانية إلى عينيها، ومدت يدها فأمسكت

يدي وقالت . « هل تدري أن أمي اسبانية ؟ »

« هذا إذن يفسر كل شيء . يفسر لقاءنا صدفة ، وتفاهمنا تلقائياً ، كأننا تعارفنا منذ قرون . لا بد أن جدي كان جندياً في جيش طارق ابن زياد . ولا بد أنه قابل جدتك ، وهي تجني العنب في بستان في أشبيلية . ولا بد أنه أحبها من أول نظرة ، وهي أيضاً أحبته . وعاش معها فترة ثم تركها وذهب إلى افريقيا . وهناك تزوج . وخرجت أنا من سلالته في أفريقيا ، وأنت جئت من سلالته في اسبانيا » .

هذا الكلام ، والضوء الخافت أيضاً والنبيذ ، أسعدها ، فقرقرت لهاتها بالضحك وقالت :

« يا لك من شيطان » .

وتخيلت برهة لقاء الجنود العرب لأسبانيا . مثلي في هذه اللحظة ، اجلس قبالة ايزابيلا سيمور ، ظمأ جنوني تبدد في شعاب التاريخ في الشمال . انما أنا لا أطلب المجد ، فمثلي لا يطلب المجد .

وأدرت مفتاح الباب بعد شهر من حمى الرغبة ، وهي إلى جانبي ، أندلس خصب ، وقدتها بعد ذلك عبر الممر القصير إلى غرفة النوم ، ولفحتها رائحة الصندل المحروق والند ، فملأت رئتيها بعبير لم تكن تعلم أنه عبير قاتل . كنت تلك الأيام ، حين تصبح القمة مني على مد الذراع ، يعتريني هدوء تراجيدي . كل الحمى والوجيب في القلب، والتوتر في العصب،

يتحـــول إلى هدوء جراح وهو يشق بطن المريض . وكنت أعلم أن الطريق القصير الذي سرناه معاً إلى غرفة النوم ، كان بالنسبة لها طريقاً مضيئاً ، يعبق بعبير التسامح والمحبة ، وكان بالنسبة لي الخطوة الأخيرة ، قبل الوصول إلى قمة الأنانية . وتريثت عند حافة الفراش ، كأنني الخص تلك اللحظة في ذهني ، وألقيت نظرة موضوعية على الستائر الوردية والمراءات الكبيرة ، والأضواء الحذرة في أركان الحجرة ، ثم على تمثال البرونز المكتمل التكوين أمامي . ونحن في قمة المـــأساة صرخت بصوت ضعيف : « لا . لا » . هذا لا يجديك نفعاً الآن . لقد ضاعت اللحظة الخطيرة حين كان بوسعك الامتناع عن إتخاذ الخطوة الأولى . انني أخذتك على غرة ، وكان بوسعك حينئذ أن تقولي « لا » . أما الآن فقـد جرفك تيار الأحداث ، كما يجرف كل انسان ، ولم يعد في مقدورك فعل شيء . لو أن كل انسان عرف متى يمتنع عن اتخـــاذ الخطوة الأولى ، لتغيرت أشياء كثيرة . هل الشمس شريرة حين تحيل قلوب ملايين البشر إلى صحاري تتعارك رمالها ويجف فيهـا حلق العندليب؟ وتريثت وأنا أمسح براحة يدي ظاهر عنقها، وأقبلها في منابع الإحساس . ومع كل لمسة ، مع كل قبلة ، أحس أن عضلة في جسدها ترتخي ، وتألق وجههـــا ولمعت عيناها ببريق خاطف ، واستطالت نظراتها كأنها تنظر إلي فتراني رمزاً ليس حقيقة . وسمعتها تقول لي بصوت متضرع مستسلم : « أحبك » ، فجاوب صوتها هتاف ضعيف في أعماق

وعيي يدعوني أن أقف . لكن القمة صارت على بعد خطوة ، وبعد ذلك التقط أنفاسي وأستجم . ونحن في قمة الألم عبرت برأسي سحائب ذكريات بعيدة قديمة كبخار يصعد من بحيرة مالحة وسط الصحراء . وانفجرت هي ببكاء ممض محرق ، واستسلمت أنا إلى نوم متوتر محموم .

- ٣ -

كانت ليلة قائظة من ليالي شهر يوليو ، وكان النيل قد فاض ذلك العام احد فيضاناته تلك ، التي تحدث مرة كل عشرين او ثلاثين سنة ، وتصبح اساطير يحدث بها الآباء ابناءهم . وغمر الماء اغلب الأرض الممتدة بين الشاطيء وطرف الصحراء حيث تقوم البيوت ، وبقيت الحقول كجزيرة وسط الماء . وكان الرجال يتنقلون بين البيوت والحقول في قوارب صغيرة ، أو يقطعون المسافة سباحة ، وكان مصطفى سعيد حسب علمي يجيد السباحة . حدثني أبي ، فقد كنت في الخرطوم وقتها ، انهم سمعوا بعد صلاة العشاء صراخ نسوة في الحي ، فهرعوا الى مصدر الصوت فاذا الصراخ في دارمصطفى سعيد . كان من عادته ان يعود من حقله مع مغيب الشمس ، ولكن زوجته انتظرت دون جدوى . وذهبت تسأل عنه هنا وهناك ، فاخبروها انهم رأوه في حقله والبعض ظن انه عاد الى بيته مع بقية الرجال . وانكبت البلد كلها على الشاطيء. الرجال في ايديهم المصابيح وبعضهم في القوارب . وظلوا

يبحثون الليل كله دون جدوى . وارسلوا اشارات تليفونية الى مركز البوليس على امتداد النيل حتى كرمه.ولكن الجثث التي حملها الموج الى الشاطيء ذلك الاسبوع لم تكن بينها جثة مصطفى سعيد . وفي النهاية اخلدوا الى الرأي انه لا بد قد مات غرقاً ، وان جثمانه قد استقر في بطون التماسيح التي يغص بها الماء في تلك المنطقة .

أما أنا ، فانه يخامرني ذلك الاحساس الذي اعتراني ليلة سمعته ، فجأة وعلى غير استعداد مني ، يقرأ شعراً انكليزياً ، وهو ممسك كأس الخمر بيده ، دافناً قامته في الكرسي ، ممدداً رجليه ، ضوء المصباح ينعكس على وجهه ، وعيناه سارحتان كما خيل لي في آفاق داخل نفسه . والظلام حولنا في الخارج كأنه قوى شيطانية تتضافر على خنق ضوء المصباح . احياناً تخطر لي فجأة تلك الفكرة المزعجة ان مصطفى سعيد لم يحدث اطلاقاً ، وانه فعلا اكذوبة ، أو طيف أو حلم ، أو كابوس ألم بأهل القرية تلك ، ذات ليلة داكنة خانقة ، ولما فتحوا اعينهم مع ضوء الشمس لم يروه .

كان الليل قد بقي اقله حين قمت من عند مصطفى سعيد، وخرجت وأنا أشعر بالتعب – ربما من طول الجلوس – ومع ذلك لم أكن أرغب في النوم ، فمضيت اتسكع في شوارع البلد الضيقة المتعرجة ، تلامس وجهي نسمات الليل الباردة التي تهب من الشمال محملة بالندى، محملة برائحة زهور الطلح وروث البهائم، ورائحة الأرض التي رويت لتوها بالماء بعد ظمأ ايام ،ورائحة

قناديل الذرة في منتصف نضجها ، وعبير اشجار الليمون ، كان البلد كعادته صامتاً في تلك الساعة من الليـــل ، الا من طقطقة مكنة الماء على الشاطيء ونباح كلب من حين لآخر ، وصياح ديك منفرد احس بالفجر قبل الاوان ، يحاربه صياح ديك آخر ، ثم يخيم الصمت . ومررت ببيت ود الريس الوطيء عند منعطف الدرب،فرأيت من الطاقة الصغيرة ضوءاً خافتاً،وسمعت زوجة ود الريس تصرخ باللذة.واحسست بالخجل لانني اطلعت على أمر لم يكن من حقي ان أطلع عليه.لم يكن يحق لي ان اظل يقظاً اتسكع في شوارع البلد،وبقية الناس في أسرتهم،انني اعرفهذه القرية شارعاًشارعاً،وبيتاً بيتا،واعرف أيضاً القباب العشر وسط المقبرة في طرف الصحراء اعلى البلد. والقبورايضاً،اعرفها واحداً واحدا،زرتها مع ابيوزرتهامعامي وزرتها مع جدي ، وأعرف ساكنيها الذين ماتوا قبل أن يولد أبي والذين ماتوا بعد ولادتي . وقد شيعت مع المشيعين منم أكثر من مائة ، أساعد في حفر التربة ، واقف على حافة القبر في زحام الناس ريثما يوسد الميت بحجارته ، واهيل التراب . فعلت ذلك مع أهل البلد في الصباح ، وفي حمارة القيظ أشهر الصيف ، وبالليل في أيدينا المصابيح . والحقول أيضاً أعرفها ، منذ كانت سواقي ، وأيام القحط حين هجرها الرجال وتحولت الأرض الخصبة أرضاً بلقعاً تسفوها الريح . ثم جاءت مكنات الماء وجاءت الجمعيات التعاونية ، وعاد من نزح من الرجال ، وعادت الأرض كما كانت ، تنتج الذرة في الصيف والقمح في

الشتاء . كل هذا رأيته منذ فتحت عيني على الحياة ، ولكنني أبداً لم أرَ القرية في مثل هذه الساعة في أواخر الليل . لا بد ان تلك النجمة الكبيرة الزرقاء المتوهجة هي نجمة الصباح. السماء تبدو أقرب إلى الأرض في مثل هذه الساعة ، قبيل الفجر ، والبلد يلفها ضوء باهت يجعلها كأنها معلقة بين السماء والأرض. وتذكرت وأنا أعبر رقعة الرمل التي تفصل بين بيت ودالريس وبيت جدي ، تلك الصورة التي رسمها مصطفى سعيد ، تذكرتها بنفس إحساس الخجل الذي اعتراني حين سمعت مناغاة ود الريس مع زوجته . فخذان بيضاوان مفتوحتان . ووصلت عند بيت جدي فسمعته يتلو أوراده استعداداً لصلاة الصبح . ألا ينام أبداً ؟ صوت جدي يصلي ، كان آخر صوت أسمعه قبل أن أنام وأول صوت أسمعه حين أستيقظ . وهو على هذه الحال لا أدري كم من السنين كأنه شيء ثابت وسط عالم متحرك وأحسست فجأة بروحي تنتعش كما يحدث أحياناً أثر إرهاق طويل ، وصفا ذهني ، وتبخرت الأفكار السوداء التي أثارها حديث مصطفى سعيد . البلد الآن ليس معلقاً بين السماء والأرض ، ولكنه ثابت ، البيوت ثابتة ؟ والشجر ، شجر ، والسماء صافية ولكنها بعيدة . هل كان من المحتمل أن يحدث لي ما حدث لمصطفى سعيد ؟ قال انه أكذوبة؟فهل أنا أيضاً اكذوبة؟انني من هنا.أليست هذه حقيقة كافية؟لقدعشت أيضاًمعهم،ولكنني عشت معهم على السطح، لا أحبهم ولا أكرههم. كنت أطوي ضلوعي على هذه القرية الصغيرة،

أراها بعين خيالي اينما التفت . أحياناً في أشهر الصيف في لندن ، أو هطلة مطر ، كنت أشم رائحتها . في لحظات خاطفة قبيـــل مغيب الشمس ، كنت أراها . في أخريات الليل ، كانت الأصوات الأجنبية تصل إلى أذني كأنها أصوات أهلي هنا . أنا ، لا بد ، من هذه الطيور التي لا تعيش إلا في بقعة واحدة من العالم . صحيح انني درست الشعر ، بيد أن هذا لا يعني شيئاً . كان من الممكن أن أدرس الهندسة أو الزراعة أو الطب . كلهـا وسائل لكسب العيش . الوجوه هناك ، كنت أتخيلها ، قمحية أو سوداء ، فتبدو وجوهاً لقوم أعرفهم . هناك مثل هنـا ، ليس أحسن ولا أسوأ . ولكنني من هنا ، كما أن النخلة القائمة في فناء دارنا ، نبتت في دارنا ولم تنبت في دار غيرها . وكونهم جاءوا إلى ديارنا ، لا أدري لماذا ، هل معنى ذلك اننا نسمم حاضرنا ومستقبلنا انهم سيخرجون من بلادنا ان عاجلاً أو آجلاً ، كما خرج قوم كثيرون عبر التاريخ من بـــلاد كثيرة . سكك الحديد ، والبواخر ، والمستشفيات والمصانع ، والمدارس ، ستكون لنا ، وسنتحدث لغتهم ، دون إحساس بالذنب ولا إحساس بالجميل . سنكون كما نحن ، قوم عاديون ، وإذا كنا أكاذيب، فنحن أكاذيب من صنع أنفسنا .

مثل هذه الأفكار أوصلتني إلى فراشي ، وصاحبتني بعد ذلك إلى الخرطوم حيث تسلمت عملي في مصلحة المعارف . مات مصطفى سعيد منذ عامين ولكنني ما أفتأ أقابله من حين

لآخر . لقد عشت خمسة وعشرين عاماً ، وأنا لم أسمع به ولم أره . ثم ، هكذا فجأة أجده في مكان لا يوجد فيه أمثاله . وإذا بمصطفى سعيد ، رغم ارادتي ، جزء من عالمي ، فكرة في ذهني ، طيف لا يريــد أن يمضي في حال سبيله . وإذا إحساس بعيد بالخوف ، بأنه من الجائز الا تكون البساطة هي كل شيء . مصطفى سعيد قـــال ان جدي يعرف السر . الشجرة تنمو ببساطة ، وجدك عاش وسيموت ببساطة . هكذا . لكن هب انه كان يسخر من بساطتي ؟ في رحلة بالقطار بين الخرطوم والأبيض ، كان معي في نفس القمرة موظف متقاعد . حين تحرك القطار من كوستي كان الحديث قد وصل بنــا إلى أيام دراسته . وعلمت منه ان عدداً من رؤسائي في وزارة المعارف كانوا معاصريــه في المدرسة ، وبعضهم كان يزامله في نفس الفصل . ومضى الرجل يذكر ان فلاناً في وزارة الزراعة كان زميله ، والمهندس فلاناً كان في الفصل الذي أمامه ، وفلاناً، التاجر الذي اغتنى أيام الحرب، كان من أبلد خلق الله في فصلهم ، والجراح الشهير فلاناً كان أحسن جناح أيمن في المدرسة كلها أيامهم . وفجأة رأيت وجه الرجل يضيء ، وعينيه تلمعان ، وقال في صوت متحمس منفعل : « غريبة . تصور انني نسيت أنبغ تلميذ في فصلنا ، ولم يخطر على بالي منذ ترك المدرسة . الآن فقط تذكرته . نعم ، مصطفى سعيد » .

مرة أخرى ذلك الإحساس ، بأن الأشياء العادية أمام

عينيك تصبح غير عادية . رأيت نافذة القمرة وبابها يلتقيان ، وخيل لي أن الضوء المنعكس على نظارة الرجل ، في لحظة لا تزيد عن طرفة العين ، يتوهج توهجاً خاطفاً كأنه شمس في رابعة النهار . ولا بد ان الدنيا في تلك اللحظة بدت مختلفة بالنسبة للمأمور المتقاعد أيضاً ، إذ أن تجربة كاملة كانت خارج وعيه أصبحت فجأة في متناول اليد. حين رأيت وجهه أول مرة ، قدرت انه في منتصف الستين . وأنظر اليه الآن وهو يستطرد في سرد ذكرياته البعيدة ، فأرى رجلاً لا يزيد يوماً واحداً عن الأربعين .

« نعم ، مصطفى سعيد كان أنبغ تلميذ في أيامنا . كنا في فصل واحد . كان يجلس في الصف الذي أمـــام صفنا مباشرة . ناحية اليسار . يا للغرابة ، كيف لم يخطر على بالي قبل الآن مع انه كان معجزة في ذلك الوقت ؟ كان أشهر طالب في كلية غردون ، أشهر من أعضاء التيم لكرة القدم ، ورؤساء الداخليات ، والخطباء في الليالي الأدبية ، والكتاب في جرائد الحائط ، والممثلين الذائعي الصيت في فرق الدراما. لم يكن له نشاط من هذا القبيل إطلاقاً. كان منعزلاً ومتعالياً، يقضي أوقات فراغه وحده ، إمـــا في القراءة أو في المشي مسافات طويلة . كنا جميعاً داخليين تلك الأيام ، في كلية غردون حتى أبناء العاصمة المثلثة . كان نابغة في كل شيء ، لم يوجد شيء يستعصي على ذهنه العجيب . كان المدرسون يكلموننا بلهجة ويكلمونه هو بلهجة أخرى . خصوصاً مدرسو

اللغة الانجليزية ، كانوا كأنما يلقون الدرس له وحده دون بقية التلاميذ . »

وصمت الرجل برهة ، فأحسست برغبة شديدة أن أقول انــني أعرف مصطفى سعيد ، وإن الظروف ألقت بي في طريقه ، فقص علي ، ذات ليلة مظلمة قائظة ، قصة حياته ، وإنه قضى آخر أيامه في قرية مغمورة الذكر عند منحنى النيل ، وإنه مات غرقاً ، وربما انتحاراً ، وجعلني أنا دون سائر الناس وصياً على ولديه . لكنني لم أقل شيئاً، إنما المأمور المتقاعد هو الذي استطرد :

قطع مصطفى سعيد مرحلة التعلم في السودان قفزاً — كان بالفعل كأنه يسابق الزمن.وبينما ظللنا نحن بعده في كلية غردون، ارسل هو في بعثة الى القاهرة وبعدها الى لندن . كان اول سوداني يرسل في بعثة الى الخارج . كان ابن الانــكليز المدلل . وكنا جميعاً نحسده ، ونتوقع ان يصير له شأن عظيم . نحن كنا ننطق الكلمات الانــكليزية كأنها كلمات عربية . لا نستطيع ان نسـكن حرفين متتاليين . أما مصطفى سعيد فقد كان يعوج فمه ، ويمط شفتيه ، وتخرج الكلمات من فمه كما تخرج من أفواه أهلها . كان ذلك يملؤنا غيظاً واعجاباً في الوقت نفسه . وكنا نطلق عليه ، بخليط من الاعجاب والحقد « الانــكليزي الأسود » . وعلى ايامنا ، كانت اللغة الانــكليزية هي مفتاح المستقبل — لا تقوم لأحد قائمة بدونها . كلية غردون كانت مدرسة ابتدائية . كانوا يعطوننا من العلم ما يكفي فقط لملء

الوظائف الحكومية الصغرى – أول ما تخرجت ، اشتغلت محاسباً في مركز الفاشر . وبعد جهد جهيد قبلوا أن اجلس لامتحان الادارة . وقضيت ثلاثين عاماً نائب مأمور .تصور. وقبل أن احال على المعاش بعامين اثنين فقط رقيت مأموراً . كان مفتش المركز الانكليزي الهاً يتصرف في رقعة اكبر من الجزر البريطانية كلها ، يسكن في قصر طويل عريض مملوء بالخدم ومحاط بالجند . وكانوا يتصرفون كالآلهة . يسخروننا نحن الموظفين الصغار أولاد البلد لجلب العوائد ، ويتذمرالناس منا ويشكون الى المفتش الانكليزي . وكان المفتش الانكليزي طبعاً هو الذي يغفر ويرحم . هكذا غرسوا في قلوب الناس بغضنا ، نحن أبناء البلد ، وحبهم هم المستعمرون الدخلاء . وتأكد من كلامي هذا يا بني . ألم تستقل البـــلد الآن ؟ ألم نصبح احراراً في بلادنا ؟ تأكد انهم احتضنوا أرذال الناس . ارذال الناس هم الذين تبوأوا المراكز الضخمة ايام الانكليز . كنا واثقين ان مصطفى سعيد سيصير له شأن يذكر . كان ابوه من العبابدة ، القبيلة التي تعيش بين مصر والسودان. انهم الذين هربوا سلاطين باشا من اسر الخليفة عبد الله التعايشي ، ثم بعد ذلك عملوا رواداً لجيش كتشنر حين استعاد فتح السودان . ويقال ان امه كانت رقيقا من الجنوب . من قبائل الزاندي أو الباريا ، الله أعلم . الناس الذين ليس لهم أصل ، هم الذين تبوأوا اعلى المراتب أيام الانكليز » .

وكان المأمور المتقاعد يغط في نوم مريح ، حين مر القطار

على خزان سنار ، الخزان الذي بناه الانكليز عام ١٩٢٦ ، متجهاً غرباً الى الأبيض ، على خط حديدي وحيد ، ممتد عبر الصحراء ، كأنه جسر من الحبال بين جبلين شرسين ، بينهما هوة سحيقة ليس لها قرار . مسكين مصطفى سعيد . كان مفروضاً أن يكون له شأن بمقاييس المفتشين والمآمير .ولكنه لم يجد حتى قبراً يريح جسده ، في هذا القطر الممتد مليون ميل مربع . وتذكرت ما قاله ان القاضي قبل ان يصدرعليه الحكم في الاولد بيلي قال له : « انك يا مستر مصطفى سعيد ، رغم تفوقك العلمي ، رجل غبي . ان في تكوينك الروحي بقعة مظلمة ، لذلك فانك قد بددت انبل طاقة يمنحها الله للناس : طاقة الحب » . وتذكرت أيضاً انني حين خرجت من بيت مصطفى سعيد تلك الليلة ، كان القمر الماحق قد ارتفع مقدار قامة الرجل في الافق الشرقي ، وانني قلت في نفسي أن القمر مقلم الاظافر . لا ادري لماذا خيل لي ان القمر مقلم الاظافر ؟ .

وفي الخرطوم ايضاً ، عرض لي طيف مصطفى سعيد ، بعد محادثتي مع المأمور المتقاعد باقل من شهر ، كأنه جن اطلق من سجنه ، سيظل بعد ذلك يوسوس في آذان البشر ، ليقول ماذا ؟ لا ادري . كنا في بيت شاب سوداني يحاضر في الجامعة ، كنا انا وهو زملاء دراسة في انكلترا . وكان بين الحاضرين رجل انكليزي يعمل في وزارة المالية . وصل بنا الحديث الى موضوع الزواج المختلط . وتحول الحديث من نقاش

عمومي الى كلام عن حالات محددة . ثم من هم المتزوجون من أوربيات؟ثم من انكليزيات؟من هو اول سوداني تزوج انكليزية؟ فلان ؟ لا.فلان ؟ لا . وفجأة...مصطفى سعيد. قالها الشاب الحاضر في الجامعة، وعلى وجهه احساس الفرح ذاته الذي لمحته على وجه المأمور المتقاعد .ومضى الشاب يقول،تحت سماء الخرطوم المرصعة بالنجوم في اوائل فصل الشتاء : « مصطفى سعيد كان اول سوداني تزوج انكليزية ، بل انه كان أول سوداني تزوج أوروبية اطلاقاً . أظن انكم لم تسمعوا به ، فقد نزح من زمن. تزوج في انكلترا وتجنس بالجنسية الانكليزية. غريب ان احداً هنا لا يذكره ، مع انه قام بدور خطير في مؤامرات الانكليز في السودان في اواخر الثلاثينات . انه من اخلص اعوانهم . وقد استخدمته وزارة الخارجية البريطانية في سفارات مريبة في الشرق الاوسط . وكان من سكرتيري المؤتمر الذي انعقد في لندن سنة ١٩٣٦ . أنه الآن مليونير ، ويعيش كاللوردات في الريف الانكليزي » .

« وسمعت نفسي أقول دون وعي ، بصوت مسموع : مصطفى سعيد ترك ، بعد موته ، ستة أفدنة ، وثلاث بقرات وثوراً ، وحمارين ، واحدى عشرة عنزا ، وخمس نعجات ، وثلاثين نخلة ، وثلاثا وعشرين شجرة بين سنط وطلح وحراز، وخمسا وعشرين شجرة ليمون ومثلها برتقال ، وتسعة أرادب قمح وتسعة ذرة ، وبيتاً مكونا من خمس غرف ، وديوان ، وغرفة واحدة من الطوب الاحمر ، مستطيلة الشكل ، ذات

نوافذ خضراء ، سقفهـا ليس مسطحا كبقية الغرف ولكنه مثلث كظهر الثور، وتسعماية وسبعة وثلاثين جنيهاً وثلاثة قروش وخمسة ملاليم نقداً ».

في لحظة لا تزيد عن مقدار ما يشيل البرق ثم يختفي ، رأيت في عيني الشاب الجالس قبالتي شعوراً واضحاً حيـــاً ملموسا ، بالذعر رأيته في اتساع حدق العينين، وارتعاش الجفن وارتخاء الفك الاسفل . اذا لم يكن خائفاً فلماذا سألني هذا السؤال : « هل أنت أبنه ؟ ».

سألني هكذا دون ان يدري هو الآخر لماذا نطق بهذه الكلمات الثـــلاث ، وهو يعلم تمام العلم من أنا . انه لم يكن زميلي في الدراسة ، لكننا كنا في انجلترا في وقت واحد ، وقد جمعتنا مناسبات عدة وشربنا البيرة اكثر من مرة معاً ، في حانات نايتسبردج . هكذا في لحظة خارج حدود الزمان والمكان ، تبدو له الاشياء هو الآخر ، غير حقيقية . يبدو له كل شيء محتملاً . هو ايضاً قد يكون ابن مصطفى سعيد ، او أخاه او ابن عمه . العالم في تلك اللحظة القصيرة ، بمقدار ما يطرف جفن العين ، احتمالات لا حصر لها، كأن آدم وحواء سقطا لتوهما من الجنة .

كل تلك الاحتمالات استقرت على حال واحد حين ضحكت وعاد العالم كما كان ، اشخاصاً ذوي وجوه معروفـــة واسماء معروفة ومهن معروفة ، تحت سماء الخرطوم المرصعة بالنجوم اوائل فصل الشتاء . ضحك هو الآخر وقـال : « يا لي من

مجنون ! طبعاً انت لست ابن مصطفى سعيد ولا قريبه وانت لم تسمع به من قبل في حياتـــك انني نسيت انكم معشر الشعراء ، لكم سرحات وشطحات » .

وفكرت في شيء من المرارة ، انني في زعم الناس شاعر – سواء أردت او لم أرد ، لأنني قضيت ثلاثة اعوام انقبفي حياة شاعر مغمور من شعراء الانكليز ، وعدت لادرس الأدب الجاهلي في المدارس الثانوية قبـــل ان يرقوني مفتشاً للتعليم الابتدائي .

وهنا تدخل الرجل الانكليزي وقال انه لا يدري صحة ما قيـل عن الدور الذي لعبه مصطفى سعيد في مؤامرات السياسة الانكليزية في السودان. الذي يعلمه ان مصطفىسعيد لم يكن اقتصاديا يركن اليه : « انني قرأت بعض ما كتب عما اسماه اقتصاد الاستعمار » . الصفة الغالبة على كتاباته ان احصائياته لم يكن يوثق بها. كان ينتمي الى مدرسةالاقتصاديين الفابيانيين الذين يختفون وراء ستار التعميم هروبا من مواجهة الحقائق المدعمة بالارقام . العدالة ، المساواة ، الاشتراكية.. مجرد كلمات.رجل الاقتصاد ليس كاتباً كتشارلز دكنز ، ولا سياسياً كروزفلت . انه اداة ، آلة ، لا قيمة لها بدون الحقائق والارقام والاحصائيات . أقصى ما يستطيع ان يفعله هو ان يحدد العلاقة بين حقيقة واخرى ، بين رقم وآخر .اما ان تجعل الارقام تقول شيئاً دون آخر ، فذلك شأن الحكام ورجال السياسة . الدنيا ليست في حاجة الى مزيد من رجال

السياسة . لا . مصطفى سعيد هذا لم يكن اقتصادياً يوثق به».
وسألته ان كان قد قابل مصطفى سعيد .

« لا . انني لم اقابله . كان قد ترك اكسفورد قبلي بمدة لكنني سمعت نتفا هنا وهناك. يظهر أنه كان زير نساء. خلق لنفسه اسطورة من نوع ما . الرجل الأسود الوسيم ، المدلل في الأوساط البوهيمية . كان كما يبدو واجهة يعرضها افراد الطبقة الارستقراطية الذين كانوا في العشرينات واوائل الثلاثينات يتظاهرون بالتحرر . ويقال أنه كان صديقا للورد فلان ولورد علان . وكان أيضاً من الاثيرين عند اليسار الانكليزي . ذلك من سوء حظه ، لأنه يقال أنه كان ذكياً . لا يوجد على وجه الأرض أسوأ من الاقتصاديين اليساريين، حتى منصبه الاكاديمي – لا أدري تماماً ماذا كان – يخيل إلي أنه حصل عليه لأسباب من هـــذا النوع . كأنهم أرادوا أن يقولوا : أنظروا كم نحن متسامحون ومتحررون ! هذا الرجل الافريقي كأنه واحـد منا ! أنه تزوج أبنتنا ويعمل معنا على قدم المساواة ، هذا النوع من الاوربيين لا يقل شراً ، لو تدرون ، عن المجانين الذين يؤمنون بتفوق الرجل الابيض في جنوبي افريقيا وفي الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة . نفس الطاقة العاطفية المتطرفة ، تتجه الى أقصى اليمين أو أقصى اليسار ، لو انه فقط تفرغ للعلم لوجد أصدقاء حقيقيين من جميع الأجناس ، ولكنتم قد سمعتم به هنا . كان قطعا سيعود وينفع بعلمه هذا البلد الذي تتحكم فيه الخرافات. ها أنتم الآن تؤمنون بخرافات

من نوع جديد. خرافة التصنيع ، خرافة التأميم الوحدة العربية خرافة الوحدة الافريقية . انكم كالاطفال تؤمنون ان في جوف الأرض كنزاً ستحصلون عليه بمعجزة ، وستحلون جميع مشاكلكم ، وتقيمون فردوسا . أوهام . أحلام يقظة . عن طريق الحقائق والارقام والاحصائيات ، يمكن ان تقبلوا واقعكم وتتعايشوا معه وتحاولوا التغيير في حدود طاقاتكم . وقد كان بوسع رجل مثل مصطفى سعيد ان يلعب دوراً لا بأس به في هذا السبيل ، ولو انه لم يتحول إلى مهرج بين يدي حفنة من الانكليز المعتوهين » .

وبينما انبرى منصور يفند آراء رتشارد ، أخلدت أنا إلى أفكاري ما جدوى النقاش ؟ هذا الرجل – رتشارد – هو الآخر متعصب . كل أحد متعصب بطريقة أو باخرى . لعلنا نؤمن بالخرافات التي ذكرها ، ولكنه يؤمن بخرافة جديدة ، خرافة عصرية ، هي خرافة الاحصائيات . ما دمنا سنؤمن باله ، فليكن إلهاً قادراً على كل شيء . أما الإحصائيات ! الرجل الأبيض ، لمجرد انه حكمنا في حقبة من تاريخنا ، سيظل أمداً طويلاً يحس نحونا باحساس الاحتقار الذي يحسه القوي تجاه الضعيف » . مصطفى سعيد قال لهم : « انني جئتكم غازياً . عبارة ميلودرامية ولا شك . لكن مجيئهم ، هم أيضاً، لم يكن مأساة كما نصور نحن ، ولا نعمة كما يصورون هم . كان عملاً ميلودرامياً سيتحول مع مرور الزمن إلى خرافة عظمى وسمعت منصور يقول لرتشارد : « لقد نقلتم الينا مرض

اقتصادكم الرأسمالي . ماذا أعطيتمونا غير حفنة من الشركات الاستعمارية نزفت دماءنا ومـا تزال ؟ » وقال له رتشارد : « كل هذا يدل على أنكم لا تستطيعون الحياة بدوننا . كنتم تشكون من الاستعمار ، ولما خرجنا خلقتم أسطورة الاستعمار المستتر . يبدو أن وجودنا ، بشكل واضـح أو مستتر ، ضروري لكم كالماء والهواء». ولم يكونا غاضبين . كانا يقولان كلاماً مثل هذا ويضحكان على مرمى حجر من خط الاستواء، تفصل بينهما هوة تاريخية ليس لها قرار .

- ٤ -

لكن أرجو ألا يتبادر الى اذهانكم ، يا سادتي،ان مصطفى سعيد أصبح هوساً يلازمني في حلي وترحالي . كانت أحياناً تمر أشهر دون ان يخطر على بالي انه مات على اي حال ، غرقاً ، أو انتحاراً ، الله وحده يعلم . آلاف الناس يموتون كل يوم . ولو وقفنا نتمعن لماذا مات كل منهم ، وكيف مات – ماذا يحدث لنا نحن الاحياء ؟ الدنيـــا تسير ، باختيارنا أو رغم انوفنا . وأنا كملايـــين البشر ، اسير ، اتحرك بحكم العادة في الغالب ، في قافلة طويلة ، تصعد وتنزل ، تحط وترحـــل . والحياة في هذه القافلة ليست كلها شراً. انتم ولا شك تدركون ذلك . قد يكون السير شاقاً بالنهار ، البوادي تترامى امامنا كبحور ليس لها ساحل . نتصبب عرقاً . وتجف حلوقنا من الظمأ . ونبلغ الحد الذي نظن ان ليس بعده متقدم . ثم تغيب الشمس . ويبرد الهواء . وتتألق ملايين النجوم في السماء. نطعم ونشرب حينئذ . ويغني مغني الركب . بعضنا يصلي جماعة وراء الشيخ ، وبعضنا يتحلق حلقـــات يرقصون ويغنون

ويصفقون . وفوقنا سماء دافئة رخيمة . واحياناً نسري بالليل ما طاب لنا السري ، وحين يبين الخيط الأبيض من الخيط الاسود نقول : « عند انبلاج الصبح يحمد القوم السري » . واذا كان السراب احياناً يخدعنا، واذا كانت رسومنا المحمومة بفعل الحر والعطش تفور احياناً بأفكار لا اساس لها من الصحة فلا جرم . اشباح الليل تتبخر مع الفجر،وحمى النهار تبرد مع نسيم الليل . هل ثمة وسيلة اخرى غير هذه ؟ هكذا كنت اقضي شهرين كل سنة في تلك القرية الصغيرة عند منحنى النيل . النهر بعد أن كان يجري من الجنوب إلى الشمال ، ينحني فجأة في زاوية تكاد تكون مستقيمة ، ويجري من الغرب إلى الشرق . المجرى هنا متسع وعميق ، ووسط الماء جزر صغيرة مخضرة ، تحوم عليها طيور بيضاء . وعلى الشاطئين غابات كثيفة من النخل ، وسواقي دائرة ، ومكنة ماء من حين لآخر . الرجال صدورهم عارية، يلبسون سراويل طويلة، يقطعون أو يزرعون حين تمر بهم الباخرة كقلعة عائمة وسط النيل يرفعون قاماتهم ويلتفتون إليها برهة ثم يعودون إلى ما كانوا فيه . انها تمر على هذا المكان وقت الضحى ، مرة في الاسبوع ، وما تزال في ظلال النخل المنعكسة على الماء بقية تتكسر حين يهزها الموج الذي تحدثه محركات الباخرة . وتنطلق صفارة مبحوحة ، سيسمعها أهلي ولا شك في دورهم وهم يشربون قهوة الضحى . من بعيد تبدو المحطة . رصيف أبيض عليه طابور من شجر الجميز . وتلمح على الشاطئين حركة

واضحة . بعض الناس على الحمير وبعضهم على الأقدام، وقوارب ومراكب شراعية تتحرك من الشاطىء المقابل للمحطة . تدور الباخرة حول نفسها ، لكي لا تكون المحركات في مجرى التيار، ويكون في استقبالها جمهور متوسط من الرجال والنساء . ذلك أبي وأولئك أعمامي وأولاد أعمامي وقد ربطوا حميرهم في شجر الجميز . لا يفصل ضباب بيني وبينهم هذه المرة ، فأنا قادم من الخرطوم ، فقط ، بعد غيبة لم تدم أكثر من سبعة أشهر . انني أراهم بعين واقعية . جلابيبهم نظيفة ولكنها غير مكوية ، وعمائمهم أكثر بياضاً من جلابيبهم ، شواربهم تتفاوت طولاً وقصراً ، سواداً وبياضاً . بعضهم له لحى ، والذين ليست لهم لحى أهملوا حلاقتها . بين حميرهم حمارة سوداء لم أرها من قبل . ينظرون إلى الباخرة دون اكتراث إذ تلقي مراسيها ويزدحم الناس عند مدخلها . انهم ينتظرونني في الخارج ، لا يهرولون لملاقاتي . ويصافحونني ويصافحون زوجتي على عجل ، ولكنهم يمطرون الطفلة قبلاً ، يتناوبون حملها على ايديهم ، ربما تحملنا الحمير الى الحي . هذا حالي منذ كنت تلميذاً في المدرسة ، لم انقطع الا في غيبتي الطويلة تلك سبق ان حدثتكم عنها . وفي الطريق الى الحي اسألهم عن الحمارة السوداء فيقول ابي : « اعرابي غش عمك واخذ منه حمارته البيضاء التي تعرفها وفوقها خمسة جنيهات ايضاً » . ولا ادري أي اعمامي غشه الاعرابي ، حتى اسمع صوت عمي عبد الكريم يقول : « عليّ الطلاق هذه اجمل حمارة في البلد

كلها . هذه جواد وليست حمـــارة . اذا شئت وجدت من يعطيني فيها ثلاثين جنيهـــاً » . ويضحك عمي عبد الرحمن ويقول : « اذا كانت جواداً فهي جواد عاقر . لا خير في حمارة لا تلد » . واسألهم عن محصول التمر هذا العام وانا اعلم اجابتهم سلفاً : « لا خير فيه » . يقولون ذلك بصوت واحد وكل سنة الاجابة نفسها ، وأنا ادرك أن الامر خلاف مـــا يزعمون . ونمر ببناء من الطوب الاحمر على ضفة النيـــل في منتصف تمامه ، واسألهم عنه ، فيقول عمي عبد المنان « شفخانة . لهم حول لا يستطيعون بناءها . حكومة كلام فارغ » . واقول له انني كنت هنا منذ سبعة اشهر فقط ، ولم يكونوا قد بدأوا بناءها بعد . لكن هذا لا يثني عمي عبد المنان ، فيقول : « كل الذي يفلحون فيه يجيئون الينا مرة كل عامين أو ثلاثة بجماهيرهم ولواريهم ولافتاتهم .. يعيش فلان ويسقط علان . كنا مرتاحين ايام الانكليز من هذه الدوشة » . وبالفعل يمر بنا جمع من الناس في لوري قـــديم وهم يهتفون : « عاش الحزب الوطني الديمقراطي الاشتراكي » . هل هؤلاء الناس الذين يطلق عليهم « الفلاحون » في الكتب ؟ لو قلت لجدي أن الثورات تصنع باسمه ، والحكومات تقوم وتقعد من أجله ، لضحك . الفكرة تبدو شاذة فعلا ، كما ان حياة مصطفى سعيد وموته في مكان مثل هذا يبدو شيئاً صعباً تصديقه . مصطفى سعيد كان يحضر الصلوات في المسجد بانتظام . لماذا كان يبالغ في تمثيل ذلك الدور المضحك ؟ هل جاء الى هذه القرية النائية

يطلب راحة البال ؟ لعل الاجابة في تلك الغرفة المستطيلةذات النوافذ الخضراء . ماذا أتوقع ؟ هل أتوقع أن أجده جالساً على كرسي وحده في الظلام ؟ أم أتوقع ان اجده معلقاً من رقبته بحبل يتدلى من السقف ؟ والرسالة التي تركها في ظرف مختوم بالشمع الاحمر ، متى كتبها ؟

« انني اترك زوجتي وولدي وكل مالي من متاع الدنيا في ذمتك ، وأنا أعلم انك ستكون أميناً على كل شيء . زوجتي تعلم بكل مالي ، وهي حرة التصرف . اني واثق بحكمتها . ولكنني أطلب منك أن تؤدي هذه الخدمة لرجل لم يسعد بالتعرف اليك كما ينبغي – أن تشمل أهل بيتي برعايتك وأن تكون عوناً ومشيراً ونصيحاً لولدي ، وأن تجنبهما ماااستطعت مشقة السفر . جنبهما مشقة السفر . وساعدهما أن ينشآ نشأة عادية ويعملا عملاً مفيداً . وأنا أترك لك مفتاح غرفتي الخاصة ولعلك تجد فيها ما تبحث عنه . أنا اعلم انك تعاني من رغبة استطلاع مفرطة بشأني ، الامر الذي لا اجـــد له مبرراً . فحياتي مهما كان من امرها ليس فيها عظة أو عبرة لاحد.ولولا ادراكي ان معرفة اهل القرية بماضي كان سيعوقني عن مواصلة الحياة التي اخترتها لنفسي بينهم ، لما كان ثمة مبرر للكتمان . وانت في حل من العهد الذي قطعته على نفسك تلك الليلة . فتحدث ما شئت . واذا لم تستطع ان تقاوم رغبة الاستطلاع في نفسك ، فستجد في تلك الغرفة ، التي لم يدخلها أحدغيري من قبل ، قصاصات ورق وشذوراً متفرقة ومحاولات لكتابة

مذكرات وغير ذلك . أرجو على أي حال أن تساعدك على تزجية الساعات التي لا تجـــد وسيلة أفضل لقضائها . وأنا أترك لك تقدير الوقت المناسب لتعطي ولدي مفتاح الغرفة وتساعدهما على ادراك حقيقة أمري . انه يهمني ان يعلما اي نوع من الناس كان أبوهما – اذا كان ذلك ممكناً أصلا –وليس هدفي ان يحسنا بي الظن، حسن الظن هو آخر ما أرمي اليه– ولكن لعل ذلك يساعدهما على معرفة حقيقتهما ، ولكن في وقت لا تكون المعرفة فيه خطراً . اذا نشآ مشبعين بهـــواء هذا البلد وروائحه والوانه وتاريخه ووجوه أهله وذكريات فيضاناته وحصاداته وزراعاته فان حياتي ستحتل مكانهــــا الصحيح كشيء له معنى الى جانب معان كثيرة اخرى اعمق مدلولاً . لا أدري كيف يفكران فيّ حينئذ. قد يحسان نحوي بالرثاء، وقد يحولانني بخيالهما الى بطل . هذا ليس مهما . المهم ان حياتي لن تجيء من وراء المجهول كروح شريرة تلحق بهما الضرر . وكم كنت اتمنى أن أظل معهما ، اراقبهما يكبران امام عيني ويكونان على الأقل مبرراً لوجودي . انني لا أدري اي المملين أكثر أنانية ، بقائي أم ذهابي . ومهما يكن فانــــه لا حيلة لي ، ولعلك تدرك قصدي اذا عدت بذاكرتك الىماقلته لك تلك الليلة . لا جدوى من خــــداع النفس . ذلك النداء البعيد لا يزال يتردد في أذني . وقد ظننت أن حياتيوزواجي هنا سيسكتانه . ولكن لعلي خلقت هكذا ، أو ان مصيري هكذا ، مهما يكن معنى ذلك ، لا ادري . انني اعرف بعقلي

ما يجب فعله ، الامر الذي جربته في هذه القرية ، مع هؤلاء القوم السعداء . ولكن اشياء مبهمـــة في روحي وفي دمي تدفعني الى مناطق بعيدة تتراءى لي ولا يمكن تجاهلهـــا . واحسرتي اذا نشأ ولداي ، احدهما او كلاهما ، وفيهما جرثومة هذه العدوى ، عدوى الرحيل . انني احملك الامانـــة لانني لمحت فيك صورة عن جدك . لا ادري متى اذهب يا صديقي ولكنني أحس أن ساعة الرحيل قد أزفت ، فوداعاً » .

اذا كان مصطفى سعيد قد اختار النهاية ، فانه يكون قد قام بأعظم عمل ميلودرامي في رواية حياته.واذا كان الاحتمال الآخر هو الصحيح ، فان الطبيعة تكون قد منت عليه بالنهاية التي كان يريدها لنفسه . تصور . عز الصيف في شهر يوليو العتيد . النهر اللامبالي فاض كما لم يفض منـــذ ثلاثين عاماً . الظلام يصهر عناصر الطبيعة جميعاً في عنصر واحد محايد ، أقدم من النهر ذاته وأقل منه اكتراثاً هكذا يجب ان تكون نهاية هذا البطل . انما هل هي فعلا النهاية التي كان يبحث عنها لعله كان يريدها في الشمال ، الشمال الاقصى ، في ليلة جليدية عاصفة ، تحت سماء لا نجوم لها ، بين قوم لا يعنيهم أمره . نهاية الغزاة الفاتحين . ولكنهم ، كما قـــالوا ، تآمروا ضده ، المحلفون والشهود والمحامون والقضاة ليحرموه منها . هكذا قال : « رأى المحلفون أمامهم رجلا لا يريد أن يدافع عن نفسه . رجلا فقد الرغبة في الحياة . انني ترددت في تلك الليلة حين شهقت جين في أذني . « تعال معي . تعال » . كانت

حياتي قد اكتملت ليلتها ، ولم يكن ثمة مبرر للبقاء .ولكنني ترددت ، وخفت في اللحظة الحاسمة . وكنت أرجو أنتمنحني المحكمة ما عجزت أنا عن تحقيقه . وكأنما أدركوا قصدي ، فصمموا الا يعطوني آخر أمنية لي عندهم . حتى الكولونيل همند الذي كنت أتوسم فيه الخير ، ذكر زيارتي لهم فيلفربول، وانني تركت في نفسه أثراً حسناً . قال انه يعتبر نفسه انساناً متحرراً ليس عنده تحيز ضد أحد . ولكنه رجل واقعي ، وقد كان يرى أن زواجاً مثل ذلك لن ينجح . وقال أيضاً ان ابنته آن وقعت تحت تأثير الفلسفات الشرقية فياكسفورد، وكانت مترددة بين اعتناق البوذية أو الاسلام . وهو لايستطيع أن يجزم اذا كان انتحارها بسبب أزمة روحية انتابتها ، أو لانها اكتشفت خداع مستر مصطفى سعيد لها . كانت آن ابنته الوحيدة ، وقد عرفتهـــا وهي دون العشرين ، فخدعتها وغررت بها وقلتلها نتزوج زواجاً يكون جسراًبين الشمال والجنوب ، وحولت جذوة التطلع في عينيها الخضراوين الى رماد . ومع ذلك يقف ابوها وسط المحكمة ويقولبصوت هادىء انه لا يستطيع أن يجزم . هــــذا هو العدل واصول اللعب ، كقوانين الحرب والحياد في الحرب . هذه هي القوة التي تلبس قناع الرحمة » المهم انهـــم حكموا عليه بالسجن ، سبع سنوات فقط ، ورفضوا أن يتخذوا القرار الذي كان عليه هو ان يتخذه بمحض ارادته. ويخرج من السجن ،ويتشرد في أصقاع الارض ؛ من باريس الى كوبنهاجن الى دلهي الى

بانكوك ، وهو يحاول التسويف . وتكون النهاية بعد ذلك في قرية مغمورة الذكر على النيل ، ولا يستطيع المرء ان يجزم هل كانت اعتباطاً أو انه أسدل الستار بمحض ارادته . انما أنا لم أجيء الى هنا لافكر في مصطفى سعيد ، فها هي ذي بيوت القرية المتلاصقة من الطين والطوب الاخضر تشرئب بأعناقها أمامنا ؛ وحميرنا تحث السير لانها شمت بخياشيمها رائحة البرسيم والعلف والماء . هذه البيوت على حافة الصحراء ، كأن قوماً في عهد قديم أرادوا أن يستقروا ثم نفضوا أيديهم ورحلوا على عجل . هنا تبدأ أشياء . وتنتهي أشياء . ومنطقة صغيرة من هواء بارد رطب يأتي من ناحيـــة النهر ، وسط هجير الصحراء ، كأنه نصف حقيقة وسط عالم مليء بالأكاذيب . أصوات الناس والطيور والحيوانات تتناهى ضعيفة الى الاذن كأنها وساوس ، وطقطقة مكنة الماء المنتظم تقوي الاحساس بالمستحيل . والنهر ، النهر الذي لولاه لم تكن بداية ولا نهاية، يجري نحو الشمال ، لا يلوي على شيء ، قـــد يعترضه جبل فيتجه شرقاً ، وقد تصادفه وهدة من الأرض فيتجه غرباً ، ولكنه أن عاجلا أو آجلا يستقر في مسيره الحتمي ناحية البحر في الشمال .

- ٥ -

وقفت عند باب دار جدي في الصباح – باب ضخم عتيق من خشب الحراز ، لا شك انه استوعب حطب شجرة كاملة ، صنعه ود البصير ، مهندس القرية الذي لم يتعلم النجارة في مدرسة ، كما كان يصنع عجلات السواقي وحلقاتها ، وأيضاً يجبر العظام ، ويكوي ويحجم ، ويتخصص كذلك في نقـد الحمير ، قل أن يشتري أحد من أهل البلد حمارة دون مشورته. ود البصير لا يزال حياً إلى يومنا هذا ، ولكنه لم يعد يصنع مثل باب بيت جدي ، بعد أن أكتشفت الأجيال اللاحقة من أهل البلد أبواب خشب الزان وأبواب الحديد ، يجلبونها من ام درمان . والسواقي أيضاً . بار سوقها حين جاءت مكنات الماء . وسمعتهم يقهقهون ، فميزت ضحكة جدي النحيلة الخبيثة المنطلقة حين يكون على سجيته ، وضحكة ود الريس التي تخرج من كرش مملوء بالطعام دائماً ، وضحكة بكري الـتي تأخذ لونها وطعمها من المجلس الذي يكون موجوداً فيه ، وضحكة بنت مجذوب القوية المسترجلة . تخيلت جدي جالساً

على فروة صلاته وفي يده مسبحته من خشب الصندل ، تدور في حركة دائبة كقواريس الساقية . وبنت مجذوب وود الريس وبكري ، أصدقاؤه القدامى ، يجلسون على تلك الأسرّة الوطيئة ، التي لا تعلو أرجلها عن الأرض أكثر من شبرين . ارتفاع السرير عن الأرض ، في زعم جدي ، من الغرور ، وقصره من التواضع .. بنت مجذوب متكئة على كوعها ، وفي اليد الأخرى سيجارة . ود الريس كأنه يخرج الحكايات الخبيثة من أطراف شاربيه . وبكري يجلس وحسب. هذه الدار الكبيرة ليست من الحجر ولا الطوب الأحمر ، ولكنها من الطين نفسه الذي يزرع فيه القمح ، قائمة على أطراف الحقل تماماً ، تكون امتداداً له . وهذا واضح من شجيرات الطلح والسنط النامية في فناء الدار والنباتات التي نمت في الحيطان نفسها حيث تسرب إليها الماء من الأرض المزروعة . وهي دار فوضى قائمة دون نظام ، اكتسبت هيئتها هذه على مدى أعوام طويلة : غرف كثيرة مختلفة الأحجام ، بنيت بعضها لصق بعض في أوقات مختلفة ، اما حسب الحاجة اليها أو لأن جدي توفر له شيء من المال لم يجد وسيلة اخرى ينفقه فيها . غرف يؤدي بعضها إلى بعض ، بعضها لها أبواب وطيئة لا بد ان تنحني كي تدخلها وبعضها ليست لها ابواب إطلاقاً ، بعضها لها نوافذ كثيرة ، وبعضها ليست لها نوافذ . حيطانها ملساء مطلية بمادة هي خليط من الرمل الخشن والطين الأسود وزبالة البهائم ،

وكذلك السطوح ، والأسقف من جذع النخيل وخشب السنط وجريد النخيل . دار متاهة ، باردة في الصيف ، دافئة في الشتاء . إذا نظرت اليها من الخارج ، دون عطف ، أحسست بها كياناً هشاً لن يقوى على البقاء ، ولكنها تغالب الزمن بشيء كالمعجزة .

ودخلت من باب الحوش ، ونظرت إلى اليسار واليمين في الفناء الواسع. هنالك تمر نشر على بروش ليجف . وهنالك بصل وشطة . وهنالك أكياس قمح وفول وبعضها خيطت أفواهه وبعضها مفتوح . وفي ركن عنز تأكل شعيراً وترضع مولودا . هذه الدار مصيرها مرتبط بمصير الحقل ، إذا اخضر الحقل اخضرت ، وحين يجتاح القحط الحقول يجتاحها هي أيضاً . وأشم تلك الرائحة التي يمتاز بها بيت جدي ، خليط من روائح متنافرة،رائحة البصل والشطة والتمر والقمح والفول واللوبية والحلبة ، أضف إليها رائحة البخور الذي يعبق دائماً في مجمر الفخار الكبير . رائحة تذكرني بتقشف جدي في العيش ، وترفه في لوازم صلاته . الفروة التي يصلي عليها ، وحين يشتد البرد يستعملها غطاء ، عبارة عن جلود ثلاثة نمور مخيطة في جلد واسع . وابريق الصلاة من النحاس عليه تصاوير ونقوش ، وله طشت من نحاس أيضاً . وهو يفتخر خاصة بمسبحته لأنها من خشب الصندل ، ويداعب حباتها، ويمسح بها وجهه ويستنشق رائحتها . وكان إذا غضب من أحد أحفاده ، ضربه بها على رأسه ، يقول ان ذلك يطرد

الشيطان . وهذه الأشياء جميعاً ، مثل غرف داره ، والنخل في حقله ، لها تاريخ قصه علي جدي مراراً وتكراراً ، في كل مرة يحذف شيئاً ويضيف شيئاً .

وتمهلت عند باب الغرفة وأنا أستمرىء ذلــك الإحساس العذب الذي يسبق لحظة لقائي مع جدي كلما عدت من السفر. إحساس صاف بالعجب من أن ذلك الكيان العتيق ما يزال موجوداً أصلاً على ظاهر الأرض . وحين أعانقه أستنشق رائحته الفريدة التي هي خليط من رائحة الضريح الكبير في المقبرة ورائحة الطفل الرضيع . وذلك الصوت النحيــل المطمئن ، يقوم جسراً بيني وبين الساعة القلقة التي لم تتشكل بعد ، الساعات التي استوعبت أحداثها ومضت ، وأصبحت لبنات في صرح له مدلولات وأبعـــاد . نحن بمقاييس العالم الصناعي الأوربي ، فلاحون فقراء، ولكنني حين أعانق جدي أحس بالغنى ، كأنني نغمة من دقات قلب الكون نفسه . انه ليس شجرة سنديان شامخة وارفة الفروع في أرض منت عليها الطبيعة بالماء والخصب ، ولكنه كشجيرات السيال في صحارى السودان ، سميكة اللحى حادة الأشواك ، تقهر الموت لأنها لا تسرف في الحياة . وهذا وجه العجب . انه عاش أصلاً – رغم الطاعون والمجاعات والحروب وفساد الحكام . وها هو ذا الآن يقترب من عامه المائة ، أسنانه جميعاً في فمه ، عيناه صغيرتان باهتتان تحسب أنهما لا تريان ولكنه ينظر بهما في حلكة الليل ، جسمه الضئيل منكمش على ذاته،

عظام وعروق وجلد وعضلات ، وليست فيه قطعة واحدة من الشحم ، يقفز فوق الحمار نشيطاً ، ويمشي في غبش الفجر من بيته إلى الجامع .

مسح جدي بطرف ثوبه الدمع الذي سال على وجهه من شدة الضحك ، وبعد أن أمهلوني ريثما أستقر في مجلسي معهم ، قال جدي : « والله حكايتك حكاية يا ود الريس » . وكان هذا إيذاناً لود الريس بأن يستمر في القصة التي قطعها دخولي عليهم . « وبعد ، يا حاج أحمد ، أركبت البنت أمامي على الحمار وهي تفلفص وتتلوى وبالقوة جردتها من جميع ثيابها حتى أصبحت عارية كما ولدتها أمها ، كانت فرخة عديلة من جواري بحري بلغت توها – النهد يا حاج أحمد كأنه طبنجة والكفل إذا طوقته بذراعيك لا تصل حده . وكانت مدهنة ومدلكة جلدها يلمع في ضوء القمر وعطرها يدوخ العقل . ونزلت بها إلى منطقة رملية وسط الذرة . ولما قمت عليها سمعت حركة في الذرة وصوتاً يقول : من هناك؟ يا حاج أحمد، جنون الشباب ليس مثله جنون . فكرت بسرعة . وعملت انني عفريت . وأخذت أصرخ بأصوات شيطانية وأنثر الرمل وابرطع ، فذعر الرجل وهرب . إنما النكتة أن عمي عيسى كان قد تقفى أثري منذ خطفت الجارية من بيت العرس حتى وصلنا إلى بقعة الرمل . ولما رأى أنني عملت عفريت وقف يتفرج . وثاني يوم في الصباح الباكر ذهب إلى والدى رحمة الله عليه وقص عليه القصة كلها ، وقال له : ابنك هذا شيطان

رجيم ، وإذا لم نجد له زوجة في هذا النهار أفسد البلد وسبب لنا فضائح لا أول لها ولا آخر . وفعلاً عقدوا لي في نفس اليوم على بنت عمي رجب . الله يرحمها ، ماتت في أول ولادة » . وقالت له بنت مجذوب وهي تضحك بصوتها الرجالي المبحوح من كثرة التدخين : « ومن يومها وأنت تركب وتنزل كأنك فحل الحمير » .

فقال لها ود الريس : « هل احد يعرف حلاوة هذا الشيء اكثر منك يا بنت مجذوب ؟ انك دفنت ثمانية ازواج ، والآن وانت عجوز كركبة لو وجدته لما قلت لا » . وقال جدي : « سمعنا أن غنج بنت مجذوب شيء لا يتصوره العقل»

واشعلت بنت مجذوب سيجاره وقالت : « عليّ الطلاق يا حاج احمد ، كنت حين يرقد زوجي بين فخدي أصرخ صراخاً تجفل منه البهائم المربوطة في مراحها في الساقية » . وكان بكري قبل ذلك يضحك ولا يقول شيئاً ، فقال : « حدثينا يا بنت مجذوب . أي أزواجك كان احسن ؟ » فقالت بنت مجذوب على الفور : « ود البشير ».فقال بكري: « ود البشير الكحيان التعبان ؟ كانت العنز تأكل عشاءه » .

ونفضت بنت مجذوب رماد السيجارة على الارض بحركة مسرحية بأصابعها وقالت : « عليّ الطلاق ، كان عنده شيء مثل الوتد حين يدخله في احشائي لا اجد أرضاً تسعني . كان يرفع رجلي بعد صلاة العشاء ، واظل مشبوحة حتى يؤذن

آذان الفجر . وكان حين تأتيه الحالة يشخر كالثور حين يذبح وكان دائماً حين يقوم من فوقي يقول : هالله الله يا بنت مجذوب » . فقال لها جدي : « لا عجب انك قتلته في عز الشباب » . فضحكت بنت مجذوب وقالت : « قتله اجله . هذا الشيء لا يقتل احداً » .

كانت بنت مجذوب امرأة طويلة لونها فاحم مثل القطيفة السوداء ، ما يزال فيها الى الآن وهي تقارب السبعين بقايا جمال . وقد كانت مشهورة في البلد ، يتسابق الرجال والنساء على السواء لسماع حديثها لما فيه من جرأة وعدم تحرج. وكانت تدخن السجاير وتشرب الخمر وتحلف بالطلاق كأنها رجل . ويقال ان امها كانت ابنة احد سلاطين الفور . وقد تزوجت عدداً من خيرة رجال البلد ، ماتوا كلهم عنها وتركوا لها ثروة ليست قليلة . وقد انجبت ولداً واحداً وعدداً لا يحصى من البنات اشتهرن بجمالهن وعدم تحرجهن في الحديث ، مثل امهن.

ويروى ان احدى بنات بنت مجذوب تزوجت رجلاً لم تكن أمها راضية عنه · وحملها وسافر بها . ولما عاد بعد نحو من عام أراد أن يقيم وليمة يدعو اليها اقارب زوجته .فقالت له الزوجة : « ان امي لا تتحرج في كلامها ومن الخير ان ندعوها وحدها » . وفعلا ذبحوا وأولموا لها.وبعد ان طعمت وشربت قالت لابنتها وزوجها يسمع : « يا آمنة . هذا الرجل لم يقصر في حقك . فمسكنك حسن وملبسك حسن ؛ وقد ملأ يديك ورقبتك ذهباً . ولكن لا يبدو على وجهه انه

يقدر على اشباعك في الفراش . فاذا أردت الشبع الصحيح فأنا اعرف لك زوجاً اذا جاءك لايتركك حتى تزهق روحك»
ولما سمع الزوج هذا الكلام غضب غضباً شديداً وطلق زوجته ثلاثاً في الحين .

وقالت بنت مجذوب لود الريس : « ما بالك ، لك عامان وانت مكتف بزوجة واحدة ؟ هل ضعفت همتك ؟ » .

وتبادل ود الريس وجدي نظرات لم أفهمها الا فيما بعد ، وقال : « الوجه وجه شيخ والقلب قلب شاب . هل تعرفين أرملة او ثيباً تصلح لي ؟ » .

وقال بكري : « النصيحة لله يا ود الريس . انت لم تعد رجل زواج . انك الآن شيخ في السبعين وأحفادك صار لهم أولاد . الا تستحي ، لك كل سنة عرس ؟ الآن يلزمك الوقار والاستعداد لملاقاة الله سبحانه وتعالى » .

ضحكت بنت مجذوب وضحك جدي لهذا القول ، وقال ود الريس في غضب مصطنع : « ماذا يفهمك انت في هذه الامور ؟انت وحاج احمد كل واحد منكم اكتفى بامرأة واحدة ولما ماتتا وتركتاكما لم تجدا الجرأة على الزواج . حاج احمدهذا طول اليوم في صلاة وتسبيح كأن الجنة خلقت له وحده . وأنت يا بكري مشغول في جمع المال إلى أن يريحك منه الموت . الله سبحانه حلل الزواج وحلل الطلاق وقال ما معناه خذوهن باحسان أو فارقوهن باحسان.

وقال في كتابه العزيز : النسوان والبنون زينة الحياة الدنيا» .

وقلت لود الريس ان القرآن لم يقل « النسوان والبنون » ولكنه قال « المال والبنون » . فقال : « مهما يكن ، لا توجد لذة أعظم من لذة النكاح » .

وملس ود الريس شاربيه المقوسين بعناية إلى أعلى ، طرفاهما كحد الإبرة ، ثم أخذ يمسح بيده اليسرى لحيته الغزيرة البيضاء التي تلبس وجهه من الصدغ إلى الصدغ ، ويتنافر لونها الأبيض الناصع من سمرة وجهه كلون الجلد المدبوغ ، فكأن اللحية شيء صناعي ألصق بالوجه . ويختلط بياض اللحية دون مشقة ببياض العمة الكبيرة ، مقيماً إطاراً صارخاً يبرز أهم معالم الوجه : العينين الجميلتين الذكيتين ، والانف المرهف الوسيم . وود الريس يستعمل الكحل متذرعاً بان الكحل سنة ، لكنني اظن انه يفعل ذلك زهواً . كان في مجموعه وجهاً جميلاً ، خاصة اذا قارنته بوجه جدي الذي ليس فيه شيء يميزه ، ووجه بكري وهو كالبطيخة المكرمشة . وواضح أن ود الريس يدرك ذلك ، وقد سمعت انه كان في شبابه آية في الحسن ، وان قلوب الفتيات كانت تخفق بحبه قبلي وبحري ، أعلى النهر وأسفله . كان كثير الزواج والطلاق لا يعنيه في المرأة انها امرأة ، يأخذهن حيثما اتفق ، ويجيب اذا سئل : « الفحل غير عواف » . واذكر من زوجاته دنقلاوية من الخندق ، وهدندوية من القضارف ، وأثيوبية

وجدها تخدم عند ولده الاكبر في الخرطوم ، وامرأة من نجيريا عاد بها في حجته الرابعة . ولما سئل كيف تزوجها قال انه اجتمع بها وبزوجها في السفينة بين بور سودان وجدة وتصادق معهما . ولكن الرجل توفي في مكة يوم الوقوف على عرفات. وقال له وهو يحتضر : « أوصيك بزوجتي خيراً » . ولم يجد خيراً من زواجها . عاشت معه ثلاثـة أعوام ، وهو وقت طويل بحساب ود الريس . وكان فرحاً بها ، وأعظم سروره انها كانت عاقراً . وكان يحكي للناس خصائص أفعاله معها ، ويقول : « من لم يتزوج فلاتية لم يعرف الزواج » . وأثناء حياته معها تزوج بامرأة من الكبابيش ، عاد بها في زيارة له الى حمرة الشيخ . لكن المرأتين لم تطيقا الحياة معاً ، فطلق الفلاتية ارضاء للكباشية ، ولكن الكباشية ، بعد ذلك بقليل هجرته وهربت الى أهلها في حمرة الشيخ .

وضربني ود الريس بكوعه في جنبي وقال : « قالوا نسوان النصارى شيء فوق التصور ».فقلت له:« لاأدري » .

فقال : « اي كلام هذا ؟ شاب مثلك في عز الشباب يعيش سبع سنين في بلاد الهنك والرنك وتقول لا أدري » .

سكت ، فقال ود الريس : « قبيلتكم هذه لا خير فيها . انتم رجال المرأة الواحدة — ليس فيكم غير عمك عبد الكريم ذلك هو الرجل » .

كنا بالفعل معروفين في البلد بأننا لا نطلق زوجاتنا ولا

نتزوج عليهن ، وكان اهل البلد يتندرون علينا ويقولون اننا نخاف من زوجاتنا . إلا عمي عبد الكريم – كان مطلاقاً مزواجاً ، وزانياً أيضاً .

وقالت بنت مجذوب : « حريم النصارى لا يعرفن لهذا الشيء كما تعرف له بنات البلد . نساء غلف ، الحكاية عندهن كشرب الماء.بنت البلد تعمل الدلكة والدخان والريحة وتلبس الفركة القرمصيص . وحين ترقد على البرش الاحمر بعد صلاة العشاء وتفتح فخذيها ، يشعر الرجل كأنه ابو زيد الهلالي . الرجل الماعنده همة يصبح له همة » .

وضحك جدي وضحك بكري وقال ود الريس : «دعك من بنات البلد يا بنت مجذوب . النسوان البرانيات ، هؤلاء هن النساء » .

وقالت بنت مجذوب : « عقلك هو البراني ».وقال جدي: « ود الريس يحب النسوان الغير مطهرات » .

وقال ود الريس : « علي اليمين يا حاج احمد ، لو ذقت نساء الحبش والفلاتة كنت رميت مسبحتك . وتركت صلاتك ما بين افخاذهن كأنه الصحن المكفى ، صاغ سليم ، بكامل خيره وشره . عندنا هنا يقطعونه ويتركونه مثل الارض الخلاء » .

وقال بكري : « الختانة من شروط الاسلام » . فقال ود الريس : « اي اسلام هذا ؟ اسلامك انت واسلام حاج

احمد ، لانكم لا تعرفون الذي يصلحكم من الذي يضركم. الفلاتة والمصريون وعرب الشام . اليسوا مسلمين مثلنا ؟ لكنهم ناس يعرفون الاصول . يتركون نساءهم كما خلقهن الله . اما نحن فنجزهن كما تجز البهيمة » .

وضحك جدي حتى اسقط ثلاث حبات من مسبحته مرة واحدة دون وعي ، وقال : « المصريات ، مثلك لا يقدر عليهن » .قال له ود الريس : « وما ادراك انت بالمصريات؟ » فقال بكري بالنيابة عن جدي : « هل نسيت ان حاج احمد سافر الى مصر سنة ستة واقام فيها تسعة اشهر ؟ » .

وقال جدي : « مشيت على قدمي؛ ليس معي غير المسبحة والابريق » .

فقال ود الريس : « وماذا فعلت ؟ عدت كما ذهبت بالمسبحة والابريق . علي اليمين ، لو كنت محلك لما عدت فارغ اليدين » .

فقال جدي : « اظنك كنت رجعت ومعك امرأة . هذا هو كل همك. انا رجعت ومعي المال فاشتريت الأرض وعمرت الساقية وطهرت اولادي » .

وقال ود الريس : « بالله يا حاج احمد ، هل ذقت الشيء المصري ؟ » .

كانت حبات المسبحة طول الوقت تتفلت بين اصابع جدي طالعة نازلة كأنها دولاب الساقية . لكن الحركة توقفت فجأة

ورفع جدي وجهه الى السقف وفتح فمه . ولكن بكري كان اسبق منه فقال : « انت يا ود الريس مجنون . رجل كبير لكن ما عندك فهم . النسوان نسوان في مصر أو السودان أو العراق أو واق ، الواق . السوداء والبيضاء والحمراء كلهن سواسية » .

ولم يستطع ود الريس من شدة دهشته ان يقول شيئاً . ونظر الى بنت مجذوب كأنه يستنجد بها . وقال جدي : « الحق لله انني كدت اتزوج في مصر . المصريون ناس طيبون ويحفظون العشرة. والمرأة المصرية تعرف قيمة الرجل. تعرفت برجل تقي في بولاق كنا نلتقي دائماً في صلاة الفجر في مسجد ابو العلاء . دخلت بيته وتعرفت على اهله كان ابو بنات عنده ست بنات كل واحدة تقول للقمر قوم وانا اقعد محلك . بعد مدة قال لي : يا سوداني انت رجل متدين وتحفظ العشرة خليني ازوجك بنتاً من بناتي . الحق لله يا ود الريس نفسي مالت الى البنت الكبيرة . لكن بعدها بقليل جاني تلغراف بوفاة المرحومة امي فسافرت في الساعة والحين » . وقال بكري : « رحمة الله عليها . كانت امرأة فاضلة » . وتنهد ود الريس وقال : « يا خسارة . الدنيا هكذا . تعطي الذي لا يريد ان يأخذ . علي اليمين لو كنت في محلك كنت عملت عمايل . كنت تزوجت وقعدت هناك وذقت حلاوة الحياة مع بنات الريف . ماذا أرجعك لهذا البلد الخلاء المقطوع ؟ » .

وقال بكري : « الغزال قالت بلدي شام » .

وكانت بنت مجذوب قد أوقدت سيجارة اخرى جذبت منها الدخان بسخاء وعكرت به سماء الغرفة ، فقالت لود الريس : « انت لم تعدم حلاوة الحياة حتى في هذا البلد الخلاء المقطوع . ها أنت سمين بدين لا تعجز ولا تكبر مع انك زدت على السبعين » .

فقال ود الريس : « علي اليمين ، سبعين سنة فقط لا تزيد يوماً واحداً . انما انت شرط اكبر من حاج احمد » .

فقال له جدي : « خاف الله يا ود الريس . بنت مجذوب لم تكن ولدت حين تزوجت أنا . وهي اصغر منك بسنتين أو ثلاث » .

فقال ود الريس : « على اي حال، انا في يومنا هذا انشط واحد فيكم . وعلي اليمين ، بين فخذي المرأة انا انشط من حفيدك هذا » .

فقالت بنت مجذوب : « انت تفلح في الكلام . ولا بد انك تجري وراء النساء لان بضاعتك مثل عقلة الاصبع » . فقال ود الريس : « لو كنت تزوجتني يا بنت مجذوب لوجدت شيئاً مثل مدافع الانكليز » . فقالت بنت مجذوب : «المدافع سكتت وقت مات ود البشير . انت يا ود الريس رجـــل مخرف ، عقلك كله في رأس ذكرك ، ورأس ذكرك صغير مثل عقلك » .

وارتفع ضحكهم جميعاً ، حتى بكري الذي كان من قبل يضحك بهدوء . وتوقف جدي عن الطقطقة بسبحته تماماً ، وضحك ضحكته النحيلة الخبيثة المنطلقة . وضحكت بنت مجذوب بصوتها الرجالي المبحوح . وضحك ود الريس ضحكاً اقرب الى الشخير منه الى الضحك . ومسحوا الدموع من اعينهم ، — وقال جدي : « أستغفر الله العظيم وأتوب اليه». وقالت بنت مجذوب :« استغفر الله . والله ضحكتونا ياجماعة اللهم اجمعنا ثانية في ساعة خير » .

وقال بكْري : « استغفر الله . اللهم اغفر لنا وارزقنا حسن الختام » .

وقال ود الريس : « استغفر الله العظيم . ايام نقضيها على وجه الارض وبعدها ربنا يفعل فينا ما يشاء » .

وهبت بنت مجذوب واقفة دفعة واحدة ، كما يهب رجل في الثلاثين ، وانتصبت بطولها ، معتدلة القامة ، لا انحناء في الظهر ولا تقوس في الكتفين . وقام بكري متحاملاً على نفسه وقام ود الريس يتكيء قليلا على عصاه . وقام جدي من على فروة الصلاة وجلس على سريره ذي الأرجل القصيرة.ونظرت اليهم ، ثلاثة شيوخ وامرأة شيخة ، ضحكوا برهة على حافة القبر . وفي غد يرحلون . غداً يصير الحفيد أباً والأب جد ، وتستمر القافلة .

ثم خرجوا . وقال لي ود الريس وهو يذهب : « باكر يا افندي تتغدى معنا » .

وتمدد جدي على سريره ، ثم ضحك ، وحده هذه المرة ، كأنما يؤكـــد احساسه بالعزلة ، بعد ان ذهب الناس الذين يضحكونه ويضحكهم . وبعد فترة قال : « هل تدري لماذا دعاك ود الريس للغداء ؟ » فقلت له اننا اصدقاء وقد دعاني من قبل . فقال جدي : « انه يريد منك خدمة » .

فقلت : « ماذا يبغي ؟ » .

قال : « يبغي الزواج » .

فتضاحكت وقلت لجدي : « ما شأني بزواج ودالريس؟ » فقال جدي : « انت وكيل العروس » .

لذت بالصمت . فقـــال جدي وهو يظن انني لم افهم : « ود الريس يريد ان يتزوج أرملة مصطفى سعيد » .

مرة اخرى لذت بالصمت ، فقال جدي : « ود الريس لا يزال شاباً ، وهو صاحب مال . وعلى اي حال المرأة يلزم لها الستر . ثلاثة اعوام مرت على وفاة زوجها . الا تريد الزواج أبداً ؟ » .

قلت له انني لست مسؤولاً عنها . ابوها موجود واخوتها، فلماذا لا يطلبها ود الريس منهم ؟ فقال جدي : « البلد كلها تعرف ان مصطفى سعيد جعلك وصياً على زوجته وولديه ».

قلت له انني وصي على الولدين ولكن المرأة حرة التصرف وأولياؤهم موجودون . فقال جدي : « انها تثق بكلامك . لو حدثتها فقد ترضى » .

احسست بغيظ حقيقي ادهشني ، اذ ان هـذه الاشياء مألوفة في البلد . وقلت لجدي : « انها رفضت رجالاً اصغر منه سناً ، انه يكبرها بأربعين عاماً » . ولكن جدي اصر على ان ود الريس شاب وانه ميسور الحال وانه متأكد أن أباها لن يمانع ولكن المرأة نفسها قد ترفض ولذلك ارادوا ان يجعلوني واسطة خير .

حبس الغضب لساني فلذت بالصمت . وقفزت الى ذهني صورتان فاضحتان في آن واحد . ولشدة عجبي ، اتحدت الصورتان في ذهني ، وتخيلت حسنة بنت محمود ، أرملة مصطفى سعيد ، هي المرأة نفسها في الحالتين – فخذان بيضاوان مفتوحتان في لندن ، وامرأة تئن تحت ود الريس الكهل ، قبيل طلوع الفجر في قرية مغمورة الذكر عند منحنى النيل . ان كان ذلك شراً فهذا ايضاً شر ، وان كان هذا ، مثل الموت والولادة وفيضان النيل . وحصاد القمح ، جزءاً من نظام الكون ، فقد كان ذلك أيضاً كذلك . وأتصور حسنة بنت محمود ، أرملة مصطفى سعيد ، في الثلاثين من العمر ، تبكي تحت ود الريس الذي بلغ السبعين ، ويتحول بكاؤها الى قصص من قصص ود الريس المشهورة عن نسائه الكثيرات ، يتندر بها رجال البلد ، فيزداد الغيظ في صدري ضراوة . ولم استطع البقاء فخرجت ، وسمعت جدي ينادي ورائي فلم التفت . وفي بيتنا سألني أبي عن سبب غضبي فحكيت له القصة . ضحك وقال : « هل هذا شيء يثير الغضب ؟ » .

- ٦ -

قريباً من الساعة الرابعة بعــد الظهر ذهبت إلى بيت مصطفى سعيد ، ودخلت من باب الحوش الكبير ، ونظرت برهة إلى اليسار إلى الغرفــة المستطيلة من الطوب الأحمر . ساكنة ، لا كالمقبرة ، ولكن كسفينة ألقت مراسيها في عرض البحر . إنما الوقت لم يحــن بعد . وأجلستني على كرسي في المصطبة أمام الديوان ، المكان عينه ، وجاءت لي بكوب من عصير الليمون . وجاء الولدان وسلما علي ، الأكبر محمود اسم أبيها ، والأصغر سعيد اسم أبيه . طفلان عاديان ، أحدهما في الثامنة وثانيهما في السابعــة ، يركبان حماراً كل صباح إلى المدرسة على بعد ستة أميال . إنهما أمانـــة في عنقي ، ومن الأسباب التي تحضرني هنا كل عـــام أن أتفقد أحوالهما . سنختنهما هذه المرة ، وسنحضر المغنين والمداحين ونقيم احتفالاً يكون ذكرى مضيئة من ذكريات طفولتهما . قال : « جنبهما مشقة السفر » . انني لن أفعل شيئاً من هــذا القبيل ، إذا أرادا ، حين يكبران ، أن يسافرا فليسافرا . كل أحد يبدأ

من أول الطريق ، والعالم في طفولة لا تنتهي .

انصرف الولدان وظلت هي واقفة أمامي . قامة ممشوقة تقرب من الطول ، ليست بدينة ولكنها ريانة ممتلئة كعود قصب السكر ، لا تضع حناء في قدميها ولا في يديها ، ولكن عطراً خفيفاً يفوح منها . شفتاها لعساوان طبيعة ، وأسنانها قوية بيضاء منتظمة . وجهها وسيم ، والعينان السوداوان الواسعتان يختلط فيهما الحزن والحياء . حين سلمت عليها أحسست بيدها ناعمة دافئة في يدي . امرأة نبيلة الوقفة ، أجنبية الحسن ، أم انني أتخيل شيئاً ليس موجوداً حقيقة ؟ امرأة أحس حين ألقاها بالحرج والخطر ، فأهرب منها أسرع ما أستطيع . هذا هو القربان الذي يريد ود الريس أن يذبحه على حافة القبر ، ويرشو به الموت فيمهله عاماً أو عامين.

وظلت واقفة رغم الحاحي ، ولم تجلس إلا حين قلت لها : « إذا لم تجلسي فسأذهب » . بدأت الحديث بطيئاً متعسراً ، ومضى كذلك والشمس تنحدر نحو المغيب ، والهواء يبرد قليلاً قليلاً ، وقليلاً قليلاً أيضاً أخذت عقدة لساني تنحل وعقدة لسانها . وقلت لها شيئاً أضحكها وارتجف قلبي من عذوبة ضحكها . وانتشر دم المغيب فجأة في الأفق الغربي كدماء ملايين ماتوا في حرب عارمة نشبت بين الأرض والسماء . وانتهت الحرب فجأة بالهزيمة ، ونزل ظلام كامل مستتب احتل الكون بأقطابه الأربعة ، وأضاع مني الحزن

والحياء الذي في عينيها . لم يبق إلا الصوت الذي دفأته الالفة والعطر الخفيف كينبوع قد يجف في أي لحظة . وفجأة قلت لها : « هل أحببت مصطفى سعيد ؟ »

لم تجب . وظللت برهة أنتظر ولكنها لم تجب . ثم أدركت أن الظلام والعطر كادا يخرجانني عن طوري وان ذلك سؤال لا يسأل في ذلك الزمان وذلك المكان . ولكن الظلام ما لبث أن ثغر ثغرة نفذ منها صوتها إلى أذني :

« كان أباً لأولادي » .

إذا صدق ظني ، فإن الصوت لم يكن حزيناً ، بل كانت فيه مناغات . وتركت الصمت يوسوس لها فلعلها تقول شيئاً . نعم ، ذلك هو :

« كان زوجاً كريماً وأباً كريماً . طول حياته لم يقصر معنا » .

فقلت لها وأنا أميل في الظلام تجاهها : « هل كنت تعرفين من أين هو ؟ »

قالت : « من الخرطوم » .

قلت : « وماذا يعمل في الخرطوم ؟ »

قالت : « في التجارة » .

قلت : « ولماذا جاء إلى هنا ؟ »

قالت : « الله أعلم » .

وكدت أيأس . ثم هبت نسمة نشطة في اتجاهي حاملة

شحنة من العطر ، فوق ما كنت أطمع فيه . واستنشقت العطر وأحسست بيأسي يزداد حدة . وفجأة حدثت فجوة كبيرة في الظلام ، نفذ منها صوت حزين هذه المرة ، حزناً أعمق من غور النهر . قالت : « أظنه كان يخفي شيئاً »

لاحقتها بالسؤال : « لماذا ؟ »

قالت : « كان يقضي وقتاً طويلا بالليل في تلك الغرفة »

وازددت ملاحقة : « ماذا في تلك الغرفة ؟ »

قالت : « لا أدري . اني لم أدخلها قط . المفتاح عندك . لماذا لا تتحقق بنفسك ؟ »

نعم ، هبنا قمنا أنا وهي الآن ، في هذه اللحظة، وأوقدنا المصباح ، ودخلنا ، هل نجده معلقاً من رقبته في السقف ، أم نجده جالساً القرفصاء على الأرض ؟

سألتها مرة أخرى : « لماذا تظنين أنه كان يخفي شيئاً ؟»

صوتها الآن ليس حزيناً وليست فيه مناغاة ، ولكنه مشرشر الأطراف كورقة الذرة :

« أحياناً بالليل في النوم كان يقول كلاماً .. بالرطانة »

ولاحقتها بالسؤال : « أي رطانة ؟ »

فقالت : « لا أدري . مثل الكلام الافرنجي »

وظللت مائلا وجهتها في الظلام ، مترقباً ، منتظراً .

« كان يردد في نومه كلمات .. مثل جينا ، جيني .. لا أدري » .

في هذا المكان نفسه ، في وقت مثل هذا ، في ظلام مثل هذا ، كان صوته يطفو كأحوات ميتـــة طافية على سطح البحر . « ظللت أطاردها ثلاثة أعوام . كل يوم يشتد توتر وتر القوس. قوافلي ظمأى والسراب يتوهج قدامي في صحراء الشوق . في تلك الليلة حين همست جين في أذني : « تعال معي . تعال معي » ، كانت حياتي قـد اكتملت ولم يكن يوجد سبب للبقاء .. » وتناهت إلى أذني صرخة طفل من مكان ما في الحي ، وقالت حسنه : « كأنه كان يحس بدنو أجله . قبل اليوم ، يوم .. قبـــل موته بأسبوع رتب كل شؤونه . كانت له أطراف جمعها ، وديون دفعها . قبل موته بيوم دعاني وحدثني بما عنده . أوصاني كثيراً على الولدين . أعطاني الرسالة المختومة بالشمع. قال لي . أعطها له إذا حدث شيء . وقال لي إذا حدث شيء فأنت تكونـ وصياً على الأولاد . قال لي : استشيريه في كل ما تفعلين . بكيت وقلت له : إن شاء الله ما في عوج . فقال : فقط من باب الاحتياط والدنيا غير معروفة . في ذلك اليوم توسلت اليه ألا ينزل إلى الحقل والدنيا فيضان وغرق . كنت خائفة . لكنه قال لا داعي للخوف وإنه يجيد السباحة . كنت متوجسة طول اليوم وزاد خوفي حين تأخر عن ميعاده . وانتظرنا ، ثم كانـ مـا كان »

وأحسست بها تبكي في صمت ، ثم ارتفع بكاؤها ، وتحول إلى شهيق حاد ، ارتعش له الظلام القائم بيني وبينها . ضاع

العطر والصمت، ولم يعد في الكون إلا نحيب امرأة شكلت زوجاً لا تعرفه ، رجلاً أفرد أشرعته وضرب في عرض البحر وراء سراب أجنبي . وود الريس الشيخ في داره يحلم بليالي الفنج تحت فركة القرمصيص . وأنا ماذا أفعل الآن وسط هذه الفوضى ؟ هل أقوم اليها وأضمها إلى صدري وأجفف دموعها بمنديلي وأعيد الطمأنينة إلى قلبها بكلماتي ؟ وقمت نصف قومة مستنداً إلى ذراعي ، ولكنني أحسست بالخطر ، وتذكرت شيئاً ، فلبثت واقفاً هكذا زمناً في حالة بين الاقدام والاحجام . وبغتة هبط علي عناء ثقيل تهالكت تحت وطأته على المقعد . الظلام كثيف وعميق وأساسي وليست حالة ينعدم فيها الضوء — الظلام الآن ثابت كأن الضوء لم يوجد أصلاً ، ونجوم السماء مجرد فتوق في ثوب قديم مهلهل . العطر أضغاث أحلام ، صوت لا يسمع مثل أصوات أرجل النمل في تل الرمل . ونبع من جوف الظلام صوت لم يكن صوتها ، صوت ليس غاضباً ولا حزيناً ولا خائفاً ، صوت مجرد ، يقول : « كان المحامون يتصارعون على جثتي . لم أكن أنا المهم بل كانت القضية هي المهمة» بروفسور ماكسول فستركين من المؤسسين لحركة التسلح الخلقي في أكسفورد ، وماسوني ، وعضو في اللجنة العليا لمؤتمر الجمعيات التبشيرية البروتستنتية في أفريقيا . لم يكن يخفي كراهيته لي . أيام تتلمذي عليه في أكسفورد كان يقول لي في تبرم واضح : « أنت يا مستر سعيد خير مثال على أن مهمتنا الحضارية في افريقيا عديمة الجدوى ،

فأنت بعد كل المجهودات التي بذلناها في تثقيفك كأنك تخرج من الغابة لأول مرة » . ومــع ذلك فها هو ذا يستعمل كل مهارته ليخلصني من حبل المشنقة . وسير آرثر هغنز ، تزوج وطلق مرتين ، مغامراته الغرامية معروفة ، مشهور بصلاته مع اليسار والأوساط البوهيمية. قضيت عبد الميلاد سنة١٩٢٥ في بيته في سافرون ولدن . كان يقــول لي : « أنت وغد ولكنني لا أكره الأوغاد ، فأنا أيضاً وغد » . لكنه في هذه المحكمة سيستعمل كل مهارته ليضع حبل المشنقة حول عنقي. والمحلفون أيضاً ، أشتات من الناس ، منهم العامل والطبيب والمزارع والمعلم والتاجر والحانوتي ، لا تجمع صلة بيني وبينهم، لو انني طلبت استئجار غرفة في بيت أحدهم فأغلب الظن أنه سيرفض ، وإذا جاءت ابنة أحدهم تقول له انني سأتزوج هذا الرجل الافريقي ، فيحس حتما بأن العالم ينهار تحت رجليه . ولكن كل واحد منهم في هذه المحكمة سيسمو على نفسه لأول مرة في حياته. وأنا أحس تجاههم بنوع من التفوق، فالاحتفال مقام أصلاً بسببي ، وأنا فوق كل شيء مستعمر ، انني الدخيل الذي يجب أن يبت في أمره . حين جيء لكتشنر بمحمود ود أحمد وهو يرسف في الاغلال بعد أن هزمه في موقعة اتبرا ، قال له : « لماذا جئت بلدي تخرب وتنهب ؟ » الدخيل هو الذي قال ذلك لصاحب الأرض ، وصاحب الأرض طأطأ رأسه ولم يقل شيئاً . فليكن أيضاً ذلك شأني معهم . انني أسمع في هذه المحكمة صليل سيوف الرومان في قرطاجة ،

وقمقمة سنابك خيل اللنبي وهي تطأ أرض القدس . البواخر مخرت عرض النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز ، وسكك الحديد انشئت أصلاً لنقل الجنود . وقــد أنشأوا المدارس ليعلمونا كيف نقول « نعم » بلغتهم . انهم جلبوا الينا جرثومة العنف الأوربي الأكــبر الذي لم يشهد العالم مثيله من قبل في السوم وفي فردان ، جرثومة مرض فتاك أصابهم منذ أكثر من ألف عام . نعم يا سادتي ، انني جئتكم غازيـــاً في عقر داركم . قطرة من السم الذي حقنتم به شرايين التاريخ . أنا لست عطيلاً . عطيل كان أكذوبة »

بينما كنت أفكر في قول مصطفى سعيد وهو يجلس في هذا المكان عينه ، في ليلة مثــل هذه ، كنت أسمع نشيجها بالبكاء كأنه يصلني من بعد ، يختلط في خيالي بأصوات مبعثرة لا بد انني سمعتها في أوقات متباعدة،ولكنها تداخلت في ذهني كأجراس كنيسة – صراخ طفل في مـــكان ما في الحي ، وصياح ديك ، ونهيق حمار ، وأصوات عرس تأتي من الضفة الأخرى للنهر . لكنني الآن أسمع صوتاً واحداً فقط ، صوت بكائها الممض . ولم أفعل شيئاً . جلست حيث أنا بلا حراك وتركتها تبكي وحدها الليل حتى سكتت . وكان لابـــد أن أقول شيئاً ، فقلت : « التعلق بالماضي لا ينفع أحداً . عندك الولدان ، وأنت مازلت شابة في مقتبل العمر . فكري في المستقبل . ومن يدري ، لعلك تقبلين واحداً من الخطـــاب العديدين الذين يطلبونك »

أجابت فوراً ، بحـــزم و الأمر الذي أدهشني : « بعد مصطفى سعيد لا أدخل على رجل » .

ولم أكن أنوي أن أقول لها ذلك ، ولكنني قلت : « ود الريس يريد زواجك ، وأبوك وأهلك لا يمانعون . كلفني أن أتوسط له عندك » .

وصمتت فـــترة طويلة حتى ظننت انها لن تقول شيئاً ، وفكرت أن أقوم وأذهب . وأخيراً أحسست بصوتها في الظلام كأنه نصل : « إذا أجبروني على الزواج ، فانني سأقتله وأقتل نفسي » .

وفكرت فيعدة أشياء أقولها، ولكنني ما لبثت انسمعت المؤذن ينادي : « الله أكـبر . الله أكـبر » لصلاة العشاء ، فوقفت هي أيضاً ، وخرجت دون أن أقول شيئاً .

وأنا أشرب قهوة الصباح جاءني ود الريس . كنت أنوي الذهاب إلى داره ولكنه لم يمهلـــني . قال انه جاء ليذكرني بدعوة البارحة ، ولكنني كنت أعلم أنه لم يستطع الصـبر فجاء ليعرف مني نتيجة وساطتي . قلت له حالمـــا جلس : « لا فائدة . انهـا لا تريد الزواج اطلاقاً . لو كنت منك لتركت هذا الموضوع البتة » .

لم أكن أحسب أن الخبر سيقع عليه كما وقع فعلا . لكن ود الريس الذي يبدل النساء كما يبدل الحمير ، يجلس أمامي

الآن . وجهه مربد وجفناه يرتعشان ، وقد عض شفته السفلى حتى كاد يقطعها . أخذ يتململ في مقعده وينقر الأرض في عصبية بالغة بعصاه . خلع حذاءه من رجله اليمنى ولبسه عدة مرات ، وكان يتأهب للقيام ثم يجلس ، ويفتح فمه كأنه يريد أن يتكلم ثم يسكت . يا للعجب هل معقول أن ود الريس عاشق ؟ وقلت له : « لن تعدم امرأة غيرها تتزوجها »

قال وعيناه الذكيتان لم تعودا ذكيتين ، أصبحتا كرتين من الزجاج قد استقرتا على حالة واحدة جامدة : « لن أتزوج غيرها. ستقبلني وأنفها صاغر . هل تظن انها ملكة أو أميرة؟ الأرامل في هذا البلد أكثر من جوع البطن . تحمد الله انها وجدت زوجاً مثلي » .

قلت له : «إن كانت امرأة كسائر النساء فلماذا الإصرار؟ أنت تعلم انها رفضت رجالاً غيرك ، بعضهم أصغر منك سناً . إذا أرادت أن تتفرغ لتربية ولديها فلماذا لا تتركونهاوشأنها؟»

بغتة تدفق من ود الريس غضب جنوني لم أكن أظن أنه من طبيعته . ثار ثورة عارمة ، وقال شيئاً أدهشني حقيقة : « اسأل نفسك لماذا ترفض بنت محمود الزواج . انت السبب . لاشك أن بينك وبينها شيئاً. ما دخلك أنت؟ أنت لست أباها ولا أخاها ولا ولي أمرها . انها ستتزوجني رغم انفك وانفها. أبوها قبل واخوانها قبلوا . الكلام الفارغ الذي تتعلمونه في

المدارس لا يسير عندنا . هذا البلد فيه الرجال قوامون على النساء » .

ولا أعلم ماذا كان يحدث لولا أن أبي دخل في تلك اللحظة، وقمت فوراً وخرجت .

ورحت إلى محجوب في حقله . كان محجوب في مثل سني، قضينا طفولتنا معاً ، وكنا نجلس على درجين متلاصقين في المدرسة الأولية ، وكان أذكى مني . ولما انتهينا من مرحلة التعليم الأولى . قال محجوب : هذا القدر من التعليم يكفي ، القراءة والكتابة والحساب . نحن ناس مزارعون مثل آبائنا وأجدادنا . كل ما يلزم المزارع من التعليم ، ما يمكنه من كتابة الخطابات وقراءة الجرائد ومعرفة فروض الصلاة . وإذا كانت لنا مشكلة نعرف نتفاهم مع الحكام » . مضيت أنا في ذلك السبيل ، وتحول محجوب إلى طاقة فعالة في البلد ، فهو اليوم رئيس للجنة المشروع الزراعي ، والجمعية التعاونية ، وهو عضو في لجنة الشفخانة التي كادت تتم ، وهو على رأس كل وفد يقوم إلى مركز المديرية لرفع الظلامات . وحين جاء الاستقلال أصبح محجوب من زعماء الحزب الوطني الاشتراكي الديمقراطي في البلد . كنا أحياناً نتذاكر أيام طفولتنا في القرية فيقول لي : « لكن انظر أين انت الآن وأين أنا . انت صرت موظفاً كبيراً في الحكومة وأنا مزارع في هذه البلدة المقطوعة » . وأقول له باعجاب حقيقي : «انت الذي نجحت

لا أنا ، لأنك تؤثر على الحياة الحقيقية في القطر . أمـــا نحن فموظفون لا نقدم ولا نؤخر . النـــاس امثالك هم الورثاء الشرعيون للسلطة . أنتم عصب الحياة . أنتم ملح الأرض » . ويضحك محجوب ويقول : « إذا كنا نحن ملح الأرض فهي أرض ماسخة » .

ضحك أيضاً بعد أن سمع قصتي مـــع ود الريس وقال : ود الريس رجل نخرف لا يعني مايقول » .

قلت له : « انت تعلم أن علاقتي بها علاقة يمليها الواجب لا أكثر ولا أقل ؟ »

فقال محجوب : « لا تلتفت لتخريف ود الريس . سمعتك في البلد لا تشوبها شائبة . اهـــل البلد كلهم يلهجون بحمدك لأنك تقوم بالواجب نحو اولاد مصطفى سعيد ، رحمه الله ، خير قيام . لقد كان على أي حال رجلاً غريباً لا تربطك به رابطة » . وسكت قليلاً ثم قال : « إنما إذا كان ابو المرأة واخوانها راضين فلا حيلة لأحد » .

قلت له : « ولكن إذا كانت لا تريد الزواج ..»وقاطعني قائلاً : « انت تعرف نظام الحياة هنا. المرأة للرجل،والرجل رجل حتى لو بلغ ارذل العمر » .

قلت له : « ولكن إذا كانت لا تريد الزواج ..»وقاطعني قائلاً : « في هذا العصر »

وقال محجوب : « الدنيا لم تتغير بالقـدر الذي تظنه . تغيرت أشياء . طلمبات الماء بدل السواقي ، محاريث من حديد بـدل محاريث الخشب . أصبحنا نرسل بناتنا للمدارس . راديوهات . أوتومبيلات . تعلمنا شرب الويسكي والبيرة بدل العرقي والمريسة . لكن كل شيء كما كان » . وضحك محجوب وهو يقول : « الدنيا تتغير حقيقة حين يصير أمثالي وزراء في الحكومة » . واضاف وهو ما يزال يضحك : « وهـذا طبعاً من رابع المستحيلات » .

قلت لمحجوب ، وقد سرى عني : « هل تظن أن ود الريس وقع في غرام حسنه بنت محمود ؟ »

قال محجوب : « لا يستبعد . ود الريس رجل صبابة . وهو منذ سنتين يلهج بذكرها . وقد طلبها من قبل وأبوها قبل ولكنها رفضت . وانتظروا لعلها تقبل مع مرور الزمن »

قلت لمحجوب : « لكن لماذا هـذا الغرام الفجائي ؟ ود الريس يعرف حسنه بنت محمود منذ كانت طفلة . هل تذكرها وهي طفلة شرسة تتسلق الشجر وتصارع الأولاد؟ كانت وهي فتاة تسبح معنا عارية في النهر . ماذا جد الآن ؟ »

وقال محجوب : « ود الريس كهؤلاء الناس المغرمين باقتناء الحمير ، الواحد منهم لا تعجبه الحمارة إلا إذا رأى رجلاً آخر راكباً عليها . يراها حينئذ جميلة ويسعى جاهداً لشرائها حتى

ولو دفع فيها أكثر مما تستحق » . وصمت مدة يفكر ثم قال : « ولكن الحقيقة ان بنت محمود قد تغيرت بعد زواجها من مصطفى سعيد . كل النسوان يتغيرن بعد الزواج لكنها هي خصوصاً تغيرت تغيراً لا يوصف . كأنها شخص آخر . حتى نحن أندادها الذين كنا نلعب معها في الحي ، ننظر اليها اليوم فنراها شيئاً جديداً . هل تعرف ؟ كنساء المدن »

وسألت محجوب عن مصطفى سعيد فقال : « رحمه الله . كان يحترمني وكنت أحترمه . لم تكن الصلة بيننا وثيقة أول الأمر . ولكن عملنا معاً في لجنة المشروع قرب بيننا . موته كان خسارة لا تعوض . هل تعلم ، لقد ساعدنا مساعدة قيمة في تنظيم المشروع . كان يتولى الحسابات . خبرته في التجارة أفادتنا كثيراً . وهو الذي أشار علينا باستغلال أرباح المشروع في إقامة طاحونة للدقيق . لقد وفرت علينا أتعاباً كثيرة ، وأصبح الناس اليوم يجيئونها من أطراف البلد . وهو الذي أشار علينا أيضاً بفتح دكان تعاوني . الأسعار الآن عندنا لا تزيد عن الأسعار في الخرطوم . زمان ، كما تعلم ، كانت البضائع تأتي مرة أو مرتين في الشهر بالباخرة . كان التجار يخزنونها حتى تنقطع كلية من السوق ، ثم يبيعونها بأضعاف مضاعفة . المشروع يملك اليوم عشرة لواري تجلب لنا البضائع كل يوم والآخر مباشرة من الخرطوم وأمّ درمان . ورجوته أكثر من مرة أن يتولى الرئاسة ولكنه كان يرفض

ويقول انني أجدر منــــه . العمدة والتجار كانوا يكرهونه كراهية شديدة لأنه فتح عيون أهـــل البلد وأفسد عليهم أمرهم . بعد موته قامت إشاعات بأنهم دبروا قتله . مجرد كلام . لقد مات غرقاً . عشرات الرجال ماتوا غرقاً ذلك العام . كان عقلية واسعة . ذلك هو الرجل الذي كان يستحق أن يكون وزيراً في الحكومة لو كان يوجد عدل في الدنيا .

فقلت لمحجوب : « السياسة أفسدتك . أصبحت لا تفكر إلا في السلطة . دعك من الوزارات والحكومة وحدثني عنه كانسان . أي نوع من الناس كان هو ؟ »

وظهرت الدهشة على وجهه وقال : « ماذا تقصد أي نوع من الناس ؟ إنه كان كما ذكرت لك » .

ولم أستطع أن أجد الكلمات المناسبـة لأوضح لمحجوب قصدي . وقال هو : «مهما يكن ... ايش السبب في اهتمامك بمصطفى سعيد ؟ لقد سألتني عنه كذا مرة من قبـــل ؟ » واستطرد محجوب قبل أن أرد على كلامه : « تعرف ؟ لا أفهم لماذا جعلك وصياً على ولديه . طبعاً أنت تستحق شرف الأمانة وقد قمت بها خير قيام . لكنك كنت أقلنا معرفة به . نحن معه هنا في البلد ، وأنت كنت تراه من العام إلى العام . كنت أتوقع أن يجعلني أو يجعل جدك وصياً . جدك كان صديقه الحميم . كان يحب الاستماع إلى حديثه . كان يقول

لي : تعرف يا محجوب ؟ حاج أحمد رجـل فريد من نوعه . وكنت أقول له : حاج أحمد رجل مخرف . فيزعـــل جد ويقول : « لا ، لا تقل هذا . حاج أحمد جزء من التاريخ » .

قلت لمحجوب : « أنا على أي حال وصي إسمياً . الوصي الحقيقي هو أنت . الولدان هنا معك . وأنا بعيد في الخرطوم»

فقال محجوب : « انهما ولدان ذكيان مؤدبان . فيهما مخايل أبيهما . سيرهما في الدراسة أحسن ما يكون »

فقلت له : « مـــاذا يحدث لها إذا تم موضوع الزواج المضحك الذي يريده ود الريس ؟ »

فقال محجوب : « هون عليك . حتما ود الريس سينشغل بامرأة أخرى . وعلى أسوأ الفروض تتزوجه . لا أظنه يعيش أكثر من عام أو عامين . ويكون لهـا سهم في ارضه وزرعه الكثير »

ثم ، مثل ضربة مفاجئة تنزل على أم الرأس ، نزل علي قول محجوب : « لماذا لا تتزوجها انت ؟ » خفق قلبي بين جنبي خفقانا كاد يفلت زمامه من يدي . ولم أجد الكلمات إلا بعد مدة . قلت لمحجوب وصوتي يرتجـف : « لا شك انك تمزح »

فقال : « جد . لماذا لا تتزوجها ؟ أنا متأكد انهـــا

ستقبل . انت وصي على الولدين ، وبالأحرى أن تتم الموضوع وتصبح أبا »

وأحسست بعطرها ليلة أمس ، وتذكرت الأفكار التي نبتت في رأسي بشأنها في الظلام . وسمعت محجوب يضحك ويقول « لا تقل لي انك زوج وأب . الرجال يتزوجون على زوجاتهم كل يوم . لن تكون أولهم ولا آخرهم »

وقلت لمحجوب ، وقد استعدت سيطرتي على نفسي ، وأنا أضحك ايضاً : « انت مجنون حقاً »

وتركته وذهبت ، وان كنت قد ايقنت من حقيقة ستأخذ كثيراً من راحة بالي فيما بعد . انني ، بشكل أو بآخر ، أحب حسنة بنت محمود ، ارملة مصطفى سعيد . أنا ، مثله ومثل ود الريس وملايين آخرين ، لست معصوماً من جرثومة العدوى التي يتنزى بها جسم الكون .

- ٧ -

احتفلنا بختان الولدين وعدت للخرطوم . تركت زوجتي وابنتي في البلد ، وسافرت في الطريق الصحراوي في سيارة من سيارات المشروع التي ذكرها محجوب . كنت أسافر عادة بالباخرة إلى ميناء كريمة النهري ، ومن هناك آخذ القطار ماراً بأبي حمد وأتبرا إلى الخرطوم . لكنني هذه المرة كنت في عجلة من أمري دون سبب واضح ، ففضلت اختصار الطريق . وقامت السيارة في أول الصباح ، وسارت شرقاً حذاء النيل نحو ساعتين ، ثم اتجهت جنوباً في زاوية مستقيمة وضربت في الصحراء . لا يوجد مأوى من الشمس التي تصعد في السماء بخطوات بطيئة وتصب أشعتها على الأرض كأن بينها وبين أهل الأرض ثأراً قديماً . لا مأوى سوى الظل الساخن في جوف السيارة ، وهو ليس ظلاً . طريق مل يصعد ويهبط ، لا شيء يغري العين . شجيرات مبعثرة في الصحراء ، كلها أشواك ، ليست لها اوراق ، اشجار بائسة ليست حية ولا ميتة . تسير السيارة ساعات دون ان يعترض

طريقها انسان أو حيوان . ثم نمر بقطيع من الجمال هي الأخرى عجفاء ضامرة . لا توجد سحابة واحدة تبشر بالأمل في هذه السماء الحارة ، كأنها غطاء الجحيم . اليوم هنا شيء لا قيمة له ، مجرد عذاب يتعذبه الكائن الحي في انتظار الليل. الليل هو الخلاص . وفي حالة تقرب من الحمى طافت برأسي نتف من أفكار ، كلمات من جمل ، وصور لوجوه واصوات تجيء كلها يابسة كالأعاصير الصغيرة التي تهب في الحقول البور . فيم العجلة ؟ سألتني : « فيم العجلة ؟ » قالت : « ولماذا تمكث اسبوعاً آخر ؟ » قالت .. الحمارة السوداء ، اعرابي غش عمك وباعه الحمارة السوداء . وقال أبي : « هل هذا شيء يثير الغضب ؟ » عقل الإنسان ليس محفوظاً في ثلاجة . انها هذه الشمس التي لا تطاق . تذوب المخ تشل التفكير . ومصطفى سعيد ، وجهه ينبع واضحاً في خيالي كما رأيته أول يوم ، ثم يضيع في أزيز محركات السيارة ، وصوت احتكاك بحصى الصحراء ، واحاول جاهداً استعادته فلا استطيع . يوم الاحتفال بختان الولدين ، خلعت حسنه الثوب عن رأسها ورقصت كما تفعل الأم يوم ختان ولديها . يا لها من امرأة . لماذا لا تتزوجها انت ؟ كيف كانت ايزابيلا سيمور تناجيه ؟ « اغتلني ايها الغول الأفريقي . احرقني في نار معبدك أيها الإله الاسود . دعني أتلوى في طقوس صلواتك العربيدة المهيجة » وها هنا منبع النار . هـا هو المعبد . لاشيء . الشمس والصحراء ونباتات يابسة وحيوانات عجفاء . ويهتز كيان

السيارة حين تنحدر في واد صغير . وتمر بعظام جمل نفق من العطش في هذا التيه . ويعود إلى خيالي وجه مصطفى سعيد في وجه ابنه الأكبر . انه اكثر الولدين شبهاً به . يوم حفلة الختان انا ومحجوب شربنا اكثر مما يجب . الناس في بـــلدنا لرتابة الحياة عندهم يجعلون من أي حدث سعيد مهما صغر عذراً لاقامة حفل كحفل العرس . جررته من يــــده في الليل ، والمغنون يغنون والرجال يصفقــون في قلب الدار . وقفنا أمام باب الغرفـــة تلك . قلت له : « أنا وحدي عندي المفتاح . باب من الحديد » . قال لي محجوب بصوته المخمور : « هل تدري ما بداخلها ؟ » قلت له : « نعم » قال : « ماذا ؟ » فقلت وأنا اضحك تحت وطـــأة الخمر : « لا شيء . لا شيء اطلاقاً » . هذه الغرفـة عبارة عن نكتة كبيرة . كالحياة . تحسب فيها سراً وليس فيهـــا شيء . « لا شيء إطلاقـــاً » . وقال محجوب : « أنت سكران ، هذه الغرفة مليئة من أرضها إلى سقفها بالكنوز . ذهب ، وجواهر ، ودرر ولآلى . هل تعلم من هو مصطفى سعيد ؟ » قلت له ان مصطفى سعيد كان أكذوبة ، وضحكت مرة أخرى ضحكة مخمورة وقلت له : « هل تريد أن تعرف حقيقـة مصطفى سعيد ؟ » فقال محجوب : « أنت لست سكران بل مجنوناً أيضاً . مصطفى سعيد هو في الحقيقة نبي الله الخضر . يظهر فجأة ويغيب فجأة . والكنوز التي في هذه الغرفة هي كنوز الملك سليمان حملها الجان إلى هنا . وأنت

عندك مفتاح الكنز . « افتح يا سمسم ودعنا نفرق الذهب والجواهر على الناس » . وكاد محجوب يصرخ ويجمع الناس لولا انني أغلقت فمه بيدي . وفي الصباح استيقظ كل واحد منا في بيته لا ندري كيف وصلنا . والطريق لا ينتهي عند حد ، والشمس لا تكل . لا غرو أن مصطفى سعيد هرب إلى زمهرير الشمال . ايزابيلا سيمور قالت له : « المسيحيون يقولون أن الههم صلب ليحمل وزر خطاياهم . انه إذن مات عبثاً . فما يسمونه الخطيئة ما هو إلا زفرة الاكتفاء بمعانقتك يا إله وثنيتي . أنت إلهي ، ولا إله غيرك » . لا بد أن هذا هو سبب انتحارها ، وليس مرضها بالسرطان . كانت مؤمنة حين قابلته. كفرت بدينها وعبدت إلهاً كعجل بني إسرائيل. يا للغرابة . يا للسخرية . الانسان لمجرد انه خلق عند خط الاستواء ، بعض المجانين يعتبرونه عبداً وبعضهم يعتبرونه إلهاً . أين الاعتدال ؟ أين الاستواء ؟ وجدي بصوته النحيل وضحكته الخبيثة حين يكون على سجيته ، أين وضعه في هذا البساط الأحمدي ؟ هل هو حقيقة كما أزعم أنا وكما يبدو هو ؟ هل هو فوق هذه الفوضى ؟ لا أدري . ولكنه بقي على أي حال ، رغم الأوبئة وفساد الحكم وقسوة الطبيعة . وأنا موقن أن الموت حين يبرز له سيبتسم هو في وجه الموت . ألا يكفي هذا ؟ هل ابن آدم مطالب بأكثر من هذا ؟ وبرز لنا من وراء التل اعرابي جاء يهرول نحونا ، وقطع الطريق على السيارة فتوقفنا . بدنه وثيابه بلون الأرض . وسأله السائق ماذا

يريد ؟ قـال : « أعطوني سيجارة أو تنباك لوجه الله . لي يومان لم أذق طعم التنباك » . لم يكن عندنا تنباك فأعطيته سيجارة . وقلنا بالمرة نقف قليلاً ونستريح من عناء الجلوس . لم أرَ في حياتي انساناً يشرب السجائر بتلك اللهفة . جلس الاعرابي على مؤخرته وأخذ يشفط الدخان بنهم فوق الوصف. بعد دقيقتين مد لي يده فأعطيته سيجارة أخرى . التهمها كما فعل مع الأولى . ثم أخذ يتلوى على الأرض كأنه مصاب بالصرع . وبعدها تمدد على الأرض وطوق رأسه بيديه وهمد تماماً كأنه ميت . وظل هكذا طول مكوثنـا ، زهاء ثلث ساعة. ولما دارت محركات السيارة،هب واقفاً،إنساناً بعث إلى الحياة ، وأخذ يحمدني ويدعو الله لي بطول العمر ، فرميت له علبة السجائر بما بقي فيها . وثار الغبار خلفنا ، وراقبت الاعرابي يجري نحو خيام مهلهلة عند شجيرات ناحية الجنوب . عندها غنيمات وأطفال عراة . اين الظل يا إلهي ؟ مثل هذه الأرض لا تنبت ,لا الأنبياء . هـذا القحط لا تداويه إلا السماء . والطريق لا ينتهي والشمس لا ترحم ؛ والسيارة الآن تولول ولولة على أرض من الحصى مبسوطة كالمائدة . « إنا قوم منقطع بنا فحدثونا أحاديث نتجمل بها » . من قال هـذا ؟ ثم : « كالمنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » . والسائق لا يتكلم . امتداد للمكنة التي يديرها ، يلعنها أحياناً ويشتمها ، والأرض حولنا دائرة غرقى في السراب . « وظل يرفعنا آل ويخفضنا آل وتلفظنا بيد إلى بيد » . محمد سعيد العباسي ،

يا له من شاعر . وأبو نواس . « شربنا شرب قوم ظمئوا من عهد عاد » . هذه أرض اليأس والشعر ولا أحد يغني . ولقينا سيارة حكومية معطلة حولها خمسة عساكر وشاويش متدرعين البنادق . وقفنا . شربوا من مائنا وأكلوا من زادنا وأعطيناهم البنزين . قالوا ان امرأة من قبيلة المريصاب قتلت زوجها والحكومة ذاهبة لتقبض عليها . ما اسمها ؟ ما اسمه ؟ لماذا قتلته ؟ لا يعلمون – فقط انها من قبيلة المريصاب وأنها قتلته وأنه زوجها . ولكنهم سيعرفونه . قبائل المريصاب والهواوير والكبابيش . القضاة المقيم منهم والمتنقل . مفتش شمالي كردفان، مفتش جنوبي الشمالية ، مفتش شرقي الخرطوم. الرعاة على مساقط الماء . المشايخ والنظار . البدو في خيام الشعر ، في مفارق الوديان . كلهم سيعرفون اسمها ، فليس كل يوم تقتل امراة رجلا ، بله زوجها ، في هذه الأرض التي لم تترك الشمس فيها قتلا لقاتل . وخطرت لي فكرة ، قلبتها في ذهني ثم قررت أن أعبر عنها وأرى ما يحدث . قلت لهم انها لم تقتله بل هو مات من ضربة الشمس، كما ماتت ايزابيلا سيمور وشيلا غرينود وآن همند وجين مورس . لم يحدث شيء . وقال الشاويش : « كان عندنا قمندان بوليس ملعون اسمه ماجور كوك » . لا فائدة . لا دهشة . وساروا وسرنا . الشمس هي العدو . انها الآن في كبد السماء تماما ، كما يقول العرب . يا للكبد الحرى. وستظل هكذا ساعات لا تتحرك، أو هكذا يخيل للكائن الحي ، حتى يئن الحجر ويبكي

الشجر ويستغيث الحديد . بكاء امرأة تحت رجل عند الفجر ، وفخذان بيضاوان مفتوحتان . هما الآن كعظام الجمال الجافة المتناثرة في الصحراء . لا طعم . لا رائحة . لا خير . لا شر . عجلات السيارة تصدم الحصى بحقد . طريقه المعوج سرعان ما يؤدي به إلى الكارثة . وفي الغالب تكون الكارثة واضحة أمامه وضوح الشمس ، بحيث اننا نعجب كيف أن رجلاً ذكياً كهذا ، هو في الحقيقة في غاية الغباء . انه منح قدراً عظيماً من الذكاء ولكنه حرم الحكمة . انه أحمق ذكي . هذا ما قاله القاضي في « الأولد بيلي » قبل أن يصدر الحكم . والطريق لا ينتهي والشمس واضحة وضوح الشمس . سأكتب لمسز روبنسن . تعيش في شانكلن في آيل أوف وايت . علق عنوانها بذاكرتي من حديث مصطفى سعيد تلك الليلة . زوجها مات بالتايفوئيد ودفن في القاهرة في مقبرة الإمام الشافعي . نعم ، اعتنق الإسلام . مصطفى سعيد قال انها حضرت المحاكمة من أولها إلى آخرها . كان هادئاً طول المدة . بعد أن صدر الحكم بكى على صدرها . مسحت رأسه وقبلته على جبهته وقالت : « لا تبك يا طفلي العزيز ». لم تكن تحب جين مورس . حذرته من زواجها . سأكتب لها فلعلها تلقي الضوء ، لعلها تذكر أشياء هو نسيها أو أهمل ذكرها . وانتهت الحرب فجأة بالنصر . شفق المغيب ليس دماً ولكنه حناء في قدم المرأة ، والنسيم الذي يلاحقنا من وادي النيل يحمل عطراً لن ينضب في خيالي ما دمت حيا . وكا تحط

قافلة رحالها حططنا رحلنا . بقي من الطريق أقله . طعمنا وشربنا . صـــلى أناس صلاة العشاء ، والسواق ومساعدوه أخرجوا من أضابير السيارة قناني الخمر ، وأنا استلقيت على الرمل وأشعلت سيجارة وتهت في روعة السماء . والسيارة أيضاً سُقيت الماء والبنزين والزيت ، وهي الآن ساكنة راضية كمهرة في مراحهـــا . انتهت الحرب بالنصر لنا جميعاً ، الحجارة والأشجار والحيوانات والحديد ، وأنا الآن تحت هذه السماء الجميلة الرحيمة أحس اننا جميعاً أخوة . الذي يسكر والذي يصلي والذي يسرق والذي يزني والذي يقاتل والذي يقتل . الينبوع نفسه . ولا أحد يعلم ماذا يدور في خلد الاله. لعله لا يبالي . لعله ليس غاضباً . في ليلة مثل هذه تحس انك تستطيع أن ترقى إلى السماء على سلم من الحبال . هذه أرض الشعر والممكن وابنتي اسمها آمال . سنهدم وسنبني وسنخضع الشمس ذاتها لارادتنا وسنهزم الفقر بأي وسيلة . السواق الذي كان صامتاً طول اليوم ها قد ارتفعت عقيرته بالغناء . صوت عذب سلسبيل لا تحسب انه صوته. يغني لسيارته كما كان الشعراء في الزمن القديم يغنون لجمالهم :

دركسونك مخرطة وقايم على بولاد
وغير ست النفور الليلة ما في رقاد

وارتفع صوت آخر يجاوبه :

تارين السفر من دار كول والكمبو

هوزز راسه فرحان بالسفر يقنبه
أب دومات غرفن عرقه اتنادن به
ضرب الفجة وأصبح ناره تاكل الجنبه

ثم نبع صوت ثالث يجاوب الصوتين :

واوحيحي ووا وجـع قلـــبي
من صيدة القنص الفترت كلبي
القاري العـــلم من دينه بتسلبي
والماشي الحجاز من جـده بتقلبي

نحن هكذا وكل سيارة تمر بنا طالعة أو نازلة ، تقف ، حتى اجتمعت قافلة عظيمة ، أكثر من مائة رجـــل طعموا وشربوا وصـلوا وسكروا . ثم تحلقنا حلقة كبيرة ، ودخل بعض الفتيـــان وسط الحلقة ورقصوا كما ترقص البنات . وصفقنا وضربنا الأرض بأرجلنا وحمحمنا بحلوقنا ، وأقمنا في قلب الصحراء فرحاً للاشيء. وجاء أحد بمذياعه الترانزستور ، وضعناه وسط الدائرة ، وصفقنا ورقصنا على غنائـــه . وخطرت لأحد فكرة ، فصف السواقون سياراتهم على هيئة دائرة وساطوا أضواءها على حلقة الرقص ، فاشتعلت شعلة من الضوء لا أحسب تلك البقعة رأت مثلها من قبل . وزغرد الرجال كما تزغرد النساء وانطلقت أبواق السيارات جميعاً في آن واحد . وجذب الضوء والضجة البدو من شعاب الوديان وسفوح التلال المجاورة ، رجال ونساء ، قوم لا تراهم بالنهار

كأنهم يذوبون تحت ضوء الشمس. اجتمع خلق عظيم ودخلت الحلقة نساء حقيقيات ، لو رأيتهن نهاراً لما أعرتهن نظرة ، ولكنهن جميلات في هذا الزمان والمكان . وجاء اعرابي بخروف وكأه وذبحه وشوى لحمه على نار أوقدها. وأخرج أحد المسافرين من السيارة صندوقين من البيرة وزعها وهو يهتف : « في صحة السودان . في صحة السودان » . ودارت صناديق السجائر وعلب الحلوى ، وغنت الاعرابيات ورقصن ، وردد الليل والصحراء أصداء عرس عظيم كأننا قبيل من الجن. عرس بلا معنى ، مجرد عمل يائس نبع ارتجالاً كالأعاصير الصغيرة التي تنبع في الصحراء ثم تموت . وعند الفجر تفرقنا. عاد الاعراب أدراجهم إلى شعاب الأودية . تصايح الناس : « مع السلامة . مع السلامة » . وركضوا كل إلى سيارته . أزت المحركات ، وتحولت الأضواء من المكان الذي كان قبل لحظات مسرح أنس ، فعاد إلى سابق عهده ، جزء من الصحراء . واتجهت أضواء السيارات ، بعضها نحو الجنوب صوب النيل ، وبعضها نحو الشمال صوب النيل . وثار الغبار راختفى ثم ثار واختفى . وأدركنا الشمس على قمم جبال كررى أعلى أم درمان .

- ٨ -

دارت الباخرة حول نفسها حتى لا تكون المحركات في مجرى التيار. كل شيء كما يحدث كل مرة. الصفارة المبحوحة، والقوارب من الشاطىء المقابل، شجر الجميز واللغط على رصيف المحطة. الا من فارق عظيم. وخرجت وصافحني محجوب وهو يتجنبني بنظراته. كان وحده في استقبالي هذه المرة. وكان خجلاً كأنه يحس بالذنب، أو كأنه يحمّلني أنا المسئولية. ولم أكد أصافحه حتى قلت له: «كيف تركتم هذا يحدث؟» قال محجوب وهو يسوي سرج الحمارة السوداء الطويلة، حمارة عمي عبد الكريم: «الذي كان. الولدان بخير وهما عندي». انني لم أفكر في الولدين طوال هذه الرحلة المشؤومة. كنت أفكر فيها. قلت لمحجوب مرة أخرى: «ماذا حدث؟» لا يزال يتجنب وجهي. ظل صامتاً. أصلح الفروة على السرج، وربط البطان حول بطن حماره. أزاح السرج إلى الأمام قليلاً وأمسك عنان اللجام ثم قفز. ظللت واقفاً أنتظر الرد الذي لم يأت فقفزت

أنا أيضاً . قال وهو يلكز حماره : « كما أخبرتك في البرقية . لا فائدة من الخوض في الموضوع . لم نكن نتوقع حضورك على أي حـــال » . قلت له أشجعه على الكلام : « ليتني عملت بنصيحتك وتزوجتها » . لم أستفد سوى أنني زدت صمتـــه عمقاً . ولا بد أنه كان غاضباً ، فقد لكز الحمارة لكزة قوية بكعبه والحمارة لم تفعل شيئاً . قلت له وأنا ألاحقه ولا ألحقه : « منذ وصلتني برقيتك وأنا لم آكل ولم أنم ولم أتـــكلم مع إنسان . ثلاثة أيام من الخرطوم بالقطار والباخرة وأنا أفكر وأسأل نفسي كيف حدث ما حدث ولا أجـد الجواب » . وكأنما رثى لحالي فقال بعطف : « هذه أسرع مرة تعود فيها إلى البلد » . قلت له : « نعم . اثنان وثلاثون يوماً بالضبط » . قال : « هل من جـديد في الخرطوم ؟ » قلت له : « كنا مشغولين في مؤتمر » . بدا الاهتمام على وجهه . فانـــه يحب أخبار الخرطوم ، خاصة أخبار الفضائح والرشاوي وفساد الحكام . قال باهتمام بالغ واضح ، وقد حز في نفسي أنه نسي ما نحن فيه : « بماذا يأتمرون هذه المرة ؟ » قلت له باعياء ، وقـــد فضلت اختصار الطريق : « وزارة المعارف نظمت مؤتمراً دعت له مندوبين عن عشرين قطراً أفريقياً لمناقشة سبل توحيد أساليب التعليم في القارة كلها . كنت أنا عضواً في سكرتارية المؤتمر » . قال محجوب : « فليبنوا المـدارس أولاً ثم يناقشوا توحيد التعليم . كيف يفكر هؤلاء الناس ؟ يضيعون الوقت في المؤتمرات والكلام الفارغ ونحن هنـــا

أولادنا يسافرون كذا ميلاً للمدرسة . ألسنا بشراً ؟ ألسنا ندفع الضرائب ؟ أليس لنا حق في هذا البلد ؟ كل شيء في الخرطوم . ميزانية الدولة كلها تصرف في الخرطوم . مستشفى واحد في مروى نسافر له ثلاثة أيام ، النساء يمتن أثناء الوضع. لا توجد داية واحدة متعلمة في هذا البلد . وأنت ماذا تصنع في الخرطوم ؟ ما الفائدة أن يكون لنا ابن في الحكومة ولا يفعل شيئاً ؟ »

كانت حمارتي قد فاتته ، فجذبت لجامها حتى يلحق بي وآثرت الصمت . لو كان الوقت غير هذا الوقت لصرخت في وجهه ، فأنا وهو هكذا منذ طفولتنا ، يصرخ أحدنا على الآخر حين يغضب . ثم نرضى وننسى. ولكنني جائع ومتعب وقلبي مثقل بهم عظيم . لو كان الزمان أحسن مما هو عليه الآن ، لأضحكته وأغضبته بقصص ذلك المؤتمر . لن يصدق أن سادة أفريقيا الجدد ، ملس الوجوه ، أفواههم كأفواه الذئاب ، تلمع في أيديهم خثم من الحجارة الثمينة ، وتفوح نواصيهم برائحة العطر ، في أزياء بيضاء وزرقاء وسوداء وخضراء من الموهير الفاخر والحرير الغالي تنزلق على أكتافهم كجلود القطط السيامية ، والأحذية تعكس أضواء الشمعدانات ، تصر صريرا على الرخام — لن يصدق محجوب أنهم تدارسوا تسعة أيام في مصير التعليم في افريقيا في « قاعة الاستقلال » التي بنيت لهذا الغرض ، وكلفت أكثر من مليون جنيه ، صرح

من الحجر والاسمنت والرخام والزجاج ، مستديرة كاملة الاستدارة ، وضع تصميمها في لندن ، ردهاتها من رخام أبيض جلب من إيطاليا، وزجاج النوافذ ملون، قطع صغيرة مصفوفة بمهارة في شبكة من خشب التيك ، أرضية القاعة مفروشة بسجاجيد عجمية فاخرة ، والسقف على شكل قبة مطلية بماء الذهب ، تتدلى من جوانبها شمعدانات كل واحد منها بحجم الجمل العظيم . المنصة حيث تعاقب وزراء التعليم في أفريقيا طوال تسعة أيام من رخام أحمر كالذي في قبر نابليون في الانفاليد ، وسطحها أملس لماع من خشب الابنوس . على الحيطان لوحات زيتية، وقبالة المدخل خريطة واسعة لأفريقيا من المرمر الملون ، كل قطر بلون . كيف أقول لمحجوب أن الوزير الذي قال في خطابه الضافي الذي قوبل بعاصفة من التصفيق : « يجب ألا يحدث تناقض بين ما يتعلمه التلميذ في المدرسة وبين واقع الشعب . كل من يتعلم اليوم يريد أن يجلس على مكتب وثير تحت مروحة ويسكن في بيت محاط بحديقة مكيف بالهواء يروح ويجيء في سيارة أمريكية بعرض الشارع . اننا إذا لم نجتث هذا الداء من جذوره تكونت عندنا طبقة برجوازية لا تمت إلى واقع حياتنا بصلة ، وهي أشد خطراً على مستقبل أفريقيا من الاستعمار نفسه » — كيف أقول لمحجوب أن هذا الرجل بعينه يهرب أشهر الصيف من أفريقيا إلى فيلته على بحيرة لوكارنو ، وان زوجته تشتري حاجياتها من هرودز في لندن ، تجيئها في طائرة خاصة ، وأن

أعضاء وفده أنفسهم يجاهرون بأنـــه فاسد مرتش ، ضيـع الضياع وأقام تجارة وعمارة ، وكون ثروة فادحة من قطرات العرق الـتي تنضح على جبـاه المستضعفين أنصاف العراة في الغابات ؟ هؤلاء قوم لاهم لهم إلا بطونهم وفروجهم . لا يوجد عدل في الدنيا ولا اعتدال . وقد قال مصطفى سعيد : « إنما أنا لا أطلب المجد ، فمثلي لا يطلب المجد » . لو انه عاد عودة طبيعية لأنضم إلى قطيع الذئاب هذا . كلهم يشبهونه ، وجوه وسيمة ووجوه وسمتها النعمة . وقد قال أحد الوزراء أولئك في حفلة اختتام المؤتمر انه كان استاذه . أول ما قـدموني له هتف : « انك تذكرني بصديق عزيز كنت على صلة وثيقة به في لندن . الدكتور مصطفى سعيد. كان أستاذي عام ١٩٢٨.
كان هو رئيساً لجمعية الكفاح لتحرير أفريقيا وكنت أنا عضواً في اللجنة . يا له من رجل . انه من أعظم الأفريقيين الذين عرفتهم . كانت له صلات واسعة . يا إلهي ، ذلك الرجل .
كانت النساء تتساقط عليه كالذباب . كان يقـــول سأحرر أفريقيا بـ ... ي » وضحك حتى بانت مؤخرة حلقـــه . وأردت أن أسأله ، لكنه اختفى في زحمة الرؤساء والوزراء.
مصطفى سعيد لم يعد يعنيني الآن ، فقد شغلت عنه بنفسي . برقية محجوب غيرت كل شيء . حين قرأت رد مسز روبنسن على رسالـــتي أول مرة أحسست بفرح عظيم . وفي القطار قرأتها للمرة الثانية ، محاولاً أن أبعد أفكاري عن تلك النقطة التي صارت محور دورانها . ولكن دون جدوى .

ومضت الحمير تتقاذف الحجارة بأظلافها ، وقال محجوب: « لماذا صمت كأنك أبكم ؟ لماذا لا تقول شيئاً ؟ » قلت له : « الموظفون أمثالي لا يستطيعون أن يغيروا شيئاً . إذا قال سادتنا افعلوا كذا فعلنا . أنت رئيس الحزب الوطني الاشتراكي الديموقراطي هنا . انه الحزب الحاكم . لماذا لا تصب غضبك عليهم ؟ »

وقال محجوب كالمعتذر : « لولا ... لولا أن هذه الكارثة قد ... يوم الحادث كنا نتأهب للسفر في وفد للمطالبة ببناء مستشفى كبير ومدرسة وسطى للبنين ومدرسة أولية للبنات ومدرسة زراعة و ... » وقطع خطبته فجأة ولاذ بصمته الغاضب . ونظرت أنا إلى النهر إلى يسارنا يلمع بالخطر ويدوي بأصوات مبهمة . ثم أمامنا القباب العشر وسط المقبرة . وحزت الذكرى في قلبي ، وقال محجوب : « دفناها أول الصباح دون ضوضاء . أمرنا النساء ألا يبكين . لم نقم مأتماً ولم نخبر أحداً . كان سيجيئنا البوليس . وتحقيق وفضائح ». قلت له بذعر : « لماذا البوليس ؟ » نظر إلي برهة ثم سكت، وبعد مدة طويلة قال :« بعد أسبوع أو عشرة أيام من سفرك، أبوها قال انه أعطى ود الريس وعداً . عقدوا له عليها . أبوها شتمها وضربها وقال لها : تتزوجينه رغم أنفك . أنا لم أحضر العقد . لم يحضر أحد العقد غير بكري وجدك وبنت مجذوب . أصدقاؤه . أنا شخصياً حاولت أن أثني ود الريس

عن عزمه ، ولكنه أصر . كأنما أصابه هوس وكلمت أباها فقال انه لا يصبح اضحوكة ، يقول الناس ابنته لا تسمع كلامه. بعد الزواج قلت لود الريس يأخذها بالسياسة . أقامت عنده اسبوعين لا تكلمه ولا يكلمها. كانت ... كان في حالة لاتوصف. كالمجنون . اشتكى لطوب الأرض . يقول كيف تكون في بيته امرأة تزوجها بسنة الله ورسوله ولايكون بينهما مايكون بين الزوج وزوجته . كنا نقول له : اصبر . ثم ...»

الحمار والحمارة نهقا بغتة في آن واحد حتى كدت أسقط من على السرج . ولبثت أسأل يومين بطولها ولا أحد يقول لي. كلهم كانوا يتجنبونني بنظراتهم كأنهم شركاء في إثم عظيم . وقالت أمي : « لماذا تركت عملك وجئت ؟ » قلت لها : « الولدان » . نظرت إلي برهة نظرة فاحصة وقالت : « الأولاد ، أم ، أم الأولاد ؟ ماذا بينك وبينها ؟ جاءت لأبيك وقالت له بلسانها : قولوا له يتزوجني . يا للجرأة وفراغة العين . « نساء آخر زمن » . وكله كوم والفعل القبيح الذي فعلته كوم »

وجدي أيضاً لم يسعفني بشيء وجدته راقداً على سريره في حالة من الإعياء لم أعرفها فيه . كان كأنما ينبوع الحياة عنده قد نضب فجأة . ظللت جالساً وظل هو لا يتكلم . فقط يتأوه من آن لآخر ، ويتقلب على سريره ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . كلما فعل ذلك أحس بوخز ، كأن بيني

وبين الشيطان سبباً . وبعد انتظار طويل قال يخاطب سقف الغرفة : « لعنة الله على النسوان . النسوان اخوات الشيطان . ود الريس ، ود الريس » . وانفجر جدي يبكي . انني لم أره يبكي في حياتي . بكى طويلاً ثم مسح دموعه بطرف ثوبه وصمت حتى ظننته قد نام . بعد زمن قال : « رحمة الله عليك يا ود الريس . اللهم أغفر له وتغمده برحمتك » . وتمتم بدعوات وقال : « كان رجلاً عديم النظير ، دائماً يضحك ، دائماً تجده وقت الشدة . لم يطلب منه أحد حاجة وقال لا . ليته سمع كلامي . ينتهي هذه النهاية . لا حول ولا قوة إلا بالله . أول مرة يحصل شيء مثل ذلك في هذا البلد منذ خلقه الله . نحن آخر الزمن » . تشجعت وسألته : « ماذا حدث ؟ »

لم يحفل بسؤالي وتشاغل زمناً بمسبحته ثم قال : « تلك القبيلة لا يجيء من ورائها إلا الشر . قلت لود الريس : هذه المرأة شؤم . أبعد عنها . انما الأجل ...»

في صبيحة اليوم الثالث حملت زجاجة الوسكي في جيبي وذهبت إلى بنت مجذوب . إذا لم تقل لي بنت مجذوب فلن يقول لي أحد . وصبت بنت مجذوب من الزجاجة في إناء كبير من الالمون ، وقالت : « لا بد انك تريد شيئاً. نحن لا نعرف هنا مثل خمر المدن هذه » .

قلت لها : « أريد أن أعرف ما حدث . لا أحد يريد أن يخبرني » .

شربت جرعة كبيرة من الإناء وقطبت وجهها وقالت : « الفعل الذي فعلته بنت محمود لا يجري به اللسان . شيء ما رأينا ولا سمعنا بمثله لا في الزمن السابق ولا اللاحق » .

وتماسكت ، ولبثت أنتظر صابراً حتى مضى ثلث الزجاجة والخمر لا تؤثر فيها ، إلا من بهجة وجهها تزداد وضوحاً مع الشراب . أغلقت بنت مجذوب الزجاجة وقالت : « هـذا يكفي . خمر النصارى هذه جبارة ، ليست كعرق التمر »

نظرت اليها بضراعة فقالت : « الكلام الذي سأقوله لك لن تسمعه من إنسان في البلد . دفنوه مع بنت محمود ومع ود الريس المسكين . كلام عيب صعب أن يقال » . ثم نظرت إليّ نظرة فاحصة بعينيها الجريئتين وقالت :

« هذا كلام لن يعجبك . خصوصاً إذا ... » وأطرقت برهة فقلت لها : « أريد أن أعرف ما حدث كبقية الناس . لماذا أنا الوحيد الذي لا يصح له أن يعرف ؟ »

أعطيتها سيجارة جذبت منها نفساً وقالت : « بعد صلاة العشاء بزمن استيقظت على صراخ حسنة بنت محمود في دار ود الريس . كان البلد ساكناً لا تسمع فيه حساً . الحق لله انني ظننت أن ود الريس أخيراً نال حقه منهـــا . الرجل

المسكين أشرف على الجنون . أسبوعين مع المرأة لا تكلمه ولا تدعه يقربها . وفتحت أذني مرة وهي تصرخ وتولول . اللهم يا رب اغفر لي . ضحكت وأنا أسمع صراخها . قلت في نفسي : ود الريس ما تزال فيه بقية . واشتد الصراخ . وسمعت حركة في بيت بكري لصق بيت ود الريس . وسمعت بكري يصيح : يا راجل اختشي على دمك . لازم تعمل لك فضيحة وهلولة . ثم سمعت سعيدة امرأة بكري تقول : يا بت احفظي شرفك ، ما هذه الفضائح ؟ العروس البكر لا تعمل هذا العمل . كأنك لم تجربي الرجال من قبل . وأخذ صراخ بنت محمود يشتد ، ثم سمعت ود الريس يصرخ بأعلى صوته : يا بكري . يا حاج أحمد . يا بت الريس . يا جماعة . بت محمود قتلتني . قفزت وثوبي يجرجر ورائي لا يكاد يسترني، وخطيت باب بكري وباب محجوب ، وجريت إلى باب ود الريس فوجدت باب الحوش مغلقاً . ولولت بأعلى صوتي وجاء محجوب ثم بكري ثم اجتمع علينا الناس . ونحن نكسر باب الحوش سمعنا صرخة . صرخة واحدة تهد الجبال من ود الريس . ثم صرخة مثلها من بنت محمود . ودخلت أنا محجوب وبكري . قلت لمحجوب : احبس الناس من دخول البيت . لا تدع امرأة تدخل البيت . وخرج محجوب وصرخ في الناس ، وعاد ومعه عمك عبد الكريم وسعيد الطاهر الرواسي وحتى جدك المسكين جاء من بيته » .

أخـــذ العرق يتصبب بغزارة من وجه بنت مجذوب . وجف حلقها وأشارت إلى الماء فجئتها به . شربت ومسحت العرق من وجهها وقالت : « أستغفر الله العظيم وأتوب اليه . وجدناهما في غرفة ود الريس القصيرة المطلة على الشارع . كان المصباح موقداً . ود الريس عارياً كما ولدته أمه . وبنت محمود ثوبها ممزق وسراويلها . هي الأخرى عارية . كان البرش الأحمر يعوم في الدم . ورفعت المصباح . وجدت بنت محمود معضوضة ومخدشة في كل شبر من جسمها . بطنها . أوراكها . رقبتها . عض حلمة نهدها حتى قطعها . الدم يسيل من شفتها السفلى . لا حول ولا قوة إلا بالله . وود الريس مطعون أكثر من عشرة طعنات . طعنته في بطنه وفي صدره وفي محسنه ». ولم تستطع بنت مجذوب أن تستمر . بلعت ريقهـــا بصعوبة وارتعش حلقومها ثم قالت : « اللهم لا اعتراض على حكمك . وجدناها على ظهرها والسكين مغروز في قلبها . فمها مفتوح ، وعيناها تبحلقـــان كأنها حية . وود الريس لسانه مدلدل بين فكيه ، وذراعاه مرفوعتان في الهواء »

وغطت بنت مجذوب وجهها بيدهـــا والعرق يتصبب من بين أصابعها وقد أخذ صدرها يعلو ويهبط بسرعة وتتابع . قالت بصعوبة : « استغفر الله العظيم . كانا قد ماتا لساعتهما . كان الدم حاراً يبقبق من قلب بنت محمود وبين فخـــذي ود الريس . الدم ملأ البرش والسرير وجرى جـــداول في أرض

الغرفة . محجوب أطال الله عمره كان رابط الجأش . حين سمع صوت محمود قفز خارجاً وقال لأبيك : اياك أن تدعه يدخل. محجوب، وبقية الرجال حملوا ود الريس ، وأنا وزوجة بكري والنساء الكبار أخذنا بنت محمود . كفناهما في ليلتها. وحملوهما قبل طلوع الشمس . ودفنوهما ، هي بجوار أمها وهو بجوار زوجته الأولى بنت رجب . بعض النساء بدأن مأتماً . ولكن محجوب بارك الله فيه جاء ونهرهن وقال : التي تفتح فمها سأقطع رقبتها . أي مأتم يا ولدي يقام في هذه الحالة ؟ هذه مصيبة كبيرة حصلت في البلد . طول حياتنا تحت ستر الله . آخر الزمن يحصل علينا مثل هذا . أستغفرك وأتوب إليك يا رب »

وبكت هي أيضاً كما بكى جدي . بكت طويلاً وبحرقة، ثم ابتسمت من خلال دموعها وقالت : « العجيب في الأمر أن زوجته الكبيرة مبروكة لم تصح من نومها طول هذه المدة ، مع أن الصياح جذب الناس من طرف الحلة . رحت إليها وهززتها فرفعت رأسها وقالت : « بنت مجذوب ، ماذا جاء بك في هذا الوقت ؟ » قلت لها : « قومي . حصلت قتلة في بيتكم » . فقالت : « قتلة من ؟ » قلت لها : « بنت محمود قتلت ود الريس وقتلت نفسها » . فقالت : « في ستين داهية » وواصلت نومها . وكنا ونحن نجهز بنت محمود نسمع شخيرها. ولما عاد الناس من الدفن وجدناها جالسة تشرب قهوتها .

بعض النساء أردن أن يبكين معها فصرخت فيهن : « يانساء. كل واحدة تروح في حالها . ود الريس حفر قـــبره بيده . وبنت محمود بارك الله فيها ، خلصت منه القديم والجديد » . ثم زغردت . أي والله يا ولدي ، زغردت . وقالت للنساء : « نكاية فيكن . التي لا يعجبها تشرب من البحر » . أستغفر الله العظيم . أبوها .. محمود في تلك الليلة كاد يهلك من البكاء . يخور كالثور . وجدك شتم وضرب بعصاه وزعق وبكى . عمك عبد الكريم اشتبك مع بكري دون سبب . قال له : يحصل ذبح بجوارك وأنت نائم ؟ البلد كلها كأنمـــا حل عليه الشياطين في تلك الليلة . محجوب وحده كان رابط الجأش . جهز كل شيء . أحضر الأكفان لا ندري من أين . أولاد ود الريس عمـــلوا دوشة فأسكتهم . منظر لا أراك الله مثله يا ولدي ، يفطر القلب ، يشيب الوليد . وكله بـــلا سبب ولا طلب . انها قبلت الرجـل الغريب ، لماذا لم تقبل ود الريس ؟ »

الحقول نيران ودخان . هذا أوان الاستعداد لزراعـــة القمح . ينظفـــون الأرض ويجمعون أعواد الذرة والجذوع الصغيرة ، ذكريات الموسم الذي انتهى ، ويكومونها أكواماً وسط الحقول ويحرقونها . الأرض سوداء مبسوطـة تستعد للحدث القادم . الرجال قاماتهم منحنية على المعاول وبعضهم خلف المحاريث . قمم النخل ترتعش للهواء الخفيف وتسكن ،

وبخار حار يتصاعد من حقول البرسيم المروية ، تحت وطأة الشمس في منتصف النهار . ومع كل هبة ريح يفوح أريج الليمون والبرتقال واليوسفندي . خوار ثور أو نهيق حمار أو صوت فأس في الحطب . ولكن الدنيا قد تغيرت .

ووجدت محجوباً ملطخاً بالطين ، يندى العرق من جسمه العاري إلا من خرقة حول وسطه ، يحاول أن يفصل شتلة عن النخلة الأم . لم أحيه ولم يلتفت إلي وظل يحفر حول الشتلة . لبثت واقفاً أراقبه، ثم اشعلت سيجارة ومددت له الصندوق، فرفض باشارة من رأسه . حملت همي إلى جذع نخلة قريبة أسندت رأسي اليه . لا مكان لي هنا . لماذا لا أحزم حقيبتي وأرحل ؟ هؤلاء القوم لا يدهشهم شيء . حسبوا لكل شيء حسابه . لا يفرحون لمولد ولا يحزنون لموت . حين يضحكون يقولون : « أستغفر الله » وحين يبكون يقولون : « أستغفر الله » . لا يقولون : وأنا ماذا تعلمت ؟ تعلموا الصمت والصبر من النهر والشجر . وأنا ماذا تعلمت ؟ ولاحظت محجوباً عاضاً شفته السفلى كعادته حين يكون مصمماً على عمل. كنت أغلبه في المصارعة والجري ، ويغلبني في سباحة النهر إلى الشاطىء الآخر وتسلق النخل . لا تستعصي نخلة عليه . بيني وبينه من الود كأنه أخ شقيق . ولعن محجوب النخلة الصغيرة حين نجح أخيراً في فصلها عن جذع أمها دون أن يكسر جذورها . ردم بالتراب الجرح الكبير الذي بقي في الجذع

حيث كانت ، وقص جريد الشتلة ، وأزال عنها التراب ، ورماها لتجف في الشمس . قلت في نفسي انه سيكون اكثر استعداداً للكلام الآن. جاء إلى الظل حيث أنا وجلس ومدد رجليه . ظل صامتاً برهة ثم تنهد وقال : « أستغفر الله » . مد يده فأعطيته سيجارة . لايدخن إلا حين أكون أنا في البلد ، يقول : « نحرق فلوس الحكومة » . رمى السيجارة قبل أن يكملها وقال : « أنت تبدو مريضاً . لا بد أن الرحلة قد أرهقتك . لم يكن يلزم حضورك . حين أرسلت لك البرقية لم أكن أتوقع أن تحضر » .

قلت كأنني أحدث نفسي : « انها قتلته وقتلت نفسها . طعنته أكثر من عشر طعنات و .. يا للبشاعة » .

إلتفت إلي بدهشة وقال : « من أخبرك ؟ »

مضيت غير مكترث لسؤاله : « عض حلمة نهدها حتى قطعها وعضها وخدشها في كل شبر في جسمها . ياللبشاعة » .

صاح محجوب بغضب : « لا بد ان بنت مجذوب هي التي أخبرتك . لعنها الله . لا تمسك لسانها هذا كلام لا يصح أن يقال » .

قلت له : « يقال أو لا يقال ، انه حدث . حدث أمام أعينكم ولم تفعلوا شيئاً . وأنت . أنت زعيم ورئيس في البلد ولم تفعل شيئاً » .

وقال محجوب : « ماذا نفعل ؟ لماذا لم تفعل أنت ؟ لماذا لم تتزوجها ؟ فقط تفلح في الكلام . المرأة هي التي تجرأت وقالت . عشنا ورأينا النساء تخطب الرجال » .

قلت له : « ماذا قالت ؟ »

قال : « الذي كان قد كان . ما فائدة الكلام ؟ احمد الله انك لم تتزوجها . الفعل الذي فعلته ليس فعل بني آدم . فعل شياطين » .

قلت له وأنا أضغط على أسناني : « ماذا قالت ؟ »

نظر إليّ دون عطف وقال : « حين راح لها أبوها وشتمها جاءتني في البيت مع شروق الشمس . قالت تخلصها من ود الريس وزحمة الخطاب . فقط تعقد عليها . لا تريد منك شيئاً . قالت يتركني مع ولدي ، لا أريد منه قليلاً ولا كثيراً قلت لها : لا تدخلك في المشاكل . نصحتها ان تقبل الأمر الواقع . ابوها ولي امرها وهو حر التصرف . وقلت لها : ود الريس لن يعيش إلى الأبد . رجل مجنون وامرأة مجنونة . ما ذنبنا نحن ؟ ماذا كان بوسعنا أن نفعل ؟ مسكين أبوها . منذ ذلك اليوم المشئوم وهو طريح الفراش . لايخرج ولا يقابل أحداً . ماذا أفعل أنا أو غيري إذا كان العالم قد أصيب بالخبل ؟ واتضح أن جنون بنت محمود ليس مثله في الأولين ولا الآخرين » .

قلت له وأنا أبذل جهداً كبيراً حتى لا أبكي : « حسنة لم تكن مجنونة . كانت أعقل امرأة في البلد . أنتم المجانين .

كانت أعقل امرأة في البلد . وأجمل امرأة في البلد . حسنة لم تكن مجنونة » .

ضحك محجوب . قهقه بالضحك . سمعته يقول ويضحك : « يا للعجب . يا بني آدم أصح لنفسك . عـــد لصوابك . أصبحت عاشقاً آخر الزمن . جننت مثـــل ود الريس . المدارس والتعليم رهفت قلبك . تبكي كالنساء . أما والله عجايب . حب ومرض وبكاء . إنها لم تكن تساوي مليما . لولا الحياء ما كانت تستاهل الدفن . كنا نرميها في البحر أو نترك جثتها للصقور » .

الذي حدث بعد ذلك ليس واضحاً تمامـاً في ذهني . ولكنني أذكر .. يدي مطبقتين على حلق محجوب ، وأذكر جحوظ عينيه وأذكر ضربة قوية في بطني ، وأذكر محجوباً جاثماً على صدري . وأذكر محجوباً ملقى على الأرض وأنا أركله بقدمي . وأذكر صوته يصرخ : « مجنون . مجنون » . وأذكر لغطاً وصياحاً وأنا أضغط بيدي على حلق محجوب ، وأسمع قرقرة ، ويداً قوية تجذبني من رقبتي ، ثم وقعت عصا ثقيلة على رأسي .

- ٩ -

العالم فجأة انقلب رأساً على عقب . الحب ؟ الحب لا يفعل هذا . إنه الحقد . أنا حاقد وطالب ثأر وغريمي في الداخل ولا بد من مواجهته . ومع ذلك ما تزال في عقلي بقية تدرك سخرية الموقف . انني أبتدىء من حيث انتهى مصطفى سعيد، إلا أنه على الأقل قد اختار وأنا لم أختر شيئاً . قرص الشمس ظل ساكناً فوق الأفق الغربي زمنـــاً ثم اختفى على عجل . وجيوش الظلام المعسكرة أبداً غير بعيد وثبت في لحظـــة واحتلت الدنيا . لو أنني قلت لها الحقيقة لعلها لم تكن تفعل ما فعلت . خسرت الحرب لأنني لم أعلم ولم أختر . ووقفت زمناً طويلاً أمام باب الحديد . أنا الآن وحدي ، لا مهرب لا ملاذ ، لا ضمان . عالمي كان عريضاً في الخارج ، الآن قد تقلص وارتد على أعقابه حتى صرت العالم أنا ولا عالم غيري . أين إذن الجذور الضاربـــة في القدم ؟ أين ذكريات الموت والحياة ؟ ماذا حدث للقافلة والقبيلة ؟ أين راحت زغاريد عشرات الأعراس وفيضانات النيل وهبوب الريح صيفاً وشتاء

من الشمال والجنوب ؟ الحب ؟ الحب لا يفعل هـذا . إنه الحقد . ها أنذا أقف الآن في دار مصطفى سعيد أمام « باب الحديد » ، باب الغرفة المستطيلة المثلثـة السقف الخضراء النوافذ . المفتاح في جيبي وغريمي في الداخل على وجهه سعادة شيطانية لا شك ؟ أنا الوصي والعاشق والغريم .

أدرت المفتاح في الباب فانفتح دون مشقة . استقبلتني رطوبة من الداخل ورائحة مثل ذكرى قديمة . انني أعرف هذه الرائحة . رائحـة الصندل والند . وتحسست الطريق بأطراف أصابعي على الحيطان . اصطدمت بزجاج نافذة . فتحت مصاريع الزجاج وفتحت مصاريع الخشب . فتحت نافذة وأخرى وثالثـة . ولكن لم يدخل من الخارج سوى مزيد من الظلام . أوقدت ثقاباً . وقع الضوء على عيني كوقع الانفجار . وخرج من الظلام وجه عابس زاماً شفتيه أعرفه ولكنني لم أعـد أذكره . وخطوت نحوه في حقد . انه غريمي ، مصطفى سعيد . صار للوجه رقبة ، وللرقبة كتفان وصدر ثم قامة وساقان . ووجدتني أقف أمام نفسي وجهاً لوجه . هـذا ليس مصطفى سعيد . انها صورتي تعبس في وجهي من مرآة . اختفت الصورة فجأة وجلست في الظلام زمناً لا أدري حسابه أرهف السمع ولا أسمع شيئاً . اشعلت ثقاباً آخر فابتسمت امرأة ابتسامـة مريرة . وجلست في واحة الضوء ونظرت حولي فاذا مصباح قديم على المنضدة

أكاد ألمسه بيدي . هززته فاذا فيه زيت . ياللعجب . أوقدت المصباح فتباعدت الظلال وتباعدت الحيطان وارتفع السقف . أوقدت المصباح وأغلقت النوافذ . يجب أن تظل الرائحة حبيسة هنا . رائحة الطوب والخشب والند الحريق والصندل .. والكتب . يا إلهي . الحيطان الأربعة من الأرض حتى السقف . رفوف ، رفوف ، كتب كتب كتب . أشعلت سيجارة وملأت رئتي بالرائحة الغريبة . يا له من مغفل . هل هذا فعل انسان أراد أن يبدأ صفحة جديدة ؟ سأفوضها على رأسه . سأحرقها . وأشعلت النار في البساط الناعم تحت قدمي ولبثت أراقبها وهي تلتهم ملكاً فارسياً على جواد يسدد رمحه نحو غزال يعدو مبتعداً . ورفعت المصباح فاذا ارضية الغرفة كلها مغطاة بأبسطة فارسية . ورأيت أن الحائط المقابل للباب ينتهي بفراغ . ذهبت إليه والمصباح في يدي فاذا هو ... يا للحماقة ، مدفأة . تصوروا ، مدفأة انكليزية بكامل هيئتها وعدتها ، فوقها مظلة من النحاس وأمامها مربع مبلط بالرخام الأخضر ورف المدفأة من رخام أزرق وعلى جانبي المدفأة كرسيان فكتوريان مكسوان بقماش من الحرير المشجر بينهما منضدة مستديرة عليها كتب ودفاتر . ورأيت وجه المرأة التي ابتسمت لي قبل لحظات . لوحة زيتية كبيرة في إطار مذهب على رف المدفأة والتوقيع في الركن الأيمن (م . سعيد) . وانتبهت إلى النار في وسط الحجرة تكاد تكون حريقاً . خطوت نحوها ثماني عشرة خطوة عددتها

وأنا أخطو ودستها بحذائي حتى انطفأت . أنا طالب ثأر ولكنني لا أستطيع أن أقاوم حب الاستطلاع ، سأرى أولاً وأسمع ثم أحرقها فكأنها لم تكن . والكتب .. على ضوء المصباح أراها مصنفة مرتبة. كتب الاقتصاد والتاريخ والأدب علم الحيوان · جيولوجيا . رياضيات . فلك . دائرة المعارف البريطانية ، غبون . ماكولي . طوينبي . أعمال برناردشو كلها . كينز . توني . سميث . روبنسن ، اقتصاد المنافسة الغير كاملة . هبسن ، الامبريالية . روبنسن ، مقالة .. عن الاقتصاد الماركسي . علم الاجتماع . علم الأجناس . علم النفس طوماس هاردي . طوماس مان . أي جي مور ، طوماس مور ، فرجينيا وولف . وتغنشتاين . أينشتاين . برايرلي . نامير . كتب سمعت بها وكتب لم أسمع بها . دواوين لشعراء لا أعلم بوجودهم . يوميات غردون . رحلات غلفر كلينغ . هوسمان . تاريخ الثورة الفرنسية ، طوماس كارلايل . محاضرات عن الثورة الفرنسية ، لورد أكتن . كتب مجلدة بالجلد . كتب في أغلفة من الورق . كتب قديمة مهلهلة . كتب كأنها خرجت من المطبعة لتوها . مجلدات ضخمة في حجم شواهد القبور . كتب صغيرة مذهبة الحوافي في حجم ورقة الكتشينة . توقيعات . اهداءات . كتب في صناديق كتب على الكراسي . كتب على الأرض . أية دعابة هذه ؟ ماذا يقصد ؟ اوون . فورد. ستيفان زفايغ . أي جي براون لاسكي. هازلت. أليس في أرض العجائب. رتشاردز. القرآن بالانكليزية. الانجيل بالانكليزية، غلبرت مري. افلاطون. اقتصاد

الاستعمار ، مصطفى سعيد . الاستعمار والاحتكار ، مصطفى سعيد . الصليب والبارود، مصطفى سعيد . اغتصاب أفريقيا مصطفى سعيد . بروسبرو وكالبان . الطوطم والتابو . داوتي لا يوجد كتاب عربي واحد . مقبرة.ضريح . فكرة مجنونة . سجن . نكتة كبيرة . كنز . افتح يا سمسم ودعنا نفرق الجواهر على النــاس . السقف من خشب البلوط وفي الوسط قوس يفصل الحجرة نصفين ، يسنده عمودان رخاميان لونهما أصفر ضارب إلى الحمرة . والقوس عليه قشرة من القيشاني مزركش الحواف . وأنا أتصدر مائدة مستديرة لا أدري من أي خشب هي ولكن سطحها داكن يلمـــع . وعلى كل من الجانبين خمس كرامي مبطنة بالجلد . وإلى اليمين كنبة ذات مسند واحد ، مكسوة بمخمل أزرق ، وسائد من ... لمستها بيدي ، نعم من ريش النعام . ورأيت على يمين المــدفأة وعلى يسارها أشياء لم ألاحظها من قبل . على اليمين منضدة طويلة عليها شمعدان من الفضة فيه عشر شموع لم تمسها النار قبلاً ، وكذلك على اليسـار . أوقدتها شمعة شمعـــة ، فأضاءت أول ما أضاءت اللوحة الزيتية على رف المدفأة . وجــه مستطيل لامرأة واسعة العينين حاجباها ينعقدان فوقهـــما . الأنف أكبر قليلاً مما يجب والفم يميل إلى الاتساع . وأدركت أن رفوف الكتب الزجاجية في الحائط المقابل للباب لا تصل إلى الأرض ولكنها تنتهي على جانبي المدفأة بدواليب مدهونة بطلاء أبيض بارزة عن رفوف الكتب مقدار قدمين أو ثلاثة.

وكذلك على امتـــداد الضلع الآخر إلى اليسار . وذهبت إلى الصور المصفوفة على الرف . مصطفى سعيد يضحك ، مصطفى سعيد يكتب ، مصطفى سـعيد يسبح ، مصطفى سعيد في مكان مـــا في الريف ، مصطفى سعيد في الزي الجامعي ، مصطفى سعيد يجذف في السيربنتاين ، مصطفى سعيد في تمثيلية الميلاد ، على رأسه تاج ، أحد الملوك الثلاثة الذين جلبوا العطور والمر للمسيح ، مصطفى سعيد يتوسط رجلاً وامرأة ، مصطفى سعيد لم يترك لحظة تمر إلا وسجلها للذكرى والتاريخ . وأمسكت صورة امرأة وتمعنت فيها ، وقرأت الإهداء بخط منمق : « من شيلا مع كل حبي » . شيلا غرينود بلا شك . قروية من ضواحي هـــل ، أغراها بالهدايا والكلام المعسول والنظرة التي ترى الشيء فلا تخطئه . دوختها رائحة الصندل المحروق والند . حلوة الوجه فعلاً ، تبتسم في الصورة وفي جيدها عقد ، من العاج بـــلا شك . ذراعاها مكشوفتان وصدرها بارز . كانت تعمل خادمة في مطعم بالنهار وبالليل تواصل الدراسة في البوليتكنيك . كانت ذكية تؤمن بأن المستقبل للطبقة العاملة ، وانه سيجيء يوم تنعدم فيه الفروق ويصير الناس كلهم أخوة . كانت تقول له : « أمي ستجن وأبي سيقتلني إذا علما أنني أحب رجلاً أسود ولكنني لا أبالي » . قال : « كانت تغني لي أغاني ماري لويد ونحن عراة . كنت أقضي معها أمسيات الخميس في غرفتها في كامدن تاون وأحياناً تقضي الليل معي في شقتي . كانت

تلحس وجهي بلسانها وتقول لي : لسانك قرمزي بلون الغروب في المنـــاطق الاستوائية . كنت لا أشبع منها ولا تشبع مني . تتأملني كل مرة كأنها تكتشف شيئاً جديدا . تقول لي : ما أروع لونك الأسود ، لون السحر والغموض والأعمال الفاضحة » . لقد انتحرت . لـماذا انتحرت شيلا غرينود يا مستر مصطفى سعيد ؟ أنا أعلم أنك تختبىء في مكان ما من هذه المقبرة الفرعونية التي سأحرقها على رأسك . لماذا قتلت حسنه بنت محمود ود الريس الشيخ وقتلت نفسها في هذه القرية التي لا يقتل أحد فيها أحدا ؟

والتقطت صورة أخرى وقرأت الإهداء بخط عريض يميل إلى الأمـــام : « لك حتى الممات – إيزابيلا » . مسكينة إيزابيلا سيمور. انني أحس بعطف خاص نحو إيزابيلا سيمور. مستديرة الوجه، تميل إلى البدانة ، تلبس رداء قصيراً بمقاييس ذلك الوقت . ليست تماماً تمثالاً من البرونز كما وصفها ولكن في الوجه طيبة واضحة وتفاؤلاً بالحياة . تبتسم . هي أيضاً تبتسم. قال انها كانت زوجة لجرّاح ناجح، أماً لبنتين وابن . قضت أحد عشر عـــاماً في حياة زوجية سعيدة ، تذهب للكنيسة صباح كل أحد بانتظام ، وتساهم في جمعيات البر . ثم قابلته واكتشفت في أعماقها مناطق مظلمة كانت مغلقة من قبل . وبالرغم من كل شيء تركت له رسالة تقول فيها : « إذا كان في السماء إله، فأنا متأكدة انه سينظر بعين العطف إلى طيش امرأة مسكينة لم تستطع أن تمنع السعادة من دخول قلبها، ولو كان في ذلك إخلال بالعرف وجرح لكبرياء زوج .

ليسامحني الله ويمنحك من السعادة مثل مـــا منحتني » .
إنني أسمــع صوته في تلك الليلة ، داكناً ، يعلو ويخفت ، ليس فيه حزن ولا ندم ، إن كان في الصوت شيء فقد كانت فيه رنة فرح . « وسمعتها تقول لي بصوت متضرع مستسلم : أحبك . فجاوب صوتهـــا هتاف ضعيف في أعماق وعيي يدعوني أن أقف . لكن القمة صارت على بعد خطوة ، وبعد ذلك ألتقط أنفاسي وأستجم . ونحن في قمة الألم عبرت برأسي سحائب ذكريات بعيدة قديمة كبخار يصعد من بحيرة مالحة وسط الصحراء . حين خطا زوجها إلى منصة الشهادة في المحكمة ، تعلقت به الأبصار . كان رجلا نبيل الملامح والخطو ، رأسه الأشيب يكلله الوقار ، وتجلس على سمته مهابة لا مراء فيها. كان رجلا لو وضعت معه على ميزان، فإن كفته ترجح كفتي أضعاف أضعاف . وكان شاهد دفاع لا اتهام .
قال في الصمت الذي خيم على المحكمة . الانصاف يحتم عليّ أن أقول أن إيزابيلا زوجتي كانت تعلم بأنها مريضة بالسرطان . كانت في الآونة الأخيرة ، قبل موتها ، تعاني من حـــالات انقباض حادة . قبل موتها بأيام اعترفت لي بعلاقتها بالمتهم . قالت انها أحبته وانه لا حيلة لها . كانت طول حياتها معي مثال الزوجة الوفية المخلصة. وأنا بالرغم من كل شيء لا أحس بأي مرارة في نفسي ، لا نحوها ولا نحو المتهم . انني فقط أحس بحزن عميق لفقدها » .

لا يوجد عدل في الدنيا ولا اعتدال . وأنا أحس بالمرارة والحقـــد ، فبعد هؤلاء الضحايا جميعاً ، توج حياته بضحية

أخرى ، حسنه بنت محمود ، المرأة الوحيدة التي أحببتها ، قتلت ود الريس المسكين وقتلت نفسها من أجـل مصطفى سعيد . وقطعت ... يا للبشاعة . والتقطت صورة في إطار من الجلد . هذه آن همند بلا شك ، بالرغم من انها تلبس عباءة عربية وعقـالا ، والإهداء أسفل الصورة بخط عربي مهتز : «من جاريتك سوسن». وجه حي يتفجر صحة لا تكاد الصورة تحتويه. في كل خد غمازتان، والشفتان ممتلئتان منفرجتان، والعينان تتواقدان بحب الاستطلاع. واضح كل هذا في الصورة على تقادم العهد بها . « كانت عكسي تحن إلى مناخات استوائية ، وشموس قاسية ، وآفاق أرجوانية . كنت في عينيها رمزاً لكل هـذا الحنين . وأنا جنوب يحن إلى الشمال والصقيع . كانت تملك شقة في هامستد تطل على هامستد حيث تجيئها من أكسفورد آخر الأسبوع . كنا نقضي ليلة السبت عندي وليلة الأحد عندها . وأحياناً تمكث الاثنين وأحياناً الأسبوع كله . ثم أخذت تتغيب عن الجامعة شهراً وشهرين حتى فصلت . كانت تدفن وجهها تحت إبطي وتستنشقني كأنها تستنشق دخاناً مخدراً . وجهها يتقلص باللذة . تقول كأنها تردد طقوساً في معبد : « أحب عرقك . أريد رائحتك كاملة . رائحة الأوراق المتعفنة في غابات افريقيـا . رائحة المنجة والباباي والتوابل الإستوائية . رائحة الأمطار في صحارى بـلاد العرب » . كانت صيداً سهلا . قابلتها أثر محاضرة ألقيتها في

أكسفورد عن أبي نواس . قلت لهم أن عمر الخيام لا يساوي شيئاً إلى جانب أبي نواس ، وقرأت لهم من شعر أبي النواس في الخمر بطريقة خطابية مضحكة ، زاعماً لهم أن تلك هي الطريقة التي كان الشعر العربي يلقى بهـا في العصر العباسي . وقلت في المحاضرة أن أبا نواس كان متصوفا ، وإنه جعل من الخمر رمزاً حمله جميع أشواقه الروحية ، وإن توقه إلى الخمر في شعره كان في الواقع توقاً إلى الفناء في ذات الله .. كلام ملفق لا أساس له من الصحة ، لكنني كنت ملهماً في تلك الليلة ، أحس بالأكاذيب تتدفق على لساني كأنها معان سامية. وكنت أحس بالنشوة تسري مـــني إلى الجمهور ، فأمضي في الكذب . وبعد المحاضرة التفوا حولي . موظفون عملوا في الشرق ، ونساء طاعنات في السن مات أزواجهن في مصر والعراق والسودان ، ورجال حاربوا مـع كتشنر واللنبي ، ومستشرقون ، وموظفون في وزارة المستعمرات ، وموظفون في قسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجية . وفجأة رأيت فتاة في الثامنة أو التاسعة عشرة تثب نحوي وثبـــاً مخترقـة الصفوف . وطوقتني بـذراعيها وقبلتني وقالت باللغة العربيـة : أنت جميل تجل عـن الوصف . وأنا أحبك حباً يجل عن الوصف. قلت لها بعاطفة أخافتني حدتها: وأخيراً وجدتك يا سوسن . إنني أبحث عنك في كل مكان ، وخفت ألا أجدك أبداً . هل تذكرين ؟ قالت بعاطفة لا تقل

عن عاطفتي حدة : كيف أنسى دارنا في الكرخ في بغداد على ضفة نهر دجلة أيام المأمون ؟ أنا أيضاً تقفيت أثرك عبر القرون ولكنني كنت واثقة اننا سنلتقي.وهاانتذا يا حبيبي مصطفى، لم تتغير منذ افترقنا . كأنني وهي على مسرح وحولنا ممثلون يؤدون أدواراً صغيرة . أنا بطل وهي بطلة . أطفئت الأنوار وساد الظلام حولنا وبقينـــا أنا وهي وحدنا وسط المسرح ينصب علينا ضوء وحيد . ورغم إدراكي انني أكذب ، فقد كنت أحس انني بطريقة ما أعني ما أقول ، وانها هي أيضاً رغم كذبها فان ما قالته هو الحقيقة . كانت تلك لحظة من لحظات النشوة النادرة التي أبيع بها عمري كله . لحظة تتحول فيها الأكاذيب أمام عينك إلى حقائق ، ويصير التاريخ قوادا، ويتحول المهرج إلى سلطان . وفي غمرة الحـــلم ذاك حملتني بسيارتها إلى لندن . كانت تسوق بسرعة رهيبة ، وبين الحين والحين تترك عجلة القيادة وتطوقني بذراعيها وتصرخ : مــا أسعدني إذ وجدتك أخيراً . انني سعيدة سعادة لو مت في هذه اللحظة فانني لـــن أبالي . وكنا نقف على الحانات في الطريق ، ونشرب خمر التفاح أحياناً والبيرة أحياناً ، والنبيذ الأحمر والنبيذ الأبيض ، وأحياناً نشرب الوسكي . ومع كل كأس أقرأ لها من شعر أبي نواس . قرأت لها :

أما يسرك أن الأرض زهراء   والخمر ممكنة شمطاء عذراء

ما في قعودك عذر عن ممتقة   كالليل والدها والأم خضراء
بادر فإن جناح الكرخ مونقة   لم تلتقفها يد للحرب عسراء

وقرأت لها :

وكأس كمصباح السماء شربتها   على قبـــلة أو موعد للقاء
أتت دونها الأيام حتى كأنهـا   تساقط نور من فتوق سماء

وقرأت لها :

إذا عبأ أبو الهيجاء للهيجاء فرسانا
وسارت راية الموت أمام الشيخ اعلانا
وشبت حربها واشتعلت تلهب نيرانا
جعلنا القوس أيدينا ونبل القوس سوسانا
فعادت حربنا انساً وعدنا نحن خلانا
إذا ما ضربوا الطبل ضربنا نحن عيدانا
لفتيان يرون القتل في اللذة قربانا
ومنشا حربنا ساق سبا خمرا فسقانا
يحس الكأس كي تلحق اخرانا بأولانا
ترى هناك مصروعاً وذا بنجر سكرانا
فهذي الحرب لا حرب تغم الناس عدوانا
بها نقتلهم ثم بها ننشر قتلانا

نحن هكذا وهي تطرب للشعر وتطرب للشراب ،تسقيني لذاذات الأكاذيب العذبة وانسج لها خيوطا دقيقة مريعة من الأوهام . تقول لي انها ترى في عيني لمح السراب في الصحاري الحارة . وتسمع في صوتي صرخات الوحوش الكاسرة في الغابات،وأقول لها انيأرى في زرقةعينيها بحور الشمال البعيدة التي ليس لها سواحـــل . وفي لندن أدخلتها بيتي ، وكر الأكاذيب الفادحة ، التي بنيتها عن عمد ، اكذوبة اكذوبة . الصندل والند وريش النعام وتماثيل العاج والأبنوس والصور والرسوم لغابات النخــل على شطآن النيل ، وقوارب على صفحة الماء أشرعتها كأجنحة الحمام ، وشموس تغرب على جبال البحر الأحمر ، وقوافل من الجمال تخب السير على كثبان الرمل على حدود اليمن ، أشجار التبلدي في كردفان،وفتيات عاريات من قبائل الزاندي والنـــوير والشلك ، حقول الموز والبن في خط الإستواء ، والمعابد القديمـة في منطقة النوبة ، الكتب العربية المزخرفة لأغلفة مكتوبة بالخط الكوفي المنمق السجاجيد العجمية والستائر الوردية ، والمرايا الكـبيرة على الجدران ، والأضواء الملونة في الأركان . ركعت وقبلت قدمي وقالت : انت مصطفى مولاي وسيدي وأنا سوسن جاريتك . هكذا كل واحـد منا اختار دوره في صمت ، هي تمثل دور الجارية وأنا أمثل دور السيد . حضرت الحمـام ثم غسلتني بالماء الذي صبت فيه مـــاء الورد . أوقدت عيدان

الند ، وأوقدت الصندل في مجمر النحاس المغربي المعلق في المدخل . لبست عباءة وعقالاً وتمددت أنا على السرير فجاءت ودلكت صدري وساقي ورقبتي وكتفي . قلت لها بصوت آمر : تعالي ، فأجابتني بصوت خفيض : سمعاً وطاعة يا مولاي . في غمرة الوهم والسكر والجنون أخذتها فقبلت لأن الذي قد كان بيننا كان منذ ألف عام .وجدوها في شقتها في هامستد ميتة انتحاراً بالغاز ورسالة تقول فيها : مستر سعيد لعنة الله عليك »

وضعت صورة آن همند في مكانها إلى يسار صورة مصطفى سعيد وهو يقف بين مسز روبنسن وزوجها . الاهداء في أسفل الصورة : « الى موزي العزيز – القاهرة ١٩١٣/٤/١٧» يبدو انها كانت تدلله بهذا الاسم ، فهي في رسالتها أيضاً تشير إليه باسم « موزي » . مصطفى سعيد يبدو مجرد طفل ، ولكن وجهه عابس في الصورة . مسز روبنسن تقف إلى يساره وتضع ذراعها حول كتفه وزوجها يطوقها الاثنين بذراعه وهو وزوجته يبتسمان ابتسامة طبيعية سعيدة . وجهاهما وجها شابين لم يصلا الثلاثين . رغم كل شيء فان حب مسز روبنسن له لم يتزعزع . انها حضرت المحاكمة من أولها إلى آخرها ، وسمعت كل شيء ، ومع ذلك فانها تقول في رسالتها إلي : « لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى امتناني لأنك كتبت لي عن موزي العزيز . لقد كان موزي أعز

شخص بالنسبة لي ولزوجي . مسكين موزي . انه كان طفلاً معذباً . ولكنه أدخل على قلبي وقلب زوجي سعادة لا حد لها . بعد تلك المسألة المؤلمة وتركه لندن ، انقطعت اخباره عني ، وقد حاولت جهدي أن أعيد الاتصال به ولكنني لم أفلح . مسكين موزي ، ولكن ما يخفف عني قليلاً ألم فقده أن أعلم أنه قضى السنوات الأخيرة من حياته سعيداً بينكم وانه تزوج زوجة طيبة وأنجب ولدين . بلغ حبي لمسز سعيد . أنها تستطيع أن تعتبرني أماً . وإذا كان ثمة عمل استطيع أن أؤديه لها وللطفلين العزيزين فقل لها . لا تتردد في الكتابة إلي . وكم أكون سعيدة لو أنهم جميعاً جاءوا وقضوا معي عطلة الصيف القادم . انني أعيش هنا وحيدة في آيل أف وايت . وقد سافرت إلى القاهرة في يناير الماضي وزرت قبر زوجي . كان ركي يحب القاهرة حباً عظيماً وقد شاء القدر أن يدفن في المدينة التي أحبها أكثر من أي مدينة أخرى في العالم .

« انني أشغل نفسي بتأليف كتاب عن حياتنا – ركي وموزي وأنا – كانا رجلين عظيمين ، كل بطريقته . كانت عظمة ركي في قدرته على جلب السعادة للآخرين . كان سعيداً بمعنى الكلمة ، تفيض السعادة منه إلى كل من يتصل به . وكان لموزي عقل عبقري ، ولكنه كان متهوراً . كان غير قادر على تقبل السعادة أو اعطائها ، إلا لمن أحبهم

وأحبوه حبـاً حقيقياً مثلي ومثل ركي . وأنا أحس أن الحب والواجب يحتم علي أن أعرف الناس بقصة هـذين الرجلـين العظيمين سيكون الكتاب في الواقع عن ركي وموزي ، فأنا لم أفعل شيئاً يستحق الذكر . سأكتب عن الخـدمات الجليلة التي أداهـا ركي للثقافة العربية ، مثل اكتشافه لكثير من المخطوطات النادرة وشرحهـا والاشراف على طبعها . وسأكتب عن الدور العظيم الذي لعبه موزي في لفت الأنظار هنا إلى البؤس الذي يعيش فيه أبناء قومه تحت وصايتنا كمستعمرين . وسأكتب بالتفصيل عـن المحاكمة وأزيل ما علق باسمه من غبار . انني أكون شاكرة إذا أرسلت لي أي شيء خلفه موزي قد يعينني على كتابة هذا الكتاب . ولعل موزي أخبرك انه جعلني وصية على شئونه في لندن . وقد تجمع شيء من المال من حقوق الطبـع لبعض كتبه وترجمة بعضها سأحولها فوراً حين تخبرني بعنوان البنك الذي تريدني أن أحولها له . وبهذه المناسبة اسمح لي أن أشكرك شكراً عظيماً على الإشراف على عائلة موزي العزيز . أرجو أن تراسلني بانتظام وتكتب لي عن أخبارهم بالتفصيل وأن ترسل لي صورتهم في رسالتك القادمة .

« مخلصتك اليزابيث »

وضعت الرسالة في جيبي وجلست على الكرسي إلى يمـين

المدفأة . وقع بصري على عدد من صحيفة « التايمز » بتاريخ الاثنين ٢٦ – ٩ – ١٩٢٧ . المواليد ، الزيجات ، الوفيات . وقع مراسيم الزواج القسيس سامسن ماجستير في الآداب . تقام مراسيم الجنازة في كنيسة ستني الساعة الثانية بعد الظهر ، الأربعاء . الرسائل الشخصية . أيتها المحبوبة دائماً ، إلى متى نظـــل مفترقين ؟ – القلب العزيز . مستعمرة كينيا – مستر ... مساح قانوني – يعود إلى نيروبي في الخامس من أكتوبر ، حتى ذلك التاريخ أية مراسلات تتعلق بتقارير عن عقارات في المستعمرة ، يجب أن ترسل بواسطة ... اعلانات عن دروس في ركوب الخيل . قطط سيامية زرقاء للبيــع . فتاة (١٧ سنة) مهذبة ، من عائلة محترمة ، تبحث عن عمل . سيدة ورثت لقب ليدي (٣٠ سنة) ترغب في وظيفـــة في الخـــارج . أخبار الرياضة . وست هل يهزم بير هل . وست هام يفوز . جين تني يغلب جاك دمبسي . رسالة من ظفرالله خان يفند فيها آراء سير شمانلال ستالفاد بشأن النزاع بين المسلمين والهندوك في البنجاب . رسالة تقول : « الجـاز موسيقى مرحة في عالم مظلم » . فيلان وصلا من رانغون أمس ، وسارا على الأقدام من مرسى تلبري إلى حديقة الحيوان . مربي أبقار هجم عليه ثور في مزرعته وبقر بطنه . رجـل سرق أربع موزات حـــكم عليه بالسجن ثلاث سنوات . الأخبار الامبراطورية والخارجية . عرض جديد من موسكو

لتسديد الدين الروسي لفرنسا . فيضانات في سويسرا . الدسكفري سفينة كابتن سكت عادت من البحار الجنوبية . هر سترسمان ألقى خطاباً عن نزع السلاح في جنيف يوم السبت. وأيضاً أدلى هر سترسمان بتصريح لصحيفة « ماتان » أيّد فيه خطاب الرئيس فون هندنبرغ في تانبرج الذي رفض فيه أن ألمانيا مسئولة عن نشوب الحرب . المقالة الافتتاحية عن معاهدة جدة التي وقعها سير غلبرت كليتن بالنيابة عن بريطانيا العظمى والأمير فيصل عبد العزيز آل سعود نيابة عن أبيه ملك الحجاز ونجد وملحقاتها . الحالة الجوية في انكلترا وويلز ، الرياح في الغالب بين الغربي والشمال الغربي ، قوية أحياناً في الأماكن المكشوفة ، فترات طويلة من الهدوء ولكن مع فترات من العواصف الممطرة وأحياناً أمطار محلية .

انها الصحيفة الوحيدة فيما يبدو . هل وجودها هنا له أي مدلول ؟ أم انها محض الصدفة ؟ وفتحت كراسة وقرأت على الصفحة الأولى : « قصة حياتي – بقلم مصطفى سعيد » . وفي الصفحة التالية الإهداء : « إلى الذين يرون بعين واحدة ويتكلمون بلسان واحد ويرون الأشياء اما سوداء أو بيضاء ، اما شرقية أو غربية ».وقلبت بقية الصفحات فلم أجد شيئا ، ولا سطراً واحدا ولا كلمة واحدة . هل هذا أيضاً له مدلول أم انه صدفة محضة ؟ وفتحت ملفاً فوجدت أوراقاً كثيرة وسكتشات ورسومات . كان إذن يعالج الرسم

والكتابة الرسوم جيدة تنم عن موهبة . رسوم بالألوان لمنـــاظر في الريف الانكليزي تتكرر فيها أشجار البلوط والغدران والاوز. وسكتشات بالقلم الرصاص لمناظر واشخاص من قريتنا . بالرغم من كل شيء لا يسعني إلا أن أعترف بمهارته الفائقة . بكري ومحجوب وجدي وود الريس وحسنة وعمي عبد الكريم وغيرهم . وجوههم تطالعني بتعبيرات عميقة طالما أحسستها ولكنني لم أكن قادراً على تحديدهـــا . وقد رسمهم مصطفى سعيد بوضوح رؤية وبعطف يقرب من الحب . ووجه ود الريس يتردد أكثر من الباقين. ثمانية رسوم لود الريس في تعابير مختلفة . لماذا اهتم بود الريس كل هـذا الاهـتمام ؟

ونظرت في قصاصات الورق وقرأت : « نعلم الناس لنفتح أذهانهم ونطلق طاقاتهم المحبوسة . ولكننا لا نستطيـع أن نتنبأ بالنتيجة — الحـــرية . نحرر العقول من الخرافات . نعطي الشعب مفاتيح المستقبل ليتصرف فيه كما يشاء » . « تركت لندن وقد بدأت أوربا تحشد جيوشها مرة أخرى لعنف أكثر ضراوة » . « لم تكن كراهية . كان حباً عجز أن يعبر عن نفسه . أحببتها بطريقة معوجة . وهي أيضاً » . « أسقف البيوت بللها رذاذ المطر . البقر والضان في الحقول وكأنها حصوات بيضاء وسوداء . البلل الخفيف في شهر يونيو. اسمحي لي يا سيدتي . هذه الرحلات بالقطار مملـــة . كيف

حالك ؟ من برمنغهام . إلى لندن . كيف تصف المناظر ؟ شجـــر وحشائش . أكوام القش اليابس وسط الحقول . الأشجار والحشائش هي هي في كل مكان . كتاب لنغابو مارش . ترددت . لم تقل لا أو نعم » . هل كان يصف حوادث حقيقية أم انه كان يعالج قصة ؟ « انني يا مولاي يجب أن أعترض على لجوء الاتهام إلى حيلة منطقية مكشوفة . ذلك انه يريد أن يؤكد مسئولية المتهم في حوادث لم يكن مسئولاً عنها ، بناء على عمل حدث فعلا ، ثم يعود ويؤكد افتراضه فيما حـــدث فعلاً بناء على الافتراضات السابقة . ان المتهم معترف بأنه قتل زوجته ولكن هذا لا يجعله مسئولاً عن جميـــع حوادث انتحار النساء اللاتي انتحرن في الجزر البريطانية في خلال السنوات العشر الأخيرة ».« من ولد الخير ولد له فراخاً تطير بالسرور . ومن ولد الشر أنبت له شجراً أشواكه الحسرة وثمره الندم . فرحم الله امرءاً أغضى عن الأخطاء واستمتع بالظاهر » .

ووجدت قصيدة بخط يده . إذن كان يعالج الشعر أيضاً، وواضح من كثرة ما شطب فيها وبدل وغير في كلماتها انه هو الآخر كان يحس برهبة أمام الفن . ها هي ذي :

عربـــدت في الصدر آهـات الحزين
ودموع القلب فاضت من تباريح السنين
ورياح عصفت بالحب والحقد الدفـــين

وبقايا صلوات ضمها الصمت العميق
هينمات ودعاء ونواح وزعيق
وغبار ودخان غم للساري الطريق
ونفوس مطمئنات وأخرى هلعة
وجباه صاغرات وأخرى . . .

ولا بد ان مصطفى سعيد قضى ساعات طويلة يبحث عن الكلمة التي يستقيم بها الوزن . استهوتني المعضلة ففكرت بضع دقائق . ولم يطل تفكيري . انها قصيدة ركيكة على اي حال قائمة على الطباق والمقارنات . ليس فيها احساس صادق ولا انفعال حقيقي . وهذا البيت ليس أسوأ من بقية الابيات . شطبت البيت الاخير وكتبت محله :

« وخدود صاغرات وجباه خاشعة » .

ومضيت في تقليب الاوراق فوجدت ارقاماً وقصاصات ورق فيها عبارات مثل : « ثلاثة براميل زيت » ، « تناقش اللجنة موضوع تقوية قاعدة المكنة » ، « فائض الاسمنت يمكن بيعه فوراً » . ثم وجدت هذه الفقرة : « وقد كان حتما ان يصطدم طالعي بطالعها وان اقضي في السجن اعواماً واضرب في الارض اعواماً ، اطارد خيالها ويطاردني . وذلك هو الاحساس بأنني في لحظة خارج حدود الزمن قد ناجعت الهة الموت واطللت من كوة عينيها على الجحيم ٠ انه شعور لا يمكن

لانسان أن يتصوره . وقد ظل مذاق تلك الليلة في فمي يمنعني من أي مذاق سواه » .

سئمت قراءة الاوراق . لا شك أن ثمة اوراقـــاً كثيرة اخرى دفينة في هذه الغرفة ، كاجزاء في لغز حسابي ، يريد مصطفى سعيد مني أن أكتشفها وأضعها جنباً الى جنب ، وأخرج منها صورة متكاملة تكون في صالحه . انه يريد أن يكتشف كأثر تاريخي له قيمته . لا شك في ذلك . وأنا أعلم الآن انه اختارني أنا لهذا الدور . لم تكن صدفة انه أثارحب الاستطلاع عندي ، ثم قص عليّ قصة حياته غير كاملة لكي اكتشف أنا بقية القصة . لم تكن صدفة أنـــه ترك لي رسالة مختومة بالشمع الاحمر ، أمعاناً منه في شحذ خيالي ، وانه جعلني وصياً على ولديه ليلزمني الزاماً لا فـكاك منه ، وانـــه ترك لي مفتاح متحف الشمع هذا . لا حد لانانيته وغروره ، فهو رغم كل شيء يريد أن يخلده التاريخ . انمـا أنا لا أملك متسعاً من الوقت للمضي في هذه المهزلة . يجب أن انهي هـــذه المهزلة قبل طلوع الفجر ، والساعة الآن جاوزت الثانيةصباحاً عند طلوع الفجر ستأ كل السنة النار كل هذه الاكاذيب .

هببت واقفاً ، ورفعت ضوء الشموع على اللوحة الزيتية على رف المدفأة . كل شيء في الغرفة منظم مرتب موضوع في مكانه . الا صورة جين مورس . كأنه لم يدر ماذا يفعل بها . كل النساء الآخريات احتفظ بصورهن الفوتوغرافية ، ولكن

جين مورس هذه كما رآها هو لا كما رأتها آلة التصوير . نظرت الى اللوحة باعجاب . وجه مستطيل لامرأة واسعه العينين حاجباها ينعقدان فوقها . الانف يميل الى الكبر والفم يميل الى الاتساع والتعبير على الوجه شيء يصعب وصفه في كلمات. تعبير رهيب ، محير . الشفتان الرقيقتان مطبقتان كأنها تعض أسنانها والفك مائل الى الامام بكبرياء . هل التعبير في العينين غضب أم ابتسام ؟ وثمة شيء شهواني يرف على الوجه كله . هذه اذن هي العنقاء التي افترست الغول ؟ كان صوته في تلك الليلة جريحاً حزيناً نادماً . ألانه فقدها ؟ أم لانهـــا جرعته المهانات ؟ .

« كنت اجدها في كل حفل أذهب اليه . كأنها تتعمد أن تكون حيث أكون لتهينني . أردت أن أراقصها فقالت لي : لا أرقص معك ولو كنت الرجل الوحيد في العالم . صفعتهاعلى خدها فركلتني بساقها وعضتني في ذراعي بأسنان كأنهـــا أسنان لبوة . لم تكن تعمل عملاً ولا اعلم كيف كانت تعيش. أهلها من ليدز ، لم اقابلهم حتى بعد زواجي بها . كان ابوها تاجراً لا ادري في اية بضاعة ، وكان لهـا ، حسب قولها ، خمسة أخوة وكانت هي البنت الوحيدة . كانت تكذب حتى في ابسط الاشياء . تعود الى البيت بقصص غريبة عن أشياء حدثت لها واناس قابلتهم لا يمكن أن يصدقها العقل . ولا استبعد انها كانت عديمة الأهل ، كأنها شهرزاد متسولة .

ولكنها كانت مفرطة في الذكاء ومفرطة في الظرف حين تشاء ، يحيط بها حيث تكون لفيف من المعجبين يرفون حولها كالذباب . وكنت أحس احساساً داخلياً انها رغم تظاهرها بكراهيتي ، كانت مهتمة بأمري ، حين يجمعني واياها مجلس تراقبني بطرف عينها ،وتحصي جميع حركاتي وسكناتي ،واذا رأت مني اهتماماً بفتاة ما سارعت الى اساءتها والقسوة عليها كانت ماجنة بالقول والفعل ، لا تتورع عن فعل اي شيء ، تسرق وتكذب وتغش ، ولكنني رغم ارادتي أحببتها ولم أعد استطيع ان اسيطر على مجرى الاحداث . كانت حين اتجنبها تغريني وحين اطاردها تهرب مني . كبحت مرة جماح نفسي وتجنبتها أسبوعين . اخذت ابتعد عن الاماكن التي ترتادها واذا دعيت الى حفل اتأكد انها لن تكون موجودة فيه . ولكنها وجدت طريقها الى بيتي فجاءتني آخر ليلة سبت وآن هند معي. شتمت آن هند شتائم مقذعة فانتهرتها وضربتها فلم ترتدع . خرجت آن هند باكية وظلت واقفة امامي كشيطان رجيم ، في عينيها تحد ونداء أثار أشواقاً بعيدة في قلبي . لم أكلمها ولم تكلمني ولكنها خلعت ثيابها ووقفت امامي عارية . نيران الجحيم كلها تأججت في صدري كان لا بد من اطفاء النار في جبل الثلج المعترض طريقي . تقدمت نحوها مرتعش الاوصال ، فأشارت الى زهرية ثمينة من الموجودة على الرف .قالت : تعطيني هذه وتأخذني. لو طلبت

مني حياتي في تلك اللحظة ثمناً لقايضتها أياها .أشرت برأسي موافقاً . أخذت الزهرية وهشمتها على الارض واخذت تدوس الشظايا بقدميها حتى حولتها الى فتات . أشارت الى مخطوط عربي نادر على المنضدة . قالت : تعطيني هذا أيضاً . حلقي جاف . انا ظمآن يكاد يقتلني الظمأ . لا بد من جرعة ماء مثلجة . اشرت برأسي موافقاً . اخذت المخطوط القديم النادر ومزقته وملأت فمها بقطع الورق ومضغتها وبصقتها . كأنما مضغت كبدي ، ولكنني لا ابالي . أشارت الى مصلاة من حرير أصفهان أهدتني اياها مسز روبنسن عند رحيلي من القاهرة . أثمن شيء عندي وأعز هدية على قلبي . قالت : تعطيني هذه أيضاً ثم تأخذني . ترددت برهة ولكنني نظرت اليها منتصبة متحفزة أمامي ، عيناها تلمعان ببريق الخطر وشفتاها مثل فاكهة محرمة لا بد من أكلها . وهززت رأسي موافقاً ، فأخذت المصلاة ورمتها في نار المدفأة ووقفت تنظر متلذذة الى النار تلتهمها فانعكست ألسنة النار على وجهها . هذه المرأة هي طلبتي وسألاحقها حتى الجحيم . مشيت اليها ووضعت ذراعي حول خصرها وملت عليها لاقبلها . وفجأة أحسست بركلة عنيفة بركبتها بين فخذي . ولما افقت من غيبوبتي وجدتها قد اختفت .

« لبثت اطاردها ثلاثة أعوام ، قوافلي ظمأى والسراب يلمع امامي في متاهة الشوق . وذات يوم قالت لي : انت ثور

متوحش لا يفتر من الطراد . انني تعبت من مطاردتك لي ومن جريي أمامك . تزوجني . تزوجتها في مكتب التسجيل في فولام . لم يحضر العقد غير صديقة لها وصديق لي . حين قالت امام المسجل: انا جين ونفرد مورس أقبل هذا الرجل مصطفى سعيد عثمان زوجي الشرعي في السراء والضراء في الفقر والغنى في الصحة والمرض – فجأة أجهشت بالبكاء وأخذت تبكي بحرقة . دهشت انا لهــذه العاطفة منها وكف المسجل عن اجراء المراسيم وقال لها بعطف : هوني عليك . أنا أقدر شعورك . ما هي الا لحظات وينتهي كل شيء . وظلت بعد ذلك تنهنه بالبكاء ، ولمــا انتهى العقد أجهشت بالبكاء مرة اخرى . وجاء المسجل وربت على كتفها ثم صافحني قائلاً : زوجتك تبكي من شدة السعادة . انني رأيت نساء كثيرات يبكين في زواجهن ولكنني لم أر بكاء بهذه الحرقة . يبدو انها تحبك حباً عظيماً . اعتن بها . أنا متأكد ستكونان سعيدين . وظلت تبكي الى ان خرجنا من مكتب التسجيل. وفجأة انقلب بكاؤها الى ضحك. قالت وهي تقهقه بالضحك : يا لها من مهزلة .

(وقضينا بقية اليوم في سكر . لا حفل ولا مدعوين ، أنا وهي والخمر . ولما ضمنا الفراش ليلا أردتهــا فأدارت لي ظهرها وقالت : ليس الآن . أنا متعبة . وظلت شهرين لا تدعني أقربها ، كل ليلة تقول : أنا متعبة . أو تقول : أنا

مريضة . لم اعد احتمل اكثر مما احتملت. وقفت فوقها ذات ليلة والسكين في يدي . قلت لهـا : سأقتلك . نظرت الى السكين نظرة بدت لي كأن فيها لهفة ، وقالت : ها هو صدري مكشوف امامك اغرس السكين في صدري .نظرت الى جسمها العاري في متناول يدي ولا أناله . جلست على حافة السرير ونكست رأسي بذلة . وضعت يدها على خدي وقالت بلهجة لم تخل من رقة : انت يا حلوي لست من طينة الرجال الذين يقتلون . أحسست بالذلة والوحدة والضياع . وفجأة تذكرت أمي . رأيت وجهها واضحاً في مخيلتي وسمعتها تقول لي : انها حياتك وانت حر فيها . وتذكرت نبأ وفاة امي حين وصلني قبل تسعة اشهر ، وجدوني سكران في أحضان امرأة . لا أذكر الآن أية امرأة كانت . ولكنني تذكرت بوضوح انني لم أشعر بأي حزن، كأن الأمر لا يعنيني في كثير ولا قليل . تذكرت هذا وبكيت من أعماق قلبي . بكيت حتى ظننت انني لن أكف عن البكاء أبداً . وأحسست بجين تطوقني بذراعيها وتقول كلاماً لم أميزه ولكن صوتهـا وقع على أذني وقعاً منفراً اقشعر له بدني . دفعتها عني بعنف وصرخت فيها : أنا أكرهك . أقسم انني سأقتلك يوماً ما . وفي غمرة حزني لم يغب عني التعبير في عينيها . تألقت عيناها ونظرت إلي نظرة غريبة . هل هي دهشة ؟ هل هي خوف ؟

هل هي رغبة ؟ ثم قالت بصوت فيه مناغاة مصطنعة : أنا أيضاً أكرهك حتى الموت .

« ولكـن لم تكن لي حيلة . كنت صياداً فأصبحت فريسة . وكنت أتعذب وبطريقة لم أفهمها كنت أستعذب عذابي . بعد ذلك الحادث بأحد عشر يوماً تماماً ، أذكرها لأنني تجرعت غصصها كما يتجرع الصائم غصص شهـر صوم قائظ ، كنـــا في حديقة رتشمند قبيل الغروب . لم تكن الحديقة خالية تماماً من الناس . كنا نسمع الأصوات ونرى أشخاصاً يتحركون في ضوء الشفق . لم نتحدث إلا قليلاً ولم نتبادل عبارات حب ولا غزل . دون سبب وضعت ذراعيها حول عنقي وقبلتني قبلة طويلة . أحسست بصدرها يضغط على صدري. وضمت ذراعي حول خصرها وجذبتها إلي فتأوهت آهات مزقت نياط قلبي وأنستني كل شيء . لم أعد أذكر شيئاً. لم أعد أرى أو أعي إلا هذه المصيبة الفادحة التي رماني بها القدر . هذه المرأة هي قدري وفيها هلاكي ، ولكن الدنيا كلهـا لا تساوي عندي حبة خردل في سبيلها . أنا الغازي الذي جاء من الجنوب ، وهذا هو ميدان المعركة الجليدي الذي لن أعود منه ناجياً . أنا المـــلاح القرصان وجين مورس هي ساحل الهلاك . ولكنني لا أبالي . أخذتها هنالك في العراء ، لا يهمني إن كان ذلك على مرأى ومسمع من الناس . هذه اللحظة من النشوة تساوي عندي العمر كله .

« وقد كانت لحظات النشوة نادرة بالفعل ، وبقية الوقت نقضيه في حرب ضروس لا هوادة فيها ولا رحمة . كانت الحرب تنتهي بهزيمتي دائماً . أصفعها فتصفعني وتنشب أظافرها في وجهي ويتفجر في كيانها بركان من العنف فتكسر كل ما تناله يدها من أوان وتمزق الكتب والأوراق . كان هذا أخطر سلاح عندها . كل معركة تنتهي بتمزيق كتاب مهم أو حرق بحث أضعت فيه أسابيع كاملة . وأحياناً يستبد بي الغضب حتى أبلغ حافة الجنون والقتل ، فأشدد قبضتي على عنقها فتسكن فجأة وتنظر إلي تلك النظرة المبهمة ، الخليط من الدهشة والخوف والرغبة . لو انني ضغطت قيد أنملة أكثر مما ضغطت لوضعت حداً للحرب . وكانت الحرب تنتقل معنا إلى الخارج . ونحن في حانة صرخت فجأة : ابن العاهرة يغازلني . وثبت على الرجل وأخذت بخناقه وأخذ بخناقي واجتمع علينا الناس ، وفجأة سمعتها تقهقه بالضحك وراء ظهري . وقال لي أحد الرجال الذين جاءوا يفصلون بيننا : يؤسفني أن أقول لك أن هذه المرأة إذا كانت زوجتك فانك متزوج من مومس . هذا الرجل لم يكلمها بكلمة . يبدو أن هذه المرأة تحب منظر العنف . وتحول غضبي اليها ، فذهبت اليها وهي مازال تقهقه فصفعتها فأنشبت أظافرها في وجهي . ولم أستطع جرجرتها إلى البيت إلا بعد مجهود وألم عظيمين .

« وكان يحلو لها أن تغازل كل من هب ودب حين نخرج معـــا . كانت تغازل غرسونات المطاعم وسواقي الباصات وعابري السبيل وكان بعضهم يتشجع ويستجيب ويرد بعضهم بعبارات بذيئة فأتشاجر مع الناس وأضربهـــا وتضربني في عرض الطريق . وما أكثر ما سألت نفسي ما الذي يربطني بها . لماذا لا أتركها وأنجو بنفسي ؟ ولكنني كنت أعلم أن لا حيلة لي وان لا مفر من وقوع المأساة . وكنت أعلم أنهـا تخونني . كان البيت كله يفوح بريح الخيانة . وجدت مرة منديل رجل، لم يكن منديلي . سألتها فقالت : انه منديلك . قلت لها : هـــذا المنديل ليس منديلي ، قالت : هبه ليس منديلك . ماذا أنت فاعل ؟ ومرة وجدت علبة سجائر ومرة وجدت قلم حبر ، قلت لها : انت تخونينني . قالت : افرض اني اخونك . صرخت فيها : اقسم انني سأقتلك . ابتسمت ساخرة وقالت : انت فقط تقول هذا . ما الذي يمنعك من قتلي ؟ ماذا تنتظر ؟ لعلك تنتظر حتى تجـــد رجلاً فوقي .. وحتى حينئذ لا اظنك تفعل شيئاً . ستجلس على السرير وتبكي .

« ذات مساء داكن في شهر فبراير . درجة الحرارة عشر درجات تحت الصفر . المساء مثل الصباح ، مثل الليل داكن مكفهر ، لم تشرق الشمس طيلة اثنين وعشرين يوماً . المدينة كلها حقل جليد ، الجليد في الشوارع في الحدائق عندمداخل

البيوت . الماء تجمد في انابيبه والنفس يخرج بخاراً من الافواه. الاشجار عالية تنوء اغصانها تحت وطأة الثلج . وانا دمي يغلي وفي رأسي حمى . في ليلة مثل هذه تحدث الاعمال الجسيمة . هذه ليلة الحساب . مشيت من المحطة الى الدار احمل المعطف على ساعدي ، جسمي ساخن والعرق يتصبب من جبهتي . كان الجليد يقرقـــع تحت حذائي وانا أطلب البرد . اين البرد ؟ وجدتها عارية مستلقية على السرير ، فخذاها بيضاوان مفتوحتان ، ابتسامتها مفعمة وعلى وجهها شيء مثل الحزن ، في حالة تأهب عظيم للاخذ والعطاء . حن قلبي اليها أول ما رأيتها ، واحسست بالدفء الشيطاني تحت الحجاب الحاجز . حين احسه اعلم انني مسيطر على زمام الموقف . اين كان هذا الدفء كل هذه الاعوام ؟ قلت لها بصوت واثق كدت انساه من طول ما فقدته : هل كان معك أحد ؟ أجابتني بصوت أثر فيه وقع صوتي : لم يكن معي أحد . هذه الليلة لك انت وحدك . انا انتظرك منذ وقت طويل .

« احسست انها تصدقني لاول مرة . هـــذه الليلة ليلة الصدق والمأساة . اخرجت السكين من غمده . جلست على حافة السرير وقتاً انظر اليها . كنت ارى وقع نظراتها حياً ملموساً على وجهها . نظرت في عينيهـــا فنظرت في عيني وتماسكت نظراتنا واشتبكت ، فكأننا فلكان في السماء اشتبكا في ساعة نحس · وطفت نظراتي عليها فحولت وجهها

عني ، ولكن الاثر ظهر في وسطها فزحزحته يمنة ويسرة ورفعته قليلاً عن السرير ثم استقرت به ورمت ذراعيها في تراخ . وعادت تنظر الى نظرت الى صدرها ، فنظرت هي ايضاً الى حيث وقع بصري على صدرها كأنها أصبحت مسلوبة الارادة تتحرك حسب مشيئتي . نظرت الى بطنها فتابعتني وبدأ الم خفيف على وجهها .. كنت ابطيء فتبطيء وأعجل فتعجل. أطلت النظر الى فخذيها البيضاوين المفتوحتين، ادلكهما بعيني وينزلق نظري على السطح الناعم الاملس الى ان يستقر هنالك في مستودع الاسرار ، حيث يولد الخير والشر . ورأيت وجهها تعلوه حمرة ، وجفنيها ينكسران كأنها اصبحت غير قادرة على السيطرة عليها . رفعت الخنجر ببطء فتابعت حده بعينيها . واتسعت حدقتا العينين فجأة واضاء وجهها بنور خاطف كأنه لمع برق . لبثت تنظر الى حد الخنجر بخليط من الدهشة والخوف والشبق . ثم امسكت الخنجر وقبلته بلهفة. وفجأة اغمضت عينيها وتمطت في السرير رافعة وسطها قليلاً فاتحة فخذيها اكثر . وتأوهت وقالت : ارجوك يا حلوي هيا . انا مستعدة الآن . لم استجب لندائها فتأوهت آهة اكثر الماً . وانتظرت . بكت . خرج صوتها خافتاً لا يكاد يسمع : أرجوك يا حبيبي .

« ها هي ذي سفني يا حبيبتي تبحر نحو شواطيء الهلاك. ملت عليها وقبلتها . وضعت حد الخنجر بين نهديها، وشبكت

هي رجليها حول ظهري . ضغطت ببطء . ببطء . فتحت عينيها . اي نشوة في هذه العيون . وبدت لي اجمل من كل شيء في الوجود . قالت بألم : يا حبيبي . ظننت انك لن تفعل هــذا ابداً . كدت ايأس منك . وضغطت الخنجر بصدري حتى غاب كله في صدرها بين النهدين . واحسست بدمها الحار يتفجر من صدرهــا . واخذت ادعك صدرها بصدري وهي تصرخ متوسلة : تعال معي . تعال . لاتدعني اذهب وحدي .

« وقالت لي : احبك – فصدقتها . وقلت لهـا : احبك وكنت صادقاً . ونحن شعلة من اللهب ، حواف الفراش السنة من نيران الجحيم ورائحة الدخان اشمه بانفي وهي تقول لي : احبك يا حبيبي ، وانا اقول لها احبك يا حبيبتي . والكون بماضيه وحاضره ومستقبله اجتمع في نقطة واحدة ليس قبلها ولا بعدها شيء » .

- ١٠ -

دخلت الماء عاريا تماماً كما ولدتني امي . احسست برجفة اول ما لامست المـاء البارد ، ثم تحولت الرجفة الى يقظه . النهر ليس ممتلئاً كأيام الفيضان ولاصغير المجرى كأيام التحاريق لقد اطفأت الشموع واغلقت باب الغرفة واغلقت باب الحوش دون ان افعل شيئاً . حريق آخر لا يقدم ولا يؤخر . تركته يتحدث وخرجت لم أدعه يكمل القصة . فكرت ان اذهب وأقف على قبرها . فكرت ان ارمي المفتاح حيث لا يجده احد . ثم عدلت . اعمال لا معنى لها ومع ذلك لا بد من القيام بعمل ما . وقادتني قدماي الى الشاطيء وقـد لاحت تباشير الفجر في الشرق . سأنفس عن غيظي بالسباحة . كانت الاشياء على الشاطئين نصف واضحة ، تبين وتختفي ، بين النور والظلام . كان النهر يدوي بصوته القديم المألوف ، متحركاً كأنه ساكن لا صوت غير دوي النهر وطقطقة مكنات المـاء غير بعيد . واخذت اسبح نحو الشاطيء الشمالي . وظللت أسبح واسبح حتى استقرت حركات جسمي مع قوى الماء الى تناسق

مريح . لم اعد افكر وانا اتحرك الى الامام على سطح المـاء وقع ضربات ذراعي في الماء . وحركة ساقي ، وصوت زفيري بالنفس ، ودوي النهر ، وصوت المكنة تطقطق على الشاطيء لا اصوات غير ذلك . ومضيت اسبح واسبح وقـــد استقر عزمي على بلوغ الشاطيء الشمالي . هذا هو الهدف . كان الشاطيء امامي يعـــلو ويهبط ، والاصوات تنقطع كلية ثم تضج . وقليلاً قليلا لم اعد اسمع سوى دوي النهر .ثم اصبحت كأنني في بهو واسع تتجاوب اصداؤه. والشاطيء يعلو ويهبط ودوي النهر يغور ويطفو . كنت ارى امامي نصف دائرة . ثم اصبحت بين العمى والبصر . كنت اعي ولا اعي . هل انا نائم ام يقظان ؟ هل انا حي ام ميت ؟ ومع ذلك كنت مـا ازال ممسكاً بخيط رفيـع واهن: الاحساس بان الهدف امامي لا تحتي ، وانني يجب ان اتحرك الى امام لا الى اسفل . لكن الخيط وهن حتى كاد ينقطع ، ووصلت الى نقطة احسست فيها ان قوى النهر في القاع تشدني اليها . سرى الخدر في ساقي وفي ذراعي ، اتسع البهو وتسارع تجاوب الاصداء . الآن . وفجأة ، وبقوة لا ادري من اين جاءتني ، رفعت قامتي في الماء . سمعت دوي النهر وطقطقة مكنة الماء . تلفت يمنة ويسرة فاذا انا في منتصف الطريق بين الشمال والجنوب . لن استطيع المضي ولن استطيع العودة. انقلبت على ظهري وظللت ساكناً احرك ذراعي وساقي بصعوبة بالقدر الذي يبقيني طافياً

على السطح . كنت احس بقوى النهر الهدامة تشدني الى اسفل وبالتيار يدفعني الى الشاطيء الجنوبي في زاوية منحنية . لن استطيع ان احفظ توازني مدة طويلة . ان عاجلاً او آجلا ستشدني قوى النهر الى القاع . وفي حالة بين الحياة والموت رأيت اسراباً من القطى متجهة شمالاً . هـــل نحن في موسم الشتاء أو الصيف ؟ هل هي رحلة ام هجرة ؟ واحسست انني استسلم لقوى النهر الهدامـــة . احسست بساقي تجران بقية جسمي الى اسفل . في لحظة لا ادري هل طالت ام قصرت تحول دوي النهر الى ضوضاء مجلجلة ، وفي اللحظة عينها لمـع ضوء حاد كأنه لمع برق . ثم ساد السكون والظلام فترة لا اعلم طولها ، بعدها لمحت السماء تبعد وتقرب والشاطيء يعلو ويهبط . واحسست فجأة برغبة جارفة الى سيجارة . لم تكن مجرد رغبة . كانت جوعاً . كانت ظمأ . وقد كانت تلك لحظة اليقظة من الكابوس استقرت السماء واستقر الشاطيء وسمعت طقطقة مكنة الماء ، واحسست ببرودة المـــاء في جسمي . كان ذهني قد صفا حينئذ ، وتحددت علاقتي بالنهر انني طاف فوق الماء ولكنني لست جزءاً منه فكرت انني اذا مت في تلك اللحظة فانني اكون قد مت كما ولدت ،دون ارادتي . طول حياتي لم اختر ولم اقرر . انني اقرر الآن انني اختار الحياة . سأحيا لان ثمـــة اناس قليلين احب ان ابقى معهم اطول وقت ممكن ولأن علي واجبات يجب ان اؤديهـا

لا يعنيني ان كان للحياة معنى او لم يكن لها معنى . واذا كنت لا استطيع ان اغفر فسأحاول ان انسى · سأحيا بالقوة والمكر . وحركت قدمي وذراعي بصعوبـــة وعنف حتى صارت قامتي كلها فوق الماء . وبكل مـا بقيت لي من طاقة صرخت ، وكأنني ممثل هزلي يصيح في مسرح : « النجدة . النجدة » .

انتهت

عُرسُ الزّين

قالت حليمة بائعة اللبن لآمنة - وقد جاءت كعادتها قبل شروق الشمس – وهي تكيل لها لبناً بقرش :

« سمعت الخبر ؟ الزين مو داير يعرّس » .

وكادالوعاء يسقط من يدي آمنة.واستغلت حليمة انشغالها بالنبأ فغشتها اللبن .

كان فناء المدرسة «الوسطى» ساكناً خاوياً وقت الضحى، فقد اوى التلاميذ الى فصولهم.وبدا من بعيد صبي يهرول لاهث النفس،وقد وضع طرف ردائه تحت ابطه حتى وقف امام باب «السنة الثانية» وكانت حصة الناظر .

«يا ولد يا حمار . ايه اخّرك ؟»

ولمع المكر في عيني الطريفي :

«يافندي سمعت الخبر ؟»

«خبر بتاع ايه يا ولد يا بهيم ؟»

ولم يزعزع غضب الناظر من رباطة جأش الصبي،فقال وهو يكتم ضحكته :

«الزين ماشي بمقدو له بعد باكر» .

وسقط حنك الناظر من الدهشة وبخا الطريفي .

وفي السوق اقبل عبد الصمد على دكان شيخ علي ، محتقن الوجه ، ليس ثمة ادنى شك في انه غضبان. كان له على شيخ علي، تاجر العماري، دين ماطله عليه شهراً كاملاً -وقد قرر ان يخلصه منه ذلك اليوم، بالخير او بالشر .

« علي . أنت يعني قايل انا ما بخلص قروشي منك ، ولاّ فكرك شنو ؟ »

« حاج عبد الصمد . كدى قول بسم الله واقعد لجيب لك فنجان جبّنة » .

«يا زول جبنتك طايره عليك ، قوم افتح الخزنة دي ادني قروشي ، ولاّ كان ان بقيت ما بي ضمة كان فهمني » .

وبصق شيخ علي على « السّنة » من فمه .

« كدى اقعد احدّثك بالخبر دا » .

«يا زول انا مو فاضي لك ولا فاضي لي خبيراتك. باقي انا عارفك مستهبل داير تطرتش عليّ قروشي » .

« يمين قروشك حاضرات. كدى اقعد انحكيلك حكاية عرس الزين »

« قستّ عرس منو ؟ »

« عرس الزين » .

وجلس عبد الصمد ووضع يديه على رأسه وظـــل صامتا برهة، وشيخ علي ينظر اليه مغتبطاً بالاثر الذي احدثه.واخيراً وجد عبد الصمد ما يقول :

«اي لا اله لا الله محمداً رسول الله. عليك الرسول يا شيخ علي دار حديث شنودا ؟ »

ولم يخاص عبد الصمد دينه في ذلك اليوم .

ولما انتصف النهار كان الخبر على فم كل واحد . وكان الزين على البئر في وسط البلد يملأ اوعية النساء بالماء ويضاحكهن كعادته . فتجمهر حوله الاطفال ، وأخذوا ينشدون « الزين عرّس ... الزين عرّس ». فكان يرميهم بالحجارة، ويجر ثوب فتاة مرة ، ومرة يهمز امرأة في وسطها ، ومرة يقرص اخرى في فخذها، والاطفال يضحكون، والنساء يتصارخن ويضحكن وتعلو فوق ضحكهم جميعاً الضحكة التي اصبحت جزءاً من البلد منذ ان ولد الزين .

يولد الاطفال فيستقبلون الحياة بالصريخ، هذا هو المعروف. ولكن يروى ان الزين، والعهدة على امه والنساء اللائي حضرن ولادتها، اول ما مس الارض، انفجر ضاحكاً. وظل هكذا طول حياته. كبر وليس في فمه غير سنّين، واحدة في فكه الاعلى والاخرى في فكه الاسفل. وامه تقول ان فمه كان مليئاً بأسنان بيضاء كاللؤلؤ. ولما كان في السادسة ذهبت به يوماً لزيارة قريبات لها، فمرا عند مغيب الشمس على خرابة يشاع انها مسكونة. وفجأة تسمر الزين مكانه واخذ يرتجف كمن به حمى، ثم صرخ. وبعدها لزم الفراش اياماً. ولما قام من مرضه كانت اسنانه جميعاً قد سقطت، الا واحدة في فكه الاعلى، واخرى في فكه الاسفل.

كان وجـه الزين مستطيلاً، ناتىء عظام الوجنتين والفكين وتحت العينين . جبهته بارزة مستديرة، عيناه صغيرتان محمرتان دائماً ، محجراهما غائران مثل كهفين في وجهه . ولم يكن على وجهه شعر اطلاقاً. لم تكن له حواجب ولا اجفان، وقد بلغ مبلغ الرجال وليست له لحية او شارب .

تحت هذا الوجه رقبة طويلة. (من بين الالقاب التي اطلقها الصبيان على الزين «الزرافة») . والرقبـة تقف على كتفين قويتين تنهدلان على بقية الجسم في شكل مثلث. الذراعان طويلتان كذراعي القرد . اليدان غليظتان عليهما اصـابـع مسحوبة تنتهي بأظافر مستطيلة حادة (فالزين لا يقلم اظافره ابداً) . الصدر مجوف ، والظهر محدودب قليـلاً، والساقان رقيقتان طويلتان كساقي الكركي . امـا القدمان فقد كانتـا مفرطحتين عليهما آثار ندوب قديمة (فالزين لا يحب لبس الاحذية والزين يذكر قصة كل جرح من هذه الجروح . مثلاً هذا الشلخ الطويل على القدم اليمنى ؛ الممتد من الرسغ على ظاهر القدم إلى الفرجة بين الأصبع الأولى والثانية . يحـكي الزين قصته فيقول : « الجرح دا يا جماعة ليه حكاية » ويستفزه محجوب قائلاً : « حكاية شنو يا عوير ؟ يا مشيت تسرق ضربوك بي غصن شوك » . ويقع هذا موقعـاً حسناً في نفس الزين ، فيستلقي على قفاه ضاحكاً ، ثم يضرب الأرض بيديه ويرفع

رجليه في الهواء ويظل يضحك بطريقته الفذة ، ذلك الضحك الغريب الذي يشبه نهيق الحمار . وكان ضحكه قد أعـــدى الحاضرين جميعاً ، فتحول المجلس إلى قهقهة مـــدوية . ويتمالك الزين نفسه ، ويمسح بكم ثوبه الدمع الذي سال على وجهه من الضحك ، ويقـــول : أي ... أي ... مشيت أسرق » .

ويستفزه محجوب من جديد : « شنّ مشيت تسرق آمر ّمد ؟ يمكن قتّ داير لك شيتن تاكله » . ويمسح الزين وجهه بيديه ويعود للضحك من جديد . ويرجح الحاضرون أن الزين دخل بيتاً ليسرق طعاماً ، إذ أنه كان معروفاً بالنهم ، إذا أكل لا يشبع . وفي الأعراس حين تأتي « سُفر » الطعام ويتحلق الناس حلقات يأكلون ، يتحاشى كل فريق أن يجلس الزين معهم ، إذ أنه حينئذ يأتي في لمح البصر على كل ما في الآنية ، ولا يترك أكلاً لآكل . وقال له عبد الحفيظ : « ماكْ طاري العملة العملتها وقت عرس سعيد ؟ » وأجاب الزين وهويقهقه : « أيّ طاري ... عليك أمان الله الأكل وكتّ أكلته عدمته الحبّة إن كان موجني اسماعيل مقطوع الطاري لحقني » . كان الزين قد أوكل بنقل الطعام في عرس سعيد فكان يمشي جيئة وذهاباً بين « الديوان » حيث اجتمع الرجال و « التُكل » في داخل البيت حيث تقوم النسوة بالطهي . وفي الطريق من التكل إلى الديوان كان الزين يتمهل قليلاً ويأكل ما طاب له الأكل من الوعاء الذي يحمله ، وحين يصل به إلى الناس يكاد

يكون خالياً . وفعل ذلك ثلاث مرات حتى لفت إنتباه أحد اسماعيل ، فتابعه حتى وقف في نصف الطريق ، ورفع الغطاء عن صينية مملوءة بالدجاج المحمر . وما أن أمسك الزين بدجاجة منها وقربها إلى فمه ، حتى هجم عليه احد اسماعيل وأشبعه ضرباً . وسأله محجوب مرة أخرى : « ما تقول لنا يا فقرْ مشيت تسرق شنو ؟ » . ولما لاحظ الزين ان الناس حوله قد أرهفوا آذانهم ، اعتدل في قعدته ووضع ذراعيه بين ركبتيه وقال « الصيف الفات وقت حسّ المريق ... كنت متأخر في الساقية ، الدنيا يازول كان القمر يلجلج. رميت توبي فوق كتفي وجيت سادر البيوت. أقول لك وكت وصلة الرملة المندطرف الحلة ، اسمع لك حس زغاريت ...» وقاطعه محجوب: « اي صدق. دا كان عرس بكري » . واستمر الزين : « اقول لك يا زول قتّ امشي اشوف الحكاية شنو . أثري ناس فريق الطلحة سارّين العرس . مشيت لقيت القيامة قايمة . الزيطة والزمبليطه والدلاليك والزغاريت . أول شي مشيت أهبش ان كان ألقى لي شيتن آكله .. »

وانفجر المجلس بالضحك ، فقد كان ما قدروا .. « الحريم في التكل أدّني لحيات أكلتها ، وأدّني شيتن عر شربته » .

وقال محجوب : «يبقى دا عرقى آ مسجّم » .

وقال الزين : « لا . مـــو عرقي قال لك أنا العرقي ما يعرفوا.. اقول لك آزول الشي الشربته دا طار لي في راسي. بعدين مر تحت من التكل . دخلت بيت ، القالك كشة حريم والارياح والدلكه والحلب ما يدّيك الدرب .. عليّ بالطلاق آزول الريحه سكرتني »

وضحك عبد الحفيظ: «وين المره البطلقها مع الرجال؟» لم يعبأ الزين بهذا،ولكنه استمر يحكي في القصة وقداخذته النشوة « وفي الوسط القالك العروس. بنيتن سميحة مكبرْتة ومدخنة وملبستّها فركة ترمصيص » . وهنا صمت الزين وادار عينيـه الصغيرتين في وجوه الحاضرين، وفمه مفتوح وقد برز سناه.ولم يقو محجوب على الصبر ، فأخـذ يستحثه ان يكمل القصة : « بعدين شن سوّيت؟ »

« بعدين نطيب على العروس » .

وحين قال هذا قفز من مكانه كالضفدعة.وضج الحاضرون وانفجر الزين في الضحك واستلقى على بطنـــه وراح يضرب برجليه في الهواء.ثم انقلب على ظهره وقال وهو ما يزال يشهق بالضحك : « مسكت الشافعة عضّيتها في خشمها » . وتشهـد

محجوب واستغفر. « اقول لك يا زول الحريم طقّن الكواريك والبيت فار والشالقمةالعروس بقت تصرخ.وما القا لكالا زول ضرب كرامي بي سكين.اقول لك قت يا مين مسكنها فريت جربه لا من وصلت اهلي». وفجأة استوى الزين جالساً وظهر على وجهه جد بالغ ، وقال يوجه حديثه لمحجوب : « اسمع يا زول . انت داير تعرّس لي بتّك علوية ولا عندك كلام ؟ » فأجابه محجوب بجد وحزم كأنه يعني ما يقول : «البت انا مضيّتها ليك . مدحين قدام الناس الحاضرين ديل بعد تحش قمحك وتلم تمرك وتبيعه وتحضر القروش يجي نعقد لك ».هذا الوعد ارضى الزين،وصمت برهة وقد قطب حاجبيه وزم شفتيه وكأنه قد اخذ يفكر في مستقبل حياته مع علوية ومسؤولية القيام باعباء زوجة واطفال. وقال : « خلاص. اشهدوا يا خوانا . الرجل دا مرقت منّه كلمة، باكر بعد باكر ما يجي يفكر » وقال الحاضرون جميعاً ، احمد اسماعيل ، والطاهر الرواسي ، وعبد الحفيظ ، وحمد ود الريس ، وسعيد صاحب الدكان، قالوا انهم شهود على الوعد الذي قطعه محجوب وان الزواج سيتم بأذن الله .

قصة حب الزين لعلوية ابنة محجوب كانت آخر قصة حب له . بعد شهر او شهرين سيسأمها ويبدأ قصة جديدة . لكنه في الوقت الحاضر مشغول بها ، يصحو وينام على ذكرها تجده في الحقل في منتصف النهار ، محنياً على«طوريّته» والعرق

يتصبب من وجهه، وفجأة يكف عن الحفر ويقولها بأعلى صوته: «انا مكتول في حوش محجوب». وفي الحقول المجاورة يكف عشرات الناس عن حفر الارض برهة حين يسمعون نداء الزين. الشبان يضحكون، وبعض الشيوخ الذين يضيقون احياناً بعبث الزين يهمهمون بتبرم: « الولد المطرطش دا يرغي يقول شنو؟» وحين ينتهي العمل في الحقل عند المغيب ويتراوح القوم الى بيوتهم يمشي الزين من الحقل الى البيت وسط زفة كبيرة من الشبان والصبيان والفتيات الصغار، يتضاحكون من حوله، وهو يختال مزهوا بينهم، يضرب هذا على كتفه، ويقرص هذه في خدها ويقفز في الهواء قفزات، وكلما رأى شجيرة طلع على قارعة الطريق نط فوقها، وبين الحين والحين يصيح باعلى صوتـــه، صياحاً يتردد في ارجـاء القرية التي غربت عليهـــا الشمس: « اررووك ... يا ناس الفريق ... ياأهل الحلة ... انا مكتول في حوش محجوب ... »

قتل الحب الزين اول مرة وهو حدث لم يبلغ مبلغ الرجال كان في الثالثة عشرة اوالرابعة عشرة، نحيلا هزيلا كأنه عود يابس. ومهما قال الناس عن الزين، فأنهم يعترفون بسلامة ذوقه، فهو لا يحب الا اروع فتيات البلد جمالاً واحسنهن ادباً واحلاهن كلاما. كانت عزة ابنة العمدة في الخامسة عشرة من عمرها وقد تفتح جمالها فجأة كما تنتعش النخلة الصبية حين يأتيها الماء بعد الظمأ. كانت ذهبية اللون مثل حقل الحنطة قبيل الحصاد، وكانت عيناها واسعتين سوداوين في وجه صافي الحسن، دقيق الملامح، ورموش عينيها طويلة سوداء، ترفعها ببطء فيحس الناظر اليها بوخز في قلبه. وكان الزين أول من نبه شبان البلد إلى جمال عزة. ارتفع صوته فجأة ذات يوم في جمع عظيم من الرجال نفرهم العمدة لأصلاح حقله.

ارتفع صوته المبحوح الحاد ، كما يرتفع صوت الديك عند طلوع الفجر : « عوكْ يا أهل الحلة . يا ناس البلد . عزه بنت العمدة كاتلالها كتيل . الزين مكتول في حوش العمدة » . وفوجيء الناس بتلك الجرأة،والتفت العمدة بعنفناحية الزين وقدتحرك غضب غريزي في صدره . وفجأة كأنما الناس كلهم ، في آن واحد ، أدركوا التباين المضحك بين هيئة الزين ، وهو واقف هنالك كأنه جلد معزة جاف،وبين عزة بنت العمدة،فانفجروا ضاحكين كلهم في آن واحد . ومات الغضب في صدر العمدة. كان جالساً على مقعد تحت ظل نخلة، محمر العينين ، منتفض الشاربين، يحث القوم على العمل. كان رجلاً مهيباً جاداً قلّ أن يضحك ، بيد ان هذه المرة قد ضحك من قول الزين،ضحكته الخشنة المفرقعة ، وصاح به : « الزين .. انبقيت اشتغلت شديد الليلة ، نعرّس لك عزة ». وضحك القوم مرة اخرى مجاراة العمدة ، ولكن الزين ظل صامتاً . وعلى وجهه جد واهتمام، ودون ان يشعر وجد ضربات معوله في الارض تزداد قوة وتتابعاً .

ومضى شهر بعد ذلك والزين لا حديث له إلا حبه لعزة وان اباها وعده بزواجها . وقد عرف العمدة كيف يستغل هذه العاطفة ، فسخر الزين في أعمال كثيرة شاقة يعجز عنها الجن . كنت ترى الزين العاشق يحمل جوز الماء على ظهره في

عز الظهر، في حر تئن منه الحجارة، مهرولاً هنا وهناك، يسقي جنينة العمدة. وتراه ماسكاً بفأس أضخم منه يقطع شجرة او يكسر حطباً . وتراه منهمكاً يجمع العلف لحمير العمدة وخيله وعجوله. وحين تضحك له عزة مرة في الاسبوع، لاتكاد الدنيا تسعه من الفرح . وما ان مضى شهر ، حتى شاع في البلد ان عزه خطبت لابن خالها الذي يعمل مساعداً طبياً في ابو عشر ولم يأبه الزين ولم يقل شيئاً . ولكنه بدأ قصة جديدة.

استيقظت البلد يوماً على صياح الزين : « انا مكتول في فريق القوز »: وكانت ليلاه هذه المرة فتاة من البدو الذين يقيمون على اطراف النيل في شمال السودان، يفدون من أرض الكبابيش ودار حمر ومضارب الهوادير والمريصاب في كردفان يشح الماء في اراضيهم في بعض المواسم ، فيفدون على النيل بإبلهم وأغنامهم طلباً للري .واحياناً تلم بهم سنوات قحط حين تضن السماء بالمطر ، فيتساقطون على المناهل في ديار الشايقية والبديرية المقيمين على النيل . اغلبهم لا يلبثون حتى تنكشف الغمة ثم يعودون من حيث أتوا . ولكن بعضاً منهم كانت تستهويهم حياة الاستقرار على وادي النيل، فيبقون.ومن هؤلاء عرب القوز.ظل هؤلاء البدو سنوات طويلة يرابطون على طرف الأرض المزروعة ، يبيعون اللبن ، ويرعون الغنم ، ويجلبون حطب الوقود، وفي موسم حصاد التمر يجمعونه لأصحابه مقابل أجر قليل . لا يتزاوجون مع السكان الأصليين ، فهم يعتبرون

أنفسهم عرباً خلصاً، وأهل البلد يعتبرونهم بدواً اجلافا. ولكن الزين كسر هذا الحاجز . كان لا يستقر في مكان ، مـا يزال سحابة نهـاره سائحاً في البلد من اقصاها إلى اقصاها . وحملته قدماه يوماً الى فريق القوز لغير سبب . فحـام حول البيوت كأنه يبحث عن شيء ضاع منه . وخرجت فتـاة راع الزين جمالها فتسمر في مكانه. وكانت الفتاة قد سمعت به، فإن شهرته وصلت حتى عرب القوز . فضحكت له وقالت تعبث بـه : « الزين ، بتعرّسني ؟ » وتبكم برهة ، فقد فتنـه جمـال الفتاة وأخذته حلاوة حديثها، لكنه ما لبث ان صاح باعلى صوته : « واكتلتي ياناس » . وامتدت رؤوس كثيرة من ابواب البيوت وبين فرجات الخيام . وصاحت ام الفتاة : « حليمه الموقفك شنو مع الدرويش دا ؟ » وهب اخوان الفتاة على الزين ، ففر منهم. ولكن حليمة ، حسناء القوز ، اصبحت فيما بعد هوسا عنده ، لم يفارقه الى أن تزوجت الفتاة. فقد تسامع الناس بها وجاء كثيرون من اثرياء البـلد وشبانها المرموقين ووجهائهـا يخطبونها من ابيها . وتزوجها آخر الامر ابن القاضي .

كان زواج بنت العمدة وزواج حليمة نقطة تحول في حياة الزين . فقد فطنت امهات البنات الى خطورته ، كبوق يدعين به لبناتهن . في مجتمع محافظ ، تحجب فيه البنات عن الفتيان ، اصبح الزين رسولا للحب ، ينقل عطره من مكان الى مكان. كان الحب يصيب قلبه اول ما يصيب ، ثم ما يلبث ان ينتقل منه الى قلب غيره ، فكأنه سمسار او دلال او ساعي بريد . ينظر الزين بعينيه الصغيرتين كعيني الفأر ، القابعتين في محجرين غائرين ، الى الفتاة الجميلة ، فيصيبه منها شيء - لعله حب ؟ وينوء قلبه الابكم بهذا الحب ، فتحمله قدماه النحيلتان الى اركان البلد ، يجري ها هنا وها هنا كأنه كلبة فقدت جراءها ، ويلهج لسانه بذكر الفتاة ويصيح باسمها حيثما كان ، فلا تلبث الآذان ان ترهف ، وما تلبث العيون ان تنتبه . وما تلبث يد فارس من بينهم ان تمتد فتأخذ يد الفتاة. وحين يقام العرس ، تفتش عن الزين ، فتجده اما مسخرا يملأ القلل والازيار بالماء او واقفاً في منتصف الساحة عاري الصدر ، في يده فأس يكسر به الحطب او بين النساء في المطبخ يمابثهن ، ويعطينه من آن لآخر قطعا من الطعام يملأ بها فمه ، وما يفتأ يضحك ضحكته التي تشبه نهيق الحمار . وتبدأ قصة حب أخرى ... وكان الزين يخرج من كل قصة حب كما دخل ، لا يبدو عليه تغيير ما . ضحكته هي هي لا تتغير ، وعبثه لا يقل بحال ، وساقاه لا تكلان عن حمل جسمه الى اطراف البلد .

ووفدت على الزين سنوات خصب ، مفعمة بالحب . فقد اصبحت امهات البنات يخطبن وده ويستدرجنه الى البيوت فيقدمن له الطعام، ويسقينه الشاي والقهوة. يدخل الزين الدار من تلك الدور ، فيفرش له السرير ، ويقدم له الفطور اوالغداء صينية واوان، ويؤتى بعد ذلك بالشاي السادة بالنعناع اذا كان الوقت ضحى، والشاي الثقيل باللبن اذا كان الوقت عصراً. وبعد الشاي يؤتى بالقهوة بالقرفة والحبهان والجنزبيل ، سواء كان الوقت ضحى او عصراً. وما يسمع النساء أن الزين في دار قريبة حتى يتقاطرن عليه . فهن يستلطفن عبثه . وتحث الامهات بناتهن ان يحيّن ويسلمن عليه . والسعيدة منهن من تقع في قلبه موقعاً ، والتي يخرج واسمها على فمه. تلك الفتاة تضمن زوجاً في خلال شهر او شهرين. ولعل الزين، بفطرة فيه، ادرك خطورة مركزه الجديد ، فاصبح يتدلل على امهات البنات ويتردد قبل ان يجيب دعوة احدهن للافطار او للغداء .

كل هذا وفي الحي فتاة واحدة لا يتحدث الزين عنها ، ولا يعبث معها . فتاة تراقبه من بعد بعيون حلوة غاضبة ، كلما رآها مقبلة يصمت ويترك عبثه ومزاحه، واذا رآها من بعد فرّ من بين يديها وترك لها الطريق .

●

وروجت ام الزين ان ابنهـــا ولي من اولياء الله . وقوّى هذا الاعتقاد صداقة الزين مع الحنين. كان رجلاً صالحا منقطعا للعبادة.يقيم في البلد ستة اشهر في صلاة وصوم، ثم يحمل ابريقه ومصلاته ويضرب مصعداً في الصحراء ، ويغيب ستة أشهر ، ثم يعود ، ولا يدري أحد أين ذهب . ولكن الناس يتناقلون قصصاً غريبة عنه . يحلف أحدهم انه رآه في مروى في وقت معين، بينما يقسم آخر أنه شاهده في كرمه فيذلك الوقتنفسه – وبين البلدين مسيرة ستة ايام . ويزعم اناس أن الحنينيجتمع برفقة من الاولياء السائحين الذين يضربون في الأرض يتعبدون والحنين قلما يتحدث مع أحد من أهل البلد ، وإذ سئل أين يـذهب ستة اشهر كل عام ، لا يجيب . ولا احد يدري ماذا يأكل وماذا يشرب ، فهو لا يحمل زاداً في أسفاره الطويلة .

ولكن في البلد انساناً واحداً يأنس اليه الحنين ويهش له ويتحدث معه-ذلك هو الزين. كان إذا قابله في الطريق عانقه وقبله على رأسه ، وكان يناديه « المبروك » . وكان الزين ايضاً إذا رأى الحنين مقبلاً، ترك عبثه وهذره وأسرع اليه وعانقه. ولم يكن الحنين يأكل طعاماًفي بيت أحد، إلا دار اهل الزين يسوقه الزين معه إلى أمه ويأمرها بصنع الغداء أو الشاي أو القهوة. ويظل الزين والحنين ساعاتفي ضحك وكلام. ويحاول أهل البلد ان يعرفوا منالزين سر الصداقة التيبينه وبين الحنين فلا يزيد على قوله : « الحنين راجل مبروك » .

كانت للزين صداقات عديدة من هذا النوع ، مع اشخاص يعتبرهم أهل البلد من الشواذ ، مثل عشمانة الطرشاء ، وموسى الاعرج، وبخيت الذي ولد مشوهاً، ليست له شفة عليا ،جنبه الايسر مشلول . كان الزين يحنو على هؤلاء القوم ، إذا رأى عشمانة قادمة من الحقل وعلى رأسها حمل ثقيل من الحطب حمله عنها، وهش لها وداعبها . كانت فتاة تخاف من كل أحد ، إذا صادفت أمرأة أو رجلاً في طريقها أرتعبت وفزعت ، كأنهم وحوش مفترسة ، ولكنها كانت تأنس للزين وتضحك له ضحكتها البكماء المحزنة التي تشبه صياح الدجاج . وموسى الذي لا يذكر الناس اسمه ولكنهم يسمونه الاعرج ، رجل طاعن في السن، حين تراه مقبلاً يتفطر قلبك من كثرةما يعاني في مشيه، الحياة بالنسبة له طريق متعب شاق كان عبداًرقيقاً

لرجل موسر في البلد ، ولما منحت الحكومة الرقيق حريتهم، آثر موسى أن يبقى مع مولاه. كان مولاه شغوفاً به يحبه ويبره ويعامله معاملة الابن. ولما توفي آلت الثروة الى ابن سفيه، فبددها وطرد موسى. وأدركته الشيخوخة وهو معدم لا أهل له، ولا احد يعنيه أمره . فعاش على حافة الحياة في البلد ، كما تعيش بعض الكلاب العجوزة الضالة، التي تأوي الى الخرابات في الليل. وتبحث عن القوت نهاراً في فجوات الحي، يتحرش بها الصبيان. عطف الزين على هـذا الرجل ، وبنى له بيتاً من جريد النخل وأعطاه معزة ملبنة . كان يأتيـه في الصباح فيسأله كيف بات ليله، ويأتيه بعد غروب الشمس ، مالئاً جيوبه بالتمر ، وثوبه منتفخ بالطعام، فيلقيه بين يديه . وأحياناً يجيء ومعه وقيـة شاي أو رطل سكر أو شيء من البن . وتسأل موسى الاعرج عن الصداقة التي بينه وبين الزين فيقول لك وفي عينيه غشاوة من الدمع : « الزين حبابه عشرة ، الزين ود حلال ». ويرى اهل البلد هذه الاعمال من الزين فيزداد عجبهم. لعله نبي الله الخضر لعله ملاك انزله الله في هيكل آدمي زري ، ليذكر عباده ان القلب الكبير قد يخفق حتى في الصدر المجوف والسمت المضحك كصدر الزين وسمته . وبعضهم يقول : « يضع سره في اضعف خلقه » . ولكن صوت الزين لا يلبث ان يرتفع منادياً : « يا أهـل الفريق ... يا ناس الحلة انا مكتول » . فتتحطم هـذه الصورة، وتعود صورة الزين التي يألفها الناس ويؤثرونها .

كل هــذا وفي الحي صبية حلوة ، وقـورة المحيا ، غاضبة العينين ، راقب الزين في عبثه ومزاحه وهزاره . وجدته يوماً في مجموعة من النساء يضاحكهن كعادته ، فانتهرته قائلة : « ما تخلي الطرطشه والكلام الفارغ تمشي تشوف أشغالك؟» ، وحدجت النساء بعينيها الجميلتين. سكت الزين عن الضحك وطأطأ رأسه حياء ثم انسل بين النساء ومضى في سبيله .

لم تصدق آمنه أذنيها . وسألت حليمة بائعة اللبن ، للمرة العاشرة : « فتى داير يعرّس منــو ؟ » وللمرة العاشرة قالت حليمة : « نعمة » . مستحيل. لا بد ان الفتاة فقدت عقلها . نعمة تتزوج الزين؟ واختلطت الدهشة في صدر آمنــة بالغضب وتذكرت بوضوح ذلك اليوم قبل شهرين حين بلعت كرامتهـا وتحاملت على نفسها وذهبت إلى أم نعمة . كانت قد حلفتألا تكلم سعدية بعدذلك في حياتها، فقد توفيت أم آمنة وجاءنساء البلد جميعاً يعزينها إلا سعدية . ولم تهتم آمنة ان سعديــة كانت غائبة عن البلد في الوقت الذي توفيت فيه أمها. كانت مريضة في المستشفى في مروى حيث ظلت طريحة الفراش شهراً كاملاً وحــين عادت من مروى جاءت النساء جميعاً يستفسرن عن صحتها، إلا آمنة. وانقسم النساء فريقين، فريق يخطىء سعدية

ويقلن ان الواجب كان يحتم عليها انتبدأ آمنة بالزيارة، فالموت أكبر من المرض . وفريق من النساء يتحزب لسعدية، ويقلن ان أم آمنة بلغت أرذل العمر على أي حال، والحي خير من الميت وزاد اللغط وتعقدت المشكلة ، وأصرت كل من المرأتين على رأيها ، واصبحت آمنة لا تكلم سعدية وسعدية لا تكلم آمنة . حتى قبل شهرين ، حين أصر ابن آمنه عليها ان تذهب وتخطب نعمة . وبلعت المرأة كرامتها وتحاملت على نفسها ودخلت على سعدية في دارها، وقت الضحى ، وعلى النار قهوة تغلي ، وعلى المائدة فناجين وسكر وأشياء استقبلتها سعدية استقبالاً فاتراً، وعرضت عليها القهوة بصوت بارد ، فرفضت آمنة ، ولم ترد سعدية. لم تحلفها ولم تخصصها . لم تقل لها : « الرسول يتعرض لك النبي عليك . الله يهديك تشربي القهوة» . لم ترد على جملة واحدة. وتطلبت آمنة شجاعة كبيرة، لكي تحدث سعدية في موضوع ابنها احمد، ونعمة إبنة سعدية. عرقت وجفت وبلعت ريقها، واخيراً قالت في صوت مرتعش، وهي في داخلها تلعن ابنها الذي عرّضها لكل هذا الاحتقار : « سعدية اختي . انا كت حالفه تاني الحياة ولا الممات ما يجيبني ليكي. بحال انت من دون الناس كلهم ابيتي تجي تعزيني في امي. لكين برضه المؤمن مسامح ... دحيني يا ختي انا عافالك . الفرض الجابني ليكي حسع ، الشيء الجيتك من شانه ، احمد ولدي . ابو احمد وانا عندنا رغبه في نعمه لي احمد ». ولما فرغت من حديثها، شعرت بلسانها كقطعة من الخشب في فمها وأحست بحلقها قد تقلص

فتنحنحت مرتين وارتعشت يداها . ولم تقل سعدية شيئاً . لو أنها فاهت بكلمة واحـدة لهدأ روع آمنة قليلاً . سعدية دائماً تشعرها بأنهـا أقل منها شأناً . أنها أمرأة جميلة نبيلة الملامح والسلوك ، تحس وأنت تنظر الى وجهها الوقـور السمح بثروة أخوانها السبعة، وأملاك أبيها الواسعة، ونخل زوجها وشجره وبقره ومواشيه التي لا يحصيها العد. هذه المرأة لها أولادثلاثة تعلموا فيالمدارس واشتغلوا في الحكومة. ولها بنت جميلة يتطلع اليها الفتيان ، والناس يذكرونها بالخير. هذه المرأة التيتجاوزت الاربعين وهي تبدو كفتاة عذراء ، هذه المرأة القليلة الكلام، لماذا لاتقول شيئا؟واخيراً رفعت سعدية أهداب عينيها الطويلة، ونظرت إلى آمنة نظرة لم تفهمها . لم يكن فيها غضبأو حقد او عتاب او ود . وقالت بصوتها الهادىء الذي لا يهـتز ولا يثور : « إن شاء الله خير . طبعاً الشورى عند ابو البت.وقت يجي نكلمه » . تذكرت آمنة كل هذا ، وتذكرت كيف انهم رفضوا بعد ذلك ، متذرعين بأن نعمة ما تزال قاصراً لم تصر للزواج بعد. والآن يزوجونها للزين–هذا الرجل الهبيل الغشيم ! يزوجونها للزين دون سائر الناس. وشعرت آمنة كأن فيالأمر إساءة موجهة اليها شخصياً ، عن عمد . وارتاعت حليمة بائعة

اللبن حين لاحظت عيني آمنة تلسمان بالغضب . وحسبت ان آمنة أدركت انها غشتها اللبن . فزادته وقالت لآمنة : « كان هاكي دا زيادة عشان ما تزعلي » .

تتابعت الاعوام ، عام يتلو عاماً ، ينتفخ صدر النيل ، كما يمتليء صدر الرجل بالغيظ . ويسيل الماء على الضفتين ، فيغطي الأرض المزروعة حتى يصل إلى حافة الصحراء عند اسفل البيوت تنق الضفادع بالليل، وتهب من الشمال ريح رطبة مغمسة بالندى تحمل رائحة هي مزيج من اريج زهر الطلح ورائحة الحطب المبتل ورائحة الأرض الخصبة الظمأى حين ترتوي بالماء ورائحة الأسماك الميتة التي يلقيها الموج على الرمل . وفي الليالي المقمرة حين يستدير وجه القمر ، يتحول الماء إلى مرآة ضخمة مضيئة تتحرك فوق صفحتها ظلال النخل واغصان الشجر. والماء يحمل الأصوات إلى ابعاد كبيرة، فإذا اقيم حفل عرس على بعد ميلين تسمع زغاريده ودق طبوله وعزف طنابيره ومزاميره كأنه إلى

يعين دارك . ويتنفس النيل الصعداء ، وتستيقظ ذات يوم فإذا صدر النيل قد هبط وإذا الماء قد انحسر عن الجانبين، يستقر في مجرى واحد كبير يمتد شرقاً وغرباً، تطلع منه الشمس في الصباح وتغطس فيه عند المغيب . وتنظر فإذا أرض ممتدة ريانة ملساء ترك عليها الماء دروباً رشيقة مصقولة في هروبه الى مجراه الطبيعي. رائحة الارض الآن تملأ أنفك ، فتذكرك برائحة النخل حين يتهيأ اللقاح . الارض ساكنة مبتلة، ولكنك تحس أن بطنها ينطـــوي على سر عظيم . كأنها امرأة عارمة الشهوة تستعد للاقاة بعلها. الارض ساكنة ولكن احشاءها تضج بماء دافق، هو ماء الحياة والخصب. الارض مبتلة متوثبة، تتهيأ للعطاء. ويطعن شيء حاد احشاء الارض. لحظة نشوة والم وعطاء. وفي المكان الذي طعن في احشاء الارض، تتدفق البذور. وكما يضم رحم الانثى الجنين في حنان ودفء وحب، كذلك ينطوي باطن الارض على حب القمح والذرة واللوبيـــا . وتتشقق الارض عن نبات وثمر .

تذكر نعمة وهي طفلة ان النساء كن اذا جئن لزيارة امها كن يجلسنها على حجورهن، ويمسحن بايديهن على شعرها الغزير المتهدل على كتفيها ، ويقبلنها على خدها وشفتها ويدغدغنها ، ويضممنها الى صدورهن . وكانت تمقت ذلك ، وتتلوى في اذرعهن ، ومرة ضجرت من عبث امرأة بدينة بها ، وشعرت بذراعي المرأة الغليظتين تنطبقان عليها ، كأنهما فكا حيوان مفترس ، وبردفي المرأة المثقلة وعطرها القوي ، كأنها تخنقها. وتململت نعمة وحاولت انتتخلص منقبضةالمرأة. ولكن المرأة ضمتها الى صدرها بقوة وانقضت على وجهها بشفتيها المكتنزتين تقبلها على رقبتها وعلى خدها،وتشمها. صفعتها نعمة على وجهها

صفعة قاسية . وذعرت المرأة وانفك ذراعاها وأنفلتت نعمة وتركت الغرفة . ولمـــا كبرت ولم تعـــد طفـلة ، اصبحت رؤوس النساء والرجال على السواء تلتفت اليها، حين تمر بهم في الطريق . لكنها لم تكن تأبه لجمالها . وتذكر ايضـــاً كيف ارغمت اباهاان يدخلها في الكتّاب لتتعلم القرآن. كانت الطفلة الوحيدة بين الصبيان. وبعدشهر واحد تعلمت الكتابة، وكانت تستمع الى صبيان يكبرونها يقرأون سوراً من القرآن ،فتستقر في ذهنها. واقبلت على القرآن ، تحفظه بنهم ، وتستلذ بتلاوته وكانت تعجبها آيات معينة منه ، تنزل على قلبها كالخبر السار كانت تؤثر مما حفظته سورة الرحمـــن وسورة مريم وسورة القصص ، وتشعر بقلبها يعتصره الحزن وهي تقرأ عـن أيوب وتشعر بنشوة عظيمة حين تصل الى الآية « واتيناه اهلهومثلهم معهم رحمةمن عندنا». وتتخيل رحمةامرأة رائعة الحسنمتفانية في خدمة زوجها ، وتتمنى لو أن اهلها اسموها رحمة . كانت تحلم بتضحية عظيمة لا تدري نوعها . تضحية ضخمة تؤديها في يوم من الايام ، فيها ذلك الاحساس الغريب الذي تحسه حـين تقرأ سورة مريم ونشأت نعمة، طفلة وقورة، محور شخصيتها الشعور بالمسؤولية. تشارك امها في اعباء البيت ،وتناقشها فيكل شيء ، وتتحدث الى ابيها حديثاً ناضجا جريئا يذهله في بعض الاحيـان. كان اخوها الذي يكبرها بعامين يحثها على مواصلة التعليم في المدارس ويقول لهـــا : (يمكن تبقي دكتورة ولا محامية). ولكنها لم تكن تؤمن بذلك النوع من التعليم . تقول

لاخيها وعلى وجهها ذلك القناع الكثيف من الوقار : (التعليم في المدارس كله طرطشة . كفاية القراية والكتابة ومعرفـــة القرآن وفرايض الصلاة) . ويضحك اخوها ويقول : (باكر يجي ود حلال يعرسك وتنفك من حججك) . افراد اسرتها يقولون لها هذا مع احساس بالخوف، فهم يدركون ان هذه الفتاة الغاضبة العينين الوقورة الحيا، تضم صدرها على امر تخفيه عنهم.

ولما بلغت السادسة عشرة بدأت امها تتحدث عن الفتيان الذين يصلحون ازواجاً لها، الغني والمتعلم والوسيم والذي امـه وابوه يصلحان اصهاراً. ولكن نعمة تهز كتفيها ولا تقول شيئاً. ولما جاءت آمنة الى سعدية تحدثها في امر زواج نعمة من احمد وقالت لها سعدية : (الشورى عنـد ابو البت) كانت تعلم في قرارة نفسها ان (الرأي) لا لأحد غير نعمة نفسها . وكان لا بد من خيارها. فهزت كتفيها وقالت : انا لي الليلة ما بقيت للعرس) وكان من العبث مناقشتها، خاصة وأن سعدية لم تكن متحمسة لأن تصبح حماة لآمنة . لم يمض بعد ذلك وقت طويل حتى ظهر خطيب آخر: ادريس. فتيات كثيرات في البلد كن يتمنين أن يصبحن زوجات له، فقد كان متعلما، يعمل مدرسا في مدرسة ابتدائية . وكان دمث الأخلاق ، حسن السيرة بين اهل البلد ومع أن عائلته لم تكن من العوائل ذوات الأصل، التي يشار اليها في البلد، إلا أن أباه كون لنفسه مكانة بين الناس بجده وحسن عشرته. كانت اسرة طيبة ميسورة الحال . وكان حاج ابراهيم والد نعمة ، وامها سعدية ، واخوانها الثلاثة ، يميلون إلى قبول

ادريس . بيد أن نعمة كان لها رأي غير ذلك . هزت كتفيها وقالت : (ما بدوره). واحتد حاج ابراهيم في كلامه معها وهمّ بصفعها. ولكنه توقف فجأة. شيء ما في محياتلك الفتاه العنيده قتل الغضب في صدره. لعله تعبير عينيها، لعله التصميم الرزين على وجهها. وكانما أحس الرجل بأن هذه الفتاة ليست عاقة ولا متمرده . ولكنها مدفوعة بإيعاز داخلي إلى ألإقدام على أمر لا يستطيع أحد ردها عنه. ومن يومها لم يكلمها أحد في أمر الزواج .

وكانت نعمه حين تفرغ إلى نفسها وأفكارها، وتخطر على ذهنها خواطر الزواج ، تحس أن الزواج سيجيئها من حيث لا تحتسب. كما يقع قضاء الله على عباده. مثل مايولد الناس ويموتون ويمرضون . مثل مـا يبيض النيل ، وتهب العواصف ، ويثمر النخل كل عام ، كما ينبت القمح ويهطل المطر وتتبدل الفصول كذلك سيكون زراجها، قسمة قسمها الله لها في لوح محفوظ قبل أن تولد، وقبل أن يجري النيل، وقبل أن يخلق الله الأرض وما عليها. لم تكن تحس بفرح او خوف او اسى حين تفكر في هذا، ولكنها كانت تشعر بمسؤولية كبيره ستوضع على كتفيها في وقت ما، قد يكون قريباً ،وقد يكون بعيداً. صاحباتها في الحي، كل فتاة تشب وفي ذهنها صورة معينه عن الفارس الذي يربط فرسه ذات مساء ساجي الضوء خارج الدار، ويدخل ويختطفها من بين أهلها، ويهرب بها بعيداً إلى عوالم سحرية من

السعاده ورغد العيش. أما نعمة فلم ترتسم في ذهنها صوره محدده. كبرت، وكبر معها حب فياض ستسبغه يوما ما على رجل ما قد يكون الرجل متزوجاً له ابناء، يتزوجها على زوجته الأولى قد يكون شاباً وسيما متعلماً، أو مزارعاً من عامة أهل البلد مشقق الكفين والرجلين، من كثرة ما خاض الوحل وضرب بالمعول. قد يكون الزين ... وحين يخطر الزين على بال نعمة تحس إحساساً دافئاً في قلبها، من فصيلة الشعور الذي تحسه الام نحو أبنائها. ويمتزج بهذا الإحساس شعور آخر، بالشفقة. يخطر الزين على بالها كطفل يتيم عديم الأهل، في حاجة الى الرعاية انه ابن عمها على كل حال، وما في شفقتها عليه شيء غريب.

لم تكن أم الزين تبالي أين يقضي الزين ليله، فقدكان كروح قلق ليس له مستقر . حيثما أقيم عرس تجد الزين : في فريق الطلحة أو عند عرب القوز ، في قبلي أو بحـــري ، لا يحبسه برد، ولا عاصفة تهب بالليل ، ولا النيـــل الطامي في موسم فيضانة . تلتقط أذنه بحساسية نادره زغاريد النساء على بعـد أميال، فيضع ثوبه على كتفه ويهرول كـــأن شيئاً يجذبه إلى مصدر الصوت . وأحياناً يسطع النور فجأة من وراء كثبـان الرمل ، حين تعدو السيارات آتية من أمدرمان، فإذا شخص نحيل يحث في الرمل يميل بجسمه إلى الأمام قليلاً وعيناه تنظران الى الأرض ، يحث الخطى متجهاً شرقـاً . يرى الركاب الزين فيعلمون ان ثمة حفل عرس في طرف الحي، فاما صاحوا به حين

يمرون عليه ، واما اوقفوا السيارة وتحرشوا به. واحياناً يسير ووراءه كوكبة منهم . وتقترب زغاريد النساء وتتضح معالمها ويستطيع الزين أن يميز النساء ، أية امرأة زغردت . ثم تبدو الانوار وتبدو اشباح مجتمعة تصعدوتهبط كأنها شياطين في وادي الجن . ثم يظهر الغبار الذي تثيره ارجل الناس في رقصها ، يتشبث بخيوط الضوء . وفجأة ينشق الليل عن نداء يعرفه كل احد : « عوك يا أهل العرس، ياناس الرقيص ، الزين جا كم ». وإذا الزين قد قفز كالقضاء واستقر في حلقة الرقص . ويفور المكان فجأة ، فقد نفث فيه الزين طاقة جديدة . ومن بعيد يسمع المرء صيحاتهم يرحبون بـه : « ابشر . ابشر . حبابك عشرة » . وحين تموت أصوت النساء في حلوقهن ، وتطفأ الأنوار ، ويتراوح الناس الى دورهم قبيل طلوع الفجر ، يسند الزين رأسه الى حجر أو إلى جذع شجره ، وينـام برهة نوماً خفيفاً كنوم الطير . وحين يؤذن المؤذن لصلاة الفجر ، يقفل عائداً إلى أهله ، فيوقظ أمه لتصنع الشاي .

بيد ان المؤذن قد أذن ذات صباح ، ولم يعد الزين. واحمر الأفق الشرقي قبيل طلوع الشمس، ثم ارتفعت الشمس قدرقامة الرجل ولم يعد الزين. وأحست أم الزين برجفة خفيفة فيجنبها الأيسر فلم تستبشر خيراً. إنهاتعتقد أن جنبها الأيسر إذا رجف فإن شراً سيلم بها أو بأحد ذويها لا محـالة . وهمت ان تذهب لعم الزين. ولكنها سمعت حركة عند باب الحوش وسمعت باب

الحوش الكبير يصر، ثم سمعت خبطة قوية، وفجأة رأت امامها شيئاً مريعاً . فصرخت صرخة سمعها حاج ابراهيم ابو نعمة في رابع بيت وهو جالس على مصلاته يشرب قهوة الصباح امتلأت الدار بالناس رجالاً ونساء وحملوا أم الزين فاقدة الوعي. وانشق الناس نصفين، نصفاً راح مع الأم، ونصفاً اغلبهم من الرجال التفوا حول الزين . كان على رأسه جرح كبير يصل إلى قريب من عينه اليمنى، وصدره وثوبه وسرواله ملطخة بالدم . وفقد الناس رشدهم، واخذ عبد الحفيظ يصيح في الزين وقد احمرت عيناه من الغضب: « كلمنا من عمل فيك العمله دي؟ مين الكلب المجرم الضربك ؟» وتصارخت النساء وبعضهن أخذن في البكاء وكانت نعمه تقف عن بعد، صامته، وعيناها مركزتان على وجه الزين، وقد حل محل الغضب فيهما حنو عظيم . وقال حاج ابراهيم : « الحكيم » . وكان الكلمة وقع الماء على النار، فهدأ عويل النساء، وصاح محجوب : « الحكيم »، وصاح عبدالحفيظ: «الحكيم» وانطلق احمد اسماعيل على حماره ليحضره.

ولما عاد الزين من المستشفى في مروى حيث ظل اسبوعين كان وجهه نظيفاً يلمع، وثيابه بيضاء ناصعة . وضحك فلم يرَ الناس كما عهدوا سنين صفراوين في فمه، ولكنهم رأوا صفاً من الأسنان اللامعة في فكه الأعلى، وصفاً من أسنان كأنها من صدف البحر في فكه الاسفل . وكأنما الزين تحول إلى شخص آخر. وخطر لنعمة وهي واقفة بين صفوف المستقبلين أن الزين في الواقع لا يخلو من وسامة .

وظل الزين بعد ذلك زمناً طويلاً ولا حديث له إلا رحلته لمروي. كان يلذ له ان يجتمع حوله رفاقه القدامى، محجوب ، وعبد الحفيظ ، واحمد اسماعيل ، وحمد ود الريس ، والطاهر الرواسي ، وسعيد التاجر ، فيحكي لهم ما جرى له .

« اول ما وصلت يا زول قلعوني هدومي ولبسوني هدوماً نظاف .. السرير يرقش. الملايات بيض زي اللبن . والبطاطين والبلاط يزلق الكـراع ... » وقاطعه محجوب متحرشاً : « خلّك من البطاطين والبلاط . كرشك الكبيرة دي ملوها ليك بي شنو ؟ » وارتجف فم الزين كأنه مقبل على وليمة : « هلاّ هلاّ . الأكل في اسبتالية مروى ولا بلاش . هو عاد جنس اكل . شيتن سمك شيتن بيض شيتن لحم شيتن دجاج . » . وقاطعه محجوب مرة اخرى: « الاكل في الاسبتاليات ماقلوا شوية؟ كيفـن كت بتشبع ؟ » وابتسم الزين ابتسامـة كبيرة مدبرة ، حتى يظهر اسنانه الجديدة : « بجال التمرجية كان صاحبتي قعد قدام الاكل » . وصاح عبد الحفيظ : « اي لا اله الا الله .. آمسنوح . كان مشيت تتلعبس على التمرجيات ؟ » وارتج جسم الزين بضحك مكتوم : « اي ...اي... امانة يا زول مي شافعتن سميحة ». وتدخل ود الرواسي بعد أن كان يستمع ويضحك دون ان يقول شيئاً: « عليك الرسول ا الزين كدي وصفها لينا ». والتفت الزين خلفه كأنه يخاف أن يسمعه أحد ، وخفض صوته : « عليك أمان الله يا زول عليها كبر

صلبّن » . وانقطع حبـــل الحديث وقتاً ، فقد ضج المجلس بالضحك . وحين استجمع حمد ود الريس أنفاسه قال ، وما يزال في صدره بقية من ضحك : « شن سويت معاها آمقطوع الطاري ؟ » واصل الزين حديثه كأنه لم يسمع هذا السؤال الأخير :« بليتين سميحة من أمدرمان.مَرها . ماها مشلخة». وزحف ود الرواسي قريباً من الزين وأعاد سؤاله بطريقة أخرى : (أنت شن أوراك كبُر صلبها ؟) وقال الزين على الفور : (قالوا لك أنا عميان ؟ الشي وقت يبقى قدامي ما بشوفه ؟) ، وكأن محجوب سر من هذا الرد فقال وهو ينظر إلى ود الريس : (الداهي نجيض . ساكت قايلنه عويد) . ووضع الزين يديه خلف رأسه ومال إلى الوراء قليلا، ثم قال ببطء وعلى وجهه ابتسامة خبيثة : (دايرين يا جماعة تعرفو شن سويت لها ؟) وقال ود الريس بلهفة : (الرسول آ الزين حدثنا شن سويت لها) . واتسعت ابتسامة الزين ، ثم فتح فمه ليتكلم ، فانعكس شيء من ضوء المصباح الكبير المعلق في دكان سعيد على أسنانه . وفجأة ، وفي وقت واحد ، قفز الزين واقفاً كأن عقربا لدغته ، وقفز أحمد اسماعيل ، وقفز محجوب والطاهر الرواسي ، وحمد ود الريس . وصاح عبد الحفيظ : (امسكوه) . لكنه كان أسرع منهم . في لمح البصر كان الزين قد أمسك بالرجل ورفعه في الهواء بعنف ثم رماه في الأرض . ثم شده من رقبته . وانكبوا كلهم عليه،

أحمد اسماعيل امسك بذراعه اليمنى ، وعبد الحفيظ أمسك بذراعه اليسرى ، والطاهر الرواسي أمسك به من وسطه ، وحمد ود الريس أمسك بساقيه ، وكان سعيد يزن شيئاً في دكانه ، فخرج مسرعاً وأمسك بساقي الزين أيضاً ، لكنهم لم يفلحوا .

تدفقت في جسم الزين النحيل قوة مريعة جبارة لا طاقة لأحد بها. أهل البلد جميعاً يعرفون هذه القوة الرهيبة ويهابونها، وأهل الزين يبذلون جهدهم حتى لا يستعملها الزين ضد أحد . انهم يرتعدون روعاً كلما ذكروا أن الزين أمسك مرة بقرني ثور جامح استفزه في الحقـــل ، أمسك به من قرنيه. ورفعه عن الأرض كأن حزمة قش وطرح به ثم القاه أرضاً مهشم العظام، وكيف انه مرة في فورة من فورات حماسه قلع شجرة سنط من جذورها وكأنها عود ذرة . كلهم يعلم أن في هذا الجسم الضاوي قوة خارقة ليست في مقدور بشر ؛ وسيف الدين ، هذه الفريسة التي انقض عليها الزين الآن، انه لا محالة هالك. واختلطت اصواتهم برهة . كان الزين يردد في غضب: (الحمار الدكر لازم أكتله) — والحمار الدكر أقصى ذم يلحقه الزين برجل . وأرتفع صوت عبد الحفيظ في توتر وخوف : (الرسول الزين . عليك الله خليه) . وأخذ محجوب يشتم في يأس . وكان أحمد اسماعيل أصغرهم سناً وأقواهم ، ولما أعيته الحيلة عض الزين في ظهره . وكان الطاهر الرواسي رجلاً مشهوراً

بقوته . كان في بحثه عن السمك في الليل يعوم النيل ذهاباً وجيئة ويغطس في الماء نصف الساعة فلا ينقطع نفسه . لكن قوته لم تكن شيئاً بجانب الزين . وفي ضوضائهم سمعوا شخيرا يصدر من حلق سيف الدين ، ورأوه يضرب برجليه الطويلتين في الهواء . وصاح محجوب : (مات . كتله) .

لكن صوت الحنين ارتفع هادئـاً وقوراً فوق الضجة : (الزين . المبروك . الله يرضى عليك) وانفكت قبضة الزين ووقع سيف الدين على الارض ، هامداً ساكناً. ووقع الرجال الستة دفعة واحدة ، فقد فاجأهم صوت الحنين وباغتهم الزين بسكوته المفاجيء ، فكأن حائطاً أمامهم كانوا يدفعونه ، أنهد بغتة . ومضت برهة قصيرة جداً ، مقدار طرفة العين ساد فيها صمت كامل ، لا بد أنه كان صمتاً مزيجاً من رعب وحيرة وأمل . بعد ذلك جاشت الحيـاة فيهم مرة أخرى وتذكروا سيف الدين . أنكبت رؤوسهم عليه ، ثم صـاح محجوب بصوت فرح مرتعش (الحمد لله . الحمد لله) . وحملوا سيف الدين ووضعوه على كنبة أمام دكان سعيد . وفي أصوات متوترة خافتة أخذوا يعيدونه إلى الحيـاة . حينئذ فقط تذكروا الزين ، فرأوه جالساً على مؤخرته ويداه بين ركبتيه مطأطئاً رأسه . وكان الحنين قد وضع يده على كتف الزين في حنان بالغ . كان يتحدث اليـه في صوت حازم لكنه مليء بالحب : (الزين المبروك . ليه عملت كده ؟)

وجاء محجوب وأنتهر الزين ، لكن الحنين نظر اليه نظرة أسكتته. وبعد برهة قال محجوب للحنين : لو ما كت جيت يا شيخنا كان كتله . وأنضم اليهم أحمد اسماعيل والطاهر الرواسي.وبقي عبد الحفيظ وسعيد التاجر وحمد ودالريس مع سيف الدين . وبعد برهة قال الزين وهو مـــا يزال مطأطيء الرأس ، مردداً كلام محجوب : « ان كت ما جيت ياشيخنا كت كتلته. الحمار الدكر . وقت ضربني في راسي بالفاس قايل ماش اسكت له » .

لم يكن فيصوته غضب. كان صوتهأقرب الى مرحهالطبيعي منــه الى الغضب . ومرت في الحاضرين رعشة مرح خفيفة ، لكنهم ظلوا صامتين . وقــال الحنين : (لكين انت ما كت غلطان ؟)

وظل الزين صامتاً . فقال الحنين مــواصلا كلامه (متــين سيف الدين ضربك بالفاس في رأسك ؟ فأجاب الزين ضاحكاً ووجههمشبــع بالمرح : (وقت عرس أخته). واستمر الحنين وفي صوته هو الآخر رنة مرح : (شن سويت لي أختــه يوم عرسها ؟)

(اخته كانتدايراني انا.مشو عرّسوها للراجل الباطل داك)

وضحك احمد اسماعيل بالرغم منه . وقال الحنين في صوت اكثر رقة رحنانا : (كل البنات دايراتنّك يا لمبروك . باكــر

نعرّس احسن بت في البلد دي). واحس محجوب بخفقة خفية في قلبه . كان فيه رهبة دفينة من اهل الدين ، خاصة النساك منهم أمثال الحنين. كان يهابهم ويبتعد عن طريقهم ولا يتعامل معهم . وكان يحاذر نبوءاتهم ويحس بالرغم من عدم اهتمامه الظاهري ، بأن لهـــا امراً غامضاً . (نبوءات هؤلاء النساك لا تذهب هدراً) ، يقول في سره . لعل هذا هو الذي جعله يقول بصوت مرتفع فيه رنة واحتقار : (منو البتعرّس البهيم دا؟ كان على العليّة ، داير يجيب لنـــا جنيّه). ونظر الحنين الى محجوب نظرة صارمة، ارتعدت لها فرائص محجوب لولا انه تشجع ، وقال : (الزين مو بهيم . الزين مبروك . باكر يعرّس احسن بت في البلد) . وفجأة ضحك الزين ضحكة بريئـة ، ضحكة طفل ، وقال : (كت داير أموته . الحمار الدكر . يفلقني بالفاس عشان اخته دايراني انا ؟) فقال الحنين بحزم : (دحين دايرنك تصالحه . خلاص الفات مات . هو ضربك . وأنت ضربته) . ونادى سيف الدين ، فجاء بقامتـه الطويلة وحوله سعيد وعبد الحفيظ وحمد ود الريس . فقال الحنين للزين (قوم سلم فوق رأسه). فقام الزين دون أي اعتراض وامسك برأس سيف الدين وقبله. ثم أهـوى على رأس الحنين واشبعها قبلاً وهو يقول : (شيخنا الحنين. ابونا المبروك) . وكانت لحظة مؤثرة اثارت الصمت في نفوس اولئك الرجال . ودمعت عينا سيف الدين وقال للزين : (انا غلطان في حقك . سامحني) وقام وقبل رأس الزين ثم امسك بيد الحنين وقبلها . وجـاء

الرجال كلهم ، محجوب ، وعبد الحفيظ ، وحمد ود الريس ، والطاهر الرواسي، واحمد اسماعيل، وسعيد التاجر، كل واحد منهم امسك بيد الحنين في صمت وقبلها . وقال الحنين بصوته الرقيق الوديع : (ربنا يبارك فيكم. ربنا يجعل البركة فيكم) ووقف وامسك ابريقه في يده . فسارع محجوب يستضيفه : (لازم تتعشى معانا الليلة) . لكن الحنين رفض بلطف وقال وهو يمسك بيده الاخرى كتف الزين : (المشا في بيت المبروك) . وغابا معاً في الظلام . رف على رأسيهما برهة قبس من ضوء المصباح المعلق في دكان سعيد ، ثم انزلق الضوء عنهما كما ينزلق الرداء الحريري الأبيض عن منكب الرجل . ونظر محجوب الى عبد الحفيظ ونظر سعيد الى سيف الدين، ونظروا كلهم بعضهم الى بعض وهزوا رؤوسهم .

•

بعد هذا الحادث بأعوام طويلة ، حين اصبح محجوب جداً لاحفاد كثيرين ، كذلك اصبح عبد الحفيظ والطاهر الرواسي والباقون، وحين اصبح احمد اسماعيل ابا وصارت بناته للزواج، كان اهل البلد – وبينهم هؤلاء – يعودون بذاكرتهم الى ذلك العام ، والى حادث الزين والحنين وسيف الذي وقع امام دكان سعيد. الذين اشتركوا في ذلـــك الحادث يذكرونه برهبة وخشوع ، بما فيهم محجوب الذي لم يكن يأبه لشيء من قبل. لقد تأثرت حياة كل واحد من اولئك الرجال الثمانية ، ابطال الحادث ، بطريقة أو باخرى . وفي مستقبل ايامهم، سيستعيد هؤلاء الرجال الثمانية ، يستعيدون فيما بينهم ، آلاف المرات ، تفاصيل الحادث .وفي كل مرة، كانت الحقائق تتخذ وقعاً اكثر سحرا. يذكرون في عجب كيف ان الحنين هل عليهم من حيث لا يعلمون، في اللحظة ، عين اللحظة ليس قبل ولا بعد ، حين ضاقت قبضة الزين على خناق سيف الدين وكادت تودي به ، بل أن بعضهم يجزم ان سيف الدين قد مات بالفعل: لفظ نفسه الاخير ، ووقع على الارض جثة هامدة . وسيف الدين نفسه يؤكد هذا الزعم . يقول انه مات بالفعل . وفي اللحظة التي

ضاقت فيها قبضة الزين على حلقه ، يقول انه غاب عن الدنيا البتة ، ورأى تمساحاً ضخماً في حجم الثور الكبير فاتحاً فمه. وانطبق فكا التمساح عليه،وجاءت موجة كبيرة كأنها الجبل. فحطمت التمساح في هوة سحيقة ليس لها قرار.فيهذاالوقت، يقول سيف الدين انه رأى الموت وجهاً لوجه . ويجزم عبد الحفيظ ، وقد كان اقرب الناس الى سيف الدين حين عاد الى وعيه ، ان اول كلمات فاه بها،حين جاش النفس في رئتيه من جديد ، اول شيء تفوه به حين فتح عينيه ، انه قال: «اشهد الا اله الا الله واشهد ان محمداً رسول الله » .

ومهما يكن فمما لا شك فيه ان حياة سيف الدين ، منذ تلك اللحظة ، تغيرت تغيراً لم يكن يحلم به أحد . كان سيف الدين الابن الوحيد للبدوي الصائغ – سمي الصائغ لان تلك كانت حرفته في بداية حياته ، ولما اثرى ولم يعد صائغاً،لصق به الاسم فلم يفارقه . كان البدوي رجلا موسراً ، ولعله أثرى رجل في البلد . جمع بعض ثروته بعرق جبينه ، ومن الصياغة والتجارة والسفر ، وبعضها آل اليه عن طريق زوجته.كان كما يقول اهل البلد ، رجلاً (اخضر الذراع) ، لايمس شيئاً الا تحول بين يديه الى مال . في اقل من عشرين عاماً ، كون من العدم ، ثروة بعضها ارض وضياع ، وبعضها تجارة منتشرةعلى طول النيل من كرمة الى كرمة ، وبعضها مراكب موسقة بالتمر والبضائع تجوب النهر طولاًوعرضاً، وبعضها ذهب كثير تلبسه زوجته وبنـــاته في شكل حلي يملأ رقابهن وايديهن .

ونشأ سيف الدين ولداً واحداً بين خمس بنات ، تدلله امه ، ويدلله أبوه، وتدلله اخواته الخمس. فكان لا بد ان يفسد. او كما يقول اهل البلد، كان لا بد ان ينشأ هشا رخوا، كالشجيرة التي تنمو في ظل شجرة اكبر منها ، لا تتعرض للريح ولاترى ضوء الشمس . مات البدوي وفي حلقه غصة مريرة من أبنه ، انفق عليه مالاً كثيراً لكي يتعلم، فلم يفلح. وانشأ له متجراً في البلد فأفلس في شهر . ثم الحقه بورشة ليتعلم الصناعة فهرب . وبعد لأي، ووساطة وتشفع ، نجح في تعيينه موظفاً صغيراً في الحكومة لعله يتعلم كيف يعتمد على نفسه. لكن لم تمض أشهر حتى جاءته ألانباء تترى ، من أفواه ألأعداء وألاصدقاء ، من الشامتين وألمشفقين على السواء، أن أبنه يبيت ليله كله في خمارة ولا يرى المكتب ألا مرة أو مرتين في ألاسبوع، وأن رؤساءه انذروه مراراً وهددوا بفصله من العمل . فسافر الرجل الى المدينة وعاد يسوق أبنه كالسجين. وحلف ليسجننه طول حياته في الحقل – كالعبد الرقيق ، هكذا قال .

ومضى عام على سيف الدين وهو يجمع العلف للبقر ويرعى الماشية على أطراف الحقل سحابة نهاره ، يزرع ويحصد ويقطع ويتأوه . ومع ذلك فلم يعدم تسلية بالليل. كان يعرف أماكن صنع الخمر ، ويصادق الجواري اللائي يصنعنها – (الخدم) ؛ كما يقول أهل البلد . كن رقيقاً أعطي حريته ، بعضهن هاجرن من البلد ، وتزوجن بعيداً عن موطن رقهن . وبعضهن تزوجن الرقيق المعتقين في البلد وعشن

حياة كريمة ،بينهن وبين سادتهن السابقين ود وتواصل وبعضهن لم تستهوهن حياة الاستقرار ، فبقين على حافة الحياة في البلد ، محطاً لطالب الهوى واللذة. والحق ان مجتمع الجواري هذا كان شيئاً غريباً ،فيه روح المغامرة والتمرد والخروج على المألوف. هنالك في طرف الصحراء ، بعيداً عن الحي ، تقبع بيوتهن المصنوعة من القش . بالليل ، حين ينام الناس ، ترتعش من فرجاتها أضواء المصابيح وتسمع منها ضحكات مخمورة نشوى. ضاق بها أهل البلد فأحرقوها ، لكنها عادت الى الحياة مثل نبات الحلفا ، لا يموت . وطردوا سكانها وعذبوهم بشتى السبل ، لكنهم لم يلبثوا ان تجمعوا من جديد ، كالذباب الذي يحط على بقرة ميتة . وكم من شاب مراهق ، خفق قلبه في جنح الظلام حين حمل اليه الليل ضحكات الجواري وصياح المخمورين . في تلك (الواحة) على حافة الصحراء ، شيء مخيف ، لذيذ رهيب ، يغري بالاستكشاف . ولم يكن عسيراً على سيف الدين ان يجد طريقة اليها . هنالك كان يقضي لياليه ، وكانت له من بينهن خليلة . كل هذا تحمله ابوه في صبر. كانت الأخبار تأتيه ، فكان يتغاضى احياناً ، وأحياناً يثور . لكن صبره نفذ حين جاءه سيف الدين ذات ليلة ، وهو على سجادته بعد صلاة العشاء. كانت تفوح من فمه رائحة الخمر. وقال له ، بصوت أجش من فعل الشراب والسمر ، انه يحب الساره (احدى الجواري) ويريد ان يتزوجها . اسودت الدنيا في وجه الرجل وفقد صوابه . ابنه الوحيد سكران ، فاسق ، يقول له ، وهو على مصلاته ، انه

« يحب » – الكلمة التي تثير في عقول الآباء في البلد كل معاني البطالة والخمول وعدم الرجولة – وانه يريد أن يتزوج جارية ماجنة فارغة العين... قام الأب وضرب ابنه ضرباً قاسياً مبرحاً. وجاءت الأم تولول ، واجتمع الناس ، وأخيراً خلصوا الابن من يد الأب وهو بين الحياة والموت . وحلف الأب أن الولد الفاسق – هكذا قال – لا يبيت ليلة واحدة تحت سقف بيته ، وانه ليس ابنه وانه براء منه قضي سيف الدين ليلته في بيت خاله ، وفي الصباح اختفى . وعاش البدوي الصائغ بقية حياته مثل رجل به عاهة . كان الألم يحز في قلبه ، ووجهه نحيل معروق كوجوه المرضى بالسل. كان يقول ان ابنه مات، وكان أحياناً إذا خانه لسانه وذكر ابنه ، يذكره كأنه مات بالفعل .

وكانت تترى على البلد أخبار مريعة عن سيف الدين، كيف أنه سجن في الخرطوم بتهمة السرقة ، وكيف انه اتهم مرة بقتل رجل في بور سودان وكاد يشنق لولا انهم وجدوا القاتل الفعلي في النهاية . وكيف أنه يعيش « صائعاً » سفيهاً فاسقاً مع العاهرات في كل مدينة يحل فيها . يقولون مرة انه يعمل حمالاً يحمل بالات القطن على ظهره في الميناء . ومرة يقولون انه يعمل سواقاً لسيارة شاحنة بين الفاشر والأبيض وأحياناً يقولون انه يزرع القطن في طوكر . وحاول أعمامه وأخواله إقناع أبيه بأن يكتب وصية يترك فيها ثروته كلها لزوجته وبناته . كل الرجال العقلاء في البلد أمنوا أيضاً على صواب

هذا الرأي لكن الأب كان يتهرب دائماً ويتعلل بأنه سيفعل ذلك حين يحس بدنو أجله ، وانه ما زال قوياً لا حاجة به إلى كتابة وصية. لكن الرجال العقلاء كانوا في مجالسهم يهزون رؤوسهم حسرة ، ويقولون ان البدوي ما زال يأمل ان ابنه سيعود إلى صوابه . شيء ما ؛ لم يفهمه أهل البلد، منع الرجل من اتخاذ الخطوة الحاسمة : حرمان ابنه من الميراث .

وفي ليلة من ليالي شهر رمضان ، مات البدوي على مصلاته بعد أن صلى التراويح . كان رجلاً طيباً فمات ميتة كل الرجال الطيبين : في شهر رمضان ، في الثلث الأخير منه ، وهو الثلث الأكثر بركة ، على مصلاته ، بعد أن صلى التراويح . وهز أهل البلد رؤوسهم وقالوا « يرحم الله البدوي . كان رجلاً طيبا . كان يستاهل ابنا خيرا من ابنه الفاسق ذاك » . وذات يوم ، والناس ما زالوا على (فراش البكاء) وقد فرغوا لتوهم من إقامة (الصدقة) دخل عليهم سيف الدين . كان يحمل في يده عصا غليظة من النوع الذي يستعمل في شرق السودان . ولم يكن معه متاع على الاطلاق. كان شعره منفوشاً كأنه شجيرة سيال ، ولحيته كثة متسخة ، ووجهه وجه رجل عاد من الجحيم . لم يسلم على أحد، وتجنبته كل العيون . لكن عمه الأكبر قام وبصق على وجهه . ولما وصل النبأ بقدومه إلى أمه في الجناح الآخر من البيت وهي وسط الحريم على (فراش البكاء) ولولت من جديد كأن زوجها مات لتوه ، وولولت أخوات سيف الدين ، وعماته

وخالاته ، وفار جناح الحريم في البيت وماج . إلا أن العم قذم اليهن وأنتهرهن فسكتن .

كل هذا لم يمنع سيف الدين ان يضع يده على أموال أبيه ، كل ما أستطاع عمله أعمامه وأخواله أنهم خلصوا نصيب أمه وأخواته ، وبقي أغلب الثروة في يده . هنا ايضاً تبدأ حياة العذاب لموسى صديق الزين – موسى الاعرج – كما يسميه أهل البلد . طرده سيف الدين بحجة أنه لم يعد رقيقاً ، وانه ليس مسؤولاً عنه . وعاش سيف الدين بعد هذا حياة مستهترة ، زاد في استهتارها توفر المال في يده . كان في سفر متواصل ، مرة في الشرق ومرة في الغرب ، يقضي شهراً في الخرطوم وشهراً في القاهرة وشهراً في اسمرا ، ولا يجيء البلد إلا ليبيع أرضاً أو يتخلص من ثمر . كان نوعاً من الناس لم يعرفه أهل البلد في حياتهم ، يجافونه كما يجافى المريض بالجذام . حتى أقرب الناس اليه ، عمومه وأخواله ، لم يكونوا يأمنونه في بيوتهم ، فسدوا الباب في وجهه مخافة أن يفسد أبناءهم أو يفسق ببناتهم . وفي احدى زياراته المتقطعة للبلد وجد عرس اخته – فإن أهله كانوا يتجنبون حضوره لأفراحهم ولم يكن هو بطبعه يحضر مأتماً . وكاد ذلك العرس ينقلب بسببه إلى مأساة . أولاً حادثة الزين . جاء الزين كعادته في مرحه وهذره ولم يكن أحد يأبه له . لكن سيف الدين لم يعجبه ذلك فضربه بفأس على رأسه . وكادت المسألة تنتهي بالسجن ، لولا تدخل العقلاء من أهل البلد الذين قالوا أن سيف الدين لا يستحق الوقت الذي ينفقونه عليه في المحاكم : ثانياً كاد

العريس يغير رأيه في آخر لحظة لأنه تشاجر مع سيف الدين أخي العروس ومرة أخرى تجمع العقلاء من أهل البلد ، بما فيهم أبو العريس ، وقالوا ان سيف الدين ليس منهم ، وان حضوره العرس شر لا يستطيعون رده . ثالثاً ، في الأسبوع الأخير من حفل الزواج انهمر على الدار عشرات من الناس الغرباء الذين لم يرهم أحد من قبل . نساء ماجنات ورجال زائغو النظرات ، وصعاليك ، وسفهاء ، جاؤوا من حيث لا يدري أحد . كلهم أصدقاء سيف الدين دعاهم لحفل زواج أخته . وهنا لم يجد أهل البلد بداً من القيام بعمل . قبل أن يستمر هؤلاء الضيوف في جلساتهم إذا بصف من رجال البلد ، يتقدمهم أحمد اسماعيل ، ثم محجوب، ثم عبد الحفيظ،فالطاهر الرواسي ، فحمد ود الريس ، وأعمام سيف الدين وأخواله ، نحو من ثلاثين رجلاً في أيديهم عصي غليظة وفؤوس . أغلقوا الأبواب عليهم وأشبعوهم ضربـــاً ، وأكثر من ضربوا منهم سيف الدين . ثم ألقوا بهم في الطريق . وبينما البلد بأسرها تضج من ذلك البلاء الذي اسمه سيف الدين ، إذا به فجأة بعد (حادث الحنين) يتغير كأنه ولد من جديد .

لم يصدق الناس عيونهم بادىء الأمر ، ولكن سيف الدين أخذ كل يوم يأتي بجديد . سمعوا أولاً انه ذهب من صباحه إلى أمه وقبّل رأسها وبكى طويلاً بين يديها. وما كادوا يستجمعون أنفاسهم حتى سمعوا انه جمع أعمامه وأخواله وانه تاب واستغفر أمامهم . وأنه تأكيداً لتوبته أخرج ما تبقى من ثروة أبيه من

ذمته ، وجعل عمه الأكبر وصياً عليها حتى يصير هو صالحاً تماماً لمباشرة مسؤوليته . كاد أهل البلد يعوّدون آذانهم على ذلك ، حتى رأوا لعجبهم سيف الدين يــؤم المسجد لصلاة الجمعة . كان حليق اللحية، مهذب الشارب ، ونظيف الثياب. ويقول الذين حضروا الصلاة انه لما سمع خطبة الامام ، وكان موضوعها الــبر بالوالدين ، أجهش طويلا بالبكاء حتى أغمي عليه ، وتجمهر حوله الناس يطيبون خاطره . ولما خرج من المسجد، ذهب من فوره إلى موسى الأعرج وقال له أنه أخطأ في حقه وطلب صفحه وقالله أنه سيبره كما بره أبوه . وعاشت البلد شهراً أو قرابة شهر وهي تلهث كل يوم من عمل جديد قام به سيف الدين . عزوفه عن الخمر ، ابتعاده عن اصدقاء السوء ، مواظبته على الصلاة ، انصرافه إلى اصلاح ما فسد من تجارة أبيه ، بره بامه ، خطوبته لبنت عمه. وأخيراً عزمه على تأدية الحـــج ذلك العام . وكان عبد الحفيظ ، وكان من أكثر الناس إيماناً بمعجزة الحنين ، كما تجلت في سيف الدين ، كلما سمع نبأ جديداً يسرع بـــه إلى محجوب ، وكان معروفاً بجفائه لأهل الدين والنساك منهم بوجه خاص معجزة يا زول، ما في اتنين تلاته) . ويصمت محجوب وهو يحس في جوفه بذلك القلق الغامض الذي يساوره إزاء هذه الحالات. (سيف الدين عزم على الحج . تصدق بالله يا زول ؟ تآمن والا ما تآمن ؟ معجزة يا زول دون أدنى شك). كان محجوب يقول لعبد الحفيظ لما بدأت القصة ان سيف الدين شبع من السفاهة،

أو على قوله (وصّل السفاهة حدّها) ، وكان لا بد أن يتغير في يوم من الأيام . لكنه وهو يسمع كل يوم شيئاً جديـــداً مذهلاً لم يعد قادراً حتى على الجدال ، فلاذ بالصمت .

كانت معجزة سيف الدين بداية لأشياء غريبة تواردت على البلد في ذلك العام . ولم يعد ثمة شك في ذهن أحد ، حتى محجوب ، وهم يرون المعجزة تلو المعجزة ، ان مرد ذلك كله ان الحنين قال لاولئك الرجال الثمانية أمام متجر سعيد ذات ليلة : (ربنا يبارك فيكم . ربنا يجعل البركة فيكم) كان الوقت قبيل صلاة العشاء بقليل ، وهو وقت يستجاب فيه الدعاء ، خاصة من أولياء الله الصالحين أمثال الحنين . كانت البلد هادئة ساكنة ، إلا من ريح خفيفة منعشة تلعب بجريد النخيل . إنهم جميعاً ، الرجال الثمانية الذين شهدوا الحادث وبقية الناس في بيوتهم وحقولهم ، يذكرون تلك الليلة بوضوح كأنها كانت ليلة البارحة ، وكان الظلام المخملي الكثيف يربض على اركان البلد ، عدا أضواء مصابيح خافتة تسربت من نوافذ البيوت ، والضوء الساطع من المصباح الكبير في متجر سعيد . كان الوقت وقت تحول الفصول ، من الصيف إلى الخريف . يذكر سعيد صاحب الدكان ان الليلة لم تكن قائظة كسابقتها وانه لم يكن رطب الوجه من العرق وهو يزن سكرا لسيف الدين، وانه لما (وقعت الوقعة) كما يسميها ، وترك ميزانه وخرج من دكانه ليحول بين الزين وسيف الدين ، يذكر أن نسيما

بارداً هب على وجهه ! ويذكر الناس الذين لم يسعدهم الحظ بحضور الحادث لأنهم كانوا يتهيأون لصلاة العشاء في المسجد ، ان الامام تلا في تلك الليلة ، حين صلى بهم ، جزءاً من سورة مريم.وحاج ابراهيم،عم الزين ووالد نعمة، وهو رجل مشهود له بالصدق ، يذكر تماماً ان الامام قرأ الآية (وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا) من سورة مريم، وهي آية فيها الخير والبركة. ويضيف حمد ود الريس، وهو مشهور في البلد بسعة الخيال والجنوح الى المبالغة، بأن نجماً له ذنب سطع تلك الليلة في الافق الغربي فوق المقابر . لكن أحداً غيره لا يذكر نجما له ذنب سطع في تلك الليلة. على اي حال، لا شك في ان الحنين ، ذلك الرجل الصالح، قال على مسمع من ثمانية رجال، في تلك الليلة المباركة بين الصيف والخريف ، قبيل صلاة العشاء بقليل : (ربنا يبارك فيكم ربنا يجعل البركة فيكم) وكأنما قوى خارقة في السماء قالت بصوت واحد : (آمين) .

بعد ذلك توالت الخوارق معجزة تلو معجزة، بشكل يأخذ باللب. لم تمرّ البلد في حياتها عاماً رخيا مباركاً مثل (عام الحنين) كما اخذوا يسمونه . صحيح ان اسعار القطن ارتفعت ارتفاعاً منقطع النظير في ذلك العام، وان الحكومة لاول مرة في التاريخ سمحت لهم بزراعته بعد ان كان ذلك وقفا على مناطق معينة في القطر. (محجوب وحده، وباعتراف منه، ربح اكثر من الف جنيه من قطنه).وصحيح ايضا ان الحكومة لغير ما سبب او لسبب خفي لا يعلمونه، بنت معسكراً كبيراً للجيش في الصحراء على

بعد ميلين من بلدهم . والجنـود يأكلون ويشربون ، فانتعشت البلد من توريد الخضروات واللحوم والفواكه واللبن للجيش. حتى اسعار التمر ارتفعت ارتفاعـاً ليس له نظير في ذلك العـام . وصحيح أيضاً ان الحكومة ، هـذا المخلوق الذي يشبهونه في نوادرهم بالحمار الحرون ، قررت لغـير ما سبب ظاهر ايضاً ان تبني في بلدتهم- دون سائر بلدان الجزء الشمالي من القطر ، وهم قوم لا حول لهم ولا طول ، ولا نفوذ ولاصوت يتحدث باسمهم في محافل الحـكام - قررت الحكومة ان تبني في بلدهم ، دفعة واحدة ، مستشفى كبيراً يتسع لخمسمائة مريض ، ومدرسة ثانوية ومدرسة للزراعـة ومرة اخرى عادت الفائدة على البلد ، في الايدي العاملة ، ومواد البناء وتوريد الغذاء ناهيك بان مرضاهم سيضمنون العلاج ، وان أبناءهم سينالون حقهم من التعليم. واذا كانت كل هذه الادلة لا تكفي ، فكيف تفسر بان الحكومة هذا (الحمار الحرون) في اعتقادهم ، قررت ايضاً في العام ذاته ولم يمضِ على وفاة الحنين أكثر من شهرين ، ان تنظم اراضيهم كلها في مشروع زراعي كبير تشرف عليه الحكومة نفسها بما لهـا من قـوة وسلطان ؟ وجدوا بلدهم فجأة تعج بالمساحين والمهندسين والمفتشين. والحكومة اذا عزمت على أمر فانهـا قادرة على تنفيذه فما هو الا يوم في أثر يوم وشهر يعقبه شهر ، حتى قام على ضفة النيل في بلدهم بناء شامخ من الطوب الاحمر مثل المعبد يلقي ظلاله على النيل وبعد ذلك بقليل ، بين لغط العاملين وقرقعة الحديد إذا بعجلات ذلك المارد تدور ، واذا

بعصاماته تشفط من ماء النيـــل ، كما يشفط الرجل الشاي ، في لمح البصر ، كميات لا تقوى عليها عشرات من سواقيهم في عشرات الايام. وإذا بالأرض على اتساعها من ضفة النيل إلى طرف الصحراء يغمرها الماء، بعضها اراض لم ترَ الماء منذ اقدم السنين، وإذا بها بعد قليل تموج بالحياة. كيف تفسر هذا؟ عبد الحفيظ يعلم السر ، فهو يقول لمحجوب ، وهو يجمع بين عينيه الحقل الواسع الذي هو حقله ، والريح تلعب بالقمح فتثني صفوفه فكأنه حوريات رشيقة تجفف شعرها في الهواء : (معجزة يا زول ، ما في أدنى شك) .

●

جلس الطريفي خلسة في مقعده ، بعد أن حدث الناظر بخبر عرس الزين ، جلس خلسة على طرف مؤخرته كأنـــه يتهيأ للهروب في أية لحظة ، فقد كان في سمته وطبعه شيء من سمت الضبع وطبعه . ونظر حوله بعينيه الماكرتين . وهمس في أذن جاره من اليمين :(نجنا الليلة من الجغرافيا ، أشارطك الناظر مـــا يتم الحصة) . وكما تنبأ الطريفي أعلن الناظر في صوت فاتر غير مكترث انه خارج لأمر عاجل : (راجعوا الدرس بتـــاع منطقة زراعة القمح في كندا) . وخرج في خطوات متوترة . وراقبه الطريفي ، وهو يحاول ألا يهرول حتى وصل باب فناء المدرسة . وضحك الطريفي بخبث حين رأى الناظر يمسك بذيل عباءته في يده ، ويهرول مكباً على وجهه في الرمل .

ووصل الناظر إلى دكان شيخ علي في السوق،لاهث النفس، جاف الحلق ، إذ أن المدرسة لم تكن قريبة كل القرب من السوق وبينها وبينه رمل تغوص فيه القدم، والناظر قد جاوز الخمسين . كان دكان شيخ علي في السوق مقره المفضل . سر لما رأى عبد الصمد أيضاً، فقد كانت بينه وبينه صداقة مريرة ، لا يطيب له المجلس أو لعب الطاولة بدونه . وكان بينه وبين المتجر مقدار عشرة أمتار لكنه لم يطق صبراً ، فبدأ يتحدث وهو مقبل عليهما:(شيخ علي ، حاج عبدالصمد، السنة دي سنة العجايب دا كلام ايه دا ؟) واوصلته الجملة عندهم ، فأجلسوه على مقعده المفضل، مقعد وطيء من خشب وحبال عليه مسند وله متكآت على جانبيه .

وكانت القهوة مـا تزال ساخنة، تفوح منها رائحة القرفة والحبهان والجنزبيل . أمسك بالفنجان وقربه الى فمه ، لكنه لم يلبث أن رده وقال : (الخبر دا صحيح ؟)

وضحك عبد الصمد وقال الناظر : (كدي اشرب القهوة قبل تبرد . الكلام صحيح) .

وقال الشيخ علي وهو يحرك التبغ الممضوغ من الجانب الأيمن الى الجانب الأيسر في فمـــه (حكاية عرس الزين موكدي ؟ صحيح وأبوه صحيح كان) .

وشفط الناظر شفطة كبيرة من الفنجان ، ثم وضعه عـلى منضدةصغيرة أمامه وأشعل لنفسه سيجارة شد منها نفساً عميقاً

(يا رجل دي سنة غريبة جداً، والا انا غلطان ؟) . لم يكن الناظر يستعمل عبارة (زول) ، أي (شخص) كبقية أهل البلد ، بل كان يقول (رجل) في بداية جمله .

وقال عبد الصمد : (كلامك صحيح جناب الناظر . سنة عجيبة فعلاً . النسوان القنعن من الولادة ولدن . البقر والغنم جابت الاتنين والتلاتة) . وواصل حاج علي تعداد المعجزات التي حدثت ذلك العام : (تمر النخيل كتير لا من غلبنا من الشوالات النشيلة فيها . التلج نزل . دا كلام ! التلج ينزل من السما في بلد صحراء زي دي ؟) وهزّ الناظر رأسه . وهمهم عبدالصمد كلمات في حلقه، فقد كان نزول الثلج في ذلك العام شيئاً حيرهم جميعاً . ولم يستطع الناظر مع طول باعه في علم الجغرافيا ان يجد له تعليلا . وقال الناظر : (لكين المعجزه الكبرى موضوع زواج الزين) – هذه كانت عادته ، يزج الكلمات الفصحى في حديثه .

وقال شيخ علي : (الولد ما يكاد يصدق) كان الناظريعديه هو وعبد الصمد بكلماته الفصحى ، فيحاولان مجاراته .

وقال عبد الصمد : (كلام الحنين ما وقع البحر . قال له باكر تعرس أحسن بت في البلد) .

وقال الناظر : (أي نعم والله . أحسن بنت في البلد أطلاقاً . أي جمال ! أي أدب ! أي حشمة !)

وقال عبد الصمد مستفزاً : (أي فلوس ! انا عارفك كت

خات عينك عليها عشان مال أبوها). واحتد الناظر وهو يرد التهمة عن نفسه : (أنا؟خاف الله يارجل . هذه في عمر بناتي)

وقـال شيخ علي يسري عنه : (عمر بناتك ايه يا شيخ ؟ الراجل راجل حق في أرزل العمر. والبلت من سن أربعتاشر قابلة الزواج من أي راجل ولو كان زي جنابك في الستين) .

(خـاف الله يا رجل . انا في الخمسين . اصغر منك ومن عبد الصمد قطع شك) .

وقهقه عبد الصمد قهقهته المشهورة من جوف صدره وقال: (طيب بلاش موضوع العمر،أيه رأيك في حكاية عرس الزين؟)

وقـال الناظر : يا رجل دا موضوع مدهش . ازي حاج ابراهيم يقبل ؟ الزين رجل درويش ماله ومال الزواج ؟) .

وقال عبد الصمد باقتناع عميق : (حاسب جنابك من ذكر الزين. دا راجل بركة صديق الراجل الصالح الحنين الله يرحمه).

واضاف شيخ علي ايضاً : (رحمة الله عليه. جاب لنا الخير في البلد) .

وقال عبد الصمد : (وكله عشان خاطر الزين) .

وقال الناظر : (يا رجل ما دخلنا في موضوع الكرامات؟ لكن برضه ...)

وقاطعه شيخ علي : (مهما يكون ، الراجل راجل والمره مره) .

واضاف عبد الصمد : (والبت بت عمه على كل حال) .

صمت الناظر ، فانه لم يجد ما به على كلامها ـ من الناحية الشكلية على ألاقــل : فكون بنت العم لابن العم حجــة ليس بعدها حجة في عرف أهل البلد . انه تقليد قديم عندهم ، في قدم غريزة الحياة نفسها، غريزة للبقاء وحفظ النوع. لكنه في قرارة نفسه كان مثل آمنة ، يحس بلطمة شخصية موجهة له. وأحس برهة بارتياح : ان عــلي وعبد الصمد لا يعلمان بانه فاتح حاج ابراهيم في أمر نعمة لو علما اذاً لما استطاع ان ينجو من لسانيهما السليطين. وسأل نفسه وهو يشرب الفنجان الخامس من قهوة شيخ علي، لماذا طلب يدها؟ فتاة صغيرة في سن بناته انه لا يدري تماماً . لكنه رآها ذات يوم خارجة من الدار ، ترتدي ثوباً أبيض . صادفها وجهاً لوجه . راعه جمالهـا . سلم عليها بصوت مرتعش فردت سلامه بصوت هادىء رزين. قال لها : (انت نعمة بنت حاج ابراهيم ؟) فقالت دون تردد او وجــل : (نعم) . وبسرعة بحث في ذهنــه عن سؤال آخر يستبطئها به قبل أنتذهب فلم يجد خيراً: (أخوك احمد كيف حاله ؟) ـ كان هذا أخاها الأصغر الذي كان من تلاميذه . فقالت له ووجهها الجريء قبالة وجهه :(طيب) ثم ذهبت... وعاش الناظر بعد ذلك ليالي وصورتها لا تفارق ذهنه . لعلها أيقظت في قلبه احساساً دفيناً ، لم يذكره منذ عشرين عاماً . واخيراً لم يقوَ على الصبر ، فانتهز وعكة خفيفة ألمت بأبيهـا فذهب اليه بحجة عيادته . وجده وحده لحسن حظه . وبعد حديث سطحي عن أسعار القمح وحال المدرسة، دخل الناظر

في الموضوع . وبسرعة طلب يد نعمة من أبيها . لم يفهم حاج ابراهيم شيئاً أول الامر ، أو لعله تغابى ، فاستوضح الناظرفي جملة أوجملتين حزّنا في نفسه.قال له أولاً: (داير نعمة ليمنو؟) فقال الناظر بشيء من العجرفة : (لي منو؟ أنا طبعاً) . وكأنما حاج ابراهيم غرس خنجراً ثم ضغط على مقبضه ليثبته أكثر في قلبه حين قال له : (ليك أنت ؟) خلاصة القول ان زيارته كانت خطأ فادحاً. وحاول حاج ابراهيم أن يخفف عنه الوقع فألقى خطبة طويلةعن الشرف الذي أسبغه عليه الناظر بطلبه وانه خير صهر له وو ... لكن، وهذا هو المهم، لكن الفرق بين سنه وسن البنت يجعله لا يستطيع أن يقبل ، فهو بهذا لا يرضي ضميره. ثم ان أخوانها سيعترضون. وأخيراً حاولالناظر ملافاة الضرر ، فاستحلف حاج ابراهيم الا يذكر شيئاً مما دار بينهما لمخلوق ، وان يعتبر الأمر كأن لم يكن . (نحفر حفرة وندفنه في محله دا) .

وكان حاج ابراهيم عند حسن ظنه. لكن الناظر فيقرارة نفسه ، على الرغم من اقتناعه بخطته، لم يستطع ان يتخلصمن الطعم المر في حلقه.ولما سمع بانها ستزف للزين دونسائر الناس احس الخنجر ينغرس اكثر في قلبه.وذعر الناظر قليلاً حينسمع عبد الصمد يقول له : (جنابك ما ترعل ابداً. اذا كنت عاوز تعرّس ، البلد مليانه نسوان عزبات ، المطلقة والراجلها مات اجمل نسوان عليّ باليمين) .

وهنــا ثار الناظــــر فعلاً . انصب حنقه الداخلي كله على

عبد الصمد : (يا رجل انت مجنون؟ انت ما تعرف تفرق بين الجد والهزار ؟ اما انت راجل اونطه صحيح !) .

وقهقه عبد الصمد بلذة عميقة، فقد نجح في استثارة الناظر انه يتصيد هذه الفرص. لعل الذي آلمه في الموضوع ذكر النساء الثيبات ! وقــال شيخ علي يزيد النار اشتعالا : (يعني جناب الناظر لمايحب يتزوج فوق أم أولاده، يتزوج نسوان سكندهاند؟ اما فعلاً يا حاج عبد الصمد انت راجل اونطه صحيح) .

وتمسك عبد الصمد بكلمة (سكندهاند) يغيظ بها علي هذه المرة : (قت شنو آشيخ علي ؟ سكن دهان؟ والله عجايب! عشنا وشفنا علي ود الشايب يتكلم الافرنجي) .

وضحك الناظر بافراط، محاولاً قدر المستطاع تحويل الهجوم عـن شخصه الى شخص شيخ علي . لكن شيخ علي كان عليما بنزوات عبدالصمد وحركات الناظر، فتجاهل هجوم عبدالصمد وعـاد بالحديث إلى موضوع زواج الزين : (المهم زي قلنا . العرس مو قاسي . والراجل راجل وأن كان بي رياله ، والمره مره وأن كانت شجرة الدر) .

تعجب الناظر في سره كيف عرف شيخ علي اسم شجرة الدر. ووقع الاسم موقعاً حسناً على أذن عبد الصمد وكان جاهلاً به لكنه تحرج من السؤال مخافة ان يفضح جهله. ومضى شيخ علي يعدد لهما اسماء الرجال الذين لم يكن لهم شأن يذكر ومع ذلك تزوجوا نساء بارعـات الذكاء مفرطات الحسن . استحوذ على

اهتمام خصميه مدة غير قليلة من الزمن . وغمرته السعادة وهو يرى الدهشة والاعجاب يبدوان على وجهيهما . ذكّرهما بقصة كثير الذي أحبته عزة على قصره وبشاعة هيئته ، وقصة الأعرابية التي سألوها كيف تزوجت رجلاً جلفاً قميئاً فقالت لهم (وأالله لو ... الخ) . وكاد الناظر وعبد الصمد يستلقيان على ظهريهما من الضحك حين سمعا ما قالته الأعرابية. ثم أشار الى قبيلة الابراهيمات الذين انحدروا جميعاً من صلب رجل درويش يدعى ابراهيم أبو جبّة ، وكيف أنه...لكن عبد الصمد ضاق ذرعاً بطلاوة لسان شيخ علي ، فقاطعه بشيء من الحدة قائلاً : (انت رايح بعيد ليه لي كثير عزة وقبيلة الابراهيمات ؟ عند سعيد البوم .. ماك طاري حكاية عرسه ؟) ابتسم الناظر ، فقد كانت بينه وبين سعيد البوم مودة خاصة ، أم لعله كان يستغل سعيد في جلب الحطب والماء لبيته ؟ وكان سعيد يبيع حطب الوقود ويخدم في البيوت، ويدخر ماله عند الناظر. ولما أراد الزواج جاء للناظر واستشاره، وتباهى بعد ذلك أن الناظر في جلالة قدره شهد عقد زواجه. كل أحد في البلد يعرف قصة زواج سعيد ، وأنه عاش مع زوجته قريباً من الحلول لا يمسها وكادت المرأة تيأس وتطلقه. وكان سعيد يقول أذا سألوه عن سبب أبطائه : (التررن بالمهلة). لكنه فيما بعد على أي حال أولدها أولاداً وبنات .

وفجأة لمح الناظر في خياله وجه نعمة ، ومرة أخرى بالخنجر يتحرك في قلبه ، فقال وكأنه لم يسمع كل القصص التي قصها

عليه شيخ علي وحاج عبد الصمد : (لكين تتزوج الزين ؟ دا اسمه كلام يا رجل ؟ والله عجايب !) .

تأثر أمام المسجد بالحوادث العجيبة التي شهدتها القرية ذلك العام . كان رجلاً ملحاحاً متزمتاً كثير الكلام، في رأي أهل البلد. كانوا في دخيلتهم يحتقرونه ، لأنه كان الوحيد بينهم الذي لا يعمل عملاً واضحاً – في زعمهم . لم يكن له حقل يزرعه ولا تجارة يهتم بها،ولكنه كان يعيش من تعليم الصبيان، له في كل بيت ضريبة مفروضة ، يدفعها الناس عن غير طيب خاطر . وكان يرتبط في أذهانهم بامور يحلو لهم أحياناً ان ينسوها : الموت ، والآخرة ، والصلاة . فعلق على شخصه في أذهانهم شيء قديم كئيب مثل نسيج العنكبوت.اذا ذكر اسمه خطر على بالهم تلقائياً موت عزيز لديهم ، أو تذكروا صلاة الفجر في عز الشتاء، وما يرتبط بذلك من وضوء بالماء البارد يشقق الرجلين ، وخروج من الفراش الدفيء الى لفح الصقيع ، وسير في غبش الفجر الى المسجد . هذا اذا كان الواحد منهم يذهب بالفعل الى الصلاة . اما اذا كان مثل محجوب ، وعبد الحفيظ ، واحمد اسماعيل ، والطاهر الرواسي ، وحمد ود الريس ، من النفر « العصاة » الذين لا يصلون ، فانه يحس كل صباح باحساس غامض يثير القلق، من نوع الاحساس الذي يحسه الواحد منهم اذا نظر خلسة الى امرأة جاره . ويقول لك محجوب اذا سألته عن امام المسجد انه « راجل صعب . لا يأخذ ولا يدي » . معنى ذلك انه لم يكن يسايرهم او

يخوض معهم في احاديثهم – لم يكن يعنيه ، كما يعنيهم ، اوان زراعة القمح وسبل ريه وسماده وقطعه او حصاده . لم يكن يهمه هل موسم الذرة في حقل عبدالحفيظ نجح ام فسد، وهل البطيخ في حقل ود الريس كبر ام صغر ؟ كم سعر اردب الفول في السوق ؟ هل هبط سعر البصل ؟ لماذا تأخر لقاح النخل ؟ كانت تلك امور ينفر منها بطبعه ويحتقرها بسبب جهله بها . ومن ناحية أخرى ، كان هو يهتم بأمور لا يأبه لها إلا القليلون في البلد . كان يتتبع الاخبار من الاذاعة والصحف ويحب ان يناقش هل ستقوم الحرب ام لا ؟ هل الروس أقوى أم الأمريكان ؟ ماذا قال نهرو وماذا قال تيتو ؟ وكان أهل البلد مشغولين بجزئيات الحياة ، لا تعنيهم عمومياتها . وهكذا نشأت الهوة بينه وبينهم . لكنهم ان لم يحبوه ، فقد كانوا يعترفون بحاجتهم اليه . يعترفون مثلاً بعلمه ، فقد قضى عشر سنوات في الأزهر . يقول الواحد منهم : « الامام ما عنده شغلة » . ثم يضيف : « لكن الحق لله لسانه فصيح كلام » . كان يلهب ظهورهم في خطبه ، وكأنه ينتقم لنفسه منهم ، بكلام متدفق فصيح عن الحساب والعقاب ، والجنة والنار ، ومعصية الله والتوبة اليه ، كلام ينزل في حلوقهم كالسم . يخرج الرجل من المسجد بعد صلاة الجمعة زائغ العينين ويحس وهلة كأن سير الحياة قد توقف . ينظر الى حقله بما فيه من نخل وزرع وشجر ، فلا يحس بأي غبطة في نفسه . يحس أنها جميعاً عرض زائل ، وان الحياة التي يحياها بما فيها من فرح

وحزن ، ما هي إلا جسر إلى عالم آخر . ويقف برهة يسأل نفسه ماذا أعد لذلك العالم الآخر ؟ لكن جزئيات الحياة ما تلبث ان تشغل فكره ؛ وسريعاً أسرع مما كان يتوقع، تغيب صورة العالم الآخر البعيد ، وتأخذ الأشياء أوضاعها الطبيعية. وينظر إلى حقله فيحس مرة أخرى بذلك الفرح القديم الذي يعطيه مبررات وجوده . ومع ذلك فأكثرهم يعودون اليه في كل مرة ، ليجربوا نفس الصراع الغامض . يعودون اليه لأن صوته قوي واضح وهو يخطب ، عذب رخيم وهو يرتل القرآن ، مهيب حين يصلي على الأموات ، حازم عليم ببواطن الأمور وهو يقوم بعقود الزواج . وكانت في عينيه نظرة احتقار وترفع ، يحس الواحد منهم وقعها حين يفقد ثقته بنفسه. كان مثل الضريح الكبير وسط المقبرة .

وكانت البلد منقسمة الى معسكرات واضحة المعالم ازاء الإمام (لم يكونوا ابداً ينادونه باسمه ، فكأنه في أذهانهم ليس شخصاً بل مؤسسة) . معسكر أغلبه من الرجال الكبار العقلاء ، يتزعمه حاج ابراهيم ، ابو نعمة ، يعامل الإمام معاملة ود يشوبه تحفظ . هؤلاء كانوا يحضرون كل الصلوات في المسجد، ويبدو على وجوههم على الأقل أنهم يفهمون ما يقول، يدعونه إلى الغداء كل يوم جمعة بعد الصلاة ، كل واحد منهم يدعوه يوماً ، بالتناوب . كانوا يدفعون اليه بصدقة الفطر في عيد رمضان ، ويعطونه جلود الذبائح في عيد الأضحى إذا تزوج أحد أبنائهم أو بناتهم ، أعطوه حقه نقداً

ومعه رداء أو ثوب . شذ عن هذا الفريق رجل في السبعين اسمه ابراهيم ود طه ، لا يصلي ولا يصوم ولا يزكي ولا يعترف بوجود الإمام . والفريق الثاني ، واغلبه من الشبان دون العشرين ، يعادي امام المسجد عداءاً سافراً . بعضهم تلاميذ في المدارس ، وبعضهم سافر وعاد ، وبعضهم يحس على اي حال بفيض الحياة حاراً قوياً في دمه ، فلا يحفل برجل صناعته تذكير الناس بالموت . هذا كان فريق المغامرين — منهم من يشرب الخمر سراً ويسلم خفية بالواحة في طرف الصحراء — ، وفريق المتعلمين الذين قرأوا أو سمعوا بالمادية الجدلية ، وفريق المتمردين ، وفريق الكسالى الذين يصعب عليهم الوضوء في الفجر في عز الشتاء . ومن عجب ان زعيم هذه الفئة كان ابراهيم ود طه ، الرجل الذي جاوز السبعين ، لكنه كان يقرض الشعر . والفريق الثالث ، وقد كان اكثر المعسكرات وزناً ، فريق محجوب وعبد الحفيظ والطاهر الرواسي وعبد الصمد وحمد ودالريس واحمد أسماعيل وسعيد . كانوا متقاربي الاعمار ، بين الخامسة والثلاثين والخامسة والاربعين ، إلا احمد أسماعيل فقد كان في العشرين لكنه بحكم مسؤوليته وطريقة تفكيره كان واحداً منهم . هؤلاء كانوا الرجال أصحاب النفوذ الفعلي في البلد . كان لكل واحد منهم حقل يزرعه ، في الغالب اكبر من حقول بقية الناس ، وتجارة يخوض فيها . كان لكل واحد منهم زوجة واولاد . كانوا الرجال الذين تلقاهم في كل امر جليل

يحل بالبلد . كل عرس هم القائمون عليه ، كل مـــأتم هم الذين يرتبونه وينظمونه . يغسلون الميت فيما بينهم ، ويتناوبون حمله إلى المقبرة . هم الذين يحفرون التربة ، ويجلبون الماء ، وينزلون الميت فـــي قبره ، ويهيلون عليه التراب ، ثم تجدهم بعد ذلك في (الفراش) يستقبلون المعزين ، ويديرون عليهم فنـــاجين القهوة المرة. إذا فاض النيل أو انهمر سيل، فهم الذين يحفرون المجاري ، ويقيمون التروس ، ويطوفون على الحـــي ليلاً وفي ايديهم المصابيح ، يتفقدون احوال الناس ، ويحصرون التلف الذي أحـــدثه الفيضان أو السيل . اذا قيل أن امرأة أو بنتاً نظرت نظرة فاجرة إلى أحد ، فهم الذين يكلمونها وأحيانـــاً يضربونها . لا يعنيهم بنت من تكون . إذا علموا أن غريباً حام حول الحي حول المغيب فهم الذين يوقفونه عند حده. اذا جاءالعمدة لجمع العوائد فهم الذين يتصدون له، ويقولون هذا كثير على فلان ، وهذا معقول وهذا غير معقول . إذا ألم بالبلد أحد رسل الحكومة (وهم لا يأتون الا لماما) فهم الذين يستقبلونه ويضيفونه ، ويذبحون له الشاة او الخروف ، وفي الصباح يناقشونه الحساب ، قبل ان يقابل احـــداً من أهل البلد . والآن وقد قامت في البلد مدارس ، ومستشفى ، ومشروع زراعي ، فهم المتعهدون ، وهم المشرفون، وهم اللجنة المسؤولة عن كل شيء . كان الإمام لا يحبهم ، ولكنه كان يعـــلم انه سجين في قبضتهم ، إذ أنهم هم الذين كانوا يدفعون له مرتبه آخر كل شهر ، يجمعونه من اهل الحي. كل موظف حكومة

يحل بالبلد ، وكل من له حاجة يريد أن يقضيها ، سرعان ما يكتشف هذا الفريق ، فلا تنجح له مهمة أو يتم له عمل إلا اذا تقام معهم . لكنهم كانوا ، ككل صاحب سلطان ونفوذ لا يظهرون نزعاتهم الشخصية .(إلا في مجالسهم الخاصة امام متجر سعيد) . الإمام مثلاً ، كانوا يعتبرونه شراً لا بد منه فيحبسون ألسنتهم عن ذمه ما استطاعوا، ويقومون « بالواجب والمجاملة » كما يقول محجوب . لم يكونوا يصلون ، ولكن واحداً منهم على الأقل كان يحضر الصلاة مرة في الشهر ، إما الظهر أو العشاء في الغالب ، فالفجر لا طاقــة لهم به — ويكون غرض الزيارة في الواقع شيئاً غير الاستماع لعظة الإمام حينئذ يعطون الإمام مرتبه ، ويتفقدون بناء المسجد اذا كان يحتاج إلى إصلاح .

وكان الزين فريقاًقائماً بذاته. كان يقضي أعظم أوقاته مع شلة محجوب، بل انه كان في الواقع إحدى المسؤوليات الكبيرة الملقاة على عاتقهم . كانوا يحرصون على إبعاده عن المشاكل ، وإذا وقع في ورطة أخرجوه منها. كانوا يعلمون عنه أكثر مما تعلم أمه ، يشملونه بعنايتهم وترعاه عيونهم من بعيد . وكانوا يحبونه ويحبهم . لكن الزين في موضوع الإمام كان معسكراً قائماً بذاته ، يعامله بفظاظة، وإذا قابله قادماً من بعيد ترك له الطريق. ولعل الإمام كان الشخص الوحيد الذي يكرهه الزين، كان مجرد وجوده في مجلس يكفي لإثارتــه ، فيسب ويصرخ ويتعكر مزاجه ويتحمل الإمام في وقار هيجان الزين، ويقول

أحياناً ان الناس أفسدوه بمعاملتهم له كأنه شخص شاذ ، وان كون الزين ولي صالح حديث خرافة ،وأنه لو ربي تربية حسنة لنشأ عادياً كبقية الناس . لكن من يدري ، لعله هو الآخر أحس بقلق في صدره حين حدجه الزين بإحدى نظراته ، فكل أحد يعلم أن الزين أثير عند الحنين ، والحنين ولي صالح وهو لا يصادق أحداً إلا إذا أحس فيه قبساً من نور .

إلا أن الأمور اختلطت أختلاطاً غير يسير في (عام الحنين) فان (خيانة) سيف الدين ، أو (توبته) (حسب المعسكر الذي انت فيه) ، اضعف فريقاً وقوى فريقاً . كان سيف الدين بطل الواحة وفارسها وزعيمها . فلما تحول الى معسكر الاتقياء العقلاء سرى الرعب في قلوب أصدقائه القدامى . كان من ناحية وارثا ، فكان هو الذي يدفع ثمن الشراب في أغلب الاحيان . وكان ستاراً مفيداً يختفون وراءه في مجونهم ، اذ كانت البلد مشغولة به عنهم . وكان بعضهم يرى فيه رمزاً حقيقياً لروح الانطلاق والتمرد. وفجأة انهدت الارض تحت ارجلهم . ثم ان سيف الدين استغل معرفته بخباياهم ، فاصبح اخطر خصم لهم . واشتد ساعد الإمام بسيف الدين . كانت الواحة دائماً شغله الشاغل ، وتقوم في نظره رمزا للفساد والشر . ونادراً ما كانت تخلو خطبة من خطبه من ذكرها . والآن وقد عاد سيف الدين الى جادة الصواب ، فقد زادت خطب الإمام قسوة ، وزادت

حملته قوة . واصبح سيف الدين المثل الذي يضربه كل مـرة على ان الخـير ينتصر في النهاية . لم يحفل الإمـام بأن الحنين ، وهو يمثل الجانب الخفي في عالم الروحانيات (وهو جانب لا يعترف به الإمام) كان هو السبب المباشر في توبة سيف‌الدين. معسكر (الوسط) ، جماعة محجوب ، لم يتأثر كثيراً ، فهم يعتبرون الواحة ، كالإمام سواء بسواء ، شراً لا بد منه ، ولم يكونوا يأبهـون كثيراً إلى أن بعض شبان البلد يسكرون ، مـا دام ذلك لا يؤثر على سير الحياة الطبيعي . لا يتدخلون الا اذا سمعوا ان شاباً سكراناً تهجم عـلى انثى او رجل من اهل الحي . حينئذ يلجأون الى اساليبهم الخاصة ، التي تختلف عن اساليب الإمـام . وفي تأييدهم لبقية الناس ، في محاولة تهديم الواحة ، لم يكونوا ينظرون الى عملهم كما ينظرله الإمام محـاولة لتغليب الخير على الشر . لا بل لان زوال الواحـة سيغنيهم عن متاعب عملية ، لا حاجة لهم فيها .

المهم ان الإمام فرح بسيف الدين فرحـاً عظيماً . اصبح يذكره في خطبه . يتكلم وكأنه يتحدث اليه شخصياً . تراه خارجاً داخلاً معه . وقال احمد اسماعيل لمحجوب مرة وهو يرى سيف الدن والإمام يمشيان معاً ذراعاً في ذراع : (ود البدوي من الخدم للامام) .

وكان للامـام رأي فـي امر زواج الزين من نعمـة بلت الحاج ابراهيم .

●

دخل محجوب دكان سعيد ، ووضع قطعة نقد على الطاولة فأخذها سعيد في صمت وانزل من الرف علبة سجاير بحاري ، ووضعها في يد محجوب ومعها الباقي قطع معدنية صغيرة. بصعل محجوب سيجارة ، شد منهـا نفسين او ثلاثة ، ثم رفع وجهه إلى السماء وتمعن فيها دون احساس ، كأنها قطعة ارض رملية لا تصلح للزراعة . وقـــال بفتور : « الثريا طلعت . وقت زراعـة المَريـق » . وظـل سعيد مشغولاً بتفريغ علب من صناديق ووضعها على الرف . بعد ذلك تحرك محجوب وجلس قبـالة الدكان . ليس على الكنبة ولكن على الرمـل مـكانهم المفضل ، حيث ضوء المصباح يمسهم بطرف لسانه، فاذا ماجوا في ضحكهم احيانـاً تراقص الضوء والظل عـلى رؤوسهم ، فكأنهم غرقى في بحر يغطسون ويطفون . بعد ذلك جاء احمد اسماعيل يجرجر رجليه كعادته ، واستلقى بظهره على الرمل قريباً من محجوب دون ان يقول شيئاً . ثم جـاء عبد الحفيظ وحمد ود الريس ، كانا يضحكان . لم يسلما عـلى صديقيهما ، وهذان لم يسألاهما عن سر ضحكهما ذلك شيء آخـر في تلك الفئة . كانوا يعلمون ، بطريقة ما ، ما يدور في ذهن كل منهم دون سؤال. وقال محجوب بعد ان بصق على الارض : « انتو لسع في حكايات سعيد البوم » ؟ كان احمد اسماعيل قد انقلب على بطنه فقال وكأنه يحدث الرمل : « لازم المـــره عاوزه تطلقه » . وقال عبد الحفيظ في مرح ، ان زوجة سعيد البوم

جاءته في الحقل وقالت له وهي تبكي انها تريد ان تطلق من سعيد . ولما سألها عن السبب قالت له ان سعيد كلمها كلاماً قاسياً في الليلة الماضية وقال لها انها امرأة « جيفة » – هكذا لانها لا تتعطر ولا تتزين كبقية النساء . ولما قارعته الكلام ، صفعها على وجهها وقال لها : « امشي اخدي دروس من بنات الناظر » . وكان الطاهر الرواسي قد وصل اثناء ذلك وجلس في هدوء في المكان الذي لا يصله النور من بقعة الرمل. ضحك وقال : « المسنوح يمكن قايل للناظر بيعرس له واحده من بناته » . وقال عبد الحفيظ انه طيب خاطر المرأة وردها الى بيتها وقال لها انه سيجيئهم ليكلم سعيد . وفعلاً غدا اليها وقت الظهيرة . لكنه تريث عند باب الدار ، فقد وجده مغلقاً ، وسمع داخله ضحكات سعيد وزوجته ، ضحكات هنيئة منشرحة ، وسمع سعيد يقول لزوجته ، وكأنه يعض اذنها : « ابكي يا خيتي ابكي » . وضحكوا كلهم : كل واحد منهم على طريقته : احمد اسماعيل يكركر بضحك يزمجر بين بطنه وصدره . ومحجوب يضحك في فمه ويحدث طقطقة بلسانه . وعبد الحفيظ يضحك كالطفل . وحمد ود الريس يضحك بجسمه كله ، وخاصة رجليه . والطاهر الرواسي يمسك رأسه بجماع يديه حين يضحك . وكان سعيد في دكانه ، فضحك ضحكته الخشنة التي تشبه صوت المنشار في الخشب . وقال محجوب : « المسنوح كيفن قدر في الحردا ؟ »

واستمر حديثهم هكذا . حديث منقطـع تتخلله فترات صمت . لم يكن صمتهم ثغرات في الحديث ، بقدر مـا كان امتداداً له . يقول احدهم جملة مبتورة : « ... ما عنده فهم» ويقول الآخـر : « ... القاضي يعمل قاضي » ، ويضيف الآخر : « ... زمان قلنالكم طلعوه من اللجنـة قلتو لا » ، ويقول الآخر : « ... باذن الله دي آخـر سنة ليـه » . ولا يدري الغريب عنهم عمـن يتكلمون . لكن ذلك شأنهم ، يتحدثون وكأنهم يفكرون جهاراً ، وكأن عقولهـم تتحرك في تناسق ، وكأنهم بشكل أو بآخـر عقل كبير واحـد . يمضي الحديث رتيباً مثل هذا ، ثم يذكر احدهم عرضاً جملة او حادثة تثير خيالهم جميعاً في وقت واحد ، وفجأة تسري فيهم الحياة فكأنهم كومة قش اشعلت فيها النار . يستوي جالساً الذي كان راقداً على ظهره . ويضم الآخر ذراعيه على ركبتيه ويقترب الذي كان جالساً بعيداً . ويخرج سعيد من دكانه . يقتربون بعضهم من بعض ، حينئذ، كأنهم يتحركون نحو تلك النقطة ، ذلك الشيء في الوسط الذي يسعون اليه جميعاً . يميل محجوب الى الامـام ، وتنغرس يدا احمد اسماعيل في الرمل ، ويضغط ود الريس بيديـه على رقبته . هذه هي اللحظة التي تلحمهم فيهـا، بين النور والظلام ، وكأنهم غرقى في بحر . واحياناً يحتدون في كلامهم ، يتشاجرون ، تخرج الكلمات من افواههم كأنها قطع من الصخر ، تتقاطع جملهم ، يتحدثون في

آن واحـد ، ترتفع اصواتهم . في مثل هذه الحـالات يظن الغريب عنهم انهم غلاظ الطبع . لهـذا تختلف الآراء فيهم ، حسب اللحظات التي يراهم فيهـا الناس . بعض اهـل البلد يعتبرونهم صامتين قليلي الكلام ، لأنهم يصادفونهم في احدى تلك الحالات، حين يقف حديثهم عند « آ » و « او » و « لا » و « نعم » . وبعض الناس يقولون عنهـم انهم « ضحّاكون » كالاطفال،لأنهم صادف ان وجدوهم في احدى حالات غرقهم، ويحلف موسى البصير انه زامل محجوب الى السوق – مسافة ساعتين بالحمار – فلم يقل له كلمة واحدة. كان الناس يبتعدون عن مجالسهم ، لانهم حينئذ يحسون احساس الغريب ، وكانوا هم يفضلون الا يكون بينهم غريب. كانوا كأنهم توائم ، ولكن اذا عاشرتهم مدة تدرك الاختلافات التي تجعل كل منهم فرد قائماً بذاته . احمد اسماعيل ، بحكم سنه، كان أميلهم الى المرح ولم يكن يبالي اذا انتشى بالخمر في المناسبات . وكان احسنهم رقصاً في الأعراس . وعبد الحفيظ كان اكثرهم مجاملة للناس الذين لا يفكرون مثل تفكير « العصابة » ، كما كانوا يسمون انفسهم ويسميهم الناس . كان هو الذي ينبههم الى ان ابن فلان تزوج ، وفلانـاً مـات ابوه ، وفلاناً عاد من السفر (من سكان الاحياء البعيدة عن حيهم) فيذهبون جماعة جماعة في الغالب للتهنئة او للتعزية . وكان احيانـاً يذهب للمسجد للصلاة ، ويحاول الا يقول لهم. وكان الطّاهر الرواسي اقربهم الىالغضب

وامرعهم الى امساك عصاه ، او سحب سكينه في اوقـــات « الزنقة ». وكان سعيد احسنهم في محاججة الحكام، يسمونه « القانون » . وكان حمد ود الريس ذا اذن حساسة لاخبـار الفضائح ، يجمعها من اطراف البلد ، من الاحيـــاء البعيدة ، ويلقيها عليهم في اوقات معينة في مجالسهم . وكانوا يندبونه في الغالب لمعالجة مشاكل النسوان في البلد . وكان محجوب اعمقهم وانضجهم . كان مثل الصخرة المدفونة تحت الرمل ، تصطدم بها اذا عمقت في حفرك . وكانت صلابته تظهر في الازمـات الحقيقية : حينئذ يصير « ريس المركب » ، يأمر وهم ينفذون جاءهم مرة مفتش جديد للمركز ، اجتمعوا به مرة ومرتين . تحدثوا اليه ، وتناقشوا معه . ثم قرروا فيما بينهم انه غـــير صالح . وبعد شهر تأزمت الامور ، فقد قــال المفتش لبعض الناس ان « عصابة محجوب » تسيطر على كل شيء في البلد : فهم اعضاء في لجنة المستشفى ، ولجان المدارس ، وهم وحدهم لجنة المشروع الزراعي ووصل اليهم ان المفتش قـــال : « ما فيش في البلد رجال غير الجماعه ديل ؟ » لما تشاوروا في الامر بينهم ، كانوا اميل الى الرضوخ للامر الواقع ، وبعضهم عرض ان يستقيل من عضوية اللجان التي هـــو فيها . ولكن محجوب قال : « ما في انسان يتحرك من مكانه » ثم لم يلبث المفتش غـير شهر آخر حتى نقـل . كيف تم ذلك ؟ لمحجوب اساليبه الخاصة ، في الحالات القصوى .

كانوا يضحكون ، حين سمعوا الزين يشتم باعلى صوته : « الراجل الباطل . الحمار الدكر » . ووصل عندهم ، فوقف برهة فوقهم ، ساقاه منفرجتان ، ويداه على خصره . كان نصفه الاعلى كله في الضوء ، ولاحظوا ان عينيه محمرتان اكثر من احمرارهما الطبيعي. قال الطاهر الرواسي : « واقف فوقنا مالك داير تشرب دمنا ؟ يا تقعد يا تغور » . وقال احمد اسماعيل : « لازم الزين سكران الليلة ».وقال عبد الحفيظ : «اقعد خد لك نفس»وقال حمد ود الريس :« قالوا الليلة كت في حوش العمدة . شن مشيت تكوس ؟ البت وعرّسوها ، تاني شن داير ؟ » وامسك الزين السيجارة من عبد الحفيظ وجلس صامتاً واخذ ينفخ فيها بغيظ . ضحك الطاهر الرواسي وقال له : « مو كدى يا مرمّد. عامل نفسك َفنْجري وِمتْعَلِّم، السيجارة ماك عارف تشربها . جرها لي ورا . اي كدى ، زي كأنك تمص فيها ». ونجح الزين في جذب الدخان الى فمه فنفث منه غمامة كبيرة ، وقفت ساكنة برهة ، ثم ذابت في خيوط دقيقة ، بعضها نحا نحو الضوء ، والآخر اختلط مع سواد الليل في الجانب المظلم . وجاء بدوي من عرب القوز يقصد الدكان فقام اليه سعيد . وسمعوه يقول لسعيد : « خمسة ارطال سكر ونص رطل شاي » . وقال احمد اسماعيل : « العرب ديل كل قروشن مودّرنها في السكر والشاي » . وهنا صاح الزين بسعيد : « خلي المره تعمل شاي مضبوط

باللبن . يكون مضبوط » . فقال له سعيد : « حاضر يا زعيم نعمل لك شاي مضبوط باللبن » . ثم نادى من شباك يصل بين المتجر والدار خلفه : « اعملوا قوام شاي تقيل باللبن للزعيم » وانتعش الزين ، فقال بمرح : « انا ارجل راجل في البلد دي ولاّ لا ؟ » فقال له الطاهر : « طبعاً » . « طيب ليه الحمار الدكر يروح لي عمي ويقول له الزين مش راجل بتاع عرس؟» وقال محجوب : « الداهي بقى افرنجي. وين عرفت الفصاحة دي ؟ مش راجل بتاع عرس ؟ » وقال ود الريس : « الامام غاير منك . داير المره لي رقبته » .

فقال الزين : « بت عمي ولاّ لا ؟ يروح يشوف له بت عم » .

قال له محجوب بحزم : « العقد يوم الخميس الجايي : بعد دا ما فيش طرطشة ورقيص وكلام فاضي . سمعت ولاّ لا؟ »

سكت الزين :

وسأله الطاهر الرواسي : « منو القال لك ؟ » فقال الزين « هي نفسها كلمتني » .

كان محجوب ممدداً رجليه على الرمل ، متكئاً على ذراعيه فلما سمع هذا ، تشنج جسمه كأن احداً قرصه ، واستوى جالساً : « هي بنفسها كلمتك ؟ »

« اي » . جاتني الصباح بدري في بيتنا . وقالت لي قـدام امي : يوم الخميس يعقدوا لك عليّ . انا وانت نبقى راجـل ومره ، نسكن سوا ، ونعيش سوا » .

وارتفع صوت محجوب من فـرط حـماسه ، وقال في اعجاب ليس له حد : « عليّ باليمين مـره تمـلا العين . طـلاق ، بت ما ليها اخت » . وجاء سعيد يحمل الشاي ، فقال له محجوب : « سمعت الكلام دا ؟ البت مشت كلمتـه بنفسها » . فقـال سعيد : « بت عنيـدة رأسها قـوي ربنـا يستر » . صمت الباقون برهـة ، ولكـن محجوب ضرب فخذه براحة يده عدة مرات ، وقـال وهـو يتلفت يميناً وشمالاً ، بحماسة وانفعـال : « يمين الزين مـاش يعرس له بتّا تمشّيه فوق العجين ما يلخبطه » .

وشرب الزين الشاي ، في صخب كعادتـه ، يمـص الشاي مصـاً له زئير . وفجأة وضع الكوب من يـده ثم ضحك . وقال في سرور : « الحنين قال لي قدامكم كلـكم : باكر تعرس احسن بت في البلد » . ثم انفجر بزغرودة عظيمة ، كزغاريد النساء في العرس ، وصـاح بأعلى صوتـه : « أرروك يا ناس الفريق ، يا اهـل البلد ، الزين مكتول . كتلته نعمـة بنت الحاج ابراهيم » . وصمت بعـد ذلك فلم يفـه بكلمة . ولم يلبثوا ان سمعوا صوت سيف الدين (انتصار آخر للامـام) يؤذن لصلاة العشاء ، فسرت فيهم حركة خفيفة جداً . تنحنح محجوب ثم وحرك احمد اسماعيل اصابع قدمـه بطريقة لا

شعورهم ، وتنهد عبد الحفيظ ، ومال الطاهر الرواسي إلى الوراء قليلاً ، قال سعيد : « أشهد ألا إله إلا الله » ووراء المؤذن بصوت خافت ، ونفخ حمد ود الريس في رمــل لا وجود له من يده ولما انتهى الآذان وسمعوا صوت الإمام ينادي في صحن المسجد : « الصلاة ، الصلاة » ، قــام كل واحد منهم إلى بيته ليحضر عشاءه . وكما يصلي الناس جماعة في المسجد ، سيتعشون هم مجتمعين ، جالسين في دائرة حول صحون الطعام ، يرف عليهم ضوء المصباح الكبير ، المعلق في متجر سعيـــد . يأكلون بنهم ، شأن الرجال الذين تعرق جباههم من الجهد سحابة يومهم . يأكلون الدجاج المحمر ، والملوخية بالمرق ، والبامية المصنوعة في الطاجن . في كل ليلة يذبـح أحدهم اما شاة صغيرة ، وإما حملاً . ويغدو عليهم أطفالهم بمزيد من الأكل ، ينزل الصحن مليئاً وما يلبث أن يرتد فارغاً . هذا الوقت من الليل هو قمة يومهم ؛ لمثل هــذا تعمل زوجاتهم من طلوع الشمس إلى غروبها يأتيهم المرق في صحون عميقـة واللحم محمر في صحون بيضاوية واسعة . يأكلون الأرز وخبزاً سميكاً من القمح ، وفطائر رقيقة تصنع عــلى صاجات ملساء من الحديد . يأكلون السمك واللحم والخضار ، والبصل والفجل ، لا يبالون ماذا يأكلون . حينئذ تتوتر عضلاتهم ، ويصبح حديثهم حاداً مبتوراً ، يتحدثون وأفواههم ملأى . ويأكلون في صخب تسمع صرير أسنانهم وهي تمضغ الطعام ، وإذا

شربوا ترقرقت حلوقهم بالماء . يتكرعون بأصوات عالية ، ويمصمصون بشفاههم . وحين ترتد الأواني فارغة ، يؤتى بالشاي ، فيملأون أكوابهم ، ويشعل كل واحد منهم سيجارة، ويمد رجليه ويسترخي في جلسته . يكون الناس قد فرغوا من صلاة العشاء . يتحدثون في هدوء وقناعة ، ولعلهم حينئذ يشعرون ذلك الشعور الدافىء المطمئن ، الذي يحسه المصلون وهم يقفون صفاً خلف الإمام ، كتفاً بكتف ، ينظرون إلى نقطة بعيدة غامضة تلتقي عنـــدها صلواتهم . في هذا الوقت تخف الحدة في عيني محجوب، وهما سارحتان في الخط الضئيل الباهت الذي ينتهي عند ضوء المصباح ويبدأ الظلام (أين ينتهي ضوء المصباح ؟ وكيف يبدأ الظلام ؟) يعمق صمته وقتذاك ، وإذا سأله أحد أصدقائه فلا يسمع ولا يرد . هذا هو الوقت الذي يقول فيه ود الريس ، فجأة ، جملة واحدة كأنها حجر يقع في بركة : « الله حي » ، ويميل أحمد اسماعيل برأسه قليلاً ناحية النهر ، كأنه يستمع إلى صوت يأتيه من هناك . في مثل هذا الوقت أيضاً يطقطق عبد الحفيظ أصابعه في صمت ، ويتنهد الطاهر الرواسي ملء صدره ويقول : « روح يا زمان وتعال يا زمان » .

هل يحسون حينئذ أنهم يزدادون قرباً من تلك النقطة ؟ أم تراهم يدركون أن النقطــة الغامضة الصامتة في الوسط ، أمر تلتقي الحياة ولا ينتهي اليها المرء ؟ .

« ابوي ... ابوي . . ابوي ... ابويا » .

اول من زغردت ام الزين .

كانت فرحة لاسباب عدة . فرحة فرح الأم الغريزي لزواج ابنها . تلك مرحلة حاسمة ، وكل أم تقول لابنها : « اشتهي ان افرح بزواجك قبل ان امــوت » . وكانت ام الزين تحس ان حياتها تنحدر للغروب . ثم ان الزين كان ابنها الوحيد ، بل كان كل ما انجبت ، ولم يكن كبقية الناس ، فخافت ان تموت ولا يجد من يرعاه . فهذا الزواج اراح بالها . وزواج الزين مناسبة تسترد فيها هداياها لأهل البلد في زواج ابنائهم وبناتهم . وكان الناس احياناً يتعجبون وهم يرونها تسارع بدفع ربع الجنيه ونصف الجنيه في الاعراس ، لاية غاية ؟ « هل تظن انها ستردها في عرس الزين ؟ فكان عرس الزين مناسبة قطعت السنة الشامتين . والزين لن يتزوج امرأة من عامة الناس ، ولكنه سيتزوج نعمة بنت الحاج ابراهيم ، وناهيك بهــذا دليلا على كرم الاصل ، والفضل ، والجاه ، والحسب . ستدخــل ذلك البيت الكبير المبــني من الطوب الاحمر (فليس كل بيوت البلد من الطوب الأحمر) ، تــدخل مرفوعة الرأس ، ثابتة الخطوة . سيقومون لها اذا دخلت ، ويوصلونهــا البــاب اذا خــرجت ، ويعودونهــا كل يوم اذا مــرضت . ستقضي الايام الباقية في حياتها في فراش وثــير من الرعاية والحب . ولعل القدر يمهلها فتحمل حفيدها او حفيدتهــا في حضنهــا . تزغــرد ام الزين ، وتتوارد هــذه الخواطر في ذهنها ، فتشتد زغاريدها .

وزغرد معها جيرانها واحبائها ، واهلها وعشيرتها .

لكن كيف حدثت المعجزة ؟

اختلفت الاقاويل . قالت حليمة بائعة اللبن لآمنة ، وكأنها تغيظها بمزيد من انباء عرس الزين ، ان نعمة رأت الحنين في منامها ، فقال لها : « عرّسي الزين . اللي تعرّس الزين ما بتندم » . واصبحت الفتاة فحدثت اباها وامها ، فاجمعوا على الأمر . وهزت آمنة رأسها وقالت : « كلام » .

وزعم الطريفي لزملائه في المدرسة ان نعمة وجدت الزين في حشد من النساء ، يغازلهن ويعبثن به . فحدجتهن بنظرة صارمة وقالت لهن . « باكر كلكنْ تأكلن وتشربنْ في عرسه » . وخرجت من وقتها فقالت لأبيها وأمها ، فوافقا على ذلك .

وروى عبد الصمد للناس في السوق ، ان الزين هو الذي طلب الزواج من نعمة ، وانه صادفها في الطريق فقال لها : « بت عمي ؟ تعرسيني ؟ » فقالت نعم . وانه هو الذي ذهب الى عمه وكلمه في الامر فقبل الرجل .

الا ان المرجح ان الذي حدث غير هذا ، وان نعمة ، بما فيها من عناد واستقلال في الرأي ، وربما بوارع الشفقة على الزين ، او تحت تأثير القيام بتضحية ، وهو امر منسجم مع طبيعتها ، قررت ان تتزوج الزين . ويرجح ان معركة عنيفة دارت في بيت حاج ابراهيم بين الاب والام في طرف ، والبنت في الطرف الآخر . كان اخوتها غائبين فكتبوا لهم .

وقال ان الاخوين الكبيرين رفضا البتة ، وان الاخ الاصغر قبل وقال في جوابه لابيه : « ان نعمة كانت دائماً عنيدة في رأيها . والآن وقد اختارت زوجها بنفسها فدعوها وشأنها ». خلاصة القول ان حاج ابراهيم اعلن النبأ فجأة . وكأن الناس كانوا يتوقعونه بعد حادث الحنين . الغريب ان احداً لم يضحك او يسخر ، ولكنهم هزوا رؤوسهم وزادت حيرتهم وهم ينظرون الى الزين – ينظرون اليه ، فيتضخم في نظرهم. وهكذا انطلقت عقيرة أم الزين بالزغاريد ، وزغرد معها جيرانها واحبائها واهلها وعشيرتها ، وكل من يتمنى لها الخير .

« ايوي ايوي ايوي ايويا » .

لو ان العرس لم يكن عرسه ، لميز الزين صوت كل منهن في زغاريدها .

هذه بت عبد الله ، صوتها عذب وصرختها قوية من كثرة ما زغردت في اعراس الآخرين . ظلت عانسا عمرها فلم تتزوج ، لكنها كانت تفرح لافراح كل احد في الحي .

« اجوج اجوج اجوج اجوجا » .

هذه سلامة ، كانت جميلة ، وكانت تنطق الياء هكذا وكانت مرهفة الحس . لم يسعدها جمالها ، فتزوجت وطلقت وطلقت وزوجت ولم تستقر مع رجل ولم تنجب اولاداً، حلوة الحديث ، مهزارة ، لها مع الزين قصص وحكايات ، تزغرد لأنها تحب الحياة .

« ايوي . ايوي ايويا » .

هذه آمنة تزغـرد من شدة غيظها . (هـل تـذكر آمنة وكيف ارادت البنت لابنها فقـالوا لهـا البنت قاصر لم تصر للزواج ؟)

« اوو ... اوو ... اوورا » .

هذه عشمانة الطرشاء،قلبها الاصم عربد بالحب في عرس الزين ثم اشتعلت شعلة من الزغاريد في دار حـاج ابراهيم . قرابة مائتي صوت ، انطلقت مرة واحـدة فارتجت نوافـذ الدار .

وتزغرد ام الزين فيرد عليها النسـاء ، وتسمع زغاريدهن فتزغرد من جديد .

لم تبق امرأة لم تزغرد في عرس الزين .

وماج الحي من اركانه ، وامتلأت الدور بالوافدين ، لم يبقَ بيت الا انزلوا فيه جماعة من القوم . دار حاج ابراهيم على سعتها ، امتلأت ، ودور كل من محجوب،وعبد الحفيظ ، وسعيد ، واحمـد اسماعيل ، والطاهر الرواسي ، وحمد ود الريس . دار الناظر ، ودار العمدة ، وبيت القاضي الشرعي.

وقال شيخ علي لحاج عبد الصمـد : « عرس زي دا الله خلقني ما شفت زيّه » .

وقـال حاج عبد الصمد : « عليّ بالطلاق الزين عـرّس عرس صـح مو كدب » .

اجـرى الإمام مراسم الزواج فـي المسجد . ناب حـاج ابراهيم عن ابنته ، وناب محجوب عن الزين . ولما تم العقد ، قـام محجوب ، ووضع المهر على صحن ، حتى يراه كل احد . مائـة جنيـه ذهباً ، وهي من حر مال حاج ابراهيم . وقف الامام بعد ذلك ، وادار عينيه في الرجال المجتمعين (كانت ام الزين المرأة الوحيدة بينهم) وقال ان الجميع يعلمون انه عارض هذا الزواج ، اما وان الله شاء له ان يتم فهو يسأله سبحانه وتعالى ان يجعله زواجاً سعيداً مباركاً . التفت الناس الى الزين ولكنـه كان مطرقاً . وقال محجوب لعبد الحفيظ بصوت خافت : « ايه لزوم ذكر المعارضة والكلام الفارغ؟» وعجبوا حين رأوا الامام يمشي نحو الزين ، ويضع يـده على كتفه ، فالتفت اليـه الزين بشيء من الدهشة . امسك الإمام يده وشد عليها بقوة ، وقال بصوت متأثر : « مبروك . ربنا يجعله بيت مال وعيال » . تلفت الزين حوله ببلاهة ، ولكن احمد اسماعيل نظر اليه نظرة صارمة فطأطأ برأسه .

دمدم طبل النحاس الكبير وهدر . يقولون انه يتكلم . وقالت بت عبدالله لسلامة : « النحاس يقول : الزين عرّس الزين عرّس » . فزغردت سلامة بصوتها الحلو .

تقاطر على الحفل عرب القوز ، يتسابقون على جمالهم ، فاستقبلهم الطاهر الرواسي ، وانزلهم في احـدى الدور ، وامر لهم بالطعام والشراب .

٤

وجاء فريق الطلحة عن بكرة أبيه – على رأي المثل – فتصدى لهم احمد اسماعيل وانزلهم ، ربط دوابهم وجاء لها بالعلف ، ثم أمر لهم بالطعام فطعموا وشربوا .

وجاء الناس من بحري . وجاء الناس من قبلي .

جاؤا عبر النيل بالمراكب ، وجاؤا من أطراف البلد ، بالخيول والحمير والسيارات ، فأنزلوهم زمراً زمراً ، في كل بيت طائفة ، يقوم على خدمتهم أفراد العصابة ، فهذا يومهم : يعدون لكل شيء عدته لا تفوتهم صغيرة ولا كبيرة . لن يمسّوا طعاماً ، ولن يذوقوا شراباً ، حتى يأكل ويشرب الناس .

زغرودة منفردة ، ثم مجموعة زغاريد ، ثم طبل وحيد يهمهم ، ثم طبول كثيرة لأصواتها أصداء . ولوح الرجال بأيديهم وهزوا بالعصي والسيوف ، وأطلق العمدة من بندقيته خمس طلقات . وقالت آمنة لسعدية : « الأمة دي ان شاء الله تقدروا تكفّوها » . ولم تقل سعدية شيئاً .

نحرت الابل ، وذبحت الثيران ، ووكثت قطعان من الضأن على جنوبها . كل أحد جاء أكل حتى شبع وشرب حتى أرتوى .

وكان الزين يبدو مثل الديك ، لا بل اجمل ، مثل الطاووس . ألبسوه قفطاناً من الحرير الأبيض ، ومنطقوه بحزام أخضر ، وعلى ذلك كله عباءة من المخمل الأزرق ، فضفاضة يملأها الهواء فكأنها شراع ، وعلى رأسه عمامة

كبيرة تميل قليلاً الى الأمام ، وفي يده سوط طويل من جلد التمساح ، وفي اصبعه خاتم من الذهب ، يتوهج في ضوء الشمس نهاراً ويلمع تحت وهج المصابيح بالليل ، له فص من الياقوت ، في هيأة رأس الثعبان . كان منتشياً دون شرب من الضجة الكبيرة التي تضج حوله ، يبتسم ويضحك ، يدخل ويخرج بين الناس ، يهز بالسوط ، ويقفز في الهواء ، يربت على كتف هذا ، ويجر هذا من يده ، ويحث هذا على الأكل ، ويحلف على هذا بالطلاق ان يشرب . وقال له محجوب : « دحين أصبحت بني آدم . حلفتك بالطلاق يا دوب أصبح ليها معنى » .

جاء تجار البلد وموظفوها ووجهاؤها وأعيانها . وحضر أيضاً الحلب المرابطون في الغابة .

جيء بأحسن المغنيات وأحسن الراقصات ، ضاربات الدف وعازفي الطنابير . وأخذت فطومة ، وكانت أشهر مغنية غربي النيل ، تشدو بصوتها المثير :

« انطقْ يا لسانْ جيبِ المديحْ اقداحْ
الزينْ الظريفْ خلاّ البلد أفراحْ

وجرجروا الزين وأدخلوه عنوةً حلبة الرقص . فهز بسوطه فوق المغنية ووضع على جبهتها ورقة جنيه . وتفجرت الزغاريد مثل الينابيع .

اجتمعت النقائض تلك الأيام . جواري الواحة غنّين

ورقصن تحت سمع الإمـــام وبصره . كان المشايخ يرتلون القرآن في بيت ، والجـــواري يرقصن ويغنين في بيت ، المداحون يقرعون الطـــار في بيت ، والشبان يسكرون في بيت . كان فرحـاً كأنـــه مجموعة أفراح . وكانت أم الزين ترقص مع الراقصين ، وتنشد مـــع المنشدين . تقف هنيهة تستمع القرآن ، ثمّ تهرول خارجة إلى حيث يطهى الطعام ، تحث النساء على العمل . وتجري من مكان إلى مـــكان وهي تنادي : « ابشروا بالخير . ابشروا بالخير »

وقالت حليمة ، بائعة اللبن ، تغيظ آمنة : « أريتـُه يا يمْ عرس السرور » .

نقرت « الدلاليك » نقـــرات نشيطة متحفزة دقـــات الدليب . وغنـّت فطومة :

« التمرْ البيمرق بـــدري سارقْ نومي شاغلْ فكري »

وقف الرجـال في دائرة كبيرة ، تحيط بفتاة ترقص في الوسط ، ثوبها انحدر عن رأسها ، وصدرها بارز للأمـــام ، ونهداها نافران . ترقص كما تمشي الأوزة ، ذراعاها الى جانبيها تحركهما في تناسق مع رأسها وصدرها ورجليهـــا . ويصفق الرجال ويضربون الأرض بأرجلهم ، ويحمحمون بحـــلوقهم . وتضيق الدائرة على الفتاة ، فترمي شعرها الممشط المعطر على وجه أحدهم . ثم تتسع الدائرة . وتتماوج الزغاريـد ، ويشتد التصفيق ، ويقوى وقع الأرجـل على الأرض ، ويخرج الغناء سلساً ، ملحناً من حلق فطومة :

« الزولْ السكونه ُقشابي   طولَ الليلْ عليــه بَشابي »

واتتشى ابراهيم ود طه من الغناء ، فصاح : « آه . قولي كان الله يرضى عليك » .

رقصت عشانة الطرشاء ، وصفق موسى الأعرج . ولم تلبث دقات الدلاليك أن أبطأت وأصبح لها أزيز مكتوم . هــذه نقرات الجابودي . وقويت حمحمة الرجال في حلوقهم . ودخلت سلامة حلبة الرقص . صالت وجالت ، وهي تزهــو وتختال مثل المهرة . كانت خير من يرقص الجابودي ، وكان لهـا معجبون كثيرون ، ترقبها عيونهم فتنفلت منها كالسمكة في الماء . كثفت حلقــة الرقص ، واشتد التصفيق ، وهدرت أصوات الرجال ، ودخل الزين الحلبة ، دخل من تلقاء نفسه هذه المرة ، طويلاً فوق سلامة ، فلطمته بشعرها الطويــل المنهدل فوق كتفيها ، وغمزته بعينها . وكان الإمام جالساً مع جماعة ، في ديوان حاج ابراهيم الذي يشرف على فناء الدار ، فحانت منه التفاتة ، ووقعت عينه على سلامة وهي منهمكة في رقصها . ورأى صدرها البارز ، ورأى كفلها الكبير ، حين تضرب برجلها يهتز ويترجرج ، منقسماً الى شقين كأنهما نصفا بطيخة ، بينهما وادٍ هبط فيه الثوب . وكانت سلامة في رقصها قد انثنت حتى أصبح جسمها في شكل دائرة ، لمس شعرهـا الأرض ، وزاد بروز صدرها ، ونتوء كفلها ، ورأى الإمـام ساقها اليمنى وجزءاً من فخذها الممتلىء ، وقد رفع عنه الثوب .

وحين عاد الإمام بوجهه الى محدثه ، كانت عيناه مربدتين مثل الماء العكر .

« ايييييويا » .

هذه حليمة بائعة اللبن ، تزغرد طمعاً في خير تناله من أهل العرس .

وتحولت دقات الدلاليك الى العرضة . دقتان سريعتان وأخرى منفردة . وأخذ الرجال يرمحون بأقـدامهم كما تخب الخيل . وتقاطر عرب القوز على حلبة الرقص ، فتواثبـوا وتصايحوا وطرقعوا بـأسواطهم . رجال قصار القامات مشدودو العضلات ، اجسامهم ريانة ندية في مثل لون الأرض لأنهم يعيشون على لبن الابل ولحم الغزلان يلبس الواحد منهم ثوباً يربطه في وسطه ويلقي طرفيه على كتفيه . اذا قفز في الهواء لمع جسمه في ضوء الشمس يلبسون في ارجلهم اخفافا وفي ذراع كل منهـم سكين في غمـده . وتختلط أصوات الراقصين وضربات الدلاليك بدقات الطار ونشيد المداحين في البيت المجاور . هناك اجتمع حشد آخر في شكل دائرة ايضاً ويدور فيها رجلان كل منهما ممسك بالطار احدهما الكورتاوي وعميد المدّاحين . كان يقول :

« نِعم الصَّبا وروّح بي سَبـَلْ القرُشْ شافْ
العَلَمْ لوّحْ زارْ جدّ الحسينْ »

وتدمع اعين الناس ، وبعضهم يجهش بالبكاء ، خاصة الذين

حجوا وزاروا مكة والمدينة والاماكن التي يصفها المادح .

ويمضي الرجل يهزج ، في صوت له بحة اشتهر بها :

« نمم العبا وحادا
بي سهلْ القريشْ شاف العَلَمْ نادى
زارْ جدّ الحسين
فرشولُه الزبيبْ والتينْ والحَبحَبْ.
كاسات من حيـا قالو له هاك اشربْ
زارْ جدّ الحسينْ »

وتختلط زغاريد النسله في حلقة المديح بزغاريد النساء في حلبة الرقص . وأحياناً يهاجر فـريق من حلبـة الرقص إلى حلقة المديح . هناك تتحرك أرجلهم ويثور حماسهم ، وهنـا تدمـع أعينهم . كذلك يتحـول فريق من حلقـة المديح إلى حلبة الرقص ، يهاجرون من الشوق إلى الصخب .

وفجأة تنبه محجوب .

أين الزين ؟

كان مشغولاً كبقية عصابته بتنظيم الفرح ، فاختفى الزين عن عينه .

سأل عنه كلاً من الباقين ، فقالوا ان أحـداً منهم لم يرَه منذ قرابة ساعتين . وقال عبد الحفيظ انـه يـذكر أنه رآه اخر مرة يستمع للمداحين .

بدأوا يبحثون عنه ، دون ان يحس أحد ، مخافـة ان يقلق الباقون . لم يجدوه مع الحشد المجتمع مع الإمام في

الديوان الكبير ، ولم يكن في حلقة المديح ، ولم يكن مع أي من جماعات الرقص المتناثرة في البيوت . دخلوا المطابخ حيث النسوة يزحفن أمام الأفران والقدور ، فلم يكن الزين هناك .

حينئذ أصابهم الذعر ، فإن الزين قد يفعل أي شيء ، قد ينسى أمر زواجه ، ويختفي كعادته .

وتفرقوا يبحثون عنه ، فلم يتركوا موضعاً . بعضهم ضرب في الصحراء قبالة الحي ، وبعضهم ذهب ناحية الحقول ، حتى ضفة النيل . دخلوا البيوت بيتاً بيتاً . تفرسوا تحت جذع كل نخلة وكل شجرة .

لم يبقَ إلا المسجد . لكن الزين لم يدخل المسجد في حياته ، كان الوقت أوائل الليل ، ليل كثيف مظلم . وكان المسجد ساكناً خاوياً ، قد تسرب الضوء من مصابيح العرس خلال نوافذه ، في خطوط مستطيلة من النور ، انعكس بعضها على السجاجيد ، وبعضها على السقف ، وبعضها على المحراب . وقفوا ينصتون فلم يسمعوا حساً ، إلا أصوات العرس تتناهى اليهم . ونادوا باسمه وبحثوا في أركان المسجد وفي ردهاته فلم يجدوا الزين .

وفقدوا الأمل . لا بد انه هرب . لكن الى أين ، والبلد كلها مجتمعة عندهم .

وبغتة خطر خاطر في ذهن محجوب ، فصاح: «المقبرة!» . لم يصدقوا . ماذا يفعل في المقبرة في ذلك الوقت من الليل ؟

لكن محجوب سار أمامهم فتبعوه .

ساروا صامتين وراء محجوب بين القبور ، تتناهى اليهم أصوات الغناء والزغاريد عالية واضحة ، ثم خافتة بعيدة . كان المكان بلقعاً ، إلا من شجيرات السلم والسيال التي تناثرت بين المقابر ، وامتلأت الثغرات بين فروعها بالظلام فبدت كأنها سفن في لجة . وفي الوسط بدا الضريح الكبير غامضاً مخيفاً . وفجأة وقف محجوب وقال لهم : « اسمعوا » لم يسمعوا شيئاً أول الأمر ، فأرهفوا اذانهم ، فإذا بنشيج خافت يتناهى اليهم .

سار محجوب ، وساروا وراءه ، حتى وقف فوق شبح جاثم عند قبر الحنين . وقال محجوب : « الزين . الجابك هنا شنو ؟ » .

لم يرد ، ولكن بكاءه اشتد حتى أصبح شهيقاً حاداً .

وقفوا وقتاً يراقبونه في حيرة . ثم قال الزين في صوت متقطع ، يتخلله النحيب : « أبونا الحنين إن كان ما مات كان حضر العرس » .

ووضع محجوب يده على كتف الزين برفق وقال له : «الله يرحمه . كان راجل مبروك . لكن الليلة ليلة عرسك. الراجل ما بيبكي ليلة عرسه . يا الله أرح » .

وقام الزين وسار معهم .

وصلوا الدار الكبيرة ، حيث أغلب الناس ، فاستقبلتهم الضجة ، وغشيت عيونهم أول وهلة من النور الساطع المنبعث من عشرات المصابيح . كانت فطومة تغني، والدلاليك ترجر، وفي الوسط فتاة ترقص ، وحولها دائرة عظيمة فيها عشرات الرجال يصفقون ويضربون بأرجلهم ويحمحمون بحلوقهم . انفلت الزين ، وقفز قفزة عالية في الهواء فاستقر في وسط الدائرة . ولمع ضوء المصابيح على وجهه ، فكان ما يزال مبللاً بالدموع . صاح بأعلى صوتـــه ، ويده مشهورة فوق رأس الراقصة : « أبشروا بالخير .. ابشروا بالخير » . وفار المكان، فكأنه قدر تغلي ، لقد نفث فيه الزين طاقة جديدة . وكانت الدائرة تتسع وتضيق ، تتسع وتضيق ، والأصوات تنطفىء وتطفو ، والطبول ترعد وترجر ، والزين واقف في مكانه في قلب الدائرة ، بقامته الطويلة ، وجسمه النحيل ، فكأنـــه صاري المركب .

— انتهت —

ضوّ البَيت

(بندر شاه)

الإهداء

إلى أبويَّ ،

محمد وعائشة .

وإلى أخويَّ ،

علويَّة وبشير .

الدرب أنشَحَطْ ، والشُوسْ جبالُه أتناَطنْ
والبنــدْر فوانيسُه النبيُوقدّن ، ماتَنْ ،
بَنشُوتْ هَضَالِـــيمَ الخلّا البنجاطنْ ،
أمرع ، قودعْ ، امْسِيتْ ، والمواعيد فاتَـنْ .

شاعر سوداني مجهول

ألا ، لا أرى مثلي أمْتَرى اليَوم في رسْمٍ ،
تفصُ بــه عيْني وينكرهُ وهْمي ،
أتت صورُ الأشيـاءِ بيني وبينـــه ،
فجهلي كلاً جهلٍ ، وعلْمي كلا علم .

أبو نواس

في حضرة من أهوى عبثت بي الأشواق
حدقتُ بلا وجه ورقصت بلا ساق
وزحمت برايـــاتي وطبولي الآفـاق
عشقي يفني عشقي وفنائي استغراق
مملوكـــك لكني سلطـان العشاق .

الفيتوري

كان محجوب مثل نمر هرم ، جالساً جلسته القديمة رغم السنين والعلة ، أبداً كأنه يتحفز للوثوب ، معتمداً بيديه على عصاه ، وذقنه على يديه ، متلفّعاً ثوبه على رأسه فوق العمامة. عمقت الأخاديد التي على خديـــه عند الفم ، والتجاعيد على الجبهة ، وفي العينين تحولت تلك الحدة مع مرور الأيام ، وذكريات المعارك والهزائم ولا شك ، إلى حمرة عليلة . لم يعد في العينين إلا الغضب . كنا أمام دكان سعيد ، والليل يزحف حثيثاً على ود حامد . قال محجوب موجهاً كلامه إلى الرمل عند مُنْغَرَسِ عصاه :

« غِيْبَتَكْ طالَتْ من البلد »

أطرقت أفكر . مـــاذا أقول في مثل تلك الظروف والأحوال ؟ نعم ، سنوات .

قلت لمحجوب : « الحركة والسكون بيد الله »

ضحك الطاهر ود الروّاسي كما كان ود الروّاسي يضحك

تلك الأيام ، وقال من مكانه المعتم على بقعة الرمل ، بمنأى عن ضوء المصباح :

« شِنْ[1] يَسوّي في البلد الفَقْرْ دِي . أخيْر[2] لَه هناك في مَحَلْه »

عبد الحفيظ كان أكثرهم تسامحاً من قبل، أيام كان يستطيع أن ينظر من جانبين . أما الآن ، وقد حدد لنفسه موقفاً ، فلم يكن غريباً أن يقول بصوت خالي من الود ، فيه ايحاءات الشجار :

« محله وين ؟ محله هنا . إن طال وان قصّر يا هو دا محله »

قلت ، وأنا أحاول عبثاً أن أعيد الزمن إلى سابق عهده :

« على أي حال ، هنا ولا هناك العمر ما فَضَلْ فيه غير أيام »

وكأنما سمع ود الرواسي الاستغاثة فقال :

« يا زول[3] . طيب نحن شِنْ نَقُول ؟ »

وظل محجوب معتمداً بيديه على عصاه ، وذقنه على يديه . لم يكن حمد ود الريس موجوداً ، ولا كان أحمد أبو البنات . وظل سعيد في دكانه يفرغ أشياء من صناديق ويضعها على الرفوف ، ومعه حفيد له يعاونه . من جوف الدكان قال سعيد شيئاً فهمه الطاهر الروّاسي وضحك له ، بينما الليل يجمع أطرافه ويتكثف ويمحو معالم البلد ، محوك كتابة بالطباشير على سبّوره .

(١) ماذا . (٢) افضل . (٣) رجل .

انتبهت فجأة لصوت المؤذن « حي على الصلاة حي على الفلاح » . كان صوتاً اخرق ضعيفاً فاقد الرنين . سألت عنه، فقا عبد الحفيظ « سعيد » . أيضاً لم أميزه ، فقال محجوب ساخراً « سعيد عَشَا البَايْتَات » وقال ود الروّامي « ما تقولْ لُه سعيد البوم . شن عرفه بي عشا البايتات ؟ »

قلت « سعيد البوم أصبح سعيد عشا البايتات ؟ »

ضحك محجوب ، لا كما كان يضحك تلك الأيام ، وقال :

« ولِسّع يامّا تسْمع وَتشُوفْ »

هنا خرج سعيد من دكانه يحمل علبة سجائر ، عرضها علينا وقبلنا ما عدا محجوب ، وقال :

« ما دام عبد الكريم ود أحمد بقى متصوف ، والزين أصبح من الأعيان ، وسيف الدين على وشك يعمل نائب في البرلمان ، ايه الغريب سعيد البوم يكون اسمه سعيد عشا البايتات ؟ »

وقلت « عجايب » وأضاف سعيد الذي كان يلقب بالقانوني في الزمن السابق :

« يا زول . انت عاوز حصه طويله عَلى شانْ نفهمك النظام الجديد في البلد . انت فاكِرْ ود حامد هِيّ ود حامد الْ إنتْ عارفها ؟ »

لا . لم أكن أظن ذلك . ولكنني لم أتوقع أن يصبح سعيد البوم مؤذناً . قلت لهم :

« سيف الدين حصل عليه شنو ؟ ارتدّ تاني ولاّ إيه؟

وقال سعيد :

« انت لسّع في ايام سيف الدين ؟ يمكن زياده عن سته مؤذنين اتقلّدوا المنصب بعد سيف الدين . دلّوقتي يا سيدي نحن في عهد سعيد عشا البايتات »

وقال الطاهر الروّاسي :

« سيف الدين من زمان ترك الامام . بقى زي مـا تقول بَيْنَ بيْنَ . رِجلٌ في الجنة ورجل في النار »

وقال سعيد :

« مثْل ناسْ الزمن كلهم . الزمن دا النـــاس كلهم بقوا بين بين »

وسمعت محجوب يكركر مثل البعير بغيظ، وقال الطاهر:

« وانت يا أبو القوانين ؟ بقيت مع ناس الزمن ، ولاّ صالِدْ زيْ محجوب النمر ؟ »

صمت سعيد كأن تذكيره بلقبه القديم قد فاجأه ، ثم قال بين الضاحك والغاضب :

« القوانين الله يطـّري زمانها بالخير . دلوقت أولاد بكري يقولوا عليّ سعيد المشَوْشِرْ . الْ بيبْحثْ عن حقّه الزمن ده يقولوا عليه مشوشر »

أضاف محجوب بالطريقة ذاتها :

« اولاد بكري إنْ شاء الله مـــا تتْعَدِلْ عليهم شِقْ إيشْ ماعَبّلُوا »

وسألتُ محجوب ماذا فعل أولاد بكري فقال :

« اسأل سعيد بِقول لك »

كان عبد الحفيظ قد توضأ خلال هذا الحديث دون أن يشارك فيه ، وهو يبتهل ويهمهم . ولما نادى المنادي للصلاة في صحن المسجد ، قام مهرولاً قائلاً :

« نحصّلْ الصلاه قَبُلْ ما تفوتْنا »

كأنني كنت أتوقع شيئاً لن يحدث ، إذ ان محجوب أيضاً وقف معتمداً على عصاه ، يتأوه ويتبرم . وقال :

« انا كان اقوم لي أهلي . اللّيل لَيّلْ »

ونادى سعيد وراءهما :

« ما تحضروا معانا العشاء ولو على شان الرجل الضيف دا »

ذهب محجوب كأنه لم يسمع وقال عبد الحفيظ من بعيد :

« العشاء ملحوق . لكين[1] الصلاه مع الجماعه ما بتتلحِق »

جاء الطاهر الروّامي وجلس بجواري على الكنبة ، وظللنا وقتاً صامتين، وأنا أرهف السمع لأصوات الليل في ود حامد . ثغاء شياه وبقرة أو ثور يخور ، وأصوات شجار ، وصوت غناء في مذياع . فوج من صراخات تلتقي وتفترق ، في مكان ما ، في جهة ما ، لا تدري هل هي أصوات مأتم أم عرس ،

---

(١) لكن .

لا تدري هل تجيء من قبلي أم من بحري . ضوء سيارة يقترب ويتضح ويعلو ويفوت . مكنات الماء على الشاطىء ، ووشوشة هواء الليل الرطب في جريد النخل. دكان سعيد كحاله وبقعة الرمل كحالها والليل والنجوم . وقال الطاهر الروّاسي :

« مسكين محجوب كبر »

وقال سعيد من بطن الدكان :

« انت يا ود الرواسي مالك مـــا بتعجّز مع انك أكبر مننا كلنا ؟ »

فقال الطاهر :

« عشان أنا قلبي ميت . ناس محجوب وانت قلوبكم حاره. الزمن دا الواحد يقيف بعيد يتفرج ويتعجب »

وخرج سعيد وجلس بجوارنا على الكنبه . وقلت لسعيد :

« الدنيا كلها تكبر والكنبة دي في حالتها »

ضحك سعيد وقال :

« دا شغل ود البصير رحمة الله عليه . تقول حديد . شغل الزمن دا زي الورق »

وقال الطاهر :

« محجوب عنده مع حرارة القلب الأزمه . طلعت عينه »

وقال سعيد :

« والله يا خوي بقينا كلنا يا ساتر استر . إذا ما كان

الأزمه يبقى وجع الكلى أو البطن أو المفاصل . غـــايته الله كريم .

وقال الطاهر :

« علشان ما بتسمعوا الكلام . زمان قلنا لكم عليكم بالحلبه والجنزبيل . الجنزبيل الصباح على الريق والحلبه قبل النوم . والعَجبْ كان تشرب لك كباية سمنه كل يوم » .

وقال سعيد :

« كله جربناه ما نفع . بلدي وافرنجي . حقن بنسلين على فيتامـــين . شربنا مية القَرَضْ والَحرْجَلْ وقرَشنا التوم والبصل . وآخر الزمن كان ناس قالوا تسوّي الِحنّه . وناس قالوا تقعد فوق دخان الطّلح . يا زول . الكلام على صحة الجسم الأولانيه » .

وقال الطاهر :

« صدقت والله . ما في شيء زي النشاط . الجسم دا ياما حملناه حمايل . يا زول . الواحد كان زي البغل . إن رفص الجبل يهِدُّه » .

وساد صمت له طعم تلك الأيام ، أيام كان الطاهر الرواسي ورفاقه ، عصابة محجوب ، يجلسون على بقعة الرمل تلك ، أمام دكان سعيد ، والطاهر الرواسي يتنهد مـلء صدره ، ويقول « روح يا زمان وتعال يا زمان » .

تنهد الطاهر الرواسي الآن، بقدر ما استطاعت رئتا رجل جاوز السبعين وقال « وين تاني يا حــــاج سعيد نلقى مثل الايام ديكْ ؟ »

وكان أحفاد سعيد قــد فرشوا الأبـسطة قبالة الدكان، وضعوا عليهـــا سفرة كبيرة، قمنا ثلاثتنا وجلسنا إليها. لم يكد سعيد يرفع الغطاء عنها، حتى وصل عبد الحفيظ. جلس بيننا قائلاً :

« ما قلت لكم العشاء ملحوق ؟ »

قال له سعيد « الصلاة مقبوله يا حاج »

وقال عبد الحفيظ « الإمام عيان الليله »

وقال الطاهر « مين أمّ الناس بدله ؟ »

فقال سعيد « الطاهر عامل متغابي. طبعاً النائب. وقت الإمام يغيب، منو اليئم الناس غيره ؟ »

قلت لعبد الحفيظ « لا بد نائب الإمام انت »

فقال عبد الحفيظ «سعيد وود الرواسي المسخره ما يخلوها أبدا. الحكاية ما فيها رئيس ونائب وقت الإمام يغيب أيّـا من كان يصلي بالناس ».

فقال الطاهر :

« على أي حال الإمام ليه زمن متـْعَلعِلْ. والصلاة نفسها زيْ كأنه ما لِيهْ فيها كبيرَ غرضْ. إيه رأيك يا حاج عبد الحفيظ تبقى إمام بالمـرّة »

فقال عبد الحفيظ غاضباً :

« يا جماعه انتو أصبحتوا شُيَّبْ وعقولكم عقول أطفال ؟ هُوّ كَوْن الانسان يبقى أمام لعبه ؟ دا راجل عالم ومتفقه في الدين . البلد كلها ما فيها أمام مثله . وقت الله يتوفاه ، بعدين نشوف »

قال سعيد :

« والزعل لزومه شنو ؟ الطاهر معاه حق . الحكاية مش صلاة العيدين وخطبة الجمعة وصلاة التراويح ؟ »

وأضاف ود الروّاسي :

« والحمد لله رب العالمين ولا الضالين آمين . وحق خطبة الجمعه اياها الكلمتين. اللهم انصر المسلمين واحفظ أمير المؤمنين. وين أمير المؤمنين دا عاوزين نعرف ؟ »

فقال عبد الحفيظ :

« لا حول ولا قوة إلا بالله . انت يا ود الروّامي ايش عرفك في خطب الامام ؟ طول عمرك لا اتوضيت ولا صليت. الجامع مِنْ الله خلقك ما دخلته ولا عَتَّبت على بابه .

فقال سعيد :

« يا عبد الحفيظ خاف الله . كيف ود الروّامي ما شاف الجامع ؟ هو في انسان ساعد في بنـــاء الجامع اكتر من ود الروّاسي ؟ »

فقال ود الرواسي موجهاً كلامه إليّ :

« شايف يا محيميد ؟ شايف ناس الزمن دا كيف بقـــوا ينكروا الحق ؟ والله صدق ابراهيم ود طه . يقول لي يا ود الرواسي الجِنْس ناسْ الدُقونْ والسُبح . ما يجيك من وراهم إلا الشر. انا يا عبد الحفيظ ما أعرف الجامع ؟ في الحر والبرد مِنـُو نقل المويه[1] والطوب؟منو الوقف لحد ما السقف اترفع؟ منو اشتغل طول الليل وقت الرجال شخّرت ؟ منو ..؟ بس نقول شنو ونعيد شنو ؟

فصاح عبد الحفيظ غاضباً :

« علشان جِنـْس الكلام دا أنا بطـّلت قعدةْ دكان سعيد . بالله وتالله لولا الراجل الضيف دا ما كنت جيت المجلس دا »

ونفض يده ووقف . فصاح به سعيد :

« يا أخي انت جَنـّيتْ والاّ شنو ؟ الحكاية وَنسَهْ . انتو عاوزين تـَحـْجروا الكلام على الناس ؟ يا أخي الجامع ما تـَراهُ واقف ؟ في انسان عاوز يبيعه ولاّ يشتريه ؟ الْ يصلي والْ مـــا يصلي كلهم اشتغلوا . والأجر والثواب عند الله . بسم الله الرحمن الرحيم . يا أخي انتو عاوزين تجيبوا الاسلام مِنْ أوّل وجديد ؟ »

قلت لعبد الحفيظ لا عليك اجلس ولكنه لم ينثن وقال :

« انتو ناس ربنا عَمَى بصيرتكم . جِنـْس الكلام دا لا

(١) الماء .

يُودّي ولا يجيب . وقبّلتُه أخير . سلام عليكم ، ومضى .

* * *

إذا كان الأمر قد بدا لي كما حدثتكم في تلك الرحلة ، فلعله يشفع لي انني لم أتعمد تضليلكم . كان جدي كما ذكرت لكم . وكانت علاقتي بجدي تبدو لي في ذلك الوقت ، وبعده بسنوات طويلة ، كما ذكرت لكم في تلك الرحلة . ثم وقعت في البلد تلك الواقعة التي لا يحيط بها وصف ، لا في رحلة واحدة ولا في رحلات عدة ، ولا حتى في العمر بأسره . فجأة اختل ذلك التناسق في الكون . فإذا نحن بين عشية وضحاها لا ندري من نحن وما هو موضعنا في الزمان والمكان ، وقد خيل إلينا يومها أن ما وقع قد وقع فجأة . ثم تكشف لنا رويداً رويداً ونحن في ذلك الخضم المتلاطم بين الشك واليقين ، أن ما حدث كان مثل سقف البيت حين يسقط . لا يكون قد سقط فجأة ولكنه يظل يسقط منذ أن يوضع في محله أول مرة . بلى اننا جربنا شتى سبل المقاومة ؛ قلنا ان ما حدث شيء قائم بذاته ، لا صلة له بما كان وما سيكون ، ظاهرة شاذة منعزلة كأن تلد العنز عجلاً أو تثمر النخلة برتقالا. ثم عدنا فقلنا أن ما حدث لبندر شاه وأولاده هكذا، ولكنه ما كان ليحدث لنا لأننا لسنا مثل بندر شاه وأولاده.

ويرد الناس بعضهم على بعض وهم يتشبثون بأوهى الأسباب ، صدقتم ، صدقتم ، ويصمتون صمتاً قلقاً هشاً كما يهدأ الموجع برهة ثم تعود الفوضى حين يقول أحدهم :

« يا جماعة خافوا الله . كيف تقولون بندر شاه وأولاده ليسوا مثلنا . قسماً مثلنا وأحسن منا .. كانوا والله زينــــة الرجال »

يعاودنا الخوف الدفين ، لأننا نعـلم أن هذا هو الحق . كان بندر شاه حين يحضر إلى عرس أو إلى مأتم يحيط به أبناؤه الأحد عشر وحفيده مريود ، ترقى إليهم الأبصار وتهفو لهم الخواطر لأنهم كانوا ملء السمع البصر ، زينة الرجال في البلد .

يقول أحدنا في حسرة :

« يا جماعة . بندر شــــاه كأنه فتحت له ليلة القدر . محل ما يضع رجله يلقى فايدة . محصول التمر العام دا بطال مع كل إنسان إلا مع بندر شاه » .

وفي الحال يرتفع أكثر من صوت يقول للمعترض « يا فلان استغفر الله ، كهان بقينا نحسد بندر شاه ؟ هل أنت أو نحن نبذل ربع الجهد الذي يبذله بندر شاه وأولاده ؟ »

وما يلبث فلان المعترض أن يراجع نفسه ويقول :

« والله صدقتو يا جماعة . بندر شاه وأولاده ما هم مثلنا .

ديل ناس ربنا راضي عنهم . كل خير يجيهم حلال عليهم » .

ولم يكن عجبنا ينتهي من التشابه الغريب بين بندر شاه وحفيده مريود ، فقد كان الحفيد في هيأته وسلوكه مطابقاً تماماً لجده ، كأنما الصانع العظيم صنعهما في وقت واحد من طينة واحدة ، وقدم لأهل البلد بندر شاه ، ثم بعد خمسين أو ستين عاماً قدم لهم بندر شاه مرة أخرى على هيئة مريود . تخيل توأمين تأخر وصول أحدهما عن الآخر خمسين أو ستين عـــاما . القامة والوجه والصوت ، والضحكة ، العينين ، نصوع الأسنان ، نتوء الذقن ، القومة والقعدة وطريقة المشي. وحين يصافحانك ينصبان على يدك بالجسم كله ، وينظران إليك ، لا كما ينظر بقية الناس وجهاً قبالة وجه ، بل من جانب الوجه نظرة ودودة ولكنها متمعنة متفحصة . وحيث تقف بينهما تحس كأنك تقف بين مرآتين وضعت إحداهما قبالة الأخرى ، كل واحدة منهما تعكس الصورة نفسها في امتداد لا نهائي .

كان مريود هو وكيل الجـــد ونائبه وقائم مقامـــه . أذكر أنني دهشت دهشة عظيمة أول مرة رأيت ذلك . كان مريود يكبرني بعام أو نحو عـــام ، ولم يكن سنه يزيد عن الخامسة عشرة حينئذ . جاء إلى جدي وقت الضحى وعند جدي مختار ود حسب الرسول ، ومحمـــد ود حليمة ، وأنا ، منزو في ركن كعادتي لا أتكلم إلا إذا سئلت ، وإذا

تكلمت لم أزد على جملة أو جملتين . دخل مريود وسلم عليهم ينادي كلاً منهم باسمه المجرد ، لا عمي فلان أو جدي فلان . ثم جلس دون أن يؤذن له بالجلــوس قبالة جدي . لم يكن وقحاً .. لا .. ولكنه كان واثقاً من نفسه ثقة تقرب من الوقاحة .. لم يضيع أي وقت في المجاملات ، ودخــل في موضوعه مباشرة متجاهلاً الرجلين الآخرين :

« بندر شاه يقول انه اشترى العجل منك »

فقال جدي :

«بندر شاه يشتري ولا ما يشتري هو حر. لكن أنا ما بعت»

فقال مريود ضاحكاً :

« إذا كان بندر شاه اشترى منك لا بد انك بعت »

فقال جدي :

« جدك عرض اتناشر وانا طالب سبعتاشر »

لم يقل مريود شيئاً ولكنه أخرج من جيبه رزمة جنيهات مدها لجدي ، فاخذها هذا دون أن يعدها ولكنه أبقاها برهة في راحة يده كأنها يزنها ثم قال :

« العجل مربوط في المراح ، امش خذه »

فقال مريود ضاحكاً وهو يتأهب للخروج :

« العجل أنا سقّيته مع شروق الشمس . لحمه دلْوقت فوق النار ويمكن يكونوا أكلوه كمان »

ولما خرج قلت لجدي « كم دفع ؟ »

فقال جدي « اتناشر »

أخذت الأوراق وعددتها فإذا هي بالفعل إثناعشر جنيهاً.

قال جدي وهو يسترد نقوده من يدي وقد لاحظ دهشتي: « لأجْل الولد الصغير دفع حاضر .. على أي حال المعاملة مع الولد أخْيَر من المعاملة مع جده » .

يومذاك كان جدي سعيداً بذلك الوضع الشاذ ، وقد رأيت عيني مختار ود حسب الرسول الضيقتين تلسعان بإجلال لا يخالطه تحفظ ، ورَنا حمد ود حليمة الى مَرْيُودْ وهو يخرج مقهقهاً ، كما يرنو وانسان مخلوق من طين إلى ملاك هبط من السقف. ولا أخفي عليكم ان كل هذا قد ترك عندي أثره . أحسست في تلك اللحظة أنني أشاهد معجزة . ولو ان أحداً قد قال لي يومها ان الأقدار قد اختارت مريودْ ليعقد صلحاً بين الماضي والمستقبل لصدقت . فجدي رغم حذره صدق وأهل البلد قاطبة صدقوا . ولكن يا له من أمر عظيم كان في ذلك الضحى . كانت الرياح تجيء من مغاور بعيدة تصرخ آه وشَرْ ونار . كانت العفاريت تقفز من أسطح المنازل وأغصان الشجر ، من الحقول والرمال وشعاب الجبال ، من تحت أظلف البقر ومن منعطفات الدروب ، تولول هب هد رب دن ند نار دار آه ها . ثم تتكشف الضوضاء في كلمة واحدة، بندرشاه. انني الآن ، رغم بعد الشقة ، لا أستطيع أن أتذكر ذلك

الضحى الا وتنتابني قشعريرة . كانت البلد كأن طائراً رهيباً اقتلعها من جذورها وحملها بمخلبه ، ودار بها ثم ألقاها من شاهق .. كنت كشخص في قبضـــة كابوس مليء بالصراخ والحركة ، وهو مشلول في وسطه ، لا يملك أن يتأخر أو يتقدم . كانت الفوضى كأنها تتفجر من تحت أقدامنا ، وكان الناس يجرون مشتتين ها هنا وها هنا ، يبحثون عن شيء ولا شيء ، يبحثون عن المصدر وليس ثمة مصدر .. الصور كلها كنثار الغبار ، ما تكاد تستقر فيالعقل حتى تتفتت فتتا ومعها الكون والحياة . هكذا رأيت حمد ود حليمة في ذلك اليوم ، يتقدم إلى أمـــام ثم يتقهقر إلى وراء ، كأنه نائم أو ميت ، تتلاعب به قوى غير مرئية .

وفي أطراف ذلك الكابوس كانت نساء حاسرات الرؤوس، وجوههن مغبرة يتشبثن برجال مكتوفي الأيدي مربوطين بحبل غليظ إلى سرج جمل ، وعلى الجمل جندي يحمل بندقية ، ورجال عشرات يسدون طريقه ، ثم رد رش شب شن شربابه يد تا دا ده ، تنصهر وتختلط وتشكل صورة مجسمة ، هي صورة بندرشاه على هيئة مريود، أو مريود على هيئة بندرشاه، وكأنه يجلس على عرش تلك الضوضاء ممسكاً خيوط الفوضى بكلتا يديه ، وسطها وفوقها في الوقت نفسه ، مثل شعاع باهر مدمر .

كنا مثل سرب عظيم من طيور مذعورة ، تفترق وتلتقي،

وتعلو وتهبط ، وتدور بعضها حول بعض ، محدثة صراخاً منكراً يصم الآذان . في ذلك الضحى كان الماضي والمستقبل قتيلين لا يجدان من يواري جثتيهما أو يبكي عليهما .

بلى ، كان جارنا مسعود ذا صوت جميل وضحكة صافية تشبه شيئاً عذباً خيل لي يومها انه صوت قرقرة الماء . وقد كان حصاد التمر كما ورد في تلك القصة ، ونقله بالجمال والحمير ، وما كان من أمر جدي مع جارنا مسعود ، وما كان من أمري مع جدي . وقد كان من المحتمل أن يظل مكان تلك الحادثة من بقية أحداث حياتي واضحاً ثابتاً . لولا اننا أصبحنا ذات صباح فإذا نحن فجأة لسنا موقنين من شيء .

* * *

قلت لسعيد ، الذي كان قبلاً يلقب بسعيد البوم :

« قالوا سموك سعيد عشا البَايْتات »

ضحك ضحكته البريئة التي أذكرها من أيام طفولتي في ود حامد ، وقال بلهجته البدوية :

« الولية فطومة أجارك الله . وقت العُرَقي يشْلَعْ في راسها تطلع الكلام خارِمْ بارِمْ »

قلت له : وكان فطومة غنت في عرسك ؟ »

فقال : « يا محيميد اخوي ، في هـــادي الايام الفلوس مو تجيب فطومة . عليّ الحرام الفلوس تجيب الهواء من قرونه»

قلت له : « فطومة شِنْ قالت فيك ؟ »

فقال فخوراً وهو يبرم شاربه الصغير ، الذي يجلس قلقاً على فمه كما تجلس العمامة المفرطة الكبر على رأسه :

« يا زول . فطومة تطير عِيشَتْها . هولكين غنـــا نُصاحْ ؟ يا زول . ألعرس الْما غنّت فيه فطومة أصلاً مــا يقولوا عليه عرس »

وأعدت عليه السؤال ، فقال :

« علي الحرام أخوك عرّس عرساً خلّى ناس هالبلدة تنسى عرس الزين . اسأل أياً من كان يقول لك العرس عرس سعيد والاّ بلاشْ »

عرس الزين كان أعجوبة . أما ان سعيد البوم يصبح صهراً للناظر بجلالة قدره ، فهذه هي المعجزة . وقال سعيد : « عليك أمان الله . الأمة ما لقينا محَلْ نحشرها . قَبايل قَبايِلْ . كل قبيلة تسْوي الشَيْ الفـُلاني . عملنا العقد في الجامع . الامام قال للرجالة كل واحد يشوف ويسمع .. سعيد راجل حبابه عشرة ، ما في انسان يقول سعيد البوم » .

كنت متشوقاً ان اعرف ماذا قالت فطومة ، واعدت السؤال فقال :

« فطومة تطير عيشتها . تقـْطع الوصف كأنها تقرأ في كتاب . العشرة جنيه حلال عليها »

« هالله هالله .. عشرة جنيه ؟ »

« عشرة جنيه عاقـْلة وحياة خوتك يا محيميد . قلت لها اسمعي يا وليـــة ، المثل يقول أدي الغَنـاي وعدْه ، وأدي المداح وعشّه . بَدُورْ منك اسم ، ينسى أهل ود حامد إلى أبد الآبدين كُنْنية سعيد البوم . جنّنونا الله يرضى عليك .. البوم .. البوم .. يقطع طاريهم . قالت لي : وقت الدّارَة تعمر والرقيص يَهيجْ تشوف كيف غنُنا فطومة »

« وبعدين يا سعيد .. فطومة كيف وصّفتك ؟ »

« عليك أمان الله . وقت العجاجَة قامت والبنات نكمنْ شعورهن كدى (١) ودخلن الحلقة . وأخوك واقف عنتر يهز بالسوط .. الله لا يكسبك يا فطومة »

« ابوه . وبعدين ؟ »

« قالت كلام كتير .. اســـأل عنه أحمد ابو البنات ، حافظه كله ، الله لا يكسبه حسنة . اسمع هادا الوصف :

وقتين الَخبَرْ جاني الخيس الفَاتْ
زغردت وقدح لك يا اخو الاخوات
أريدك يا سعيـد يا عشا البايْتات

---

(١) هكذا .

واسمع كمان :

سعيد الظّريف تمساح الجزائر
صيته قام وعمّ البنادر
عشا البايتاتْ القَوي فارس العشائر
زغردن يا بنات دا عريس بت الناظر

وهنا استبد به الطرب ووقف وضرب برجله وقفز وهز بيده كأنه في حلقة رقص .

قلت له « لكين الناظر كيف قبل ؟ »

قال سعيد على الفور « مجبور »

قلت « إلْ جبره مين ؟ »

صمت برهة كأنه يفكر ثم قال :

« مالي خدمته بي إيدي .. يجي ألف جنيه .. عاوز يغشني فيه »

كان سعيد يبيع الفحم وخشب الوقود ويعمل في الحقول ويدخر ماله عند الناظر . قلت له :

« يا زول خاف الله . وين لقيت ألف جنيه ؟ »

فقال « إذا ما مصدقني اسأل الإمام . اسأل شيخ علي وحاج عبد الصمد »

قلت له « يعني الناظر زوجك بنته نظير مالك الموفّرة عنـده ؟ »

فقال ؟ تقولوا سعيد البوم. سعد الفشم. عليك أمان الله ، مالي أنا عارفه على داير المليم . الحكاية أنا متحضر لهـا من زمـان »

فقلت « كيف ؟ يعـني انت من زمان مضرّب على بت الناظـر »

فقال « الله . ودي عاوزه كلام ؟ انت قايل الشغل اللي اشتغلته في بيت الناظر .. يا سعيد إملا الأزيار .. يا سعيد جيب القَش للبهايم .. يا سعيد كسّر الحطب .. دا كـلـه ساكت ؟ »

« سمح .. وبعدين »

« ولا بعيدين ولا قبلين . يمكن فوق سبعة سنـين وأنا اشتغل زي الحمار . كل مـا أجمع خمسة قروش أو عشرة أو أو عشرين جنيه ، امشي لي صاحبي أبو البنات يقيده لي في دفتر ، وامشي أديها الناظر . كل سنة يقول لي يا سعيد ما تجي تاخذ قروشك . أقول له خليها عندك ما بتروح . سنة ورا سنة ، وقرش فوق قرش. في المدة دي بته الوسطانية عرّسوها وطلّقوها . تطـّراها شينة وعويناتها عمْشة ، صبرت لا من فاتت سنتين ثلاثة والبت قاعدة . ما في جنس إنسان حام

عليها . أنا أخو الرجال . قلت يا سعيد خـــلاص . المسألة تمت » .

قاطعته من فرط دهشتي قائلا :

« الله لا يكسبك يا شقي دا كله ونحن قايلنّك غشيم ؟ »

ضحك وقال « يا زول . في زول غشيم ؟ بني آدم الجن ما يقدر عليه »

« وبعدين يا مقطوع الطاري ؟ »

« بعدين شلت الدفتر ومشيت للناظر . أنا عارفه أحواله معَكّسة بعد ما راح المعاش ، والقروش ، دخلت عليه . قلت له والله جنابك أنا هسّع غردان في القروش .. يا زول أقول لك اتململ واتحكحك . وبعدين قال لي : تعال باكر . القروش ما هن حاضرات . يا زول . خلاصة الحديث . امش تعال في باكر وبعد باكر . بعدين قلت له اسمع جنابك . انت قروش مـــا عندك . دحين انا أديك فهم . تعرّس لي بنتك العمشة دي . ونبقى حبايب . يا زول .. كان قاعد فوق كرسي زي قعدتك دي والوقت عصير . نطّ هادي النطة من الكرسي . أخوك اتحضر . قلت الحكاية فيها ضرب .. عارف انت عجرفة جناب الناظر . قال لي : يا بني آدم انت عقلك فاقد ؛ انت تفتكر البلد ما فيها قانون ؟ انت سعيد الوسخان ال.. ؟ تتزوج بنتي أنا ؟ قايل يخوفني . على اليمين ،

أخوك ركز هادي الركزة . قلت له هِيْ ، بعد داك ما في جنابك . قلت له هِيْ . افتح اضانك زين . أنا سعيد ود زايد ود حسب الرسول . عربي حر . عليّ اليمين أهلي في سوَد رِي يحجبو ضو الشمس . مالي أنا ؟ مسلم موحّد الله . أنا الوسخان العفنان دا اعرس بتك . هي بتك شن طعمها . شينة ومعمشة وعزبة ، وان قعدت لي أبد الآبدين ما تلقى أخيَرْ مني . وإن ابيت كان شايِل لي يمين ، اطلعك محاكم وانزلك محاكم لا مِن آخذ قروشي منك »

تخيلت الناظر بخيلائه وطلاوة لسانه في هذا الموقف المهين مع رجل لم تكن صداقته معه إلا نوعاً من التصدق .

« وبعدين يا سعيد ؟ »

وضع سعيد ساقاً على ساق ، ورشف من فنجان القهوة أمامه . ثم وضع الفنجان برشاقة متكلفة مضحكة وقد هيأتُ له ليتصدر ساعة أو ساعتين مسرح الأحداث في ود حامد ، فكأنه أصبح في تلك اللحظة القطب الذي يدور حوله الكون . قال سعيد :

« آني كنت رابط كلامي مع الوليّة أم البت . الهي يعدلها عليك يا فاطمة بنت التوم . عليّ اليمين مرة توزن قبيلة. آني كنت عارف علاقتها بينا . أمها من جماعتنا عرب الفور »

« فاطمة بنت التوم امها منكم ؟ »

« ابي . كيف مُو منّنا ؟ فاطمة بت التوم مو أمها

حليمة بت رابح. والامام ذاته مولانا. انت عارف أمه من وين؟»

« أوعى كان تقول منكم ؟ »

« بسم الله الرحمن الرحيم. انت مغيبي ولا شنو يا محيميد؟ الامام أمه مَرْها بِتْ جادِينْ هي وحليمة بِتْ رابح بنات عَمْ لـزَم »

« ما شاء الله . يعني حكايتك تمت من الجهتين ؟ »

ثلاث مرات . الناس قالوا الراجل جنه ولا شنو . مشيت دبحت وسويت الكرامة . قلت لهم داير عرّس بأمه وابوه. عرس من اول جديـــد بي غناه ورقيصه ودلكته وسيرته ونجيب فطومة . الناظر بقي في أيدي زي العجين . أقول له يمين يقول يمين . أقول له شمال يقول شمال . عليك امان الله . العرس هز البلد من فـويق الطلحة لا عرب الفور . عرس الزين بقى جنبه زي الطهوره . انا اخو البنات . عليك أمان الله. اخوك قدل في حوش الناظر. هزّيت فوق فطومة حتيت[1] لها جنيه، دا غير العشرة الأخدتن مقدم .. وقتين الوليه غنت :

سعيد الظريف جيـدْ لي أمه
والدايره كله المـولى يتمه
عرّسْ سمح والقوم اتلموا
يا حاسدينه هوى أخير تنجموا

(١) حطيت .. وضعت

الزغاريد وجوجت وانا رامي بقى طول السقف »

قلت له : « طيب والآذان ؟ »

فقال سعيد : « الأذان شن فيه .. انا عامله علي الحرام حسنة لوجه الله تعالى ، واصله حمد قال فتر من طلوع الميدنه كل يوم »

قلت له : « وعلى أي حال ما دمت بقيت صهر الناظر الباقي كله هين »

فقال باحتقار : « ناظر شنو؟ انا فاضي في الناظر ولا حق في العمدة . انا عندي القروش . عليّ الحرام في اليوم العلينا دا ان درت[1] بت العمده آخدها »

قلت له « والقروش جات من وين ؟ ولاّ لقيت لك خزنة مدفونة ؟ »

فوقف وهو يضحك مسروراً وقال :

« لازم امشي احصل السوق ، حكاية القروش احكيها وقت تاني »

وخرج وهو يرنم بصوته الضعيف الخالي من الرنين :

سعيد الظريف جيد لي أمه
والدايره كله المولى يتمه

* * *

(١) أردت .

يروي حمد ود حليمه أن عيسى ود ضو البيت خرج عليهم ذات يوم وكانوا صبية صغاراً في لباس كأنه لباس العيد ولم يكن الوقت عيداً . كان يلبس جلابية جديدة من الحرير وعلى رأسه طاقية حمراء جديدة مشغولة وعمة ناصعة البياض وفي رجليه حذاء أحمر يلمع . ويقول حمد ان هيئة عيسى كانت شاذة حقيقة وسط صبية بينهم العاري والذي لا يلبس غير خرقة حول وسطه ، والمقطع الثياب والمتسخ الثياب ، ظهر لنا غريباً ومضحكاً . أول ما رأيته صرخت « بندرشاه » وأخذنا جميعاً نردد « بندرشاه ، بندرشاه » وطاردناه حتى أدخلناه داره ، ومن يومها ولا أحد يناديه بغير بندرشاه .

ويستطرد عيسى قائلاً :

« مسأله الأسماء عجيبة . بعض الناس أسماؤهم تناسبهم تماماً الخالق الناطق . عندك حسن تمساح ، والله لينا ود جبير الدار ، وبخيت أبو البنات ، وسليمان أكل النبق ، وعبد المولى ود مفتاح الخزنة والكاشف ود رحمة الله . كل واحد منهم اسمه لابس عليه زي غمد السكين . وتجدهم جميعاً ملاعين أجارك الله من شرهم . وأنا مثلاً الناس تقول لي ود حليمه ما في إنسان يطري عبد الخالق السبب؟ اسأل مختار ود حسب الرسول ، الله لا يعدلها عليه شق إيش ما يقبل » .

جمع حمد ثوبه حول هيكله النحيل وقال :

« حين كنا صبية ندرس القرآن في مسجد حاج سعد ، كان مختار صبي عاجباه نفسه ، مفتول العضلات مرهوب الجانب . نجتمع بعد الدرس تحت شجرة السيال الكبيرة الموجودة إلى يومنا هذا . ويقف مختار وسط الحلقة عاري الظهر يركز للمبارزة ، كانت تلك الأيام ايام فروسية ومرجلة والولد الخواف لا يقدر يعيش وسط أولئك التماسيح. والمبارزة بأيش ، سوط طول الذراع من عروق السنط . اللهم صلي على نبينا . ما كان صبي يحتمل أكثر من سوط أو اثنين بالكثير من مختار ود حسب الرسول. أما هو فكان ظهره زي ظهر عجل البحر قدر ما تضرب فيه بالسوط ولا أثر . أنا ما كنت أحتمل الضرب أبدا . أقف بعيداً لا بيّ ولا عليّ وكفى الله المؤمنين شر القتال . طول النهار مختار راكز وسط الحلقة والأولاد يدخلو واحد ورا واحد . سوط سوطين بره . سوط سوطين غيره. وكان مختار كلما يلقاني يهزأ بي يناديني باسم أمي من شدة الاستحقار ، يقول لي يا ود حليمة متين تبقى راجل ندخل الحلقة مع الرجال ؟ المغصة تحش قلبي زي السكين ، وازعل غاية الزعل . لكني أنا قليّل وكحيان . كيف العمل؟ يوم من ذات الأيام حزمت أمري موت حياة ما عليّ شي وأخير من قولة ود حليمة . أقول لك بني آدم مصيبة معلقة بالسبيبة إذا دست على طرفه ما يغلب حيله أبدا . بعد الدرس جريت إلى بيتنا . كيس شطة يمكن رطل . شلته وانطلقت

فوق فوق الخلاء لحد ما البيوت ظهرت رَهابْ رَهابْ .
شطة حمراء نار الله الموقدة أكلتها كلها وقلعت عريان ومسحت
بيها جسمي كله . العياذ بالله من النار إل ولـّعت في بدني .
نار الجحيم انطلقت وانا أصيح بطول حسي وايْ واي والدنيا
خلاء ولا حد سامع وابرْطِـعْ واتمرمغ في التراب . والعرق
نازل شلْ شل . يا زول ألم أجل الله السامعين شيء يخول
العقل . بعد داك ألم يهمني أبداً ، أدخل النار ما أحس بأي
شيء . جريت وقميص في إيدي وعيوني شرار والرواس
ورْمان قدر الزير . وصلت السياله لقيت مختار ود حسب
الرسول إلْ ما يخفي على راكز عامل عنتر خلـّص على الجماعة
كلهم . تُشْ دخلت ووقفت قدامه وركزت . عايَنْ[1] لي
باحتقار . قال ود حليمة : اليوم بقيت راجل ؟ أمرق .انا ما
اقاشِطْ واحدْولد مَرَه.اللهوأكبر. رمقته بيعيون زيالشرر.
قلت له ابقى راجل اضرب . ابتسم وضحك ، وعاين جاي
وجايْ والجماعة يضحكوا . صبركم بالله . ود مفتاح الخزنة
وود رحمة الله ضحكهم عالي . قالوا ود حليمة راح في داهية
مسك السوط وحَنَاهُ بي إيديه الاثنين وفرقعه في الهوا وَجْ
وَجْ . بعدين لفّ حواليْ ونقرني بالسُّوط نقرات خفيفة
هنا وهنا، عاوز يزعزعني، وانا راسي فيه ستين ألف عفريت.
وبعدين ركزْ وضرب رجله اليمين في الأرض ولـُولـَح السوط
ونزله . وحياتك نزل عليّ برداً وسلاماً بعد نار الشطة .

(١) نظر .

جلدي خدران كأنه ميت ، إذا جرحته بالسكين ما يحس . هَبَدْني بالسوط الثاني والثالث وانا راكز زي الحيطة ، إذا كان الباب دا يحس أنا احس . وقت وصل السوط السابع وقف . زَحّ لي ورا وعايَنْ لي باستغراب . حدَرْته بنظرة زي سم الله الهاري . بلع ريقه . صاحبي بدا يتزعزع . بَعْد ما في ضحك . النـــاس سكتوا بم . ضحك ود مفتاح الخزنة وود رحمة الله يبس في حلوقهـــم . عليك أمان الله ، حسيت زي كان شيطان مارد في بطني بقى يتحرك ويكبر ويفَرْهِدْ ويفرد جناحاته فوق العالم كله . حسيت كأني جبار شمهورش إذا كان سقف السما وقع أسنده بأيدي . الشطة اجارك الله وحرقة القلب. صرخة فيه يا زول بي صوت ما اعرف جاني من وين . قلت له يا وليد ميمونة ، أحقره باسم امه ، ابقى راجـــل واضرب بالسوط . قسما النهارده يا إنت يا انا يشيلوه من هنا للجبانة .

الناس ساكتة صُن . ضربني التامن والتاسع والعاشر ، ضرب بي غل ، ضرب القوي لما يعرف انه ضعيف ، ضرب الضعيف وقت يعرف انه ضعيف . لما وصل تلاتين ، جـدك وبندرشاه الله يمسيهم بالخير وقفو . مسكوا السوط من إيده . قالوا له خلاص انت اخذت حقك ، الضرب لي حد . أنا أخو البنات . يا زول ، حسيت زي كأني سر عسكر الترك . بقيت انفخ واقنْدِل . قلت لهم خلوه يضرب . قسماً بسورة

كافْ لامْ ميم ، شوف عنــــدك جِنسْ قَسَم ، ود ميمونة الليلة لازم يشيلوه جنازه . جدك وبندرشاه قالوا أبداً . تلاتين سوط كفاية . مسكت السوط لقيته مليان دم . الله اكبر . هزيته فوق الحاضرين ولَقّتْ في الحلقة لفتين وانا أقول واتـبَخْتَرْ .

ود مفتاح الخزنة وود رحمة الله منكمشين يعاينوا للارض من الخوف . نقرت كل واحد بالسوط فوق راسه . بعدين طلقت الزغاريد . أيُوْي ايويْ أيُويا . عاينت لي مختار ود حسب الرسول لقيته راكز متماسك لكين جبهته نَـــدَّتْ بالعرق . بقيت ادور حواليه وانقِبشُه بالسوط مرة مرّة ، واصرخ وابرْطِعْ بعيد وأجيه راجع ، واقيف قدّامه وانـُط في الهواء عملت عليه حرب اعصاب ، لحد ما اتأكدت زولي خلاص حالته بقت حالة . ود مفتاح الخزنة وود رحمة الله بعد ضِحْكهم ما كان ضدّي بقي مَعَايْ . الوحيدين ألْ بقوا يضحكوا ورايْ كل ما ضحكت . الله يخيبهم . دايماً مع الغالب . رفعت السوط فوق ونزلته شَر . عليك أمان الله كأنك شرطت لك قماش . مختار ما اتزعزع لكين عينه رمشت . نزّلت السوط التــــاني سمعته قَنَتْ . انا اخوك يا السَّمْحة . اديته الثالث زَح ورا شوية . السوط الرابــع اتـّرتـَعْ . السوط الخامس وقع بُبْ غمران . الناس ساكتة ولا حس . مبهورين . انا التعبان الكحيان حمد ود حليمة

اهزم مختار ود حسب الرسول ، الفـــارس المغوار والبطل المدار .

أقول لك ، شعرت كأنني سيد الكون ، مالك الليل والنهار . والحكاية كلنا أطفال اكبرنا عمره مـــا يحصل تمانية سنين . بقيت أضرب من طرف ، اغير يمين واغـير شمال . اجوط بي جاي وبي جاي . وأكتر ضرب ضربته ود رحمة الله وود مفتاح الخزنة . يا زول . ركبني جن . وقفت وسط الحلقة وختيت[1] رجلي فوق مختار ، وهو راقد جثة هامدة ، زي كأنني أسد واقف فوق الفريسة . بقيت اتكلم كلام خارم بارم ذكرني بيه جدك وبندرشاه بعدين . قالوا خلاص كفاية . جدك قال لي خلاص عرفنا انك راجـل . رد عليه بندرشاه قال إذا كان ود حليمه يفتكر انه راجل ، في ارجل منه . وما أحس الا وضربة في بطني من بندرشاه . بعدها ما عرفت حصل شنو . وقت صحيت لقيت نفسي في بيت بندرشاه ، على عنقريب [2] ، وجنبي راقد مختار . والالم اجارك الله . انا اصرخ واي ، ومختار يصرخ واي .

* * *

« يا محيميد »

التفت محيميد ناحية الصوت وصرخ « نعم »

---

(١) حطيت .. وضعت (٢) سرير شعبي سوداني .

تعجب ود الرواسي وقال له « ترد على من؟ »

أدرك محيميد فوراً انه كان غاطساً في حلم، وانه استجاب لنداء لم يوجهه إليه أحد .

قام محجوب ومضى وعرج عبد الحفيظ عليهم في طريقه إلى المسجد .

قال ود الرواسي « مسكين محجوب . انهزم »

كان السؤال على طرف لسان محيميد منذ أول ليلة . لكنه لم يرد أن يسأل، وكان يأمل أن يجيء الجواب من تلقاء نفسه. هو، محيميد ، أيضاً مهزوم ، هزمته الأيام وهزمته الحكومة. إن طال الزمان وإن قصر سيسألونه ، سيسأله ود الرواسي في الغالب ، سيقول له « ما بالك تقاعدت وانت لم تبلغ سن التقاعد ؟ » سيقول له « أحالوني على التقاعد لأنني لا أصلي الفجر في الجامع » سيقول ود الرواسي « هل هذا جد ولا هزار ؟ » سيقول محيميد « عندنا الآن في الخرطوم حكومة متدينة ، رئيس الوزراء يصلي الفجر حاضراً في الجامع كل يوم وإذا كنت لا تصلي أو كنت تصلي وحدك في دارك ، فسيتهمونك بعدم الحماس للحكومة . ان تحال للمعاش كرم منهم » .

يدهش ود الرواسي ويقول « أما عجايب »

وسيقول له محيميد « بعد عام أو عامين أو خمسة ستجيئنا

حكومة مختلفة . لعلها غير متدينة . وقد تكون ملحدة . إذا كنت تصلي في دارك أو في الجامع فإنهم سيحيلونك للتقاعد» سيسأل ود الرواسي بدهشة عظيمة « بأي تهمة ؟ » وسيرد عليه محيميد قائلاً « بتهمة التواطؤ مع الحكومة السابقة »

لن يصدقوا آذانهم وسيقولون بصوت واحد «اما عجايب»

كان سعيد قد خرج وجلس على الكنبة بجوار الطاهر ود الرواسي ، وكان محيميد مستلقياً على الرمل يحس برودته على خده وساقيه . قال سعيد فجأة :

« لعنة الله على أولاد بكري . إن شاء الله مـا تتعدل عليهم »

لم يستطع محيميد أن يصبر أكثر مما صبر فقال « ماذا فعل أولاد بكري ؟ »

كان سعيد عشا البايتات قد وصل في أذانه إلى (حي على الفلاح) فمضى يماطلها متعسراً كسيارة شحن غطست في الرمل ، يخترع حروف مدّ ليست موجودة ، ويغض الطرف عن الموجود منها .

ضحك ود الرواسي وقال : « عشا البايتات الليله وحلان اكثر من العادة » .

قام عبد الحفيظ بعزيمة أدهشت محيميد . كأنه يريـد أن

يجلس ولكنه مصمم على القيام. منذ عاد محيميد إلى ود حامد وعبد الحفيظ يجيء كل ليلة ، ولا يقول شيئاً . يجيء كالمعتذر، كالذي يريد أن يبوح بسر .

واتسعت هوة الصمت حتى امتلأت بكل تلك الأفكار ، وقال سعيد ملاحقاً تساؤله الذي كاد يضيع في الزحـــام : « الطريفي ولد بكري عاوز يعمل بندرشاه »

صعد محيميد بخياله مع الاسم الرهيب وهو يكبر كمارد جن وسط ذلك الظلام . وكنخلة عملاقة لا أول لها ولا آخر، التف حولها نبات طفيلي متسلق ، التفت هبوب امشير حول ذلك الاسم ، من أسفل الى أعلا ، من ظلام إلى ظلام . اسم تحيط به كآبة ليست بنت يومها ، أين ومتى سمعه من قبل ؟ تذكر محيميد شخصاً ما ، لا بل كائناً ما ، واقفاً كأنه معلق بين الأمس والغد ، ممسكاً بسوط طويل عليه آثار دم ، مثل سليمان حين طفق مسحاً بالسوق والاعناق . هـل ذلك هو ؟

وعلى العشاء تناوب ود الرواسي وسعيد قص القصة على محيميد . كان سعيد غاضباً حين بـــدأ وغاضباً حين انتهى . وكان ود الرواسي يروي بلهجة من لم يعد يدهشه شيء . قالا ان الحكاية بدأت بنزاع حول أرض ، فإن أم أولاد بكري هي أخت محجوب . كان محجوب يظن ان الأرض أرضه ، ولكن أولاد بكري تصدوا له فجأة ، وهو شيخ قد طعن في السن ، وهم شباب في أوج رعونة الشباب . ظلوا ينازعونه

حولاً بأكمله يطلعون لمحكمة وينزلون من محكمة ، خسروا الأرض ولكنهم قوضوا سلطان محجوب . بدأوا يقولون جهاراً ما كان الناس يقولونه سراً أو لا يقولونه البتة . وكأنما البلد كانت مستعدة لتغيير . زاد الهمس وارتفع اللغط . وكان الطريفي ولد بكري يتصدى لمحجوب في المجالس ويقول على مسمع منه « هذه العصابة ، محجوب وجماعته ، متى يتخلون عن زمام الأمور في ود حامد ؟ هؤلاء جماعة انتهوا . كفايه أكلوا البلد اكتر من تلاتين سنه . » كلام كثير من هذا النوع كان يغضب محجوب ، ولكن كل عمل يقوم به ضد أولاد بكري كان يقلل من هيبته .

ويسأل ود الرواسي في حسرة : « ماذا يفعل رجل كبير محترم إذا تحرش به غلام صعلوك ؟ إذا ضربه يقول الناس ، هذا الرجل قليل القيمة يضرب الولد الصغير . وإذا تركه يقول الناس هذا الرجل الباطل لا يقوى على ردع غلام صعلوك »

قال سعيد أن محجوب كان زعيماً في ود حامد ، لمؤهلاته ، ولأن البلد كانت قابلة به . تلك الكلمة « القبول » كان لها وزن عظيم عند محجوب وجماعته ، يقولون فلان «مقبول» وفلان عنده « قبول» وذلك أعظم الثناء في رأيهم . ثم أدركوا كأنما فجأة ، أن الكلمة لم يعد لها معنى ، وأن ذلك الشيء الغامض،الذي يجعل الإبن ينصاع لأبيه والمرأة لزوجها،

والمحكوم للحاكم ، والصغير للكبير قد تلاشى . كأنما أهـل البلد قد استيقظوا بغتة من حلم قديم ، أو كأنهم استسلموا لحلم جديد . بدأ الناس ينظرون بعيون جديدة فيها عواطف شتى وليس من بينها عاطفة القبول .

قال ود الرواسي وسعيد ، ان كلام أولاد بكري بدأ يؤثر في قلوب الناس ، وتكوّن لهم حزب معارض أخذ يقوى ويشتد وقاموا بجمع التواقيع لعقد اجتماع عام للجمعية التعاونية وهو أمر لم يحدث منذ تكوين الجمعية . كان هدفهم إقصاء محجوب وجماعته من لجنة الجمعية وكل اللجان التي سيطروا عليها منذ أكثر من ثلاثين سنة . محجوب ، بعدما يربو على ربع قرن من السلطان المطلق، وجد نفسه وجهاً لوجه أمام شعب ود حامد يقاضونه الحساب .

وانتهى الأمر بانعقاد الجمعية برئاسة باشمفتش التعاون الذي جاء خصيصاً من مروى لذلك اليوم المشهود . قال ود الريس ان الطريفي ولد بكري كان أول المتكلمين . قرأ عريضة طويلة ضمنها كل ما يمكن أن يخطر على البال من التهم . اتهم محجوب بالفساد والرشوة والسرقة والمحسوبية وعدم الكفاءة والإهمال وهـلم جرا . وتوالى الخطباء وكلهم في الجانب المعاكس ، كان من بينهم سيف الدين وسعيد البوم .. عشا البايتات القوي .. فيما بعـد عمل وليمة للجنة الجديدة . « طبعاً ما دام أصبح أمين صندوق . هل تصدق يا محيميد

ان أولاد محجوب صوتوا ضده ؟ وان البنات عملن مظاهرة في ود حامد وهتفن بسقوط محجوب وشلة الحراميه ؟»

يأخذ سعيد خيط القصة من ود الروّاسي « محجوب قاعد يسمع الاتهامات كأنه تمثـــال من خشب . انا والطاهر فقط حاضرين من جماعتنا . عبد الحفيظ من يوم ما عرف طريق الجامع استقال من كل شيء ونفض يده . قال كله كلام فارغ . احمد كان سكران كالعاده وما حضر الاجتماع . ود الريّس زي ما تعرف ، مات بالمغصه . أولاد بكري أمهم ، أخت محجوب ، جات ووقفت وسط الرجال وشتمت أولادها بأقذع الألفاظ . الكلمة الوحيدة النطقهـــا محجوب من أول الاجتماع لما نهر اخته قال لها « يا وليه روحي لبيتك » . حكاية غريبة حصلت مـــا عرفنا أولها من آخرها . اولادنا اصبحوا ضدنا . المدارس فتحناها بالعرق والتعب والجري هنا وهنا ، طلّعت أولاد بقوا يتفاصحوا علينا . البلد أثاريها اتلخبطت تحت رجلينا ونحن نايمـين نوم العوافي . انا وود الروّاسي وقفنا وشتمنا الناس واحد واحد ، بالاسم ، ذكّرناهم بجمايل محجوب عليهم ، ايام محجوب كان الوحيـــد الصاحي وبقية الناس همل . لكن الأمر انتهى ، صوتوا برفع اليد . الأغلبية طلعت ضدنا . تحت السيالة الكبيرة ، وسط البلد ، نص النهار ، محجوب انهزم . محجوب النمر هزمته الضباع . أطفال وصعاليك وبنات فارغات وحوش . انتخبوا الطريفي

ولد بكري رئيس ، وحسن ولد بكري نائب رئيس ، وحمزه ولد بكري سكرتير ، وسعيد عشا البايتات أمين صندوق ، وسيف الدين مراقب أعمال ، قالوا وظيفة جديدة لتحسين العمل في المشروع . البنات بتاع المظاهرة زغردن والطريفي هتف « يحيا الشعب » . وين الشعب ؟ ناس عشا البايتات وود رحمة الله ومفتاح الخزنه وهلم جرا؟(يا كم ديل[1] الشعب؟) .

ويختتم ود الروّاسي القصة « محجوب قام من الاجتماع منتهي . ما تفوه بكلمة . ما دافع عن نفسه . قعد وقـــام ساكت . من يومها وهو يمشي على وجه الأرض حيًا كميت . انتهى عهد وبدأ عهد في ود حامد . وإلى اليوم ما نعرف كيف دا كله حصل »

فكر محيميد وهو يجرجر الخطو نحو داره أواخر الليل ، انه يعرف مغزى تلك القصة ، لأنه قد رآها تحدث من قبل في زمان بعيد سحيق ، ولعله كان طرفاً من أطرافها . في تلك القصة أيضاً ، كانت الحرب ضاربة بين ما كان وما سيكون . ودْ حامد التي حملها في خياله كل هذه الأعوام ، وعاد الآن يبحث عنها مثل جندي في جيش منهزم ، لم يعد لها وجود . كانت ساقاه تحسان بوطأة السنين الخمسين أو الستين ، ولكنّ خيالـه كان خيال طفل دون العاشرة. الليل البهيم، وشجيرات السيال الجاثمات كنسوة في مأتم ، ولمع الأضواء الموهومة في

(١) هذا هو .

تلك الحلكة ، وصوت الحياة الضعيف في كل ذلك العدم .
وفجأة ، ذلك النداء ، وسط الظلام :

« يا محيميد »

نداء قريب منه ، كحبل الوريد .

وقال محيميد « نعم »

نداء واضح مألوف يقول له « يا محيميد تعال »

هش له وقال نعم ، ولم يخطر له ان ذلك أمر مستحيل ، فقد كان النداء هو الظلام أو البرق الذي يلمع في جوف الظلام، ولم يكن له من بد إلا أن يسير وراءه ويقتفي أثره .

* * *

سرت وراء الصوت في جوف الظلام وانا لا أدري هل انا أسير إلى وراء ام إلى أمام . كانت قدماي تغوصان في الرمل، ثم أحسست كأنني أسير في الهواء ، سابحاً دون مشقة ، والأعوام تنحسر عن كاهلي ، كما يتخفف المرء من ثيابه . ارتفعت أمامي قلعة ذات قباب عالية ، يتوهج الضوء من نوافذها .. ارتفعت كجزيرة سابحة في لجة . وصلت الباب

يحدوني الصوت ، فإذا حراس تمنطقوا بالخناجر ، فتحوا الباب ، كأنهم ينتظرون مقدمي ، وسرت وراء الصوت في دهليز طويل ، ذي أبواب ، على كل باب حرس ، حتى انتهينا إلى قاعة واسعة مضاءة بآلاف القناديل والمصابيح والشموع .. وكان في صدر القاعة ، قبالة الباب ، منصة مرتفعة ، عليها عرش ، كرسي عن يمين وكرسي عن شمال وعلى الجانبين وقف اناس طأطأوا رؤوسهم .. كان المكان صامتاً ، لا كما تنعدم الضجة . ولكن كأن النطق لم يخلق بعد .

تبعت الصوت حتى وجدت نفسي ماثلاً أمام الجالس على العرش . وجه ناعم السواد مثل المخمل ، وعينان زرقاوان تلمعان بمكر كوني .. خيل إلي انـني رأيت ذلك الوجه من قبل ، في عصر من العصور . وقال الصوت « اهلاً وسهلاً بابننا محيميد » الصوت ذاته الذي ناداني من قبل ، وجاء يحدوني إلى هنا ، صوت جدي ، لا مراء في ذلك ، والوجه وجه بندرشاه ، يا للعجب . ومرت بي لحظة ادراك سريعة ، عابرة ، عرفت فيها كل شيء ، كأنني في تلك اللحظة فهمت سر الحياة والكون . ولكنها ضاعت كما جاءت ، ولم اعد اذكر شيئاً . ما عدت اذكر الا الاسم السحري ، بندر شاه . ونظرت فاذا الجالس عن يمينه نسخة أخرى منه ، كأنه هو ، وفهمت .

وقفت مشدوهاً برهة انظر إلى الصورتين تتراءيان هكذا وهكذا ، تتشابهان حتى لكأنك تنظر إلى أصل واحـد ،

لكن ما ان يستقر بك اليقين حتى تغرق في بحر من الضلال .. هل هذا مأتم أم عرس ؟ وهل نحن في الهند أم السند ؟ في أم درمان أم اصفهان ؟

وأشار بندرشاه إلى الكرسي الخالي عن شماله ، فجلست عليه. ثم صفق بيديه ، فأدخل الجند أحد عشر رجلاً يرسفون في الاغلال ، وقفوا أمامه بذل ورفعوا عيونهم اليه بضراعة ، وقالوا بصوت واحد « يا أبانا اغفر لنا وارحمنا » .

ابتسم الجالس على العرش ، ونظر عن يمينه إلى حفيده مريود. قام هذا ونزل من المنصة وجيء له بأسواط غليظة طويلة من عروق السنط . نزع الجند الثياب عن الرجال الأحد عشر ، وأخذوا يجرونهم واحداً وراء واحد إلى مريود ، فيجلد كلا منهم ، والجالس على العرش يسمع ويرى ، يبتسم في رضى ، ويشير بيده إذا شاء ، حتى يكف الضرب أو يستمر . سالت الدماء أنهاراً من ظهور أولئك الرجال الاحد عشر ، وهم يقاسون في صمت ، لا صرخة .. كلا .. ولا آهة ولا . كان الكون صامتاً أصم وأبكم وأعمى ، إلا من فرقعات السياط على ظهور أولاد بندر شاه تحت سمع أبيهم وبصره ، يفعل ذلك الحفيد نيابة عن الجد .

جلدوهم حتى أغمي عليهم ، فسقطوا غرقى في دمائهم . وصفق بندر شاه فجاء الجند فحملوا الجثث وخرجوا بها .

ثم صفق فجاء الخدم بأباريق الشراب فصبوا منها لبندر شاه وصبوا لمريود وقدموا لي كأساً مع جملة الناس .

وصفق بندر شاه مرة ثالثة فدخلت القاعة فتيات عاريات بارزات الصدور، تترجرج أفخاذهن واعجازهن ، فتيات بيض وسود وصفر وسمر من القوقاز والاهواز وساحل الخرز وساحل العاج، وجوههن عابسة كأنها أقنعة، خالية من الشهوة والحس، رقصن وغنين وضربن بالطبل والدف والصنج . ثم تثاءب بندر شاه ، وفي لحظة خلت القاعة ، وبقينا نحن الثلاثة وحدنا جالسين على تلك المنصة .

طال الصمت وأنا أنظر إلى رشاش الدم ، وترن في أذني أصداء طبول وصنوج لا بهجة فيها . تمنيت أن يفسر لي بندر شاه مغزى ما حدث ، ولكنه لم يقل، وأدركت أخيراً أن الصوت دعاني لأكون شاهداً وحسب .

* * *

كان صوت سعيد البوم كما سمعه محيميد في تلك الساعة ، وهو بين النائم واليقظان ، كأنه مغناطيس ، قد علق به غبار الأحلام الموؤدة ، فاتخــذ أعماقاً وابعاداً ليست له . لم يكن كما سمعه أول مرة ، ذلك الصوت الأخرق الضعيف . هب من فراشه وتوضأ وخرج من داره ، وهبوب امشير تنفخ في وجهه تكاد تصده ، لا يدري لماذا فعل ذلك ، لأنه لم يصل الفجر حاضراً مع الجماعة منذ ثلاثين عاماً أو يزيد .

خرج من داره ومشى ، وحذاؤه يغوص في الرمل البارد ، والريح القارصة تلسعه حول ساقيه ، مشى نحو المسجد كما كان يمشي جده ، كأن النداء في ذلك الفجر قد عناه هو دون غيره ، كأن ثمة ديناً لا بد من قضائه ، كأنه أخــيراً يقوم بدور أعد له وظل يهرب منه كل تلك الأعوام .

وصل المسجد فوجده غاصاً بالناس . دهش أول وهلة ، وسأل عبد الحفيظ هل ذلك الزحام لأن أمراً عظيماً حـــل بالبلد . قال عبد الحفيظ « الله يهدي من يشاء » .

لا شك أن عبد الحفيظ كان فرحاً لأن تجارة التقوى بدت رابحة في ذلك الصباح . فها هو سيف الدين المتأرجح بين الهدى والضلال. وها هو ذا مختار ود حسب الرسول الذي لا يصلي إلا على الأموات قام من فراشه وجاء إلى المسجد هذا الفجر تحت تأثير أي سلطان؟ وحمد ود حليمة الذي كان يقول انه طلق طريق الجامع إغاظة في الإمام ، ماذا أتى به الآن ؟ وعبد المولى مفتاح الخزنة الذي كان يقول إذا سئل عن تركه الصلاة « الصلاة موجودة والجامع سكته معروف، ر ـ أذهب للجامع حين يرفع الله القدم » ، ويقول له سليمان أكل النبق : « أنت تتحدث عن الجامع كأنه في مكة وراء البحر وهو على بعد خطوات من دارك »

جاءا كلاهما في هذا الفجر . والكاشف ود رحمة الله حتى في هذه الساعة الباكرة ، حسن الهيئة حسن الهندام كأنه مدعو إلى وليمة . والطريفي ولد بكري ، الزعيم الجديد ، لعله جاء يبارك انتصاره على محجوب . و جوب أيضاً ، الذي لم يدخل الجامع في حياته من قبل ، لعله جاء يستمد العون الإلهي لمواجهة هزيمته . وفي الركن الأيسر تحت النافذة كان يجلس رجل لحضوره أثر ، لم يستطع أن يميزه ، سأل عنه عبد الحفيظ فقال أنه لا يعرفه .

شعر محيميد وهو يتمعن في الرجل الجالس تحت النافذة ، بذلك الإحساس القديم عنده ، مزيج من الخوف والترقب

والتماسك . وفجأة تدفقت في مخيلته صور كاملة واضحة ليوم ختانه . كان في السادسة ، تذكر الضجـــة ووجوه الرجال والنسوة يدخلون ويخرجون في الدور ، والذبائح والزغاريد ، وتذكر جده ممسكاً به ، والسكين ، وان الأمر تم في لحظة قبل ان يستعد له ، واحساس الغيظ كأن أحداً ضربه بغتة ، والألم المبرح فيما بعد . كان ثمة إحساس غير عادي ، كأن نبياً ولد في ذلك الفجر ، أو أن معجزة وقعت ، أو ان كارثة كونية حدثت . كان عبد الحفيظ جالساً جواره فسأله ولكنه لم يرد ، والتفت محيميد فوجد عبد الحفيظ ساجداً يتنفل وقد أطال سجوده ، ثم سمعه ينهنه ببكاء مكتوم . ولمـــا استوى راكعاً رأى وجهه في الضوء الباهت فإذا هو مبلل بالدموع .

قرأ الإمام سورة « الضحى » بصوت مجلجل استمد قوته من أحزان الرجال الذين اجتمعوا ذلك الفجر دون سبب واضح وعلى غير موعد . وكان عبد الحفيظ يبكي وحده أول الأمر ، ثم انضم اليه سيف الدين ، ثم سعيد عشا البايتات ، ثم محجوب ، وكان محيميد يتأرجح تحت وطأة كل ذلك بين الشك واليقين ، يحس حين يركع انه وصل ، وحين يسجد يكتشف ان قلبه فارغ من كل شيء . ثم فاض البكاء ، وحمل الموج الآيات المتلوة آية آية ، تخفق على السطح كأنها أعلام .

وأحس محيميد انه يغرق ورأى فوق خط الأفق الشخص الذي كان جالساً تحت النافذة ، جالساً في صدر القاعة ، كما

كان تلك الليلة ، أسود اللون ، أزرق العينين ، ممسكاً بخيوط الفوضى مثل شعاع باهر مدمر . كانت ثم ديار عامرة وبيوت كأنها قلاع ، وحقول ناضجة الثمار ، وأشجار فينانة وطيور تغني . كانت الأنهار تجري باللبن والعسل ، وفتيات بارزات النهود ، من كل الأشكال والألوان يرقصن ويغنين . كانت الريح تولول شراً وناراً ، ونساء ثكالى ، ورجال مقيدون بالأصفاد ، ووقع السياط على اللحم الحي . وكان بندرشاه يجلس في صدر القاعة يسمع ويرى وأصوات تنادي « يا أبانا اغفر لنا وارحمنا » . كانوا اخوة احد عشر ، ارقاء للذي مضى والذي لن يجيء على صورة محـــددة ، ثاروا ذات يوم وحطموهما معاً ، فأقفرت الديار وعفت الآثار ، وجاء الجند وقادوهم إلى السجن .

استيقظ محيميد على صوت عبد الحفيظ وهو يقول له : « استغفر الله . استغفر الله » فوجد نفسه ساجداً يحس بألم في جبهته ووجهه مبلل بالدموع . استوى راكعاً وقـــال : « السلام عليكم » برعب ، فإذا الناس قد فرغوا من صلاتهم وبقي ساجداً وحده . كانوا جميعاً ينظرون اليه بدهشة . التفت فوراً ناحية النافذة ، حيث كانْ الرجل الغريب ، فإذا هو ليس هناك . جرى نحوه ، ولكن لم يكن أحد . صرخ بأعلا صوته « هل رأيتم الرجل الذى كان هنا ؟ » بعضهم قال نعم وبعضهم قال لا ، ولكن أحداً منهم لم يره حين خرج .

* * *

في تلك الليلة ، بدا كأن الزمان قد دار دورة عظيمة إلى الوراء . كانت ليلة دافئة وكان البدر في تمامه ، وكان محيميد يحس في قلبه نشاطاً كنشاط الأيام الخوالي . كان محجوب موجوداً وكان عبد الحفيظ موجوداً ، وكان أحمد والطاهر والسعيدان ، البوم والقانوني . وكان سعيد البوم هو قطب الرحى . كان محيميد يعلم أنهم سيسألونه قبل أن ينفض السامر في تلك الليلة ، وأنه سيحكي لهم القصة دون مرارة ، كأنها حدثت لشخص آخر . ضحك سعيد البوم وقال :

« يا جماعة أنا عاوز استقيل من اللجنة . حكاية أمين الصندوق دي غير وجع الراس ما منها فايده » .

والعجيب ان محجوب ايضاً ضحك وقال لسعيد :

« انت وسيف الدين واولاد بكري قايلين الحكاية لعب . أها دَحِينْ خُمُّوا وُصرُّوا » .

وقال الطاهر لسعيد :

« يوم اجتماع الجمعية أنت يا عشا البايتات السَّجَمْ مـا أتفَاصحْتَ مع المتفاصحين وُقلْتو محجوب وشنو ؟ شِلّْه شِلّة الحراميه نهبوا البلد . دحين أنتو كان ابقوا رجال وانهبوا » .

وقال سعيد الآخر ، وضحكته تكاد تعود كما كانت :

« فصاحة عشا البايتات من الله خَلَقْني ما سمعت زيها .

اليوم داك مع ان قلبي محروق قرب ينفطر . وقت وقف عشا البايتات يخطب ، عليك أمان الله لولا رهبة المناسبة ، قرّبت اقرقر بالضحك . تتذكر يا عشا السّجم كلامك النّقلتـــه يومَداكْ ؟ » .

ضحك سعيد لهذا وقال محجوب :

« أنا عليك أمـــان الله كنت محضّر ردي على الاتهامات كلها . كنت عاوز أبهدل ولد بكري قدام الناس كلهم مـــا اخلي له رجلاً يقيف عليها . وقت سمعت كلام عشا البايتات قلت يا زول احفظ لسانك الحكاية بقت مسخرة ولعب ولِـيّداتْ . عليك امان الله الواحد بعد دا لو أدّوه مليون جنيه ما يقبل » .

وقال سعيد « يا محجوب انت تتكلم ساكت[1] . جملة الأيمان الحكاية حارقاك في شرا شفْ قلبك . وهسّع اليوم النّعلينا دا لو نادوك للّجنة اليجْري وراك ما يحصلك ؟ يا اخوانا أنتوا مالكم طمّاعين كدى ؟ خلاص أخدْتوا حقكم . خلونا نحن كان نشوف حظّنا سنتين تلاتـــه . »

وقال احمد « قبل شويه ما قلت دايرْ تستقيل ؟ »

وقال الطاهر « يا محيميد شفت الراجل المنافق عشا السجم دا ؟ عليك أمان الله ، كان مرّاتْ حقْ عَشا ولِيداتهْ ما عنده . اسأله قول له منو الكان بيعبّره نظره غير محجوب وشلة الحراميه ؟ »

---

(١) بلا معنى .

وقال عبد الحفيظ « مشاكل طلاقه وزواجه براها كان دايرالها لجنه »

ضحك سعيد عشا البايتات وقال :

« أنا ما اتلومت معـــاكم . وسط الناس كلها قرّيت بأفضالكم . الحكايه رضى واختيار . الناس قالوا محجوب وجماعتْه بَرّه . الطريفي وعشا البايتات جُوّه . تاني إيه ؟ »

وقال محجوب :

« سمح ان شاء الله أولاد بكري باكر ينفعوك »

وقال عشا البايتات ضاحكاً موجهاً كلامه لمحجوب :

« يا محجوب خاف الله . عـاوز تعمل بندرشاه في البلد »

قال محيميد في سره ان سعيد لا يدري ما يقول ، ولكن الاسم بدأ يطفو على السطح ، وسيظل يتردد فيما بعد هكذا دون سابق إنذار ، حتى تتضح الأشياء على حقيقتها ، إذا كان ثمة حقيقة ، والا فانه سيصدر كما ورد ، من ظلام الى ظلام .

وقال الطاهر :

« خليك من دا كله . قول لنا كلامك القلته في الاجتماع »

وقال سعيد عشا البايتات ، قطب الرحى في تلك الليلة المضيئة :

« يا محيميد اصحابك ديل حاقْـرِينْ بالناس وما عندهم علم بالحقيقة . يقولوا سعيد البوم . َفطـُومه َغنـّت وقالت عشا البايتات تمساح الجزاير . ُجمْلـَةْ الأيمان ، الأدَان أنا عملته لوجه الله تعالى ، والشغل في اللجنة غير الجهجهه والتـّلاتل ما وراه فايده . ُجملةْ الأيمان ، يوم الليله ، أنا لا سائل في لجنة ولا مشروع ولا حق سائل في حكمدار المديريه .. »

تذكر محيميد محادثته مـــع سعيد من قبل فقال له « يمكن لقيت لك خزنة مدفونة »

وقال احمد « قالوا سعيد لقاله كنز . ولاّ وين لقيت الجخ دا كله يا مرَمّد ؟ »

قال سعيد « اللهم ارضى عنك يا شيخنا الحنين »

وقال محجوب «عليك أمان الله لا خزنة ولا كنز. قروش الناظر دخل عليك بالسّاحِقْ والماحق »

ضحك سعيد ولم يرد ، وقال أحمد :

قالوا سعيد عاوز يطلق بنت الناظر »

وقال سعيد :

« بنت الناظر ما بطلقها . لكين العرس إن َدارْني مـــا بصُدُّه »

وقال عبد الحفيظ :

« منو الـبترْضاك يا رَمَادْ ؟ انت قايل نفسك صغير ؟ »

وقال محجوب «يلقا له وحده من بنات الفن الطلمن ديل . وحده تتكلم انجليزي . الزمن دا زمن انجليزي »

وقال الطاهر « واحدة من بنات المظاهره الهَتَفـن : يحيا الشعب . الشعب منو غير ناس سعيد عشا البايتات السْجَمْ ؟»

دهش محيميد دهشة عظيمة حين قال سعيد عشا البايتات باقتناع :

« جملة الإيمان البلد حاصل فيها خير . البـلد ماشيه على خير . إنتو ناس أما تبقوا ُحكـّام أو تقولوا البلد ِخرّبَتْ . أيوه ، يحيا الشعب . الشعب يام نحن . بنات المظاهرة حبابهن عشرة. محتشمات ومؤدبات ومتعلمات . بناتنا وبنات وليداتنا. وإن لقيت لي ويحدتـَنْ فيهن تعرّسني ، جملة الإيمان باكر اعقد عليها .. »

وكانت دهشة محيميد أعظم أن أحداً لم يضحك على قولة سعيد أو يحاجج فيها . كان القمر كأنه يبتسم بطريقة ما ، وكان الضوء كأنه نبْع لن يجفّ أبدا ، وكانت أصواتُ الحياة في ود حامد متناسقة متماسكة تجعلك تحس بأن الموت معنى آخر من معاني الحياة لا أكثر . كل شيء موجود وسيظـل موجودا . لن تنشب حرب ولن تسفك دماء . سوف تـلد

النساء بلا ألم ، والموتى سوف يدفنون بلا بكاء ، وسوف يحدث التغيير كما تتغير الفصول في مناخ معتدل ، فصل امام فصل ، وفصل وراء فصل ، كل في فلك يسبحون، والليل لا يسبق النهار . كان صمتاً رائعاً ، وكان أروع لأنه حلّ بلا توقع .

قال عبد الحفيظ « الله حي »

فكر محيميد أن واحدا من هؤلاء الثلاثة قد يقوم بدور بطولي . سعيد لأنه خلو من الطموح ، دكانه لا ينقص ولا يزيد. يأكل ويلبس ويتبرم كما عهده منذ اكثر من اربعين عاماً. يغضب ويضحك كما كان . والطاهر ود الرواسي لأنه يضحك على نفسه وعلى الآخرين ، وولاؤه لا لنفسه ، بل لمحجوب . أما سعيد الآخر فهو أبن يومه، ونجمه في صعود . ومهما يكن فان لهم ادواراً لم يؤدوها بعد . محجوب أدى دوره وأنتهى، وهو صاحب المأساة الحقيقية، لأنه لا يريد أن يبارح المسرح .

تنهد الطاهر الرّواسي ملء صدره وقال :

« روح يا زمان وتعال يا زمان »

ضحك سعيد القانوني وقال :

« أنا اقول لكم خطبة عشا البايتات في اجتماع الجمعية. خطبه لازم يكتبوها في الكتب ويدرسوها في المدارس .

اسمعوا محيميد خل بالك كويس . احمـــد وعبد الحفيظ ما كانوا حاضرين . الخلق محشوره تحت السّياله . الحر كاظم الأنفاس ونحن متحضرين للكتل .بعدين صويحبْنا الْ ما يغبانا يقيف عاوز يخطب . اللّيله القبلها متْمشّي معانا هنـــا . تحلّفَ قـــال بصوّت معانا . وقت وقف انا قلت لي ود الروّاسي ،معليش زي بعضه أهبل وعويل لكين برضه معانا. لا سلام عليكم ولا بسم الله ولا الحمــــد لله . قال – يا جماعة الخير . محجوب وناس الطاهر وسعيد ناس اصحابي وأهلي . محجوب حبابه عشره . راجل ما يتفضل عليكم . جُمـلةِ الأيمان رَاجل بوزن الف راجل ، شكّـال صريه ، ومخلّص يتيمه . لكين الحق لله الجماعة اكلوا البلد ، نقّوا لحمْها ما خلّوا غير العظم . الـخَرابَ . مِنْ اللهَ مَا خلقنا والجماعه دِيلْ يسرقوا وينهبوا ، حلال بارد عليهم . الـشيء ال أكلوه ما في انسان عاوز يرجعهُ منهم . ناس عليك أمان الله تلقاهم في الحارّه والبارده . سرقوا ونهبوا البـــلد ، الله لا يكسبهم حسنه . رجال فرسان وبطونهم ما تشبع . دَحِينْ زي مـــا قال الزعيم الطريفي ولد بكري ، الناس دي تتفضل تروح بيوتهـــا بالـتي هي أحسن . والاّ اذا كان عندهم كلام ، الشعب واقف لهم بالمرصاد . يحيـــا الشعب . يعيش الشعب . يعيش الطريفي . يسقط محجوب . وخصوصاً يسقط جنى اسماعيل مقطوع الطـّاري ان شاء الله ما تتعدل

عليه.صاحبي أخو اخوانقروشه كلها مودّرْها في العَرقي[1] . محجوب راجل حبّابُه عشره . راجل ما يتفضل عليكم خدم البلد وسرق ونهب . باع لي البرسيم الحوض بي خمسين قرش . قلت له أشاركك في البقره قال شراكه مش عاوز . يا جماعه صلوا على النبي .الحلال بيّنْ والحرام بيّنْ. فُضّوا الحكايه دي خَلّونا نروح لي بيوتنا »

كان اضحك الضاحكين عشا البايتات نفسه . قال وهو يكاد يختنق من الضحك :

« أدّيتْ كل إنسان حقه .عَدْل ولاّ مو عَدْل؟» وفجأة في غمرة المرح تلك قال :

« يا جماعه في سر عاوز اقوله ليكم. ما قلته لِجنس إنسان» حصل على انتباههم بعد مشقة ، فقال :

« الشتاء الفات في أمْشير . الدنيا برد وهبوب بين العشا والفجر . ما تقولوا حلم ، ابدا . شوف عيان زي ما انـــا شايفكم هالسّاعه . وحياة خُوتِـكم يا اخوان ، أنا صاحي والفانوس موقد ، متغطي بتلاته بطاطين والريح بَرّه تصرخ وايْ وايْ وايْ . الشبابيك مقفوله والباب مقفول . بسم الله الرحمن الرحيم . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وقف فوق راسي . قال لي بنهره « قوم » . شيخنا الحنين اللّهم ارضى عنه . وقت الخوف راح مني عاينت له زين. يا هو ذاته ذاته.

(١) الخمرة السودانية الشعبية المصنوعةمن التمر .

لابِس عبايتُه وشالُه فوق كتفه وابريقه ال ما يغبباني في إيده . قال لي قوم قلت له على وين يا شيخنا ؟ قال لي أمش القلعه . قلت له الخرابات ؟ قال لي ما همّا[1] خرابات . امش القلعه تلقى قصر . قلت له قصر منو؟ قال لي قصر بندرشاه . قلت له بندرشاه يبقى منو ؟ قال لي واحد من سلاطين الدنيا الزايله . زمان زمان كان موجود . كان عنده أملاك وأطيان ما ليها أول ولا آخر . أراضيه كانت الخيل تَرْمح فيها ما تصل حَدْها . تمْره وعيشه وقمحه كان يغلبوا في لَمُّه . كان عنده ولد واحد وحداشر عَبْد . امش القصر فوق القلعه تلقى باب مفتوح ادخله وأمشي لحد ما تدخل ديوان . تلقى بندرشاه وولده ينتظروك . عندهم أمانه على شانك . لا تسلم عليهم . لا تتكلم معاهم . لا تتلفت يمين ولا شمال . ادخل استلم الأمانه واهرق . الحذر ثم الحذر تقول بِمْ ولاً بفِم . تدخل دار الهلاك وال يكوسَك ما يلقاك . الأمانه مالْ . مالك حلالكْ . بندر شاه ظنّ نفسه يرث الأرض ومَنْ عليها . الأرض أرضك وأرض الضعفاء بعدك . قوم . قوم .

يا زول مشيت القلعة لقيت زَيْ مـــا وصف لي شيخنا الحنين . قصر وِينْ بِينْ إني آمنت بالله منوّر تقول بابور بحر وحِسْ غناء ورقيص وضحك . مشيت لا اتلفتّ شمال ولا يمين وزَيْ كأن بنات يحرّني لي جاي ولي جاي . الديوان لا شك كان مليان نسوان ، ما اتلفت ولا عاينت لكين الريحه

(١) ليست .

ضاربة مَحْلب وصندل ما تغبّاني . لقيتهم الإتنين جالْسين جَلسة ُقدْرَة الله كأنه ملِك ومعاه وزير . الراجل الكبير قال لي « أهلاً وسهلا ومرحبا . أهلا بابننا عشا البايتات . إجلس اشرب واطرب » . ما رديت عليه . مدّيت إيدي وعقلي يحضر ويغيب. الولد الصغير نطق قال « انطق بالكلام. رُدْ علينا السلام » . عليك أمان الله . قرّبت اتكلم لكين ستَر رب العباد . سكتْ ساكِتْ . الراجل الكبير صفق بايديه . جاتْ بنيّه زي الحورية . نهْدها طالع يا دوب ، زي تمرة اللّالوُبْ . عريانة جَلْ ، تِتقصّع وتِتقدْل . الكفل زي السّحليّة ، والبطن زي جَنَايْن الشايْقِيّة . مسكتني من شِيتي، وقالت لي هَاكْ هِيتي. رقَدَتْ وفتحت فخذيها ، شفت النْبيها وال عليها . قالت لي يالله يا شاكي تعال وارقد بين اوراكي . تلقى ُمناك وتنال َهناك . آخ آخ يا اخوان من وَقْدة النّيرانْ . ُشفت بِبي عيني سِكّة النجاة وسكة الهلاك . ولولا عناية الله كنت ُرحت في ستين داهية ومـــا همّاني. اتعوذت في سري من الشيطان الرجيم وقلت يا منجي، ومديت إيدى ُصمْ ُبكم زي ما وصّاني شيخنا الحنين . وقف الولد الصغير وضرب رجله بي زعل ونهر البت مشت في حال سبيلها . الراجل الكبير ضحك وقال له لا تغضب يا مريود . دا وارث وطالب حق ، سلّمه الأمانة وخليه ينصرف بلا شر . الولد سلمني صره أخدتها ومرقت زي ما دخلت لا سلام

ولا كلام ولا بم ولا بفهم. وقت ’فت لقيت نفسي عند الجامع، بردان وعرقان ابكي زي النّاقه على الفصيل. كان الفجر قرّب يطلع . ما فتحت الصرة ولا عاينت فيها . َحطّيتها عند المحراب. طلعت الميدنه وأنا ابكي ما أعرف على ايش ولأيش ؟ من الحزن ولا من السرور ؟ فـَرّيت الأذان يا اخوان طلع الصوت ما هو صوتي . صوتْ مليانْ بالأحزان . ناديت فوق البيوت . ناديت للسواقي والشجــــر . ناديت للرمال والقبور والغياب والحضور . ناديت للضالين والمهزومين والمكسورين للصــــاحين وللسكرانين . ناديت للنّصارى والمسلمين . ناديت الله اكبر الله اكبر وأنا أبكي وأنوح مــا أدري أبكي على الْ لقيته ولا ْ على الـْراحْ مِني . آخ آخ ِ يا جماعه على تلك الليلهْ . سمعت بأداني هبوب أمشير تردد أذاني ، زي كأني أنا سعيد الكحْيان التعْبان ، بندرشاه زماني،أقول لأهل الدنيا والآخره‐حي على الهلاك،حي على النجاح حي على الضلال، حي على الفلاح. حسيت وأنــــا فوق ميدنة الجامع عند الفجر ، كأنّ الملايكه والشياطين ، قالوا بصوت واحد آمين آمين . نزلت وجدت الجامع مليان بشر ، محمود ومسعود ، خـير الدين وسيف الدين ، محجوب وعَلـّوب ، محيميد وأبو الوليد ، ود حسب الرسول وود بكري وود رحمة الله وود مفتاح الخزنه ناس ما دخلوا الجامع من قبل . زي كأن البلد كلها اجتمعت في المسجد عند الفجر . كنت

عارف يا أخوان أنهم كلهم حضروا لأنهـــم سمعوا الصوت . ناداهم المنادي بلساني . كانْ في شي عجيب داك الفجر . أقيمت الصلاه وانا دموعي نازله شل شل. الإمام قرأ سورة الضحى سمعت بكاء عبد الحفيظ وبعدين سيف الدين وبعدين محجوب ومحيميد ، وأنا أبكي مَعاهم وأجرّهم وراي ، لحد ما كل المصلين بكوا الدمع السخين في داكْ الفجر لأيش وعلى أيش ؟ آخ آخ . وكانْ عند الشباك اليسار راجل غريب ليه علاقه بكل ما جرى ودار ، يختفي ويبين لحد ما الناس قالوا عليكم السلام . اختفى ولا خبر ولا أثر ومحيميد المسكين يصرخ بطول الحس ، يقول الشخص الكانْ هنا رَاحْ وِينْ ؟

في البيت ضويت المصباح قبل ما يبين ضو الصباح. فتحت الصره لقيت أشكال وألوان ، كأنها كنوز الملك سليمان . جلّت قدرة الله ، قلّبتها في إيدي بدون أي بهجـــه ولا انشراح كأني اقلب في رماد . رميتها في مكان في البيت مـا أدري وين ، ونمت النهار بطوله نوم كأنه نوم الأموات . صحيت من النوم وأنا أبكي الدموع الفزار ، ما أعرف لأيش وعلى أيش .

كان في صوت سعيد وهو يقص تلك القصة شيء حرك شجون أولئك الرجال فأخلدوا إلى صمت غريق ممتد ، قطعه أخيراً صوت عبد الحفيظ وهو يقول :

« الله حي »

وخيم الصمت من جديد ، وتنهد محجوب وسعيد وأحمد . وفجأة ضحك ود الرواسي مقهقهاً وقال :

« يا زول.عليك أمان الله كلام أضغاث أحلام. تضحكعلى دقوننا يا عشا البايتات بي كلام زي حجى الزمن السالف ؟ يظهر طلوع الميدنه في الفجر لخبط مخك . باكر تجي تقول لنا إنك نبي الله الخضر ولاّ المهدي المنتظر »

حينئذ ضحكوا جيماً ما عدا محيميد،وقال احمد اسماعيل الملقب بأبو البنات :

« دا كلام سكر . لازم عشا البايتات كان شالِعْ . قسَم الواحد يشرب قزازَة العَرقي يبقى زي اسمه منو دا؟ شهبندر ولا بندر شاه » .

لم يعترض سعيد ، ولم يزد على أن قال :

« آخ ثم آخ ثم آخ »

محيميد هو الوحيد الذي اعتقد بتأثير الضوء الغامر في تلك الليلة ، ان سعيد عشا البايتات قد رأى وسمع . وإذا كان حلماً ، فإنه سيربو مثل طوفان حتى يغرق البلد كلها .

وقال عبد الحفيظ :

« الفجر قرب يطلع . ياالله يا عشا البايتات ، قوم إذن »

طفا سعيد من صمته مسروراً منشرح الصدر ، وقال لهم في تلك الحالة :

« إيه رأيكم نقوم كلنا نحضر صلاة الفجر وأصله اليوم يوم جمعة. بعد الصلاة كلكم معزومين فطور عندي في ديوان جناب الناظر . عندي حمل عديل ندبحه ونتبسط عليه »

أول من قبل الدعوة أحمد الذي قال :

« إذا كان صلاة بعدها خروف ، ما في مانع »

رفض الطاهر ود الرواسي ، ورفض سعيد ورفض محيميد ولكن محجوب قال فجأة :

« والله كلام عشا البايتات معقول . منها صلاة ومنها عزومة . يالله يا جماعه »

كان صوته مثل تلك الأيام ، حين كان رئيس المركب يأمر وهم ينفذون . في تلك اللحظة التأم شملهم كما لم يحدث من زمان طويل . لذلك قال الطاهر الرواسي ، وهم يتحركون في قبس الفجر ، بين النور والظلام :

« رحمة الله عليك يا ود الريس »

قاموا وساروا وراء سعيد عشا البايتات ، وهم ذاهبون إلى الصلاة ، كمن يسير إلى وليمة .

* * *

انفض السامر وقد أصاب الدم المسفوح كل احد برشاشه . مات الحب أو كاد يموت . كانت الشمس تشرق وتغرب ، والقمر يطلع وينزل ، والريح تهب ، والنهر يجري ، والبلد تنام وتصحو . كل شيء فقد طعمه ومعناه . وبعد شهر من وقوع الحادث وجدت ثلاثتهم في بيت جدي ، مستلقين على تلك الأسره ، هامدين لا قيل ولا قال ، لا كلام ولا سلام . لبثت وقتاً طويلاً أنتظر ، وانا أقلب الفكر محاولاً فهم مغزى ما حدث . تذكرت ذلك الضحى يوم جاء مريود يبيع ويشتري بتفويض من بندرشاه. ما أشبه المعجزات بالكوارث.

خرجت عن طوري متعمداً محاولاً استفزازهم . صرخت فجأة :

« بندرشاه هو المسئول . لولاه ما حدث ما حدث »

كل واحد منهم رد على وقاحتي بحركة عصبية خفيفة ، وظلوا صامتين .

القتلى كثيرون فما بالهم يرثون لقتيل واحد دون الباقين ؟

« يقال أنها قاوما مقاومة خارقة »

ورد ود حيلمة فوراً بغضب :

« من سمع ومن رأى حق يقول ؟ »

كنت أريد أن اخرجهم عن صمتهم بأي وسيلة . قلت :

« سمعت الناس يتكلمون »

لكنهم أخلدوا إلى صمتهم ، وقال جدي :

« لعنة الله عليهم »

حمد ود حليمة ، كان أقرب الناس إلى مركز الفوضى في ذلك الضحى، ولا بد أنه يطوي صدره على أحاسيس مدمره. إذا تكلم هو فسيتكلم صاحباه . قلت موجهاً كلامي له :

« انت كنت أول من دخل على بندرشاه ، أم لا ؟ »

زفر مختار ود حسب الرسول الهواء من فمه بعنف وتأوه ود حليمة ، وقال جدي :

« زمن ملعون »

لا بد أن الساعة تبدو لهم غاب[1]قوسين أو أدنى ،فكرت في أسى ، ان أولئك الرجال الثلاثة ، يفضلون الموت في تلك اللحظة على الحياة . امتد بهم الأجل حق رأوا العالم يغرق في

(١) قاب .

طوفان الاثم . بعد حادث بندرشاه ، مات كثيرون من جيلهم فجأة ، وكان جدي كلما سمع بموت ند من أنداده يتأوه في حسرة . وقد حدثت بالفعل أمور عجيبة بعد ذلك الحادث . الكاشف ود رحمة الله رغم تقدمه في السن قرر فجأة أن يهجر البلد . رفض الإمام الصلاة بالناس وقال أنهم جميعاً ملعونون لا تنفع فيهم صلاة ولا وعظ ثم سافر إلى مكة ليموت فيها . زوجة بكري بعد خمسين عاماً من الستر ، خرجت من دار زوجها حاسرة الرأس وأقسمت ألا تعود . ثار من لا يثور وشاجر من لا يشاجر ، وقال الناس أن الشياطين أخذت تمشي في الساحات والشوارع عياناً بيانا في وضح النهار . قلت لهم :

« يقال أنهم ربطوهما بالحبال ، كل منهما على كرسي ، في صدر الديوان » .

تأوه ود حسب الرسول وتأوه ود حليمة وقال جدي :

« لعنة الله عليهم أجمعين »

قلت لهم :

« يقال أنهم ضربوهما بسياط من عروق السنط »

استوى جدي جالساً فجأة وقال :

« يعني مش خنق أو طعن ؟ »

قلت لهم :

« يقال أنه قاوم كالأسد وكاد يغلب أولاده الأحد عشر »

قال مختار ود حسب الرسول بصوت جريح مكتوم :

« كان عملاقاً دائماً . كان من طينة أخرى »

نعم ، كان نسيج وحده دون شك ، وقد صاغ حفيده على صورته ليكون امتداداً له ، وخوّله مطلق السلطان على أبنائه الأحد عشر ، فحكمهم بالقوة والمكر دون حب . كل ذلك اتضح فيا بعد . كانت لهما طاقة فوق طاقة البشر .

قلت لهم :

« يقال أن مريود كان يحدد لكل منهم عمله ، ويحدد له جزاءه ، لا تفوته صغيرة ولا كبيرة . كل ليلة تنعقد محكمة في الديوان الكبير . يجلس بندرشاه وإلى يمينه مريود على كرسيين عاليين على منصة في صدر الديوان . يصدران الحكم معاً ، ويكون العقاب بالسوط ، يفعل ذلك مريود وبندر شاه متربع على كرسيه يسمع ويرى . هل كنتم تعلمون ذلك ؟ »

لم يردّ أحد على سؤالي ، وتعجبت كيف يكون الإنسان أسود اللون وأزرق العينين ، وكيف ينجب رجل واحد أحد عشر إبناً ، ولداً بعد ولد ، ثم يختار حفيده الأوحد دون سائر أبنائه ظلاً له على الأرض . اما ان ذلك لم يحدث

حقيقة ، واما انه حدث في زمـــان سحيق أيام كانت تنزل الكوارس والمعجزات . قلت لهم :

« يقال أن الجد والحفيد كانا يشربان الخمر معاً » وكانت تغني لهما الجواري ويرقصن عاريات بالليل في الديوان الكبير أو وسط البيوت.هل كنتم تعلمون ذلك ؟

لم يرد أحد على سؤالي ، وتخيلت بيوتهم متلاصقة كأنها قلعة حصينة على ربوة عالية ، بعيدة عن بقية الحي . كانت عالماً قائماً بذاته . قلت لهم :

« يقال أن مريود كان يتدخل في أخص خصائصهم بتفويض من بندرشاه. لم يكونوا أحراراً حتى فيتزويج بناتهم»

« قال جدي أشهد الا ّ إله إلا الله »

وقال حمد ود حليمة « وأشهد أن محمداً رسول الله »

قلت لهم :

« يقال أن مريود كان يوقظهم معالفجر ويغلق باب الحوش عليهم عند غروب الشمس ، يسوقهم كالغنم للأفراح والأتراح ، هو وبندرشاه »

تململوا في رقداتهم ولم يقولوا شيئاً . قلت لهم :

« يقال ان بندرشاه حرم أولاده جميعاً من الارث وسجّل كل أملاكه باسم مريود وقـــال انهم جميعاً لا يساوون قلامة ظفر مريود »

صرخ ود حسب الرسول فجأة وقد استوى جالساً :

« تسمع كلام الأرزال ، ناس ود جبر الدار وود مفتاح الخزنة وود رحمة الله . لأن قضاء الله حصل يقولوا بندرشاه كان كيت وكيت . بندرشاه كان رجل ولا كل الرجال . كان رجل من معدن آخر . بندرشاه يشرب الخمر ؟ أني آمنت بالله . بندرشاه في حياته ما شرب خمر ولا عرف جنس رزاله »

وفجأة قاموا ثلاثتهم ، وخرجوا يتوكأون بعضهم على بعض وتركوني جالساً في الغرفة وحدي ، كأنني في مقبره . كنت غاضباً وكنت حزيناً وكنت في حيرة عظيمة .

* * *

قال الطاهر ود الرواسي وهو مستلق على ظهره ينظر إلى السقف :

« تعرفوا يا جماعة الدنيا دي ماشيه بالعكس . أنت يا محيميد كنت عاوز تبقى مزارع بقيت أفندي . ومحجوب كان عاوز يبقى افندي بقي مزارع . »

كانت حالة محجوب قد تحسنت في الآونة الأخيرة ولم يعد يشكو من الأزمة ، وانقطع عن صلاة الفجر في الجـــامع . ضحك وقال :

« عليك أمـــان الله أنا ان كنت لحقت مشيت في حكاية

التعليم دي ، البجري وراي هسّع مـــا كان يلحقني . كنت بقيت مدير ولاّ وزير » .

وقال الطاهر :

« حكاية وزير هينه . الزمن دا أيّا من كان ممكن يبقى وزير . جملة الأعيان الطريفي ولد بكري اذا ما بقي وزير ، ما أبقى انا ود أبوي » .

وقال محيميد :

« من وين يجيبو له وزاره ؟ البلد ما فضل فيهـــا جنس وزاره » .

وقال الطاهر :

« ما بيغلبو حيله . يعملوه وزير الجمعيات الخيرية او وزير الاجزخانات او وزير الوابورات . اي شي من جنس اللغاويص البنسمع بيها » .

وقال محجوب :

« الطريفي ولد بكري ، الجمعيّه التعاونية ما هو قـــادر عليها . كان عاوز تعمله وزير ؟ »

وقال الطاهر :

« انت تفتكر الحكاية بالكفاءه ؟ الموضوع كله أونطه

في أونطـــه . المهم تبقى فصيح لسان وقليل أحسان . بس كتـّر من يحيا ويعيش . شوف الحزب القوي ادخل فيه . شي خطب وشي عوازيم وشي براطيل . شويتين شويتين تلقى نفسك بقيت نايب في البرلمان . بعد داك أرقد قفى » .

قال له محيميد :

« واذا كان بعد ما دخلت البرلمان ما عملوك وزير ؟ تعمل شنو ؟

قال ود الروّاسي :

« اذا ما عملوني وزير جملة الأيمان اعمل عليهم انقلاب » .

قال محجوب :

وبعدين ؟

قال الطاهر :

« بعدين كان شنو ؟ ما خلاص . أرقد قفى . أي حاجه عاوزها أضرب الجرس . ادخل يا فلان وامرق يا علان . فلان ، عينتك حكمدار . فلان سويتك باشمفتش . فلان حكايتك بايظه معاي ، دخلتك السجن . فلان مـــا توريني خلقتك . فـلان حبابك عشره . وقتين أمرق بالعربيه الشفرليت وسط البلد الناس تهتف ، يعيش الطاهر ود الرواسي. يحيا الطاهر ود الروّاسي . خلاص بقيت حاكم عام »

قهقه محجوب بالضحك وقال :

« أي كان كدى سجم خشمك . انت قايل الحكم ضرب جرس وادخل يا فلان وامرق يا فِرْتِكانْ ؟

وقال محيميد :

« لمعلوميتك العربية ما ها شفرليت . الشفرليت جنبها زي الحماره جنب الحصان »

قال ود الرواسي :

« أي لا حول ولا . كان في أكبر من الشفرليت ؟ »

قال محيميد :

« أي نعم »

وقال الطاهر :

« قدْر ايش ؟ »

وقال محيميد :

« قدر الديوان دا »

وقال الطاهر :

« أي لا حول ولا قوة . عليك أمان الله كان كدى أنا من باكر اعتبروني مرشّح للرياسة »

ضحكوا ثلاثتهم ، وهم مستلقين على تلك الأسرة نفسها ، في ذات الديوان ، عند القيلولة . وقال محيميد :

« يا زول إحمد ربّك . شنو مدير وشنو وزير ؟ انت أحسن منهم كلهم . همك فاضي لا بيك ولا عليك »

تنهد محجوب بحرقه وقال الطاهر :

« صدقت والله . الواحد ما دام ضامن عشا ليلته ، عليك أمان الله مـــا يهمه حكمدار ولا سردار . الكلام أنت يا محيميد . ضيعت عمرك في التعليم ولفيت ورجعت لي ود حامد السجم دي بخفي حنـــين . كأنك بقيت افندي بالغلط . من زمان وأنت نفسك في زراعة الرماد دي »

تنهد محيميد أيضاً ، وهو مستلق على سرير جده عنـــد القيلولة ، وقال بعد تفكير طويل :

« كلامك صحيح . محجوب كان حقه يمشي في السكه‌دي. محجوب عنده الطموح . عاوز السلطه . أنا عاوز الحقيقة . وشتان بين البحث عن السلطه والبحث عن الحقيقة »

ضحك ود الروّاسي ساخراً وقال :

« يعني هسّع جيت لي ود حامد المسجّمه دي على شان فيها الحقيقة ؟ والله حكايه »

وقال محجوب :

« الحكاية ماها حقيقه . الحكايه بلاده . أنا ومحيميد كنا دفعه في المدرسه الأوليه. تتذكر ؟ انا كنت اذكى واحد في الفصل . محيميد كان ورا . أبوي رحمـــة الله عليه قال

كفايه . بلاش مدارس وكلام فـــارغ . السنه دِيكْ القمح الناس غِلـْبوا في حَشْـه . قال يالله تعال ازرع معانا زيك زي غيرك . محيميد أبوه الله يطراه بالخير قال نفس الكلام . جده صمم رأيه قال أبداً . يمشي في سكة المدارس لحد مـــا يشوف آخرتها . وآخرتها شنو ؟ محيميد لف ودار ورجع لي الزراعة وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا »

وقال الطاهر :

« كان رجل جبار متسلـّط إذا صمم رأيه رأسه والسيف. رحمة الله عليه »

وقال محيميد :

« وبعد داك كل شيء مشي بالعكس . الإنسان لازم يقول « لا » من أول مرة . كنت فرحان في ود حامـد . ازرع بالنهار وأغني للبنات بالليل . اشرك للطير وأبلـْبِط في النّيل زي القرنـْتي . القلب فاضي وراضي . بقيت أفندي لأن جدي أراد . ووقتين بقيت أفندي كنت عاوز أبقى حكيم بقيت معلم . وفي التعلم قلت لهم أشتغـــل في مروى قالوا تشتغل في الخرطوم . وفي الخرطوم قلت لهم أدرّس الأولاد قالوا تدرّس البنات . وفي مدرسة البنات قلت لهم أدرس تاريخ قالوا تدرّس جغرافيا . وفي الجغرافيا قلت لهم أدرّس أفريقيا قالوا تدرّس أوروبا . وهلم جرّا »

استغرق ود الرواسي في الضحك ثم قال :

« ناس ما عندهم نظر . عليك أمان الله ان كنت أنا كنت عملت عليهم انقلاب »

قال محجوب :

« يا ريت نلقالنا انقلاب يطير الطريفي ولد بكري من رئاسة الجمعية »

وفجأة ورد السؤال. قام ود الروّاسي من رقدته واستوى جالساً ، ونظر إلى محيميد وقال له :

« انت يا محيميد قطعاً أصغر مني ومن محجوب . ما أظنك بلغت سن المعاش . اسمعني نزلوك المعاش قبل وقتك ؟ »

تذكر محيميد حكاية الصلاة وضحك . وقال محجوب :

« صحيح . الحكاية شنو ؟

قال محيميد :

« وقتين طفح الكيل مشيت لأصحاب الشان قلت لهم خلاص . مش عاوز . رافض . أدوني حقوقي عاوز أروح لي أهلي دار جدي وأبوي . أزرع وأحرت زي بقية خلق الله . اشرب الموية من القلة وآكل الكسرة بالويكة الخضراء من الجروف . أرقد على قفاي بالليل في حوش الديوان أعاين للسماء فوق صافية زي العجب والقمر يلهلج زي صحن الفضة .

قلت لهم عارز أعود للماضي أيام كان الناس ناس والزمان زمان . قلت لهم خلاص استلموا عهدتكم وأدوني حقوقي فهذا فراق ما بيننا »

قال ود الروّاسي :

« وشن قالولك يا محيميد ؟ قالوا الحكام أولاد البلد صعبين أجارك الله . زمان الانجليزي كان ينهرك ويقول لك أتلا بارّه . هسّع قالوا أولاد البلد يضربو بالشلّوت »

قال محيميد ضاحكاً :

« ما في ضرب ولا شلاليت . كل شي بي نظام وذوق . الاجراءات تتم حسب القوانين والأصول . وجوابات «يؤسفنا أن نخبركم » ويسرنا أن نعلمكم » قعـــدت في البيت شهر . بعدين سوّرا الحكاية بالتي هي أحسن . وأصله كان باقي لي سنه ، ضموها للخدمة والسلام عليكم ، عليكم السلام »

« وأنت ما دام أصلك طالع ، ما ضربت لك واحد كفين ولا تلاته تفش مغصتك ؟ »

قال محجوب :

« محيميد ما هو زول ضرب »

وقال محيميد :

« إيه لزوم العنف ؟ الحكاية بالعقل »

« والوليدات والبنيات يا محيميد ؟ »
وقال محيميد بشيء من الحسرة :
« الأولاد أخدتهم الحكومة ، والبنات أخدوهم الأفندية . حلال عليهم. دخلوا في عالم العربيات والتلاجات والدرجات . عاوزين يجوا هنا أهلا وسهلا ، عاوزين يقعــدوا هناك اعتبرهم مني هديه لزمن الحريّة والمدنية والدمقراطية . أما أنا يا ود الروّاسي ، أفندي بالغلط ، مزارع زي ما قلت ، هام على وجهه ورجع لنقطة البدء . رجعت عشان أدفن هنا . أقسمت ما أعطي جثماني أرض غير أرض ود حامد »
ضحك ود الرواسي وقال :
« انت يا محيميد أمــا شاعر أو مجنون ، أو خرف الشيخوخة . لكن أهلا بيك ومرحبا . ود حــامد مسجّمة ومرقّده . في الصيف حرها ما يتقعد ، وفي الشتاء بردها أجارك الله . النّمتّي وقت لقوح التّمر ، والضبّان وقت طلوع المريق . فيها الدبايب والعقارب ومرض الملاريــا والدسنتاريا . حياتها كد ونكد ومشاكلها قدر سبيب الراس. اسألنا نحن خابرنّها زين . الولاده بي كواريك[1] والموت بي كواريك . جنابك قضيت حياتك كلها منجعص في مكتب تحت المروحة . المويه من الحنفية والنور بالكهرباء والسفر درجة أولى . هلّا هلّا . ما وقعت قرّاع عز الشتاء . مــا ركبت الحمير لا من جَـعَـبَاتَـكْ ورسن . ما قعدت تعاين للتمر

(١) صراخ .

لا من ينجض[1] ياالله السلامة تصبعليه مطره ولا تحته هبوب. ما حرست القمح وإيدك فوق قلبك يصيبه طير ولا" دَانقيل". وهسّع وقت الصعيد جاب المبوب مقلوبة ، جيت تكُوس رقدة الديوان تعـــاين للقمر بلالي في سابع سما . مرحبْتين حبابك والف اهلا وسهلا »

قال محجوب ضاحكاً :

« عفارم عليك يا ود الرواسي »

وضحك محيميد كما لم يضحك منذ أعوام ، ضحكة نحيلة خبيّة منطلقة وقال :

« انت يا ود الروّاسي أشعر مني »

* * *

قدرت ان الطريفي لا بد أن يكون في السادسة والثلاثين، أو السابعة والثلاثين ، فقد كان في نحو الثانية عشرة في عــام عــرس الزين . كان محجوب في الخامسة والأربعين حينئذ ، ذلك أعلمه علم اليقين ، وكان أحمد الذي أصبح الآن أباً لبنات كثيرات ، وبناته صرن للزواج ، كان عامها في نحو العشرين . تمعنت وجهه وهو يجلس أمامي في برندة الديوان ، خالفاً ساقاً على ساق ، ممسكاً بفنجان القهوة ، وقت الضحى . لم يكن في

(١) عندما ينصج .

الوجه شيء يلفت النظر ، ما عدا العينين الضيقتين الزكيتين ، وتلك الابتسامة الساخرة في ركن الفم الأيسر، تحدث تناقضاً بين ما يقوله وما يعنيه . كان أيضاً شيء آخر ، ذلك الشيء الذي تسبغه السلطة على من في يدهم السلطة : مزيج من الاقدام والخوف والبذل والطمع والترقب والتماسك، والصدق والكذب. كأنك ازاء ممثل يؤدي دوراً ، وأنت تعلم أن الذي يجري أمامك ليس حقيقة ، ولكنك لا تملك إلاّ أن تستسلم للوهم . كان الطريفي مدركاً تمام الإدراك طبيعة الدور الذي يؤديه .

ختم خطبته قائلاً :

« الدنيا لازم تمشي لى قدام مش لى ورا .

لا شك انك أنت بالذات تدرك ذلك . محجوب أدى دوره خلاص . نحن كان نؤدي دورنا »

تذكرت أن الطريفي ليس ابن اخت محجوب وحسب ، ولكنه أيضاً زوج ابنته .

قال أيضاً :

« محجوب وجماعته ظنوا ان ليهم حق إلهي في السلطة . نسوا ان البلد اتغيرت . حاجات كتيرة حصلت . ود حامد ما عادت ود حامد قبل تلاتين سنة . ظهرت أجيال جديدة ومطالب جديدة . زمان كان لما الباخرة تظهر الناس يتلموا

تحت الدومة ويتفرجوا عليها كأنهـا معجزة . دلوقت الوضع اتغـير » .

تخيلته وهو صبي ، يصب لنا الماء في ديوان محجوب . كان يؤدي تلك الواجبات التقليدية بلا اكتراث ، لا يقول «حاضر» ولا « نعم » ، يحملك تحس بأن عليك أن تصب الماء بنفسك . يا ترى هل كان يعلم حتى في تلك السن المبكرة ، أن كون إنسان أسنّ من إنسان ، لا يعني شيئاً ؟ وكان معلموه في المدرسة يقولون أنـه تلميذ ماكر ، يتزعم أي حركة تمرد أو شغب، وينجو من العقاب . دائماً يفعل هو الخطأ وينال العقاب غيره . كأنما الأقدار كانت تعده لهذا الدور. أيام عرس الزين، أوكله محجوب بتوفير العلف لحمير الضيفان ، وكان هو أميَل إلى توفير الخمر للشاربين ، ولما انتبه محجوب ، وجد الحمير بلا علف ، وبحثوا عن الطريفي فوجدوه يسكر مع السكارى . محجوب انتهره وصفعه ولم يسكت الطريفي ولكنه صرخ في محجوب وقال له « انت تفتكر نفسك مين ؟ » وترك العرس ولم يشارك فيه وكان منذ صغره يعمل مـا لا يُعمل . كان يخلف ساقيه بحضور من هم أكبر منه سناً، ويتثاءب بصوت مسموع حين يقص علي ود الشايب إحدى أقاصيصه ، وكان يزج نفسه في أحاديث الناس الكبار ويقول رأيه صراحة ، ويكون دائماً معارضة أو تسخيفاً لرأي رجل في مقام والده . كان ثمة إجماع على أنه ولد ما فيه فايدة ، وكان محجوب يقول لأبيه

في المجالس « الطريفي ولدك ، ربنا يكفينا شره » . ورغم ذلك ، كان دائماً يدهش الناس بتفوقه وإتقان كل عمل يعمله باختياره . وله في تاريخ ود حامد مواقف بطولية لم تنل التقدير الكافي من الناس ، لأنه كان ما يلبث أن يعمل العمل الجيد حتى يعود فيحطمه بعمل شائن في نظر الناس ، كأنه يفعل ذلك عمداً ، وكأنه لا يبالي قال له الناس أحسنت أم قالوا أسأت . كانوا في حيرة من أمره ينظرون إليه بمزيج من الإعجاب والحذر .

قال الطريفي :

« الناس عاوزه قائد عارف طبيعة دوره في البلد . محجوب كان عامل نفسه شيخ عرب . تهويش بدون فايدة وشغل ما فيش . أنا عارف محجوب صديقك الحميم ، لكن دي الحقيقة »

تذكرت أنه في فيضان الدميرة الكبيرة أنقذ أمونة بنت التوم من الغرق ، وانه ظل ساهراً طول الليل ، يسبح بين الجزيرة والشاطىء ، يفك بقرة مربوطة هنا ، ويقيم حاجزاً هنا ، ويرفع شيئاً وقع هنا ، ويمد يد العون لفريق يطلب النجدة . وفي الصباح ، والناس يقاومون الفيضان مجتمعين ، كان هو نائماً في داره. يقولون وهم يحصون من غاب ومن حضر:

« الطريفي ولد بكري الله يخيّبه . في يوم متل دا الناس

كلها شغّاله وهو نايم على قفاه في البيت » . أمونه بنت التوم قالت لهم خلاف ذلك ، ولكنهم أبوا أن يصدقوها . وكان سعيد عشا البايتات يقول في المجالس :

« جُمْلة الإيمان الطريفي ولدْ بكري راجل حبابُه عشره. لكين أنتو عميانين » .

يضحك على ود الشايب مع جملة المستهزئين ويقول :

« عشا البايتات عامل محطـــة إذاعة ودعايات لي ولد بكري . المتعوس وخايب الرجا » .

ومع ذلك اجتمعوا ذات ضحى ، تحت السيالة الكبيرة وسْط البلد ، وانتخبوه زعيماً لهم .

استأنف خطبته قائلاً :

« موضوع القرابة والصداقة ماليه أي دخل . الموضوع موضوع مبادىء »

قلت له :

« مبدأك شنو ؟ »

قال بلهجة صلفة ، كما خيل لي وقتها ، ولعلني أخطأت التصور :

« مبدئي انتشال البلد دي من وهدة التخلف والتأخر . لازم نماشي ركب الحضارة . العصر عصر علم وتكنولوجيا »

ثم نظر إلي بتحد وسألني :

« وأنت وضعك شنو في الحاصل دا ؟

ضحكت ، فغاظه ضحكي ، وقال بصلف أكثر ، كما خيل لي :

« الموضوع جد مش هزار . وضعك شنو ؟

كان يمكن أن أسخر منه ، في تلك الظروف والأحوال ، ولكنني قاومت وصمت . ولعلّه لم يدرك الأسباب التي تجعلني أعطف عليه بصفة خاصة ، فهو ابن مريم ، وكان محتملاً أن يكون ابني لولا أن جدي قال لا . وقد أبدت أخاها ضده وتركت الدار واقامت عند محجوب مع أنــه ابنها البكر وكانت تحبه جداً وتفخر به . لم تره بعد ذلك . ثم ماتت في شهر أمشير ، ودفنّاها قبيل غروب الشمس . كان وضعاً مؤلماً . كان الطريفي يبكي كما لم أر إنساناً يبكي ، وامسكناه بالقوة ، ود الرواسي وعبد الحفيظ وأنا ، حتى لا يدخل القبر معها . مسكين . هو أيضاً يتعذّب . الإنسان مهما بلــغ به الطموح فهو ابن انثى . ولعله رأى انعكاسات تلك الأفكار على وجهي ، فاعتدل في جلسته فجأة ، وكانت في يده سجارة فأطفأها . تململ في كرسيه . تنهد بصوت مكتوم وأطرق يتفحص التراب . سألته ، وأنا أترفق به بسبب كل مـــا ذكرت :

« تذكر داك الفجر في أمشير ؟
رفع رأسه مذعوراً وقال :
« أي فجر ؟
قلت له :
« الفجر المشهود ، لما الجامع امتلأ بالمصلين على غير العادة . في أمشير بعد ما دفنـّا أمك مريم بالليل »
أطرق ينظر في التراب ولم يجب . قلت له :
« حملناك غمران من المقابر بعد الدفن . هل تذكر ؟
قال بحدّة :
« لا أذكر »؟
فقلت :
« فقدت الوعي على طرف القبر وصحيت على بكاء المصلين في الجامع عند الفجر . بين النوم والصحو حلمت حـــلم . هل تذكر ؟ »
أجاب بعنف :
« لا أذكر »
قلت له :
« سمعت صوت »
قال :
« ما سمعت أي صوت »

قلت له :

« ناداك منادي »

أجاب بانفعال :

« ما ناداني أحد »

قلت له :

« هل تذكر الذْ حصل في ذاك الفجر ؟ تذكر بكاء المصلين ؟ تذكر أنك بكيت حتى كادت روحك تطلع ؟ »

رفع رأسه وجمع أشتاته بجهد واضح ، وكان قد تزعزع ، وقال بصوت مرتعش :

« لا أذكر »

لعلني قسوت عليه ، ولكن أحد أسباب رجوعي ، أن أعلم حقيقة الأمر قبل فوات الأوان ، فأنا أيضاً عبرت ذلك الجسر ، وقد دفنت أشياء غالية ، ورأيت أشياء تنبت كما تتشقق القبور يوم البعث ، ولا بد أن ندرك العلاقة بين شقي الرحى . قلت له ولعلني قسوت عليه ، دون قصد ، في تلك الظروف والأحوال :

« أنا اخبرك بالذْ حصل . جاءك رسول . قمت في غمره ، وسرت وراءه في الظلام .رأيت أمامك قلعة زيْ كأن الظلام انشق عنها . أضواءها تظهر وتغيب . تبعت الرسول فإذا ضجة وحس غناء ورقيص . كأنْ في حَفل يُقام وسط ذلك

الظلام . انفتحت أبواب ومشيت في دهليز بعد دهليز لَحد ما وصلت قاعة واسعة مضاءة بالمصابيح والقناديل . في صـدر المكان كان في واحد على هيئة اثنين . هو هَشّ لك ، وهمـا رحّبا بك ، وقال لك الصوت « أهلا بالطريفي ولد بكري . أهلا بزعيم ود حامد الجديد » . أجلسك على اليمين أو على اليسار . وجابولكْ الشراب . صحيت سمعت عشا البايتات يؤذن لصلاة الفجر بصوت هَزّاك وجدد أشواقك وأحزانك . مشيت بين الظلام والنور ، وانت لا تعلم أنت في أي زمان ، أمس ولاّ اليوم ولاّ بكره ، ولاّ في أي مـكان ، هنا ولا هناك . لقيت أمة من الناس اجتمعوا بلا سبب وبلا ميعاد كأنهم كانوا ينتظروك . تذكرت اجتماع الناس عند القبر قبيل المغيب ، والناس تحت السيالة الكبيرة وسط البلد وقت الضحى ، وتذكرت ضحى أول ، قبل ما تولد أو يولد أبوك أو جدك بأجيال وأجيال . كان الناس يجرون مشتتين ها هنا وها هنا ، يبحثون عن شيء ولا شيء . وكنت أنت وبندر شاه تمسكان بخيوط الفوضى ، وسطها وفوقها . كانت وليمة . بكيت مع الناس والناس بكوا معاك . وكان الواحد الغريب عند الشباك يختفي ويبين . أنا سألت « هل رأيتم الشخص الذي كان هنـا ؟ » بعض الناس قالوا « نعم » وأنت قلت « لا » . هل تذكر ؟

صمتنا صمتاً طويلاً ، وكانت صفحة وجهه مثل سمـاء

يتجمع سحابها ويتفرق ثم يتكوّن من جديد . وقلت انتشله من الغرق ، لأنه ابن مريم ، فضحكت فضحك هو أيضاً كما توقعت في تلك الظروف والأحوال . قلت له :

« الآن أجيبك على سؤالك . إن وضعي كما ترى ، وضع معقد »

كان قد رجع إلى حالته الطبيعية أو كاد. نظر في ساعته ووقف ليمشي . دهشت للشبه بينه وبين محجوب ؛ القومة والقعدة والضحكة وتعبير العينين وحركات اليد . ليس فيه شيء من أمه . جاء يدعوني إلى معسكره . فلم يفلح ، ولكن لعله أدرك شيئاً مثلي . قال وهو يتجه نحو الباب :

« أنا أيضاً أجيبك . في ذلك الفجر ، رأيت رؤيا ، وسمعت صوت ولكن ليس كما وصفت » .

*

أنزل حسب الرسول ، النيْر عن رقبة الثور ، قبل طلوع الفجر بمقدار ما تروى ستة أحواض . كان الوقت شتاء في أمشير « فيا روى ابنه مختار بعد ذلك بأعـــوام وأعوام . وكانت على حَجْرة القيفْ نار من خشب الطلح ، تؤنس وحدته وتعطيه بعض الدفء . كان وحده على الساقية يسير وراء ثوره الوحيد « الاقِوُقْ » ثم يجري ليحبس الماء عن حوض امتلأ ، ويفتح مجراه في حوض فارغ . كان الرجال قليلين في تلك الأيام . يقول مختار ود حسب الرسول ان أباه أطلق الثور من الساقية وقاده إلى مراحه غير بعيد ، ووقف عند النار ينظر إلى ضوئها الشحيح ينعكس على الماء . وبغتة سمع حركة في المـــاء كأن تمساحاً طفا ، ونظر فإذا الضوء المنعكس من النار الموقدة ، يتأرجح فوق حَفافي الموج . ونظر ثانية فإذا دُهْمة تتجه نحوه . قال حسب الرسول فيا روى ابنه مختار :

« رأيت الدُهْمة تتشَوْبَحْ بين النهر والسماء كأنها ممدّدة

بين النار على الشاطىء وقبس الفجر الباهت تحت خط الأفق. وأحسست بنفسي أضيع وفيما أنا اهوي تذكرت انني متوضيء لصلاة الصبح وان وضوئي لم ينتقض. بدأت أطفـوا وأنـا اتشبث بتلابيب القرآن أردد الأسماء بـلا وعي حال رجل من الأميين. أشرعتُ أسلحتي، يس، حَاميمْ، كافْ لامْ ميمْ، قـَافْ صادْ عِينْ، وكل اسم يدفعني إلى أعلى حتى عدت إلى قريب من حالتي الأولى وقلبي يتقافز وعرقي يتصبب وحالتي من الكرب والبلاء «ما لا يعلمه إلا الله. رأيت الدهمة صارت شيطاناً واحداً بدل جمع شياطين، وقلت الذي كفاني شرهم يكفيني شر هـــذا كان. تشجعت وتماسكت وبلعت ريقي وقلت للمارد الواقف في الماء بين الأرض والسماء «السلام على من اتبع الهدى». لم يرد على سلامي ومضى يخوض الماء قاصداً مكاني، فأكثرت من التهليل والتكبير، وبين كل بسم الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، أحس بملك من ملائكة السلام يحل في قلبي، حتى وجدت الذي ضـــاع من لساني وجناني. سألته وأنا على تلك الحالة، وما بي حاجة إلى سؤال:

«أنت شيطان أم إنسان؟»

فأجابني وهو واقف أمامي، وكأنّ ما بيني وبينه مقدار مائة فرسخ. قال بلغة عربية ولكنة أعجمية:

«شيطان»

كانت مخاوفي قد صارت خوفاً واحداً ، وكأن أذنيّ كانتا مغلقتين انفتحتا مرة واحدة ، فسمعت حِسّ الموج على الشاطىء كأنه قصف الرعد . قلت له :

« شيطان جابي من وين ؟ »

أجابني وقد اتضحت فصاحتُه وعجمتُه أكثر « من محل ما تِجي الشياطين »

قلت له :

« الشياطين تَجِي مِنْ وِينْ ؟ »

فأجاب :

« من بعيد وراء البحر »

قلت له :

« وجيت هنا على شان إيش ! »

قال :

« على شان جوعان »

فجأة انقشع خوفي كما تنقشع الغمامة . قلت في نفسي شيطان جوعان هذا لا يقبله مُخّ بشر . اما انه شيطان كحيان ، واما انه بني آدم مثلي ومثلك . ضحكت وسمعت ضحكتي تسافر إلى الشاطىء التاني وتعود . قلت له وقد عدت حسب الرسول ود مختار ، والدنيا في ود حامد فجر قرّب يطلع :

« يا زول . شيطـان جوعان ؟ عليك أمان الله أنت بني آدم مثلي مثلك »

كان قد خرج من الماء ورأيته واقفاً أمامي لا يغبّاني ، أبيض اللون ، طويل القامة ، عيونه خضر آراها على ضوء ناري ، لكنه بني آدم مثلي مثلك . قال لي :

« يا مغفل . هل الشياطين تحضر على طُوْف فوق النيل ؟ إنسان ، تعبان وجوعان . أيام بلياليها ، عيوني ما ذاقت النوم ، وبطني ما ذاقت الطعام »

« اهلا وسهلا » قلت له ، أهلاً وألف مرحبا ، بالضيف الغريب الجايي من بلاد الله . وصلت محل عشا الضيفان ، وجهة الفَتَسْران ، وكنت قد عدت كما أنا وأكثر ، حسب الرسول ود مختار ولَدْ حسب الرسول الخَنْجَانْ ، شكّال الصّريه ومخلّص اليتيمه ، ناره ما تنطفي وضيفه ما ينكفي ، ونحن يعلم الله حالتنا حال ، عندنا عنز وحدة ترضّع ، وثور وحيد بدون بقرة ، لا حمار ولا سرج ، وبيتنا قُطيّة لسّع ما بنيناه طين ، ومختار ابني طفل رضيع . في البيت شوية دخن لا سمن ولا لحم ، زارعين القمح ومنتظرين فرج الله . ميمونه أم مختار ، عملت عصيدة دخن بشوية لبن وكنت أنا اتباطأ في الأكل على شان ياكل الضيف . ديك الأيام ما كنا عرفنا الشاي والبُنْ ، نشرب الحلبة باللبن والتمر والسمن ، ونحن ما عندنا لا دَا ولا دَا ، الرجل أكل بنهم وانا حمدت

الله بصوت عالي كأني أكلت عجل بحاله لعل الله يملأ باقي بطن الضيف بالبركة . اتكرع لكنه مـــا حمد الله ولا شكره . نظرت إلى هيئته . الوجه متل الصخر والأنف متل الصقر . والأسنان زي أسنان الحصان . والعيون خضر تلمع متـــل الفيروز . جلـّت صنعة الله . وهدومه زي لبس العساكر الاتراك مشرطة ومقطعة ومبلولة وعليها بقــع دم . وعنده علبه سألته عنها ، قال وهو يضحك :

« فيها الأكسير »

ما طولت معاه الكلام: بعدما أكل وشرب سقته للمسجد وهو في تلك الأيام غرفة واحدة من الطين محوّط بسور من القش . كنا أقارب بيوتنا جَنب جنب . اجتمع الرجال في المسجد وقت الضحى للتعرف على الرجل الغريب وكل واحد أحضر ما يقدر عليه ، إل عنده تمر وال عنده لبن وال عنده لوبيا وال عنده عصيدة . عمي محمود كان أحسنـّا حالاً دبح دجاجتين . اتغدينا قبل موعد الغداء على شان خاطر الرجل الضيف . بعد الغداء حكيت لهم الحكاية وبدأنا نستفهم عن سره وفحواه . عمي محمود بدأه بالسؤال قال له :

« ما اسمك ؟ »

أطرق الرجل الغريب مدةً طويلة يفكر . فنظرنا بعضنا إلى بعض حيث ان السؤال لا يحتــاج إلى تفكــير . بعد زمن قال :

« لا أعلم »

سأله عمي محمود بدهشة عظيمة ، وكنا كلنا في دهشة :

« هل يوجد إنسان ما عنده اسم ؟ »

قال الرجل :

« لا بد كان عندي اسم. بهلول ، بهدور ، شاه، خانْ ، ميرزا ، ميرهان . لا أعلم »

قلت في نفسي أسماء جان ما أنزل الله بها من سلطان ، سألته :

« هل انت مسلم أو نصراني أو يهودي ؟ »

أطرق مفكراً كالأول ، وبعد مدة قال :

« كان عندي دين ، لا بد . لا أعلم » .

سأله عبد الخالق ود حمد بزعل وكان دائماً أسرعنا إلى الغضب :

« يا بني آدم . هل في إنسان ما عنده دين ؟ جايز تكون عابد نار أو عابد بقر أو عابد رماد ؟ فهمنا . »

أنا ضحكت وقلت لهم :

« وهل نحن أثبتنا انه ابن آدم ، مش جايز يكون شيطان ؟ »

رحمة الله ود الكاشف أيضاً ضحك وقال :

« كل شيء جايز في مثل هادي الأيام »

تبادلنا النظرات ، وأنا أشعر اني شخصياً مسؤول عن وجوده . كان الرجل صامت لا يحير جواب . سألته :

« هل تذكر جيت من وين ؟ »

أجاب على الفور :

« قوقاز ، أهواز . خراسان ، أذربيجان . سمرقند ، طشقند . لا أدري . من مكان بعيد بعيد .. كنت تعبان وجوعان وعيان »

تذكرت كيف طلع علي من الماء مثل السحاحير وقلت في سري ما دام قد شبع فلا بد انه رجع شيطان مثل ما كان . رحمة الله ود الكاشف سرق السؤال من طرف لساني . قال للرجل بغضب :

« اسمع يا مخلوق . خلاصة الأمر ، فهمنا . انت إنسان أم شيطان ؟ »

الرجل ما تردد ولا فكر ، أجاب على الفور ، وهو يحدر ود الكاشف بعيونه الخضر نظرة كادت تفقده صوابه :

« إنسان . بني آدم مثلكم »

ضحك عمي محمود ، وكان أعقلنا وأفهمنا ، شيخنـــا وزعيمنا ، وقال :

« الحمد لله ما دمت عرفت انك إنسان »

مفتاح الخزنة ولد عبد المولى، كان قاعد بعيد زي عاداته ، قريب من الباب بحيث إذا الموضوع أصبح جد يهرب بلا مشقة، لا يسأل ولا ينشد، إذا الناس ضحكوا ، وإذا زعلوا يسكت زح قريب من الراجل وقال له بتردد :

« جنابك ضروري تتذكر شيء . أي شيء .. شغّل مخك زين ، يمكن الله يفتح عليك »

عبد الخالق قال :

« مفتاح الخزنة حالاً عمل للراجل جناب علي شان أبيض وعيونه خضر »

رد عليه مفتاح الخزنة بخوف :

« الرجل من الترك قطع شك . يمكن يكون سنجك أو سردار أو حكمدار . لازم نتدبر وناخذ حذرنا »

ضحك عمي محمود وقال له :

« انت دايماً تهول الأمور يا ود عبد المولى . نحن هسّع يهمنا اسمه وجنسه ودينه . مركزه ما لينا بيه دعوه »

فجأة الرجل كأنه صحا من غيبوبة أو كأنه شاف شبح . ظهر الخوف على وجهه ووقف على طوله ومد ايديه في الهواء مثل كأنه يصد خطر ماشي صوبه ، تطاير الشرر من عيونه وبان الغضب والهلع على وجهه وصاح بأعلى صوته (جَانجْ . جانج) ورطن بلغة لم نفهمها ، ثم مسك جنبه الأيمن وصرخ صرخة عظيمة من الألم ووقع غمران . ولما كشفنا عليه وجدنا جرح كبير تحت الضلع مقدار شـــبر مليان قيح ليه مقدار اسبوعين أو ثلاثة . في الأول حسبناه انتهى ، لكن صدره أخذ يصعد وينزل والعرق رشح فوق وجهه . طول الوقت نحن نسأل وننشد والرجل مضروب خطر ونحن ما عندنا علم ولا خبر . قلنا لا بد عسكري من جيش الترك هارب لكن تلك الأيام ما سمعنا بأخبار أي معارك في الصعيد . أحضرنا له سرير في المسجد وقمنا على تمريضه شهر بطوله، نقول صاحبنا يموت اليوم أو باكر . وأكثر إنسان تعب في تمريضه كانت فاطمة بنت عمي جبر الدار . كانت صغيرة اخواتهـا ، مريم أم حاج احمد ، وحليمة أم حمد ، وميمونة أم ولدي مختار . كانت صبية دون البلوغ ، أقل اخواتها في الجمال ، نحيفة زي الجراده ، لكنها توزن عشرة رجال ، عقلها زي السكين وقلبها متل الحجر . أظنها البنت الوحيده من قبلي إلى بحري الحافظة القرآن ، قرأت مع الأولاد في خلوة حاجْ سعد ترتله بصوت مثل هديل القمري . كذاب الولد الْ يقول لك غلبتها

في الجري أو العوم أو طلوع التمر ، إلى ان أبوها منعها . كانت شيطان مصرّم . ما عندها حياة النسوان ، عيونها سود وكبار ماليات الوجه كله حين تنظر لها ترد النظره لحد مـا أنت الراجل تغض طرفك . الله الله . كانت تركب الحمار مفشخة زي الراجل ، تزرع وتحرث كأنها راجل . أبوها دايماً يقول « الله سبحانه وتعالى أعطاني أربعه بنات، حليمة ومريم وميمونة والله لينا — الله لينا هو ولده رجب سار عليه لقب الله لينا بسبب خوفه — وأنعم علي بولد واحد هو فاطمه . « تعبت غاية التعب في علاج الرجل الغريب . كنا نضحك معاها نقول لها « الراجل دا يمكن عفريت ما هو بني آدم . إذا خطفك أو خسف بيك الأرض أو عمل لك مصيبه » تقول لنا « إذا كان هو شيطان فأنا إبليس ذاته كبير الشياطين » . جلت قدرة الله الرجل كأنه فعلاً ما هو بني آدم ، المرضه الـْ مرضها تقتل التور . بعد شهر فتح عيونه ونحن مجتمعين في المسجد وقت الضحى ، نظر لنا ساعة زمان وقال :

« من أنتم ؟ »

عبد الخالق ود حمد ضحك وقال :

« نحن الجان الـكانْ مع الملك سليمان »

الرجل اتلفت يمين وشمال وقال :

« اين هذا المكان ؟ »

ود حمد قال له :

« هذا المكان جهنم الحمَراء »

نظر الرجل فوق وتحت كأنه عاوز يتذكر وقال :

« ماذا جاء بي إلى هنا ؟ »

ود حمد قال له :

« جابك الطير الأبابيل »

الرجل هَبْ واقف على طوله ونحن ساكتين نـَمَاِيْن له . نظر في وجوهنا وأتـْقدم لي قِدّامْ واتأخر لي وراء وجلس فوق العنقريب ثم وقف وتفرس في أصابع يديـــه ورجليه وفحص ثوب الدمور الْ لبسنا اياه ، وبعدين جلس على السرير وسكت برهة وقال :

« أنا مَن أكون ؟ من أنا ؟ »

كلنا ضحكنا دِيك الساعه وعمي محمود قال له :

« انت تكون منو ، هدا هو السؤال »

وبالفعل وجدناه نسي كل شيء ، خروجه من النيـــل ، وعصيدةَ الدُخْن ال أكلها في بيتنا وجلستنا معاه في المسجد . شيء عجيب . كأن الرجل اتـْولد من جديد داك الضحى في الجامع . قبل داك لا يذكر شيء . تحيـَّرنا في أمره وضربنا أخماس في أسداس وبعدين سألناه إذا كان في وجهـة يريد أن

يقصدها ، فأجاب انه لا يعلم وجهة يقصد اليها . تفاكرنا في أمره كيف العمل ؟ هل نلقيه في النيل من حيث جاء ؟ هل نمسكه الدرب ونقول له سلام عليكم ؟ لكن الشفقة في قلوبنا تغلبت على الحذر ونحن قوم على ما بنا من ضيق الحال لا نرد من طلبنا ولا نخيب سؤال من سألنا . عمي محمود قال له :

« يا عبـــد الله . نحن كما ترى نعيش تحت ستر المهيمن الديّان . حياتنا كد وشظف لكن قلوبنا عامرة بالرضى قابلين بقسمتنا ال قسمها الله لنا . نصلي فروضنا ونحفظ عروضنا متحزمين ومُتَلَزّمين على نوايب الزمان وصروف القـــدر . الكثير لا يبطرنا والقليل لا يقلقنا ، حياتنا طريقها مرسوم ومعلوم من المهد إلى اللحد . القليل ال عندنا عملناه بسواعدنا ما تعدينا على حقوق انسان ولا أكلنا ربا ولا سُحْت . ناس سلام وقت السلام وناس غضب وقت الغضب . ال ما يعرفنا يظن اننا ضعاف اذا نفخنا الهواء يرمينا ، لكننا في الحقيقة مثل شجر الحراز النّابت في الحقول . وانت يا عبد الله جيتنا من حيث لا ندري ، كقضاء الله وقدره القاك الموج على ابوابنا ، ما نعلم انت مين وقاصد وين . طالب خير أو طالب شر . مهما كان نحن قبلناك بـــين ظهرانينا زي ما نقبل الحر والبرد والموت والحياة . تقيم معنا لك ما لنا وعليك ما علينا إذا كنت خير تجد عندنا كل خير وإذا كنت شر فالله حسبنا ونعم الوكيل » .

« دمعت عينا الرجل وأخذ يردد :

« نعم . نعم . نعم »

ونحن أيضاً بلغ بنا التأثر غايته لكلام عمي محمود في شرح حالنا وأحوالنا كأنه يقرأ من كتاب في صفحة الغيب . بعد ذاك قلنا نعطيه إسم ، فالرجل بلا إسم ، وتركنا الخيرة لعمي محمود . وكأن الاسم كان حاضر ينتظر صاحبه . قال عمي محمود فوراً :

« ضَوّ البيت . اسم مبارك . ولعل الرجل حل عندنا على هذه الحالة بالخير والبركة »

كلنا وافقنا وقلنا على بركة الله « ضو البيت » وكلنا سألناه ضاحكين إسمك مين فيرد بسرور « ضو البيت » .

جلّت قدرة الله ، لحظة ما نَطَقَ الاسم أصبح شيء حقيقي كأنه كان كذلك منذ البدء . ونظرنا الى صاحبنا فإذا هو فعلاً « ضو البيت » ليس جبر الدار ولا مفتاح الخزنة ولا عبد المولى ولا عبد الخالق ، ولكن « ضو البيت » وكأن الاسم كان موجود منذ الأزل أمانة عندنا ينتظر صاحبه الذي جاء يسعى من وراء البحر ووراء الغيب ليستلم أمانته. سبحان ربي . نظرت انا الى صاحبي وتذكرت لقائي إياه قبل شهر فقط بين النور والظلام وكأنه مارد تمدد بين الأرض والسماء ، فإذا هو ليس كذلك أبداً . تقلّص صُوَيحبي وصغر ، وأصبح

« ضو البيت » ، الغريب المسكين ، ابن آدم ، يأكل ويشرب ، يضحك ويبكي ، يولد ويموت ، ابن آدم مثلي مثلك . تذكرت خوفي ذاك الفجر ، ونظرت إلى صويحبي وضحكت . جلت قدرة الله

جينا بعد داك لموضوع الدّين ، عمّي محمود قال له « يا ضو البيت . نحن ناس مسلمين . لكن ما عندنا تشدُّد في موضوع الدين كلُّ نفس بما كسبت ، والله مُخَيِّر في عباده . ولو كنا نعلم لك ملّة لتركناك على ملّتك . اما وانك لا تعرف أنت من أي دين فإيه رأيك ندخلك معـــانا ملة الإسلام ، نحن نكسب ثواب وإنت تنجو من غضب الله ، ويسهِّل عليك التعامل مع ناس البلد اذا حبّيت تستقر من ناحية الزواج والصهر »

ضو البيت قبل على الفور ، فلقنه عمّي محمود الشهادتين فرددها بصوت واضح ، جعل قلوبنا تخفق وعيوننا تدمع ، وخصوصاً مفتاح الخزنة الذي اعترته حاله من العشق أثرت علينا كلنا وأخذ يردد « أشهد الا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله » مراراً وتكراراً كأنه هو الذي دخل الإسلام وليس الرجل الغريب . لكن الحقيقة ، اعترتنا جميعاً حاله عجيبه في داك الضحى في المسجد ، كأننا نشاهد معجزة . وتأكد لدينا أن موج النيل لفظ « ضو البيت » على شاطىء ود حامد ليكون بشيراً لنا بالخير والبركة . عبد الخالق ود

حمد هو الذي أخرجنا من تلك الحالة ارتفع صوته والناس بين مهلل ومكبر ، وباكي ودامع وقال :

« يا جماعة صلوا على النبي . نحن عاملين احتفال مولد ، مُش نتأكد أول الراجل أغلف ولاّ مطهر ، كشفنا على ضو البيت فوجدناه ويا للخسارة ، أغلف . لكن فرحنا بدخوله الاسلام ما نقص ، وعقدنا العزم أن نعمل له خِتان باحتفال كبير وَطبْل وزمر وغناء ومديح بعد موسم حصاد القمح ، وأصله داك الموسم ما كان في طهور أو عرس ، وقلنا يكون احتفال ما حصل مثله في البلد من قبل ، لأن ود حامد كلها إسلام منذ خلقها الله وعُمْرنا مــــا ُشفنا إنسان يدخل ملة الإسلام من أول وجديد . وكذلك نحن نفرح ونتبسط ، نغني ونرقص ونأكل ونشرب ، ويكون الإحتفال مجموعة احتفالات ، سِمايَه وطهوره وَشرَافَه .

شاءت قدرة الله أن يكون الاحتفال كذلك ، ويكون احتفال عرس أيضاً ، لأن ضو البيت في التو والحين دخل في حياتنا كأنه واحد مِنا . كل واحد منا َعرض عليه يشتغل معاه في حقله ، لكنه أبى وقال تعطوني قطعة أرض اشتغل فيها وحدي فأنا رجل غريب ، وما أحب أدخل مع أهــل البلد في مشاكل بسبب الشُغل. عمي محمود قال واللهِ ضو البيت إنسان عاقل ، وكان عنده قطعة أرض متروكة ُبور منذ الأزل مقدار نصف فدان ، قال له قطعة الأرض دي إنتاجها صعب

لكن إذا حبيتها وهبتُها لكْ . قبِـل ضو البيت الهبة وبدأ العمل فوراً ، كل واحد فينا ساعده قدر ما يستطيـع ، وكان هو أحضر معاه بذرة « التُمباك » في العلبة إل طلع بيها من النيل ، يقول عليها الإكسير. جلّت قدرة الله ، اشتغل كأنه شيطان من نسل إبليس ، لا يفتر ولا يكل طول الليل والنهار لا تجده أبداً قاعد أو راقد ، دائماً واقف على طوله أو منحني فوق المعول والطـُوريّة وكأن إيده فيها سحر . زرع الطماطم والبصل والبامية والقمح والشعير واللوبيا ، مـــا ترك شيء . بعد ثلاثة شهور حصد القمح مثلنا مثله مـــع أننا سبقناه في الزراعة بمقدار شهر . وكنت أنا كل ما أشوفه شغّال في عز النهـــار والناس مرتاحين وقت القيلولة أو بالليل والبرد مثل السكاكين ، أنظر واتعجب واقول يا ترى إنسان في صورة شيطان أو شيطان على هيئة إنسان .

ونحن نستعد للاحتفال كما ذكرت ، ضو البيت طلع علينا بموضوع الزواج . كنا كلنا مجتمعين في المسجد بعد صلاة الجمعة حين فاتحنا في الأمر . قال :

« يا جماعة . انتم صنعتم فيّ جميل لا أنساه مـدى الحياة ولا داعي للكلام فكل شيء معروف ومفهوم . وأنا هالساعة بحمد الله واحد منكم كأني وجدت معاكم من قديم . خلاصة الأمر أريد منكم جَميل أكبر من كل إل فات . أريد منكم الصهر والرحم على سنة الله ورسوله »

سكتنا كأنّ على رؤوسنا الطير ، وكان كل واحد فينا يفكر ذات الأفكار . أخونا في الإسلام ويحضر معنا الصلوات الخمس ، أي نعم . ونحن سمّيناه وأشركناه زراعتنا وشقانا ، أي نعم . وهو يعمل عمل جيش من البشر ، أي نعم . وهو في إقامته القصيرة عندنا ، كسب مودتنا كأنه موجود معنا من قديم ، أي نعم . أما أن نزوجه ابنتنا ونحن لا نعلم عنه لا قليل ولا كثير ، وهو عيونه خضر ونحن عيوننا سود، وهو وجهه أبيض مثل القطن ونحن وجوهنا مثل الجلود المدبوغة ، وهو خرج من الماء ونحن خرجنا من الطين ، وهو مسلم منذ ستة أشهر ونحن مسلمون منذ الأزل ، ونحن حياتنا تبدأ وتنتهي بين النيل تحتْ ، والصحراء فوق ، وهو حياته ما ندري كيف بدأت وكيف تنتهي ، وهو اسمه ظهر مع ظهوره ، ونحن أسماءنا مسلسلة أباً عن جد مثل البنيان المرصوص إسم فوق إسم إلى آدم . لا حول ولا قوة إلا بالله.

بعد مدة ، عمي محمود رفع رأسه وأدار عينيه فينا ، ينظر إلينا واحد واحد كأنه يقرأ أفكارنا كان رجل عظيم ، رحمه الله رحمة واسعة ، من السّلف الصالح الذين لن يجود الدهر بمثلهم أبدا . لمّا عيونه قابلت عيون عمي جبر الدار ، ابن عمه ، تمهل مدة ينظر له ، لحدّ ما جبر الدار غضّ طرفه وأشاح وجهه . إني آمنت بالله ، والناس صامتة صُنْ ، كل واحد مع نفسه جُوّه جوّه . وانا ذاتي لقيت نفسي في هم

شديد ، والحق لله إني في تيك اللحظة ندمت أشد الندم على انني طلّعت ضو السّجم من النيل ، وقلت في سري يا ليتني تركته يمشي في حال سبيله . نظرت إلى عمي جبر الدار وهو منكّس رأسه وَحسّيت بالأسف والحسرة على ما سيصير . لكن عمي محمود حسم الأمر وقطع الشك . أدار وجهه في وجوهنا ثم قال :

« نحن لما آخينا ضو البيت هنا في هذا المكان ، وقلنا له ليك ما لنا وعليك ما علينا ، كنا تتكلم كلام رجال مو كلام وليدات ، كلام َجد ما هو ِهزار . الخُوّه واحدة مو اتنين، والدين واحد ما هو إتنين . لا يوجد دين للحياة ودين للموت، وصداقه في الشغل وفي الزواج لا . ضو البيت أصبح زيّنا ومتلنا على الخير والشر في الحارة والباردة . وما دام طلب مصاهرتنا على سنة الله ورسوله فأهلاً وسهلاً بيه ومرحبا بـه مرحبتين . أنا لو كان عندي بنت كنت زوّجته إياها عــن طيب خاطر »

َصمْت ، إني آمنت بالله ، كأنك تسمع جريان الدم في العُروق ، وانا اعترتني حالة من الَحيرة عقلي يحضر ويغيب ، لا أعــلم هل الحاصل في المسجد داك اليوم ِخير أم شر . أمورنا كانت ماشيه في خط مرسوم ، ثم من حيث لا ندري لقينا أنفسنا في سكه ما نعلم تودي على وين . ونظرت إلى عمي جبر الدار وهو عابس مكفهر كأن الكلام يخصه هــو

دون الناس . وفجأة مفتاح الخزنة هتف بعالي الصوت « الله أكبر . الله أكبر » وضو البيت ، الغريب ، اجهش بالبكاء ، إني آمنت بالله مثل الأم ال ثكلت إبنها الوحيد . انضم إليه مفتاح الخزنة وكان دايماً دمعته على طرف عينه ، مرات يهتف « الله أكبر » ومرات ينادي « ابشروا بالخـــير » . ثم تمساح ود حسن ، وود بخيت ، وود سليمان ، وود الكاشف ، وود حمـــد ، وأخيراً جبر الدار هو الآخر انضم إلى زمرة الباكين . لقينا شيء وضاع مننا شيء داك النهار . ونحن مـا ندري البكاء لأيش وعلى إيش ، على ال لقيناه أو على الذي ضاع . عمي محمود كان رجل دمعه عسير لكن عيونه رقرقت ، وانا محتار بين الحزن والسرور ، أقول يا سبحان الله ، هل هذا مأتم أم عرس . فاض بنا الشوق وتملكنا الوجد كأننا في حلقة ذكر ، وضو البيت ، الرجل الغريب ، جالس وسط المكان ليه علاقة بكل ما جرى ودار ، ومفتاح الخزنة ينادي بعالي الصوت « إبشروا بالخير . إبشروا بالخير » .

* * *

استيقظت البلد مبكرة على حس الزغاريد في بيت محمود وبيت ابن عمه وصهره جبر الدار ، وكان الرجال قد صلوا الفجر جماعة ولبثوا ينتظرون . عند الشروق ذبح العجل في

فناء المسجد ، وساق محمود « ضو البيت » من ذراعه وعدّاه فوق العجل الذبيح ، ومفتاح الخزنة يهتف « ابشروا بالخير ، ابشروا بالخير » . كان ضو البيت يومذاك كملك وسط الرعية ، لابساً قفطاناً أخضر من الحرير ، وطاقية حمراء ، وعمة كبيرة بيضاء ، متلفعاً بشال مزركش الأطراف ، وحذاؤه الأحمر يلمع في الضوء ، ينظر الناس إلى هيئته ويضحكون فرحين ، فقد كان منهم من يلبس خرقة حـــول وسطه ، والمتّسخ الثياب ، والممزق الثياب . كذلك ضحكوا مسرورين حين جدّد « ضو البيت » إسلامه ، وتلا آيات من سورة «الضحى» علمته إياها فاطمة بنت جبر الدار ، يجعل الضّاد دالاً والجيم ، وهلّلوا وكبروا . ثم وقف عبد الخالق ود حمد وقال « بسم الله الرحمن الرحيم وبحوله وقوته سمّينا هذا المولود « ضـــو البيت » ، كما هي عاداتهم حين يسمون الطفل ، فضحك ضو البيت كأنه طفل ، وضحكوا كلهم مسرورين . وكأن الطفل ولد عند الشروق ، واستوى غلامـــاً للختان في الضحى . أجلسوه على قدح الحرّاز الكبير المنكفيء ، محمود يمسك بيمينه ، وعبد الخالق بيساره . شحذ رحمة الله ود الكاشف سكينه ، وفي لحظة كان الدم قد سال ، وقضي الأمر ، ومفتاح الخزنة يهز ويبشّر ، والرجال يضحكون سروراً وعجبا كما لم يضحكوا من قبل . وسمعت النسوة جلبة الرجال وهن في أكواخ الطّين والقش المتناثر حول المسجد ، فنادين بالزغاريد.

وكأن الطفل ولد عند الشروق، وتم ختانه وقت الضحى وصار للزواج بعد صلاة العصر. كان عقداً مشهوداً حضره جيرةُ ود حامد كلهم، من الضفة الأخرى، ومن القرى المنثورة على الضفتين. كان النـــاس قليلين في ذلك العهد، يسكنون في قرى متباعدة، تبدو أضواؤها الخافتة بالليل كأنها معلقة في السماء، وتتناهى الأصوات من شاطىء إلى شاطىء ضعيفة لا تميزها الأذن. ولكنهم كانوا يعلمون ما يجري عبر النهر كأن بين الضفتين جسوراً غير مرئية. يعلمون من سقى زرعه بالليل ومن سقى بالنهار، من مَرِضَ ومن وُلِد ومن مات ومن تزوج، ومن الذي باع ومن الذي اشترى. وكانت تربطهم بعضُهم ببعض أواصر وقرابات وأنســـاب، وتجمعهم الأسواق والمعاملات، يتبادلون بذور «التيرابْ» وشتْل النخل وفحول البقر والحمير، ويجمع بينهم المدّاحون والمغنون وحَفظةُ القرآن، هكذا حالهم من مُلتقى النهرين إلى ما وراء حدود مصر. لذلك لم يكن عجيباً أنهم تسامعوا بنبأ الاحتفال الكبير في ود حامد، فجاؤا من قبلي ومن بحري، من السّافل والصعيد، بالمراكب عبر النيل، وبالحمير وسيراً على الأقدام، يحملون هداياهم، تمر وقمح وشعير ولوبيا وبصل وسمن ودُهْن، كل حسب طاقته، هذا يحمل ديكاً وهذا يحمل حملاً أو عَتودا [1]، يجيئون مشتّتين مثل رذاذ الغيث، ثم ما يلبثون أن يتكاثفوا ويتلاحموا في خضم عظيم

(۱) الحمل الرضيع

يجيش ويزخر بحياة جديدة أرحب من حصيلة أجزائه . وكان « ضو البيت » هو قطب الرحى في ذلك اليوم، عز الصيف. تصل المرأة طرف الحي وعرقها يتصبب لأنها قامت من أهلها مع طلوع الشمس ووصلت والشمس في كبد السماء ، فتسمع أصوات السرور وتشم روائح الوليمة ، وتسري اليها عدوى الطمأنينة من الجمع الغفير الذي غرز بَيْرق الحياة وسط ذلك العدم فتزغرد من بعيد ، فرحاً بوجودها باديء ذي بَدء ، ثم اعلانا للملأ انها ايضاً هُنا الآن ، ولها في لهاتها صوت يعرب عن ذلك كله . وما يلبث صوتها أن يندمج في بقية الاصوات، فيضيف اليها نَغْمَة ، لا تميزها الأذن أول وهلة ، ولكن الذي يرهف السمع يدرك أنها موجودة ، وأن صوتَ الجميع لا يكون جميعاً دونها . يصلون واحداً واحداً ، واثنين اثنين، ضعافاً هزالا ، كل ظهر قد تقوس ، وكل كاهل قد ناء بأعباء الحياة والموت ، فيتلقفهم الجمع الكبير ، فاذا كل واحد قد صار ذاته وأكثر . اليوم ، سوف يجهل العاقل ويسكر المصلي ويرقص الوقور ، وينظر الرجل إلى زوجته في حلقة الرقص فكأنه يراها لأول مرة ، لا بأس عليهم لأنهم يؤكدون أسباب الحياة وسط كل ذلك العدم . وبين الحين والحين تجيء كوكبة منهم يتسابقون على الحمير في عَثار وغبار ، فكأنهم اعصار نفثته الصحراء ، لا يموت، ولكنه يدخل الزحمة فتغلي وتمور . يجيئون مثل حبات القمح في كوم القمح ، كل حبة قائمة بذاتها

وكل حبة تنطوي على سر عظيم . وأحياناً يصل رجل على حمار له سرج ولجام ، حسن الهيئة حسن الهندام ، فيعلن الحمار عن قـــدوم صاحبه . يجيئون فقراء كلهم بدرجات متفاوتة ، فيحتويهم فلك منتظم حول مركزه يدور بقدر معلوم . يجيئون ضعفاء فيعودون أقوياء ، ومساكين فيعودون أغنياء ، وضالين فيجدون الهدى . اليوم ، سوف تتلاحم الأجزاء ، فيصبح كلُّ واحدٍ أحداً .

لا عجب إذن ان تلك العدوى سرت في روح جبر الدار ، فأنسته الآن في عز الصيف ، تلك المرارة التي اعترته قبل أكثر من عام في عز الشتاء . الزمان الآن صفو ، والحياة بخير ، والبدر في تمامه ، والأصوات متناسقة متماسكة تقول لك أن الموت معنى من معاني الحياة ، لا أكثر . قام في الناس خطيباً بعد العقد ، وقال أنهم جميعاً يعلمون أن فاطمة ابنته ، عنده بمكان السمع والبصر . وتشاء قدرة الله عز وجل أن ينالها « ضو البيت » دون سائر الناس . قال أنه لم يكن راضياً أول الأمر ، ولكنه اليوم أسعد الناس ..

في ذلك اليوم في أمشير ، قام جبر الدار من المسجد حزيناً مهموما . صلى العشاء وحده في داره ، وجاءت ابنته فاطمة وقرأت له القرآن كعادتها كل ليلة . لم تكن الآيات محزنة ، ولكنها جدّدت همومه وأحزانه . سألها وهو على تلك الحالة عن رأيها في ضو البيت ، فأجابته :

« زين ما عنده عوجة »

قال لها برفق :

« أراك تحادثينه كثيراً في الحقل »

قالت :

« أعلمه القراءة والكتابة وأحفظه القرآن »

قال :

« لعله يتعلم زين »

قالت :

« يحفظ حالاً كأنه يتذكر أشياء كان يعرفها من زمان »

سألها :

« هل يذكر شيئاً من ماضيه ؟ »

فأجابت :

« تجيه أطياف ذكريات . ذكريات معارك وحروب في الغالب . يتكلم عن الطعن والضرب والمدافع والبارود . يعرق ويحف وتصيبه رجفة . يكاد يغمر . يرجع لحالته هو يضحك وانا أضحك » .

قام جبر الدار من فروة صلاته وجلس على « العنقريب »

وأجلسها جنبه وأحاطها بذراعه . قالت بحزن :

« مرات كأنه يتذكر أمه . يقول كلمات مثل ماما ، آما . عيونه تدمع . يرطن بلغة غريبة . أسأله لما يفيق يقول لا أذكر . مسكين »

أطرق جبر الدار زمناً ويده تداعب خد ابنته بحنو عظيم. فجأة سألها :

« إذا طلبك للزواج ، تقبلين به ؟ »

سكتت قليلاً ، ثم ضحكت ولم تجب .

حكى لها حينئذ ما جرى في المسجد ، ثم قال :

« محمود كان يتكلم وينظر إليّ كأن الكلام يعنيني أنا دون سائر الناس. أنا ما عندي بنت للزواج غيرك . إذا قلت لا أو نعم الأمر في يدك »

وبينما هما كذلك،إذا بمحمود يدخل عليهما. حيّى وجلس، ثم قال موجهاً كلامه للبنت ، متجاهلاً الأب :

« يا فاطمة . ضو البيت طالب الزواج . فاتحنا في الأمر بعد الصلاه.بعدما الناس خرجوا سألته إذا كان في باله شخص معيّن . قال أريد فاطمة بنت جبر الدار . هل تقبلينه ؟ »

لم تتردد ، ولم تفكر . قالت فوراً بصوت خفيض ، ولكنه حاسم واضح :

« نعـــم »

تذكر جبر الدار ذلك وهو واقف يخطب في فناء المسجد بعد العقد . قال انه لم يكن راضياً أول الأمر ولكنه اليوم أسعد الناس ، وانه تنازل عن كل شيء ، لا يطلب لابنته صداقاً مقدماً ولا مؤخراً .

تصايح الناس «ابشروا بالخير ، ابشروا بالخير» وهزوا بأيديهم ولوّحوا بعصيهم ، وتصافحوا وتعانقوا ، وماجت الزغاريد وتفجرت وتجاوبت في جنبات المسجد وما حوله . حملتها رياح الصيف ودارت بها في الساحات والدروب والحقول ، وفوق قمم النخل والطلح والسنط والحـــراز والسيّال والحلْفاء والطرفاء والعُشَر ، وعبر النيل . وعادت الأصداء مجسمة من أطراف البلد إلى منبعها حيث الطبول تئز وتهدر ، والناس حلقات حلقات حول الراقصات والمغنين والمداحين . ثم غربت الشمس ، وتربع البدر على عرشه ، وراق الجـــو وطاب ، وصفا الزمان ، وتم السرور والحبور ، وضوّأت نيران الحي ، وازدحمت حلقة الرقص عند شجرة السيال الكبيرة وسط البلد . تفجرت أصوات الفرح العظيم من تحت أرجل العارضين ومن بين أكف المصفقين ومن حـلوق المغنيات والمغنين ، من الطبول والطنابير ، من أسقف البيوت ومن بـــين فرجات الأكواخ ، من الحيشان والساحات والدروب ومرابط البهائم . الليلة كل شيخ صب ، وكل شاب عاشق ، وكل امرأة انثى ،

وكل رجل أبو زيد الهلالي . الليلة كل شيء حي . فاح العبير وتم السرور وشعشع الضوء ولاذت جيوش الكدر بالفرار . كل غصن تثنى وكل نهد ارتعش ، وكل كفل ترجرج ، وكل طرف كحيل ، وكل خد أسيل ، وكل فم عسل ، وكل خصر نحيل ، وكل فعل جميل ، وكل النـــاس « ضو البيت » . كان واقفاً في قلب الدائرة يهز فوق الراقصات بسوط من جلد عجل البحر ، ويتقافز الرجال في الحلقة للمبارزة فيضربهم كيفما شاء. دخل الحلقة عبد الخالق ود حمد ، الفارس المغوار ، وعرّى ظهره وركز للضرب . وفي التو برز له حسب الرسول ود مختار ، نِدُّه وصِنوه ، فأخذ ضو البيت يلوح بالسوط وينزله مرة على ظهر عبد الخالق ومرة على ظهر حسب الرسول ومع وقع كل سوط تزغرد النساء ويتصايح الرجال ، ويقوى هدير الطبول ، وتتفرق الضوضاء وتتجمّع حول «ضوالبيت» ، وهو واقف في مركز الفوضى ، شاهراً سوطه فوق الجميع ، يختفي ويبين وسط الزحام ، فكأنه هنا وليس هنا .

مضى كالحلم وكأنه مـا كان ، لكنه ترك ابنه عيسى ، الذي سار عليه فيما بعد اسم « بندر شاه » ، ولد بعد موته بثلاثة أشهر ، وجهه أسود مثل أمه ، وعيونه خضر مثل أبيه ، وهو في الناس نسيج وحده لا يشبه دا ولا دا .

* * *

قال عبد الخالق ود حمد كما روى ابنه حمد ولد حليمة بعد ذلك بأعوام وأعوام :

« كنت أنا وعمي محمود وحسب الرسول وضو البيت على الشاطىء نفك حطب الساقية ونرفعه ، والدنيا فيضان والنهر طامي ينذر بالخطر يرتفع كأنه يخطو ، تحس مدّه كل لحظة . كانت الشمس قد غربت لتوها وحولت النهر إلى بحر من الدم. كنا نحن الثلاثة تحت ، وضو البيت فوق على حجرة القيف نناوله الحطب فيسحبه إلى برّ الأمان ، بغتة انهار ما تحت ارجلنا نحن الثلاثة ولا ندري الا ونحن في عرض النهر نصارع الموج ، في لحظات تشتتنا ذات اليمين وذات اليسار . كنت أنا وعمي محمود تماسيح نيل ، أما حسب الرسول فقد كان فارس بر ، لا يقوى عليه أحد في الجري والمصارعة والقشاط والصفقة والعرضه ، وفي النهر لا حول له ولا قوة . رأيناه من بعيد يغطس ويقلع ، فأخذنا نقاوم التيار لنصل اليه ، ولا فائدة ، فقد كان التيار جبار وغلاب يدفعنا تدفيعاً ، مددت له يدي ومد يده نحوي ، ولا فائدة ، وكان عمي محمود يلف ويدور في الماء كالتمساح المسعور يحاول ان يجد ثغرة في خضم الماء لينفذ الى حسب الرسول ، لحته في حمرة الشفق وكأنه وطّن نفسه على الموت ، وسمعته ينادي : « انجوا بأنفسكم وإلا ضعنا كلنا ، أستودعكم الله . خلوا بالكم على ميمونة ومختار والوليدات ، مع السلامة . مع السلامة » .

ونحن على تلك الحال رأيت ضو البيت يضرب في اليم متجهاً صوبنا وكان عمي محمود قد ضاع لا أرى له أثراً، وأنا أغطس وأطفو والموج يصفعني في وجهي كقضاء الله وقدره . وأنا أهوى في القاع رأيت ضو البيت وكأنه معلقٌ بخيوط الشمس الغاربة ، رافعاً بذراعيه حسب الرسول فوق في حمرة الشفق . ثم رأيت النخل والشجر على الشاطئين كأنه يغوص معي وتلون الكون كله بلون الدم بعد ذلك لا أذكر أي شيء إلا أنني وجدت نفسي على الشاطىء في زحمة الناس وأصوات تتصارع وأشباح تقفز هنا وها هنا ، نظرت فاذا حسب الرسول راقد كالميت وسمعت صوت عمي محمود ينادي « ضو البيت ، ضو البيت » . قام حسب الرسول بغتة وأخذ يجري وينظر في وجوه الناس وينادي « ضو البيت ، ضو البيت » بعد ذلك هاج الناس وماجوا ، بعضنـــا نزل الماء وبعضنا جرى على امتداد الشاطىء ، وضوت المشاعل على الضفتين ، ونادى الناس من مكان إلى مكان ومن شاطىء إلى شاطىء إلى أن صارت الدنيا كلها تنادي في جوف الظلام « ضو البيت » . انتظرنا يوماً بعد يوم ، بين اليأس والرجاء ، نقول لعلى وعسى ولكن ضو البيت اختفى ، لا خبر ولا أثر ، ذهب من حيث أتى ، من الماء الى الماء ، ومن الظلام إلى الظلام ، وحسب الرسول يبكي ويقول « غير معقول ، غير معقول » .

حزنا عليه كأننا فقدنا نعمة السمع والبصر لأنه عاش بيننا

مثل الطيف ومضى مثل الحلم ، عشرة مواسم لا غير ، خمسة أعوام بحساب السنين ، عمل فيها ما لا يعمله الناس في العمر كله . خير الدنيا انهمر عليه كأنه يقول للشيء كُن فيكون . كان يزرع محاصيل الشتاء في الصيف والشتاء ، يعمل على مدار العام لا يكل ولا يفتر . جلب شتل النخل أشكال وألوان من ديار المَحَس لحد بلاد الرُّبا طلب ، وعلّم الأرض تنبت التنباك ، وعلمنا زراعة البرتقـــال والموز . نحن بين الموسم والموسم نرتاح ، وهو يسافر مع قوافل الجمال ، مره إلى ديار الكبابيش ، ومرة إلى بَربَر وسواكن ، وأحياناً الى غاية حدود مصر ، ويرجع محمل بالثياب والعطور وألوان من الأواني والمآكل والمشارب ما عرفناها في ود حامد من قبل . هو يكبر ونحن معاه نكبر ، كأن المولى جل وعلا ، أرسله الينا ليحرّك حياتنا ويمضي في حال سبيله . بنينا بيوت الجالوص بدَل القش ، ال كان عنده غرفه عمل ثلاثه ، وال ما عنده حوش عمل حوش . الجامع بنيناه من جديد ووسّعناه وفرشناه بالسجاد والبساط هدية من « ضو البيت » . وهو بنى فوق القلعة بيت داخل بيت وديوان ورا ديوان ، وحوش في بطن حوش ، سبحان الله ، تراها من بعيد كأنها مدينة بحالها ، بعدما كانت الأرض خراب مهجورة طرف البلد . فاطمة بنت جبر الدار بكت عليه الدموع الغزار بكاء الناقة على الفصيل .

كنا نتذاكر ماذا حصل عند المغيب ذاك اليوم . عمي محمود قال انه يذكر انه لمح ضو البيت كأنه معلق بين السماء والأرض يحيط به وهج أخضر . بعد ذلك لا يذكر إلا انه وجد نفسه على الشاطىء كأنه يستيقظ من حـــلم ، والناس يتصايحون ويجرون مشتتين ها هنا وها هنا . وقال حسب الرسول انه يذكر وهو بين الموت والحياة انه رأى ضو البيت وكأنه في قلب الشفق الأحمر ، يبتعد ويبتعد . وفجأة امتدت يد مارد من حمرة الشفق وانتزعته وحذفت به فاذا هو على الشاطىء. استيقظ فاذا العالم ظلام والدنيا تصرخ «ضوالبيت».

تدمع عينا حسب الرسول ويقول « رحم الله ضو البيت . دفع بروحه تمن العصيده ال اكلها معنا أول يوم . مضى كالحلم وكأنه ما كان ، لولا ابنه عيسى الذي ولد بعد موته بثلاثة أشهر . ننظر الى وجهـــه فلا نرى ضو البيت ، وننظر الى عينيه ، فاذا هو ضو البيت ، الخالق الناطق » .

انتهى الكتاب الاول ويليه الكتاب الثاني

مَريوُد

(بندرشاه)

الإهداء

الى روح أبي ،

محمد صالح أحمد

كان في فقره غنى ، وفي ضعفه قوة

عاش محباً محبوباً ، ومات راضياً مرضيا

غير اني قائل ما أتاني من ظنوني مكذب للعيان
آخذ نفسى بتأليف شيء واحد في اللفظ شتى المعاني
قائم في الوهم حتى اذا ما رمتـــه رمت معمى المكان

أبو نواس

فالتمست للانسان مثلا ، فاذا مثله مثل رجل نجا من خوف فيل هائج الى بئر ، فتدلى فيها ، وتعلق بغصنين كانا على سمائها ، فوقعت رجلاه على شيء في طي البئر ، فاذا حيات اربع قد أخرجن رؤوسهن من أجحارهن • ثم نظر فاذا في قعر البئر تنين فاتح فاه منتظر له ليقع فيأخذه • فرفع بصره الى الغصنين ، فاذا في أصلهما جرذان : أسود وأبيض ، وهما يقرضان الغصنين دائبين لا يفتران • فبينما هو في النظر لأمره والاهتمام لنفسه ، اذ أبصر قريبا منه كوارة فيها عسل نحل ، فذاق العسل ، فشغلته حلاوته وألهته لذته عن الفكرة في شيء من أمره ، وان يلتمس الخلاص لنفسه ، ولم يذكر ان رجليه على حيات أربع لا يدري متى يقع عليهن • ولم يذكر أن الجرذين دائبان في قطع الغصنين ، ومتى انقطعا وقع على التنين • فلم يزل لاهيا غافلا مشغوفا بتلك الحلاوة حتى سقط في فم التنين فهلك •

فشبهت بالبئر الدنيا المملوءة آفات وشرورا ومخافات وعاهات • وشبهت بالحيات الاربع الاخلاط الاربعة التي في البدن ، فانها متى هاجت أواحدها كانت كحمة الافاعي والسم المميت • وشبهت بالغصنين ، الاجل الذي لا بد من انقطاعه • وشبهت بالجرذين الاسود والابيض الليل والنهار اللذين هما دائبان في افناء الاجل • وشبهت بالتنين المصير الذي لا بد منه • وشبهت بالعسل هذه الحلاوة القليلة التي ينال منها الانسان فيطعم ويسمع ويشم ويلمس ويتشاغل عن نفسه ، ويلهو عن شأنه ، ويصد عن سبيل قصده • فحينئذ صار أمري الى الرضا بحالي واصلاح ما استطعت اصلاحه من عملي ، لعلي أصادف باقي أيامي زمانا أصيب فيه دليلا على هداي ، وسلطانا على نفسي ، وقواما لأمري • فأقمت على هذه الحال ، وانتسخت كتبا كثيرة ، وانصرفت من بلاد الهند وقد نسخت هذا الكتاب •

كليلة ودمنة

من باب برزويه المتطبب

ملأ صدره بالهواء ، وترك وجهه يغتسل بنسيم الفجر . لكن روحه لم تنتعش . تريث قبل ان ينحدر في الارض المسواة الممتدة ، وراءها غابات النخل ، ووراء ذلك النهر ، يلوح هنا وهنا بين فرجات الشجر . المنظر ، كأن محيميد يراه آخر مرة . وجهه متوتر كأنه يقاوم رغبة جارفة للبكاء . أنظر يمينا . هناك . أين غابة الطلح الكثة التي كانوا يلعبون فيها أيام الطفولة ؟ رائحة البرم ، زهر الطلح ، خصوصا أيام الفيضان . وهناك عند منعطف الدرب حذاء الجدول الكبير كانت تشمخ شجرة حراز ضخمة معرشة ، تلمع ثمارها الصفراء كأنها حلقان الذهب . ذلك الماء كان له طعم آخر . بلا غطاء ، ذلك السبيل ، عليه قرعة تتأرجح فوق الماء ، تضرب فم الزير يسرة ويمنة ، يشرب منه الغادي والرائح . من اقامه ؟ لا احد يذكر . ولكنه لم يعدم احدا يملؤه صباح مساء . طعم الجلد المدبوغ ، طعم الماء في القربة المدلاة من الشعب في سقيفة جده . وطعم ماء النيل ايام الفيضان ، طعم الاخشاب المبتلة ، واوراق الشجر ، والطين . طعم

الموت • صافي في اماكن الرمل ، عكر في محلات الطين •

عصارة الحياة كلها في ود حامد • مشدد قبضته على المقبض العاجي ، مقبض عصا الآبنوس ، ومضى بعزم يضعف ويقوى • غريبة تلك العصا ، الآن ، كأنها امرأة عارية وسط رجال • يحس ملمسها ويتذكر مريم • ذلك الصوت • ذلك الشباب • ذلك الحلم • يخرج من داره كل يوم عند الفجر ، ويمشي هذا المشوار حتى النهر • يسبح ويعود مع الشروق • يحاول ان يوقظ الاشباح النائمة في روحه • أحيانا الحظ يؤاتيه ، فيسمع ويرى • الرؤى والاصوات كأنها تنبع من تحت قدميه ومع خبط عصاه على الدرب • هنا كان مكان النورج ايام الحصاد • رائحة التبن • رائحة القمح • رائحة روث البقر • رائحة اللبن اول ما يحلب • رائحة النعناع • رائحة الليمون •

محجوب وعبد الحفيظ والطاهر وسعيد وهو • يغمض عينيه • يراهم كما كانوا • متحركين ابدا ، يجرون ، يقفزون ، يتشعلقون ، ينطون من الفرع ، يتمرغون في الرمل ، يعيشون مثل الماء والهواء • ينقر بعصاه على جذع شجرة • يسمع ضحكة جده • يرى وجهه واضحا • العينان الصغيرتان الغائرتان • الحنك الناتىء قليلا • الجبهة البارزة • الخدان الممصوصان • الفم الصغير • الشفتان الرقيقتان • وجه اسود ، ناعم السواد مثل القطيفة ، وعينان تزرقّان وتخضرّان وتحمرّان وتسودّان ، حسب الظروف والاحوال • لا يتخيله مفردا أبدا •

دائما يـراه في جماعة ، علـى يمينه مختار ود حسب الرسول ، وعلى يساره حمد ود حليمة ، في وسط الجمـع . يتذكره الآن بخليط من الحزن والحقد . لقـد اختاره دون سائر ابنائه ليكون ظلا لـه على الارض ، وخلف لـه الدار وفروة الصلاة وابريق النحاس والمسبحة من خشب الصندل ، وهـذه العصا . مـاذا تعكس المرآة الآن ؟ كان قد اجتاز الـدرب الكبير المؤدي الـى السوق . رأى النخلة عند تقاطع الدروب فقصدها بلا تفكير . تهالك عندها واسند قامته الى جذعها . كانا مثل اخوين توأمين ، كأنهما اقتسما حصيلة اعمارهما بالتساوي ، فلا هـو يصغر جده ، ولا الجد يصغر حفيده . ما كان اعجب ذلك ! يتسابقان ويصلان معـا كتفا بكتف . يشركـان للطير معـا ، ويصطادان السمك ، ويتباريان في تسلق مستعصيات النخل . يتصارعان ، يوما لـه ويوما عليه . يدخلان حلقة الرقص معاً فلا يثبت امامهما راقص او مصفق ، وترقص الفتاة بين الجـد وحفيده فـي دائـرة جذب مغناطيسي مدمر . تكثف الحلقـة ، ويشتد التصفيق ، وتتأرجح الراقصة ، كأنها مشدودة بخيوط غير مرئية ، بين قطبي البوصلة ، ترمي شعرها المعطر على وجه الماضي مرة وعلى وجه المستقبل مرة. يقتسمان الغنيمة فيما بينهما لا غالب ولا مغلوب . تلمع عيونهما ويزعقان ، يطيران فـي الهواء ويحطان مثـل نسرين جارحين . ما كان اعجبه منظراً . لكن الحفيد في ذلـك الصباح ، ذهب أبعد ، ولعـل صوت الجد فـي تلـك اللحظة ، كمـا يتخيل محيميد

الآن ، لـم يخل مـن رنة غـيرة • حينئذ أحس نحـوه بكراهية مريرة ، ولـو أن القارب انقلب بهـم وغرق ، لما مد الحفيد في تلك اللحظة يداً لمساعدته • لقد تقفى أثره خطوة خطوة ، وصار مثله ، حذوك النعل بالنعل • كانت الفكرة تخطر لجده ، فاذا هي قد خطرت له فـي عين اللحظة ، ويقول احدهما الجملة فيكملها الآخر ، ويتقاصصان احلامهما فاذا هي تنبع مـن مصدر واحد • كان في نظره اشجع الناس واكرم الناس واذكى الناس واكثرهم حكمة وهيبة • وكان أبوه أصغر الابناء ، واكثرهم خيبة امل لأبيه واكثرهم تعرضا لسخريته • وكـان الابـن الاكبر ، عبد الكريم اسطورة قائمة بذاتها قبـل ان يظهـر الحفيد • هـو الذي سافر بالجمال محملة بالتمر الـى ديـار الكبابيش ، وعـاد يسـوق أمامه قطعان الابل والضأن • هـو الذي جلب البضائع من حدود الريف وبلاد تقلي والفرتيت • هـو الـذي أضـاف أرضا الى الارض ، وبيوتا الى البيوت ، وعمارة الى العمارة • هـو الذي أقام الديوان الكبير ، وجـاء لأبيه بابريق النحاس ذي النقوش ، ومسبحة الصندل ، وعصا الآبنوس ، وفروة الصلاة المعمولة من جلود ثلاثة نمور • كانا فـي الديوان وقت القيلولة حين جاء بنبأ طلاقه وزواجه • قال لعمه نيابة عـن جده انه رجل باطل ، كل همه الجري وراء النساء• كان دون الخامسة عشرة وعمه في الاربعين • تضاربا والجد مستلق على سريره لا يقول شيئـا ، وكـاد الابن يضرب أباه • بعد ذلك ذهب ولم يعد • وانفضوا كلهـم واحداً

واحداً . ولما مات الاب لـم يحضره احد من ابنائه . وكان الحفيد قد ذهب ابعد ، فوصل بعد فوات الاوان . ما كان أعجب ذلك .

طغت خشخشة الجريد اليابس علـى الاصوات في خيـاله فانتبه . أصغى لجريد النخلة في هبوب الريح مثـل هيكل عظمي في أكفانه . شاخت الآن ، تلـك النخلة كمـا شاخ هو ، وقد كانت في شبابها تثمر ابكر وتعطي اكثر ، من تمـر الـشكثوت العزيز ، زرعها بيديه منذ اربعين عاماً ، واطلق اسمها علـى مريم « القنديل » . تسميه مريود ويسميها مريوم . رف طيـف الصبا مثل برق في افق بعيد ، وأحس للحظة عابرة ، مذاق الثمر ، ونهد مريم يضغط على صدره وهما متماسكان في الماء . كان ثغرها مثل برق يشيل ويحط . ينتظرانها هو ومحجوب خارج الحـي فـي الصباح ، ومعهما الجلباب والعمـة والحذاء ، ومـا تلبث مريم ان تخلع هذا وتكتسي هذا فتتحول من بنت الى ولد . كانت تتعلم كأنها تتذكر اشياء كانت تعرفها من زمن . ثلاثة اعوام والخدعة لم تنكشف . لم يتركوا حيلة لم يلجأوا اليها . ثـم فـارت الطبيعة فورتها ، واخذ جسم مريم يذعن لنداء الحياة الاعمق . وذات يوم استقرت عينا الناظر عليها وهي مدبرة عنه فـي حوش المدرسة . اعترفت في الحال كأنها كانت قـد سئمت اللعبة . غضب أول الامر ، ثـم لاحت لـه وجوه الطرافة فـي الموضوع ، فأسرع الى حاج عبد الصمد وعلي ود الشايب . وبين يوم وليلة ، تحولت

مريم ، تحت سلطان تيارات الطبيعة التي لا تقـاوم الـى مخلوق آخر • أصبحت تغض طرفها ، وتتريث في مشيها ، وتخفض صوتها في الحديث ، ولـم تعد تسبح معهم فـي النهر او تلعب او تعمل في الحقل • تحولت مريم بين عشية وضحاها بفعل مؤامرة الطبيعة والعرف الاجتماعي ، الى أنثى وحسب • وكذلك حدث انفجار في وجدان محيميد ، بدأ وضعه ازاء مريم يتضح ويتحدد ، وأدرك انها هي الامتداد الطبيعي لوجوده ، وانها هي التي تعطيه احساسه بنفسه وبموضعه في نظام الاشياء • يومذاك بدأ يتراجع عـن الدور الذي كـان جـده يهيئه لـه ، وكان عليـه أن يحـارب بسلاحه هو ، فحارب بسلاح جده ، وانهزم ، وذهب ولم يعد الا بعد ان انتهى كل شيء • في تلك العشية ، حين حمل جثمان مريم في ذراعيه ، كان كأنه يعود القهقرى الـى نقطة البدء ، حين كانت الاحتمالات جميعها قائمة • هل كان الطريفي يدرك ، وهو ينوح على حافة القبر ، أي ثمن باهظ يدفعه الانسان حتى تتضح لـه حقيقة نفسه وحقيقة الاشياء ؟ هل يقوى على دفع الثمن ؟ هو ، محيميد قد دفع الثمن واكثر • كل شبر في هذه الارض التي أحبها ثم تنكر لها ، يشهد أنه قد دفع الثمن وأكثر •

هنا ، هب واقفا بعزم ، اعضاؤه بعضها يأخذ بتلابيب بعض ، والالم في قلبه اعظم كثيرا من الالم في مفاصله وظهره وساقيه • خطا خطوة واحدة ، ثم التفت كمن يريد ان يقول كلمة اخيرة •

رفع رأسه الى جريد النخلة اليابس • نعم انها شاخت كما شاخ ، وشعرها سقط كما سقط شعره • نقـر جذعها برفـق بعصاه كأنه يؤاسيها ، وحياها مودعا بصوت مسموع • لا عجب فهي تعلم سره ونجواه • بعدها ذهب يضرب على الدرب ، حاملا يأسه صوب النهر •

رأى ضوءا خافتا على الضفة الاخرى ، ولم يكن ثمة صوت الا تلاثغ الامواج الصغيرة تتراكض عند قدميه • لا • ثمة صوت آخر • ذلك الازيز الذي يصدر مـن النهر • احيانا وهو يسبح ، يحس أنه لـن يبالي اذا استسلم لذلك النداء • لبث وقتا وهو يرمي الحجارة في الماء كمـا كان يفعـل اذ كان طفـلا ، ويلتفت للاصوات الخافتة التي تصدر هنا وهناك مع تباشير الصباح • سمكة تنط وتغطس ، او طائر ينتفض فـي عشـه • وفجأة ارتعد جسمه كله كأن الموت قد وضع يده الباردة علـى كتفيه • كـاد يستسلم في ذلك الفجر • لم تكن سنه تزيد عن السابعة يوم ألقاه جده في ماء النهر يعلمه السباحة • اخذ يضرب بيديه ورجليه في الماء على غير هدى والجد على مبعدة منه يناديه بصوت فيه قسوة « اسبح • اسبح » • كيف يسبح ؟ واخذ يغطس ويقلع ، وكان طعم ماء النهر طعم الهلاك ، وصوت الجد كأنه صوت قدر اعمى « اسبح ــ اسبح » • لا يدري ماذا حدث ، ولكنه يذكر لذعة شمس الصباح وهو يستيقظ على الشاطىء ويذكر ضحك جده •

قال له انه سبح بالفعل دون معونة ، ليس صوب الجد ولكن صوب الشاطىء ، كأنه تذكر فجأة شيئا كان قد نسيه ، وقال له انه سبح مثل التمساح العُشاري ، صدره بارز فوق الماء مقدار ذراع • بعد ذلك اخذا يسبحان معا كل صباح ، وفي كل مرة يمعنان اكثر تجاه الشاطىء المقابل • كل صباح كأنه آخر صباح ، وكأن الموت يتربص له على قمة كل موجة • لكنه تعلم كيف يستمرىء ذلك الاحساس بالخوف والترقب والمجازفة ، ولذة الانتصار على النهر حين تلمس قدماه الارض في الماء الضحل ، ثم وهو يتمدد على حجرة القيف ويصطاد شعاع الشمس بين جفنيه • وذات صباح كاد ينهزم • قال له جده إن الوقت قد حان ليسبحا الى الدوامة في منتصف النهر • ارتعد حين قال جده ذلك • كانت الدوامة التي يسمونها « الكونية » ملتقى تيارات رهيبة ، يتجنبها اطول السباحين باعا • ان الموت ولا شك يسكن في تلك البقعة من النهر ، مثل حيوان خرافي مروِّع • ومع الخوف بدأ يحس لذة الخطر • ثم تماسك على نفسه وقد وطَّن نفسه على الخوض في المخاطرة حتى الموت • كان جده ينظر اليه وفي عينيه ذلك البريق • كان وجهه مقنعا بقناع الموت • فيما بعد ، حين كبر ، وأصبح أقدر على الفهم ، أدرك ان الشعور الذي ربط بينه وبين جده في تلك اللحظة ، قبيل الشروق ، على شاطىء النهر ، كان شعورا بالكراهية مثل لهب النار ، ولكن كما يكره الانسان نفسه • لم يتكلم ، ولكنه قفز في الماء ، وقفز جده ، واخذا يسبحان معا جنبا

الى جنب ، يفصل بينهما ذراعان او ثلاثة ، خمسون عاما او تزيد ، الماضي ازاء المستقبل ، كأنهما قـدر واحد • كـان ذهنـه مرهفا مسيطرا على كل عضلة في جسمه • يذكر برودة الماء قريبا مـن الشاطىء ، ويذكر جذع نخلة طاف على يساره ، ويذكر غرابا ينعق صوب الشرق • ثم أحس بالماء دافئا ، وكأن كل خلية في جسمه تسمع وترى • وبدأ حس الدوامة يعلو والنداء يشتد • في برهة لمح وجه مريم وسمع صوتها ينادي « يا مريود • يا مريود » • واخذ الصوتان يتجاذبانه • واخذ صوت الدوامة الكونية يعلـو حتى طغى على الاصوات كلها • لا يذكر أين كـان جده حينئذ • انقطع الحبل الذي كان يربط مـا بينهما • أصبح وحده ازاء قدر يخصه هو • ثم حملته موجة الى مركز الفوضى • كأن الف برق برَق ، والف رعد رعد • ثم ساد صمت ليس كالصمت • أحس كأنه يجلس فوق عرش الفوضى مثل شعاع باهر مدمر ، كأنـه اله • وكان يريد ان يقتل ويدمر ويشعل حريقا فـي الكون كله ، ويقف وسط النار ويرقص ويتراقص اللهب حوله • لم يعد مسيطرا على قوى جسمه وحسب ، ولا على قوى النهر وحسب ، بل على كل احتمالات المستقبل • الخوف جاء بعد ذلك • فتـح عينيه كمن يخرج من كابـوس ، ورأى اول مـا رأى طيف مريم يرف فوقه • نظر فاذا هـو قد سبح الشوط كله ، عبـر الدوامة ، الى الشاطىء الآخر • ورأى جده يقفل عائدا مـن حيث أتى • يا الله• انه فعل المستحيل • بذّ جده • سبح المسافة كلها من الجنوب الى

الشمال • نظر الى جلد النهر يقشعر وسمع الصوت المرعب، واخذ ينتفض خوفا ، كما يخاف البشر العاديون ، مــن الجوع والوحدة والموت • جاء جده بقارب وعاد بــه الى الشاطىء الجنوبي • كان يجذف ويتكلم ويضحك طول الطريق • سيحكي القصة لحمد ود حليمة ومختار ود حسب الرسول ، وسيقول بزهو كما يقول كــل مرة ، محيميد صورة طبق الاصل مني ، الخالق الناطق • لكــن الحفيد في ذلك الصباح ذهب ولم يعد • لم يفطر مع جده كما كانت عادتهم كــل صباح بعــد السباحة • لــم يذهب وقت القيلولة ليقرأ له حتــى ينام • لــم يتعش ويسمر معه كما كان يفعل كل ليلة ، ولم يباكره في الصباح ليشرب معه الشاي ، ويحكي له انباء الاعراس التي ارتادها بالليل مع اصدقائه محجوب والطاهر وعبد الحفيظ وسعيد ، والمغامرات والمعابثات والحماقات • وفــي اليوم الرابع كان حقده على جده انه رماه في وجه الموت قد خف ، ولما سمع صوت جده يناديه ، امتلأ قلبه بالفرح ، وهش وقال نعم • ونعل كل شيء كان سيظل كما هو ، لولا انه أحب مريم ، وجده قال لا •

فجأة سمع صوت حداء يطفو على وجه الماء ، وينتشر بــين الضفتين ، صوتا قويا ممتلئا كأنه صوت الشباب ، قانعا بقسمته • والتفت فاذا قرن الشمس قد ذر ، واذا بقارب يشق عباب الماء بعزم كأنما خرج من منبع الشروق ، وكأن الغناء العذب يعقد بين عناصر الطبيعة على عدوتي النهر بخيوط من حرير •

- ٢ -

سعيد عشا البايتات القوي

قال الطاهر ود الرواس وهم على ظهـور حميرهم ضحى ، في طريقهم الى سوق الخميس :

« يومذاك انت سألتني سؤال وانا رديت عليه ، لكن انت قطع شك ما سمعت الجواب » •

أي سؤال ؟ وأي جواب ؟ ولكن سعيد القانوني كان اسبق• قال من على ظهر حماره « الخندقاوي » الملقب « تاني دور » ، كأنه يتحدث من منصبه :

« محيميد مما رجع لي ود حامد وهو يسأل وينشد تقول عاوز يؤلف تواريخ » •

ضحك سعيد عشا البايتات القوي ، وضحك احمـد ابـو البنات • كان عشا البايتات في طرف الركب ، كأنه على ميسرة جيش غازي ، بحماره « الكورتاوي » الاسود ذي الغـرة علـى جبينه ، لجامه يشلشل ، والغرة طويلة ذات عبـل تكـاد تمس

الارض ، وهو بساقيه القصيرين وعمامته الكبيرة وشاربه المبروم ، كأنه اوزة تجلس على سنام جمل . قال :

« انا أديت محيميد كلام يغرفوه بي موازين الذهب والفضة . اوعى تنساه ، وقت تجي للكتابة » !

قال احمد بسرح : —

« انت وين لقيت الكلام يا نجم الرماد ؟ كلامك كله خارم بارم » .

كان رد سعيد عشا البايتات انه ضرب الحمارة على عجزها بعصاه الخيزران . لم تكترث ولم تغير سرعتها بل نفضت رأسها في الهواء بصلف . نظر اليها عشا البايتات باعجاب ، نظرة متفحصة ناقدة ، وقال :

« وحين يا ابو البنات الحمارة دي مو بت الحمارة العديلة ديك الجابها جدك من بحري ؟ » .

وقال الطاهر ود الرواس : —

« المحسية حبوبتها . دي بت بتهـا . انت الزمـن دا كلـه عميان ولا شنو يا مرمد ؟ »

وقال سعيد القانوني : —

« عشا البايتات معذور . مخه مشغول بي امور السياسات العليا . وحين هو فاضي كمان عشان يؤكد الحمارة امهـا منـو

وحبوبتها منو ؟ والله يا الطاهر انت ماليك حق . دا راجل بقى في زمرة الحكام اجاويد البلد . »

وقال الطاهر : —

« صدقت والله . دا زول من الكبارات . نحن الليلة اتشرفنا خلاص وقت جنابك زاملتنا للسوق . بعد شويه تشوفوا يا جماعة . اول نصل عند الجميز ، يقابلنا الحرس ، كركون سلاح ، يضربوا لنا تعظيم ، عشان جلات عشا البايتات » .

وقال احمد : —

« صح انت ليه ما تشتري لك عربية يبب « جب » زي الرجال ؟ القروش الكثيرة دي رايد تخليها لي منوب ؟

وقال سعيد القانوني : —

« عربيات الجب ان شاء الله تطير في السماء . اولاد بكري من يوم ما جابوا عربيتهم مسخوا علينا دخول السوق . كل دقيقة وتانيه توت توت ، عملو لنا صداع » .

هذا الكلام لم يغضب عشا البايتات . قال ، وهو يضحك ضحكته القديمة ، وقد امال عمامته قليلا الى الامام ، في زاوية تقول ان سعيد عشا البايتات لا يبالي بأحد .

كانت حوافر الحمير تقعقع في الحصى . محدثة نغما نشطا متحفزا ، يتزعمها حمار سعيد في أقصى اليسار ، تليه حمارة ود

الرواس التي تسير بلا جهد ، مثل شخص واثق من مقدرته ، ثم حمار سعيد القانوني وحمارة محيميد في الوسط ، وفي اليمنة حمارة احمد ابو البنات . وعلى بعد منهم حمار عبد الحفيظ ، يسير كأنما وحده ، يسرع ويبطىء . كان عبد الحفيظ صامتا ، يحرك حبات مسبحته ، وقد وضع عنان الحمار على حافة السرج ، وتركه يمشي على هواه . قال سعيد عشا البايتات : ــ

« المال كتير احمد الله ، وعربية الجب ان كنت عاوزها ماها مشكلة . لكن على اليمين الانسان مهما كان ، اذا ما شد للسوق فوق حمار عيل زي ده ، وخت فوقه السرج السناري والفروة المرعز ، وربط البطان وشكا لـه اللجام ، واتحكر قعد ، والحمار يمشي رب رب ، زي كأنـه سردار ولا حكمدار ، والحمار ينهق ها ها فوق الحلال ... عليك امان الله الراجل ان ما سوى جنس دا ما يقولوا عليه راجل اخو بنات . »

قال الطاهر : ــ

« عشا السجم اتاريه عنده فهم » .

وقال احمد : ــ

« وين يلقى الفهم ؟ حتى ان بقي اشترى له بابور بحر يا هو سجمه ورماده » .

تجاهل عشا البايتات كل هذا ، ونظر الى الحمارة وقال باعجاب : ــ

« الحمارة دي طفيانه بالحيل • الداهية تقول أيل انحلا »

تعثرت الحمارة وكادت تقع ، وقال احمد مذعورا ، بين الجد والضحك : —

« الله لا اداك حسنة • ما عارفك ، عينك حـارة زي نـار جهنم • سحرت البهيمة » •

قال عشا البايتات : —

« اذا عاوز تلبيها هسع اشتريها منك » •

قال سعيد القانوني : —

« انت حمارك الراكبه ده شن عيبه ؟ اذا كان القروش غلبتك ما تشوف لك مره تعرسها »

قال ود الرواس : —

« عشا البايتات بعد دا ماليه عرس • احسن له يمشي يحج »

وقال احمد : —

« ويبقى اسمه شنو ؟ حاج عشا البايتات ؟ »

قال الطاهر : —

« عشا البايتات شنو كمان مع الحج ؟ يبقى اسمـه حـاج سعيد » •

ضحك سعيد عشا البايتات القوي ضحكة طويلـة ، تخفي تحتها كلاما كثيرا • ومن عجب ان عبد الحفيظ ايضا خرج عـن عزلته وصمته ، فضحك ضحكة قصيرة ضحلة ، جعلت محيميد

يدرك بغتة كمن يتذكر ، ان عبد الحفيظ موجـود معهـم • بعد ذلك انقطع حبل الحديث ، لأن شيئا ما في انعكاس الضوء على سطح ماء النهر ، جعل محيميد يلتفت الـى الـوراء ، ادار عنان حمارته واستقبل مشرق الشمس • بانت له من ذلك البعد كأنها على هضبة ، بلا أول ولا آخر ، مكشوفة كانسان ينـام في العراء بلا غطاء • الضفة الشمالية صفراء تتوهج تحت شمس الضحى ، ثم النهر ، يختفي ويبين ، كالسراب ، كالبرق • أشجار السنط والطلح تتشبث بالماء ، تليها حقول القمح ، وحين يستقر النظر على غابات النخل في الوسط ، تفجؤه فورة الحياة فيها • حقول اخرى تمتد حتى اسفل البيوت ، بعدها رمال وصحراء لا تنتهي • بانت لـه معلقة في فراغ ، تدنو فاذا هي على مد الذراع ، ثم تعدو مبتعدة عنه كأنها حلم عسير المنال• هنالك في وضح النهار سمع اصواتهم، ورآهم مرأى العيان • تنادوا به مـن ناحية النهر والصحراء ، من الشرق والغرب • رآهم يخرجون من الماء ، ويتسللون بـين فروع الشجر ، ويقفزون فوق هامات النخل ورؤوس البيوت ، وينطون كأنهم يرقصون فوق القباب ويذوبون في شعاع الشمس • الوقت ليس هذا ولا ذاك ، ولكن الشروق كالمغيب ، يصيران ، ويتكرران في كل ومضة عين • نظر بلا فزع ولا دهشة ، ثم بوعي تام جذب عنان حمارته وأدار ظهره للشمس •

- ٣ -

الطاهر ود الرواس

مال الطاهر ود الرواس نحوي دون ان يحول وجهه عـن النهر ، ولكن سؤالي ظـل معلقا فـي الهواء بين النهر والسماء . كان وجهه واضح المعالم يلمع وسط ذلك الظلام ، كأن الضوء ينبع من داخله .

فجأة صرخ : ـ

« بنت الكلب ، الليلة وقعت معاي » !

قلت له : ـ

« كيف عرفت انها انثى » .؟

قـال : ـ

« حتى في الحوت ، المره مره ، والراجل راجل » .

كنت اعمى في تلك العتمة ، ولكن الطاهر ود الرواس كان يسمع ويرى . قال : ـ

« اصلها عندها تار معاي . قبل خمسين سنـة واحدة مـن

حبوباتها قلبت بي المركب . وقت وقعت في المويه بقت تجرني من سروالي لــي تحت » .

« وانت شن سويت ؟ »

« خليت لها السروال ومرقت من المويه عريان جل » .

صوته في تلك الدجنه مفعم بالحياة والمرح كأن السمكة في الماء تتحدث اليه بلغة يفهمها : ــ

« اكثر من ثلاثة شهور وانا وراها . مره تقطع الخيط ومره تاكل الطعم وتشرد . بنت الحرام تقول جنيه من جنس العفاريت »

كنت اصادفه في رحلاتي عند الفجر ، أحيانا في قاربه فــي عرض النهر ، وأحيانا في حقله ، وأحيانا على الشاطىء جالسا يرقب صنارته . وكنت قد نسيت عذوبة صوته ، الى ان سمعته يغني ذلك الصباح غناء كأنه غلالة من الحرير انتشرت بــين الضفتين . ومرة لمحته من بعد ساهماً يحدق في الماء . ناديته فلم يجب . وبعد زمن أمام دكان سعيد سألته ، ضحك وقال : ــ

« انت شتني يومداك ؟ حكاية عجيبة والله . تقول صحيح الواحد وقت يكبر يصيبه الوسواس . عليك امان الله خمسين سنة ما شفت شي . خمسين سنة وأنا أصيد في النيل لا شفت شي ولا سمعت شي . داك الصباح بــت الحــرام قطعت الجبادة وغطست . شويتين شبت فوق وش المويه . عليــك أمان الله زول بني آدم ... بت فتاة عريانه جل ... انــي آمنت بالله . وسمع

اداني دي قالت بي حسا واضح زي كلامي وكلامك » يـا ود الرواس اخير لك تبعد مني » • وقبل ما ألقي الكلام ال ارد بـه عليها غطست تاني جب في الموية • أنا اخوك يا محجوب • انـا أخو الرجال • قعدت متمحن اعاين للمويه »

لو ان سعيد عشا البايتات قال لنا هذا الكلام لضحكنا وقلنا كلام خارم بارم ، ولـو حدثنا به احمد ابو البنات لقلنا حديث سكر ، ولكن الطاهر ود الرواس طول حياته لم يقل الا كما رأى وسمع •

قال الآن ، وكأنه يا دوب سمع السؤال : ــ

« عبد الحفيظ المسكين من يوم بته ماتت اتغير • بقى شكل تاني • زمان كان صاحي وعيونه مفتحه • وحين الله اعلم • اذا كان لقي اليقين في الصلاة برضه زين »

« وانت ؟ »

« أنا ؟ فاطمه بت جبر الدار طول حياتها تصلي • صلاتها تكفينا نحن الاثنين • »

يوما ما سوف أسأله عن قصة زواجه من فاطمة بنـت جبر الدار ، احدى اخوات محجوب الاربع • لـن يجيبني الآن ، فهو مشغول بالسمكة في الماء ، يتحدث اليهـا ويمازحها ، وقـد نسي تماما وجودي جنبه • قال لها انه صـاد جدتها منـذ اربعين عاما ،

وصاد عمها منذ ثلاثين عاما ، وصاد عددا مــن خالاتها وعماتها سألته عن أبويها واخوتها ٠ قال كمن يصحو من نوم : ــ

« آه ٠ منو ؟ شنو ؟ »

« الحكايه ؟ انت تهت ولا شنو ؟ »

« محيميد ! اني آمنت بالله ٠ صوتك جــاني مــن بعيــد خلاص »

« امها وابوها ٠ »

« ام منو وابو منو ؟ »

« السمكه »

« آه ٠ بنية العفاريت ٠ امها ساكنه وسط البحر ، هنــاك جوه ، ابدا ما بتطلع ، بس مره مره تشوف حركــة الموج فوقها »

« وابوها ؟ »

« ابوها أظنه عرس له وحده تانيه قبلي »

« والاخوان ؟ »

« الاخوان والاخــوات الســافر قبلــي والسافر بحري ٠ اختا ليها قلبت كــم مركب ورا على بحري »

قلت له بدهشة : ــ

« وهي المقعدها شنو ؟ »

« العلم عند الله ٠ يمكن منتظره اجلها ٠٠٠٠ منتظره تاخد

تارها مني ... لكن بت الحرام أظن اجلها تم الليلة ! »

الضوء في الشرق على يميننا كأنه ينتظر اشارة مـن احد ، وكان النهر يصرخ صراخـه الابدي المكتوم فـي اذن الشاطىء . الشاطىء لا يفهم ، والنهر لا يستطيع الا ان يتكلم .

في ذلك الغروب كنـا نحن الاربعة نصارع النهر لنصل الى محجوب . فجـأة مادت الارض تحت أقدامنا وفي لحظـة بعثرنا الموج ذات اليسار وذات اليمين . اخذ محجوب يغطس ويقلع ، ونحن الاربعة ، عبد الحفيظ وحمد ود الريس وسعيد وانا نحيط به في دائرة نحاول ان نجد ثغرة في الموج لنصل اليه . فجأة لمحت الطاهر ود الرواس يقفز من الشاطىء ، وخيل لي انه لم يكن يسبح في الماء، بل كان يطفو على اشعة الشمس الغاربة . انتشل محجوب من الماء ورفعه بيد واحدة . حين أفقنا كان الظلام قد استتب لـه الامر . محجوب انتبه دفعة واحدة واخذ ينادي في الظلام ويلعن النهر ويندب صديقه . ولكن الطاهر ود الرواس ما لبث ان هـل علينا مـن ناحية اليسار . سمعناه يضحك فـي الظـلام . أخذ محجوب يلعن ود الرواس كما كان يلعن النهر . ثم ضحكنا كلنا على محجوب وعلى أنفسنا وعلى لا شيء .

ضحك ود الرواس وحده وقال : ـ

« محجوب فارس بر وفي البحر لا حول له ولاقوة »

ابتسمت بحزن ، فقد طافت الذكرى بنـا معا فـي آن واحد وكأن تلك الضحكة ظلت حبيسة في صدر ود الرواس كـل تلك الاعوام ، كبقايا ثروة ضاعت ، حتى اثارها وجودي الـى جانبه ذلك الفجر .

قلت له أحثه على التذكر . ذات المكان على ذات الشاطىء. رجلان شيخان يرقبان شروقا كأنه المغيب : ـ

« أما انت يا ود الرواس ففارس بر وفارس بحـر » لكـن صمته طال حتى يئست منه ، وشغلتني الاصوات المبهمة التي تنبع من النهر ، كأنني اسمعها من مسافة ألف ميل ، فيها اصداء الاودية الجبلية البعيدة، والشلالات . واذعنت زمنا للغط الموجات الصغيرة وهي تعدو بلا كلل من شاطىء الى شاطىء . ومن آن لآن كـان النهر ، هنالك في القلب ، عنـد ملتقى التيارات ، يعـوي عواءه القديم . وبينا أنا كذلك ، اذا بصوت انسان الى يميني ، كأنه يخاطب النهر والفجر الذي قرب يطلع : ـ

« الانسان يا محيميد .... الحياة يا محيميد ما فيها غـير حاجتين اثنين ... الصداقة والمحبة . ما تقول لي لا حسب ولا نسب ، لا جاه ولا مال .... ابن آدم اذا كان ترك الدنيا وعنده ثقة انسان واحد ، يكون كسبان . وأنا ، المولى عز وجل اكرمني بالحيل . انعم علي بدل النعمة نعمتين .... اداني صداقة محجوب وحب فاطمة بت جبر الدار »

احسست بحزن ، فقد كنت طول حياتي ، اعتبر صداقته شرفا عظيما لي ، لذلك قلت له برفق : ــ

« وعبد الحفيظ ••• وسعيد ••• و ••• »

قال : ــ

« عبد الحفيظ اخوي وسعيد اخوي ••• لكين الانسان••• الاخ ••• الصديق ••• الراجل اليوزن الف راجل ••• الكلام على القلوب ، جوه جوه •• الحكاية مو الطاهر ود الرواس ••• الحكاية الجد حكاية الطاهر ود بلال ••• ولد حواء ••• العبد »

قال هذا ببساطة ، دون اية مرارة ، ثم اضاف : ــ

« أنت كنت بعيد ••• تغيب حول وتجي تقعد معانا شهر او شهرين • من يدري ، من أيام المدرسة وبعدين شغل الحكومة • الزول المعاك ما هو مثل الزول البعيد منك ، مهما كان » •

ثم قال : ــ

« كذابه المره ال تقول ولدت مثل محجوب ود جبر الدار »

صمت بطريقة طبيعية ، كأنه يريد ان يترك هذه الجملة وديعة في ضمير الفجر ، ويريد ان يتأكد ان النهر ايضا قد اصغى وفهم •

بعد ذلك تشاغل بخيط الصنارة ، يشده ويرخيه ، ثم ارسله واهمله كأن السمكة في الماء لم تعد تهمه ، ثــم ضحك ، فالتفت نحوه ، فاذا وجهه الداكن كقطعة الفحم الحجري ، يلمع كأن عليه

وهجا من اضواء النجوم البعيدة ، ذلك الفجر . ضحــك اكثــر وقال : ــ

« عبد الحفيظ خل حكايته . قبيل سألتني عن عبد الحفيظ لكين الحكاية أل أنت عاوز تسمعها انا عارفها . يا زول ! اشمعنى السنين دي كلها ما سألتني عنها ؟ بس ما كنت قلت لك . عمري ما قعدت مع جنس انسان وقلت لــه حصل كيت وكيت . الحكاية ما ها مجهولة . في شي الناس عارفنه ، والمــو عارفنــه راح بي وقته . لكين هسع .... قالوا الكبر يطلــق اللسان والحياة شن فضل فيها غير الونسه . كما أقول لك حاجه .... الزمن دا كله وأنا صاري الحكاية في قلبي عاوز احكيها لي انسان .... مــو محجوب ... محجوب عارفها وعرف اكثر منها .... لا . انسان تاني عنده الرحمه وعنده الفهم ، عارف شي وغابي منــه شيء... انسان مثلك يا محيميد .... وكمان ... انت عندك طبيعة ... تخلي الواحد يقول لك الكــلام ال اصلــه مــا قاله لــي جنس انسان ... »

هبت من الشرق هبوب صغيرة دافئة احدثت جلبة في الماء وبين اغصان الشجر لم تلبث طويــلا حتــى هــدأت . قــال ود الرواس : ــ

« اصله الزمن دا بقى زمن كلام . اذاعات وسنمات وجرانين ومدارس واتحادات وهوسه . يوميتها اسمع الاذاعة تلعلع ، العمال

الفلاحين الاشتراكية العدالـة الاجتماعية زيـادة الانتـاج حماية مكاسب الثورة الانتهازية الرجعية ••• أي ياخوانا مصيبة شنو الوقعت علينا دي؟ اذاعة السجم دي تنبح طول اليوم اصله حسها دا ما بيفتر؟ قلت لي حاج سعيد انت يا حاج العمال والفلاحين ديل بلدهم وين ؟ قال لي يا مغفل العمال والفلاحين مو يا هن نحن • انا اخوك • هسع نحن اسمنا العمال والفلاحين ؟ قال لي ايوه • أها وزيادة الانتاج يعني شنو ؟ قـال لـي الانتـاج مو ياهو السجم البنسوي فيه دا ، وزيادة الانتاج يعني تخت السجم فوق الرماد • بعدين حاج سعيد ضحك وقال لي انت ما تمشي تسأل الطريفي ولد بكري يفسر لك الكلام دا كله ، ماك شايفه كل يوم جامع ناس سعيد عشا البايتات يديهم فـي الدروس والمحاضرات ؟ » •

صمت برهة ثم قال : —

« يمكن الحاصل دا زين ، العارف منـو ؟ ومـا دام جنس ونستنا دي بقوا يمثلوها في الاذاعات ويسووها فـي الافـلام ويكتبوها في الكتب أها دحين اتعدل وسمع وسجل يا محيميد • العارف منو ؟ يمكن تبقى عبرة لمن اعتبر »

وكذلك مضى الطاهر ود الرواس ينسج من خيـوط الفجر الزاحف نحونا نسيج قصة حياته • كـان صوته ينخفض ويعلو ، واحيانا تهب الريح قوية فتغرق كلماته • وكان يخيل لي احيانا ان عناصر الطبيعة كلها تصمت وترهف السمع لما يقول •

ألهاني حديثه عن مراقبة الفجر ولـم انتبه حتى كان ضوء الشروق قد لامس قمم النخل والشجر وسرى على صفحة الماء . قال ود الرواس : ــ

« الحمد لله . الحمد لله »

ثم قال : ــ

« يا زول . الليله أتونسنا ونسه كتيره خلاص . لكين الكلام ودر علينا ملاح الغداء . السمكة بنـت الحـرام شافت انشغالنا بالحديث أكلت الطعم وشردت »

ثم صاح موجها كلامه الى ام السمكة الموهومة فـي عرض النيل : ــ

« يا وليه هوي ، قولي لي بتك احسن تبعـد مني . المـرة الجاية على اليمين ان طارت وان قعدت ما تفلت من ايدي »

بعد ذلك قهقه بالضحك وهب واقفا وقال لي : ــ

« يا خوي قوماك نسدر . بنت جبر الدار تكـون حضرت شاي الصباح »

وكذلك صعدنا تجاه البيوت ، أنا اتوكأ على عصاي ، عصا الآبنوس ، وهو يخطو امامي خطواته القويـة النشطة ، وبدأ يغني شعرا كنت قد سمعته منه في زمان غير هذا الزمان ومكان غير هذا المكان .

كان اسمه حسن وسماه الناس بلال لأن صوته في الاذان كان جميلا وفيه لكنة ، ينادي « اشهد الا اله الا الاه ، أشهد ان مهمدا رسول الاه ، هيّ الى السلاة ، هي الى الفلاه » .

قالوا ان الشيخ نصرالله ود حبيب هو الذي أعطاه الاسم لما سمع من صوته ، وعلمه الاذان وجعله مؤذنا . وكان يقول لـه « طوبى لمن شهد صلاة الفجر في المسجد على صوتك يـا بلال ، فوالله ان صوتك ليس من هذه الدنيا ولكنه نزل من السماء » .

وأحيانا كانوا ينادونه « هلا هلا ولد لا اله الا الله . » أما « هلا هلا » ، فلأنها كانت العبارة الوحيدة التي يفوه بهـا اذا خوطب ، واما « لا اله الا الله » فلأنه كان حين يسأل عن أبيـه يجيب « انا ولد لا اله الا الله » .

يحكي الذين رأوه انه كان جميل الوجه ، حسـن الصورة ، متناسق الاعضاء ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، لونه يتوهج كلون المسك ، لا تستطيع ان تطيل فيه النظر لجمال صورته . كان كثير السكينة ، وقور السمت ، نبيل الملامح والحركة ، كأنه من سلالة ملوك قدماء ، اذا وقف كأنما تقف معه حاشية غـير مرئية ، واذا جلس ، جلس القرفصاء ، ويسكن حتى كأنه يذوب فيما حوله . وحدثوا انه كان يمشي منصبا على الارض بكامل جسمه ، قليل الكلام ، اذا قام او قعد يظل يطرق الى الارض ، ولسانه لا يني عن ذكر الله والصلاة على نبيه . وكان الشيخ نصرالـلـه ود حبيب ،

وهو على علو قدره وعظم شأنه ، يقوم لــه اذا دخــل ، ويوده ، ويقسم عليه ان يجلس الى جانبه ، ويقدمه اذا خرج . قالوا ان هذا الاحترام من ذلك الشيخ الجليل كان يُبكي بلال فيقول للشيخ :

« يا مولاي هذا لا عبور من مثلك على مثلي . انــا عبــدك وانت سيدي في شأن الله »

فيقول له الشيخ : ـــ

« يا بلال . انت عبدالله كما انا عبدالله . نحن اخوة فــي شأن الله . أنا وأنت مثل ذرات الغبار في ملكوت الله عز وجل . ويوم لا يُجزَى والد عن ولد يمكن انت كفتك ترجح كفتي فــي ميزان الحق جل جلاله . كفتي انا ارجح من كفتك فــي موازين أهل الدنيا ولكن كفتك يا بلال سوف ترجح كفتي فــي ميزان العدل . انا اجري جري الابل العطاش يا بلال لكي احظى بقطرة من كأس الحضرة ، وأنت شربت الى ان ارتويت يــا بلال . أنت سمعت ورأيت ، أنت عبرت وعديت ، ولما ناداك الصوت قلت نعم . قلت نعم ، قلت نعم .

يبكي الشيخ حتى تبتل لحيته ، ويقول بلال باكيا : ـــ

« لا يا سيدي ، لا يا سيدي . أنت شيخي وقطبي ومولاي وسيدي ، وأنا عبدك ومملوكك في شأن الله » .

يروي الذين حضروا زمانه انــه كــان حــين يؤذن اصلاة

الفجر ، تحس ان الصوت لا يصل اليـك مـن مئذنـة الجامع ، ولكنه ينبع من قلبك • كان امرا عجبا ، فيما حدثوا ، أن يؤذن بلال ها الله ها الله . ويؤم النـاس بالصـلاة الشيـخ ود حبيب نصرالله • كان الجامع يمتلىء كل صباح بالمصلين ، وكل صباح يحضر الصلاة فوج من المصلين ، غرباء ، لم يرهم الناس من قبل• كانت ابواب السماء مفتوحة في ذلك الزمان كما قالوا ولما ماتا انحسرت ظلال الرحمة . واغلقت ابواب الملكوت الى يومنا هذا •

يقول الطاهر ود الرواس ان الاسم الوحيد الذي ورثه عن أبيه كان لقبا لم يناده به أحد الا الكاشف ود رحمة الله • كان ود رحمة الله يقول ان بلال رواس ويسألونه رواس ماذا ، فيجيب « بلال رواس مراكب القدرة » • ويقسم أنه رآه عدة مرات بين العشاء والفجر وهو قائم وحده في مركب ينقل قوما غريبي الهيئة الى الشاطىء الآخر • ويقول الطاهر ان أباه حين مـات أخـذ أسماءه جميعا معه . كأنه كان بالفعل روحا مفردا ليس من أرواح هذا الزمان ولا هذه الارض •

قالوا انه مكث حولا واحدا فقط بعد وفاة الشيخ نصرالله ود حبيب . وانه توفي مثله في نفس الساعة من نفس اليوم مـن أيام شهر رجب • كان قـد امتنع عن الاذان ودخول الجامـع بعد وفاة شيخه واحتجب ، وذات فجر استيقظ الناس على صوته ينادي من على مئذنة الجامع . صوتا وصفه الذين سمعوه بأنه كان

كأنه مجموعة اصوات ، يأتي من أماكن شتى ومن عصور غابرة ، وان ود حامد ارتعشت لرحابة الصوت ، وأخذت تكبـر وتكثر وتعلو وتتسع ، فكأنها مدينة اخرى في زمان آخر . قام كل واحد منهم من فراشه وتوضأ وسعى الى منبع الصوت ، كأن النداء عناه وحده في ذلك الفجر . ولما وقفوا للصلاة رأوا بلال يلبس كفنا ، وكان الجامع غاصا بخلق كثير ، من أهل البلد ومن غير اهل البلد . كان أمرا عجبا . كبر للصلاة كما كان يفعل ايـام ود حبيب ، ثم وقف ليصلي بهم ، فلم يقف امامهم حيث كـان يقف الشيخ ، بل وقف معهم في وسط الصف الاول ، وهو على تلـك الهيئة . قرأ سورة الضحى بصوت فرح فاذا بالآيات نضرة كأنها عناقيد كرم . وبعد الصلاة التفت اليهم بوجـه متوهـج سعيد وحياهم مودعا وطلب منهم الا يحملوه على نعش بـل على اكتافهم ، وان يدفنوه بجوار شيخه نصرالله ود حبيب ، على ان يتركوا بينه وبين الشيخ مسافة تقتضيها أصول الاحترام والتبجيل . بعد ذلك تمدد على الارض عند المحراب وتشهد واستغفر ، والناس ينظرون في رهبة ودهشة ، ثم رفع يده كأنه يصافح احدا واسلم روحه الى بارئها . وحملوه من موضعه ذاك من الجامع الى المقبرة ، وقالوا انه مشى في جنازته خلق كأن الارض انشقت عنهم . ودفنـوه عند الشروق فيما رووا ، وأم بهم الصلاة رجل مهيب لم ير وجهه أحد ولكـن أكثرهم قال انه كان كأنه الشيخ نصرالله ود حبيب . وحدثوا أنه

ما من رجل شهد وفاة بلال الا وقد اشتهى ان تقبض روحه فـي تلك الساعة ، فقد جعل مذاق الموت في افواههم كمذاق العسل •

قال الطاهر ود الرواس ان أباه نشأ عبدا هملا بلا سيد • كل الرقيق كان لهم سادة الا بلال • ويقال انه ربما يكون من ذرية رقيق كان لملك حكـم ذلـك الاقليم فـي الزمـن القديم يدعى « بندرشاه » • وبندرشاه هذا تضاربت فيه الاقاويل • يزعم بعض رواة الاخبار في ود حامد أنه كان ملكا نصرانيا من ملوك النوبة ، بسط سلطانه قبلي الى غاية ديار المناصير ، وبحري الـى حدود الريف ، وكانت عاصمة ملكه حيث تقوم ود حامد اليوم • كـان ملكا ذا عزة ومنعة ، جيّش الجيوش وبنـى مراكب الحرب فوق النيل ، وأقام القلاع والحصون ، وعمر الكنائس وفرض الضرائب على القوافل • ثم لما دخلت جيوش العـرب ، اعتـرض سبيلهم « بندرشاه » هذا ، فهزموه شر هزيمة ومزقوا شمله شر ممزق ، وسبوا نساءه وغنمـوا أمواله وعبيده • ويقـال ان بعض رقيق « بندرشاه » اعتنقوا الاسلام ، وبعضهم تفرقوا في البـلاد قبلي وبحري •

وفي رواية أخرى ان ذلك الملك لم يكن نصرانيا ولكنه كان ملكا وثنيا غزا ذلك الاقليم بجيش عظيم من الجنود السود مـن أعالي النيل ، وانهم أقاموا في نواحـي ود حامد ومـا جاورها مملكة سوداء قوية لم تزل تأمر وتنهى حتى حطمها عبدالله جماع

ابان صعود نجم مملكة سناده وقالوا ان اسمه لم يكن «بندرشاه» بل « بانقي » او « جانقي » ، وان من بقـي مـن امواله وجنوده استرقوا لسوادهم بعد ان كانوا سادة احرارا •

ويرجح بعض المؤرخين ان « بندرشاه » امير حبشي يدعى « مندرس » هرب بسبب صراعات على الملك ايـام الملك « راس تغري » الاكبر ، ومعه نساؤه وعياله وعدد مـن جنده وعبيده • وانهم عبروا النيل الى المتحة ، ثم قطعوا صحراء بيوضة الـى ان وصلوا الى منعطف النهر حيث تقوم ود حامد الآن ، فوجدوا ربوة عالية تشرف على سهل واسع خصيب ، تحميه أرض صحراء عقبه من الشرق والغرب ، وتلال حجرية من ناحية الجنوب ، والنهر من ناحية الشمال ، فأقاموا هنالك وبنوا بلدا أسموها (دبوراس) أي (الربوة) بلغتهم ، حسبما تروي الاساطير • وقالوا ان هذا الامير « مندرس » وجد معابد حجرية من عصور غابرة ، فكسرها وبنى من حجارتها قصرا شامخا على قمة الربوة ، كان آية فـي الجمال والمعمار ، وحصنا حربيا حصينا ظـل يقاوم البلى ردحا من الزمن• وذكروا ان هذا الامير بلغ من سطوته انه أخذ يغير شمالا وجنوبا في عهود المسيحية المتأخرة وانه فرض الجزية على أمراء الممالك المجاورة • ثم انه لمـا بلغ أشده وعظم شأنه ، جمع جيشا كبيرا عبر بـه صحراء بيوضة في خط مستقيم من الغرب الـى الشرق ، وعدى النيل عند بربر ، ثم سار بجيشه محاذيا نهر «الاتبر اوي» • وظل يواصل السير نحو ارض الحبشة وفي نيته ان ينزع الملك

من النجاشي الحاكم . فاستقبلته جيوش النجاشي علـى الحدود ، فحاربهم وحاربوه اياما . ثم انهم حملوا عليه حملة كبيرة فقتلوه ومزقوا جيشه ، فتبدد وذهب ريحه . ومما يذكر ان من بقي منهم ذاب في بقية عناصر السكان ، ويقال ان من بقاياهم قبيلة صغيرة في ود حامد يقال لهـم « اولاد ود الحبشي » مشهورون بوسامة رجالهم وجمال نسائهم .

وفي رواية ان « بندرشاه » لم يكن هذا ولا ذاك بل كان رجلا ابيض اللون وفد على ود حامد من حيث لا يعلم احد أيـام الغارات والهيجات اواخر ايـام ملـوك سنار ، وكانت ود حامد موجودة ومأهولة ومعروفة باسمها الذي هي عليه الآن ، فأقام فيها واخذ يعمل في تجارة الرقيق ، فكون مـن ذلـك ثروة واسعة ، وحكوا انه سخر عبيده في زراعة التمباك ، وهـو أمـر لم تعرفه البلد من قبل ولم يعرف الناس بعد ذلك انه ينبت في مثـل تلك الارض . وكان يجلب الرقيق وسن الفيل من أعلى النيل ، ويسافر بذلك كله في قوافل عظيمة الـى بربر وسواكن وبـلاد الريف . فجمع من ذلك مالا ليس له حد ولا عد . ويؤكد انصـار هذه الرواية ان هذا هو « بندرشاه » الذي بنى القصر على قمة الربوة، وجاء له بعمد الرخام والبلاط المنقوش ، وجعل سقفه من خشب الزان والتيك ، وعمل لـه سورا عاليا من الحجر ذا باب مـن خشب الحراز عرضه مقدار عشرة أذرع . وذكروا انه كان بتلك الدار نحو من خمسين غرفة تفتح على فناء واسع في الوسط ، كما

كانت بها مرابط خيل ومراحات ابل وحظائر بقر وأغنام ، وان الدار كانت تسقى من ماء جارية لا تنقطع صيفا ولا شتاء . وصفة ذلك ان العبيد كانوا يرفعون الماء من بئر واسعة الى خزان كبير للماء معمول على علو شاهق ومنه تنزل الماء في قنوات الى كافة نواحي القصر . كما وصفوا ان الداخل كان يجد على بوابة القصر حرسا سودا طوالا اشداء متمنطقين بالسيوف ، يقفون ديدبانات ليلا نهارا . ويعبر الانسان الفناء الواسع ثم يصعد درجا فيجد حرسا آخرين واقفين على جانبي باب سميك يدخل منه فاذا قاعة كبيرة مستطيلة الشكل في جانبها الذي يقابل الباب منصة مرتفعة عليها كرسي كبير من خشب أسود له مساند من العاج حيث يضع الجالس يديه ، تنتهي بصورة محفورة على العاج على هيئة أسد رابض . وقالوا ان القاعة كانت تضاء ، بقناديل معلقة في السقف وانها كانت تعبق ببخور عطر الرائحة متصاعد من مجامر موضوعة في كوى في الجدران . وحدثوا أن اعظم متعة عند بندرشاه هذا ، كان ان يجلس على ذلك العرش كل ليلة بعد ان يكون قد أكل حتى شبع وشرب حتى ثمل ، فيأمر بعبيده فيساقون اليه في اغلال الحديد . ويأمر جلاديه فيجلدونهم بسياط غليظة من جلد عجل البحر ، حتى يغمى عليهم وتسيل الدماء من ظهورهم . ثم يأمر بهم فيجرون جرا . ثم يصفق فتدخل القاعة جواري عاريات يرقصن ويغنين ويضربن بالدف والطنبور ، حتى يأخذ منه النعاس ، وما ان

يتثاءب حتى تخلو القاعة ويحمله عبيده الى غرفة نومه . وذكروا ان بندرشاه قضى زمنا على هذه الصفة يسوم عبيده سوء العذاب، لا لذنب جنوه ، ولكن متعة وتلذذا . حتى كان ذات ليلة ، حين ثاروا ثورة رجل واحد ، وانقضوا عليه فقتلوه ، ثم قطعوه قطعا ورموا لحمه في بئر القصر ، واحرقوا القصر بما فيه ، وفروا كلهم تحت جنح الليل ولـم يتخلف الا غلام صغير او رجل كبير او امرأة طعنت في السن . ويذكرون ان القصر بقي حتى بعـد ان حرقه العبيد أبدا طويلا على هيئته التي كان عليها الـى ان رآه الامير يوسف ود الدكيم الذي حكم ذلك الاقليم ايام المهدية . ولما رآه وقف عنده وتعجب لمنظره وسأل اهل البلد عمن بناه فذكروا لـه روايات متضاربة . ظل يحدق في البناء الشامخ وهو يردد « الله قادر . الله قادر » ثم قال « البناء دا ما بناه ابن آدم . دا عمل شياطين » . ثم أمر جنوده فهدموا ما بقي منه وسووا به الارض ، ولم يبق منه اليوم الا قحوف حجارة وشظايا آنية مدفونة فـي أكوام التراب العالية المكومة هناك فوق القلعة .

اما ابراهيم ود طه ، وهو راوية ثقة في تاريخ ود حامد ، فيؤكد ا نبلالا ليس من عبيد ملك نصراني . ولا أمير حبشي ولا ملك وثني ولا غير ذلك . وانما سيده شخص يعرفه كـل أحـد ، ليس مجهول الحسب ولا مطعون النسب ، وهـو عيسى ود ضو البيت . ومعروف ان ضو البيت أبا عيسى كان رجلا من الاشراف،

وفد علي ود حامد من الحجاز وتوطن فيها ، وتـزوج فاطمة بنت جبر الدار الاولى ، من قبيلة الحوامدة أصحاب الاصل والفصل ، سادة ود حامد الذين سميت البلد باسمهم ، وهي غير ود حامد الاخرى في الصعيد الموجودة قرب مدينة شندي • ويقول ابراهيم ود طه ان « بندرشاه » كان لقبا عُرف بـه عيسى ود ضو البيت في صباه ، وهو من نوع مزاح الصبيان ، أطلقه عليه ابن خالته حمد ود عبد الخالق ود حمد المعروف بولد حليمة •

ويوضح ابراهيم ود طه ان جبـر الدار حفيد حامد الاكبر صاحب الاسم ، أنجب ولدا واحدا هو رجب الذي سار عليه لقب « الله لينا » لجبنه ، وانجب اربع بنات كل واحدة منهن توازي مائة رجل ، حليمة ومريم وميمونة وفاطمة • اما حليمة فقد تزوجها عبد الخالق ود حمد ذاك ، واما مريم فقد تزوجها الشيخ محمـود ود احمد ود حامد ابن عم جبر الدار ، وكان زعيم البلد في زمانه ، وأما ميمونة فقد تزوجها حسب الرسول ود مختـار ولـد حسب الرسول الملقب بالخمجان وكان فارس فرسان ونزال ضيفان • واما فاطمة وكانت صغراهن وانجبهن ، فقد تزوجها ضو البيت وأولدها ولدا واحدا هو عيسى ولد ضو البيت • وقد مات أبوه وهو في بطن أمه ، وترك له مالا كثيرا • وكانت أمه تدلله في صغره وتلبسه الثياب الزاهية الغالية التي لم يعرفها اهل البلد • لذلـك كـان الصبيان يتندرون عليه فسموه اسما غريبا لم يلازمه طويلا اذ نسيه

الناس مع مرور الايام • وفاطمة هذه هي ام « اولاد ضو » وهم فرع من قبيلة الحوامدة •

ويروي ابراهيم ود طه ان عيسى ود ضو البيت تزوج ابنة خاله رجب ، فأولدها احد عشر ابنا ذكرا ، تلد له ولدا كل عامين ، بانتظام وبلا تقديم او تأخير ، وانها ظلت تلد حتى بعد ان تزوج ابناؤها ، وكان يتفق احيانا ان تكون هي نفساء والى جانبها زوجة ابن لها نفساء ايضا • وظلت هكذا الى ان ماتت وهي لم تبلغ بعد الاربعين •

ويؤكد ابراهيم ود طه ان بلالا هو الابن الثاني عشر لعيسى ود ضو البيت من جارية له سوداء جميلة ذكية كان يحبها ويؤثرها • ولكنه لم يلحقه بنسبه ، ولما مات ، خجل اخوته ان يسترقوه ، ولكنهم استكبروا ان يعاملوه معاملة الحر ويشركوه في ميراث أبيه • لذلك نشأ بلال لا هو حر يقال له ابن فلان ولا هو عبد يقال له عبد فلان • وكان هو في خاصة نفسه ، انسانا عجيبا ، جميل الهيئة ، جميل الطباع ، متعففا ورعا ، اخلاقه اخلاق سادة اماجد • ومن عجب انه شب كأنه نزل فجأة من السماء ، او انشقت عنه الارض ، او انه طلع من النيل ، شخصا كامل الهيئة والتكوين، فلا انسان من أهل البلد يذكره طفلا ولا أحد يعلم من رباه ، ولا احد يقول لك رأيت بلالا او سمعت بلالا الى ان ظهر فجأة وهو فتى يافع، يلازم الشيخ نصرالله ود حبيب ويقوم على خدمته•

انتبه اهل البلد فجأة الى هذا الانسان البديع الذي يخلب جماله القلب ، ويفتت صوته الصخر ويلين الحديد ، وكان حين ينادي مع الفجر بصوته الاعجم «أشهد الا اله الا الاه اشهد ان مهمدا رسول الاه » تحس كأن ود حامد كلها ، بانسها وحيوانها وشجرها وحجارتها ، ورملها وطينها ، من اسفلها الى اعلاها ، من برها الى بحرها ، قد اهتزت وارتجت وأصابتها قشعريرة • لم يكن دعاؤه دعاء الى الصلاة ، وانما كان دعاء الحياة منذ عهد آدم ، ودعاء الموت منذ كان جبريل واسرافيل وميكائيل وعزرائيل • كان يؤذن للصلوات الخمس كل يوم ، لم يتخلف يوما واحدا ، الى ان مات الشيخ نصرالله ود حبيب ، فانقطع عن الاذان ، واحتجب واختفى عن العيان ، حتى كان اذانه المشهود يوم وفاته • وكان يختم اذان العشاء والفجر دوما بقوله « البدار البدار يا قوم • يا قوم ، المركب رمت • البحر غريق • اهل الله مسكوا الطريق • دا زمان صاحب الزمان • سلطان العصر • دا زمان نصرالله ود حبيب • دا زمان نصرالله ود حبيب » •

ذكروا ان اول عهده بمصاحبة الشيخ نصرالله ود حبيب كان وهو فتى يافع فوق الخامسة عشرة ودون العشرين • ربما كان يضرب بعيدا في الخلاء يتفنت ويتعبد ، الله وحده يعلم ، لانه كان غير واضح في البلد ، كأنه ليس موجودا فيها بالمرة • وذات يوم والقوم في حلقة الشيخ نصرالله ود حبيب ، بعد صلاة الفجر ،

وكانت تلك من عوائده ، بعد ان يفرغ من صلاة الفجر والعشاء ، يمكث مقدار ساعة يرشد الناس ، ويسألونه ويجيبهم ، قالوا انه فجأة صمت مدة وتغير وجهه ، ثم صاح بأعلى صوته « الينـا يـا بلال ، الينا يا بلال »

لم يفهم القوم ما يريد الشيخ وقالوا له : ــ

« على مين تنادي يـا شيخنا »

أجابهم بصوت مختلف : ــ

« بلال الخير . بلال الخير . بلال الخير »

يردد الاسم هكذا ثلاث مرات .

أيضا لم يفهموا ، وصمتوا يفكرون برهـة . وفجأة قـال احدهم ، كأنما نزل عليه وحي :

« الشيخ يقصد حسن »

ولما استوضحوا القائل أي حسن يعني ، احتار كيف يصفه. ثم كأنما انجلت لهم الحقيقة كلهم في آن واحد فصاحوا جميعا : ــ « حسن هاالله هاالله ... العبد »

حينئذ خاطبهم الشيخ نصرالله ود حبيب ، وهو في ما يشبه الغيبة : ــ

« بلال ليس عبدا لأحد . بلال عبد الله . ود الله لو علمتم

من أمره ما اعلم لانصدعت قلوبكم خشيـــة ولاصابكم الجــزع والبلبلة . انه رأى وسمع ورمى الى درجات تتقطع دونها القلوب حسرة . والله ان بلالا لو سأل الله لأبر ّه ولــو طلب مــن الحق جل وعلا ان يخسف بكم الارض لفعل »

قال الشيخ هذا بصوت أصاب سامعيه بالهلع ثم اخذ ينادي من جديد :

« الينا يا بلال . الينا يا بلال »

اقسموا انه ما ان فرغ الشيخ نصرالله ود حبيب من ندائه ، حتى سمعوا صوتا يصيح عند باب المسجد : ــ

« لبيك . لبيك » .

ودخل ، وعليه غبار سفر بعيد ، حول رقبته مسبحة طويلة من اللالوب وفي يده ركوة جلد ، فانكب على قدمي الشيخ يقبلهما وهو يردد باكيا « لبيك . لبيك » انهضه الشيخ وعانقه وقبله على خديه وبين عينيه ، وقال له ، وعيناه تدمعان : ــ

« لماذا يا أخي تبعد عني هذا البعاد ؟ اما كفاك وكفاني ؟ ترفق بنفسك يا حبيبي فانك قد تبو ّأت رتبة قل ّ مــن وصل اليهــا من المحبين الخاشعين ، وانني أركض فلا أكاد الحق بغبارك »

قالوا ، وبكى بلال حتى كادت روحه تزهق ، وهو يردد :

« يا سيدي لا تقل هذا الكلام . انت القطب . انت صاحب

الزمان وانا عبدك ومملوكك » .

قالوا ، وأراد الشيخ ان يجعله منه بمقام الاخ فأبى البتة وحلف الا يكون له الا بمقام المملوك من سيده . فأذعن الشيخ ، ونفسه تأبى ذلك ، فكان بلال يقوم على خدمة الشيخ نصرالله ود حبيب بالليل والنهار ، يملأ له ركوة صلاته ، ويحضر له طعامه ، واذا مشى الشيخ في الحر ، يحمل فوق رأسه مظلة خضراء كبيرة، واذا ركب الشيخ لأمر ، وقلما كان يفعل ذلك ، يصحبه راجلا ممسكا بعنان جواده . وكان يأبى ان يجلس في حضرة الشيخ نصرالله ود حبيب ، ولا ترضى نفسه الا بالوقوف او يقعي عند مجلسه كأنه كلب أمين . وكان الشيخ نصرالله ود حبيب يرى منه ذلك ، فيقول له : ــ

« يا بلال ، يا بلال . لماذا تريد ان تهيننا باذلالك لنفسك ؟ »

قالوا ، وكان الشيخ نصرالله ود حبيب قطب زمانه بلا نزاع . كان الناس يقصدونه من اطراف الارض ، طلبا لعلمه وتبركا بصحبته، يجيئونه في قوافل من ديار المغرب وتونس ومصر والشام وبلاد الهوسه والفلاني ، يحملون اليه الهدايا النفيسة فيفرقها على الناس في مجلسه ولا يدخل داره منها شيئا . ولما ظهر الامام محمد احمد المهدي كتب اليه يدعوه الى مبايعته ، فكتب اليه الشيخ نصرالله ود حبيب يقول :

« أما فاننا لا نصدع ، الا لأمــر الملك الواحد الاحد • فان كنت مهديا فالله العلي القدير يزيدك هدى فهو صاحب العزة يختار من عباده من يشاء ، فامض على كتاب الله وسنة نبيــه فانك لــن تضل مع ذلك باسم الملك القدوس الرحمن الرحيم ، يهدي مــن يشاء ويضل من يشاء ويؤتي الملك من يشاء وينزع الملك عمــن يشاء • » ورووا انه لم يكن يخوض في أمر المهدي ، لا بتأييد ولا بانكار ، وترك اصحابه لا يــرد احــدا منهــم اراد ان يلحق بصاحب تلك الدعوة ، فلم يذهب منهم الا نفر قليل • ولما آل الامر الى الخليفة عبدالله التعايشي أرسل اليه يأمره ان يقدم عليه فــي ام درمان ، فرد عليه بغليظ القول مما اغضب الخليفة ، فأراد ان يسيِّر اليه من عسكره من يمسكونه ويحملونه صاغرا الى الخليفة• ولكنه احبط في يد الخليفة فلم يفعل شيئا مما عزم عليه • وذكروا ان الشيخ نصرالله ود حبيب كان يقول ، وهــو يعنــي الخليفة عبدالله التعايشي : ــ

« والله والله الذي لا اله غيره ، ان امــراء المسلمين ، اذا أخذ منهم الاغترار ، وتزينت لهم الدنيا وهي دار البوار وأعجبتهم حالهم وكثرة انصارهم وسكروا بكأس السلطان وبدا لهم انهم أقوياء مخلدون في محابسهم ، ضربهم الله بصولجان عزته ، وقصم ظهورهم ، بسيف نقمته ، وسلط عليهم سيوف اهل الكفر ، ومكن منهم اعداءهم ، واخرج لهم من مكامن جحورهم مــن يكيدون

لهم ويغالبونهم حتى يذهب الغالب والمغلوب ، والطالب والمطلوب ، فينقلبون وكأنهم اعجاز نخل خاوية ، او كهباء ذرته الريح في يوم صفصف كما فعل الله بقوم عاد وثمود ، فالبدار البدار » •

قالوا ، وكانت في ود حامد امرأة صاعقة الحسن تدعى حواء بنت العريبي ، هبطت من ديار الكبابيش مع ابويها فــي سنوات قحط وجدب • فماتا عنها ، وبقيت وحدها ، تمشط وتغزل وتعمل في دور الميسورين في البلد • ووصفوا ان وجههــا كــان كفلق الصباح ، وشعرها أسود كالليل مسدل فوق ظهرها الى عجيزتها ، وانها كانت فرعاء لفّاء ، طويلة رموش العينين ، اسيلــة الخدين ، كأن في فمها مشتار عسل ، وانها كانت مع ذلك شديدة الذكاء ، قوية العين ، مهذاراً ، حلوة الحديث ، متبرجة ، فــي حديثها شيئا من تفحش وتغنج • فأرادها الكثيرون • ومنهم بعض عراة اهل البلد ، فتمنعت واعتصمت ولم تقبل منهم طالب حلال او حرام •

قالوا ، ولم يعلق قلب حواء هذه من دون الناس جميعا الا بيلال ، فكانت تعرض له وهو في صلاته وعبادته ، فلا يرد عليها ولا يجاوبها • وظن الناس اول الامر ، انها انما تعبث به ، ثم تيقنوا انها ، ويا للعجب ، قد هامت بــه هياما كاد يذهبها عن نفسها • ولما أعيتها الحيلة ذهبت الى الشيخ نصرالله ود حبيب ، وشكت لــه وتذللت وتفرعت ، فأشار على بلال ان يتزوجها • فقال له : ـــ

« يا سيدي روحي فداك • لكن لا تخفى عليك خافية مــن

أحوال عبدك المسكين . انا ماشي في دروب اهل الحضرة ، وانت تأمرني بأفعال اهل الدنيا »

فقال له الشيخ : ـ

« يا بلال . ان دروب الوصول مثل الصعود في مسالك الجبال الوعرة . مشيئة الحق غامضة . يا بلال ، ان حب بعض العباد من حب الله ، وهذه المسكينة تحبك حبا لا أجده من جنس حب أهل الدنيا ، فعسى الحق ان يكون ارسلها اليك لأمر اراده . عساه جلت مشيئته اراد لك ان تختبر مقدار حبك بميزان حب هذه المسكينة لك فاما صحوت وانقطع سبيلك واما ازددت ظمأ الى كأس الحب السرمدي ويكون سبحانه وتعالى قد أنفذ مشيئته باذلالك في ارادته القصوى »

فصدع بلال لأمر شيخه وتزوج حواء .

قالوا ، ولم يجتمع بها الا ليلة واحدة ، بعدها استأذن شيخه ان يسمح له بأن يبرىء ذمته منها ، فأذن له . وكانت قد حبلت منه في تلك الليلة ، بابنه الذي سمي الطاهر ، وغلب عليه اسم الطاهر ود الرواس . وبعد ان سرحها بلال ، أبت ان تدخل على رجل آخر ، وانصرفت لتربية ابنها ، فكان شأنها في ذلك شأن المتصوفة العاكفين . وذكروا انها لما رحلت عن الدنيا وهي تناهز السبعين ، كانت على ابهى هيئتها وحسنها ، لم ينقص من جمالها مثقال ذرة ،

ولم يغير الزمن منها مقدار شعرة ، فكأنها كانت من تصاريفه في حصن حصين .

يقول الطاهر ود الرواس : ــ

« ما رأيت حبا مثل حب تلك الام . وما شفت حنانا مثل حنان تلك الام . ملت قلبي بالمحبة حتى صرت مثل نبع لا ينضب . ويوم الحساب ، يوم يقف الخلق بين يدي ذي العزة والجلال ، شايلين صلاتهم وزكاتهم وحجهم وصيامهم، وهجودهم وسجودهم، سوف أقول : ــ يا صاحب الجلال والجبروت ، عبدك المسكين ، الطاهر ود بلال ، ولد حواء بنت العريبي ، يقف بين يديك خالي الجراب ، مقطع الاسباب ، ما عنده شيء يضعه في ميزان عدلك سوى المحبة » .

- ٤ -

نادى سعيد عشا البايتات فــي ذلــك الفجــر بصوت كأنه مغناطيس ، علق بــه غبار الاحلام الموؤودة ، وكانت هبوب أمشير تردد نداء مريم « يا مريود • يا مريود • أنت لا احد • انت لا شيء يا مريود • »

استقبلتني عند الباب ، ورأيتها تختفي وتبين ، الــى ان قال الناس ولا الضالين آمين • كان العطر الذي لاحقني كــل تلــك الاعوام يعبق من ارجاء الكون يذكرني بمريم تعد على اصابع يدها وتقول « احمد • محمد • محمود • حامد • حمد • حمدان •••»

« الابناء اكثر من الاسماء يا مريوم »
تضحك وتقول : ــ
« تتمهم عشرة بالبنات »

دفناها عند المغيب كأننا نغــرس نخلــة ، او نستودع باطن الارض سرا عزيزا سوف تتمخض عنه في المستقبل بشكــل مــن الاشكال • محجوب قبل خدها ، وانا قبلت جبهتها ، وكاد الطريفي يهلك من البكاء ، وحملناها برفق نحن الستة ووضعناها على حافة القبر • اسمع ذلك الصوت الذي ليس مثله صوت يجيئني من بعيد

مثل ناي سحري ، في غلالة من اضواء الاقمار في ليالي الصيف ، ولمع الشعاع على سعف النخل الندي ، ووهج النوار في حدائق البرتقال . تقول وهي تجر عمامتي من رأسي :

« نسكن البندر . سامع ؟ البندر . المويه بالانابيب والنور بالكهرباء والسفر سكة حديد . فاهم ؟ اتمبيلات وتطورات . اسبتاليات ومدارس وحاجات وحاجات . البندر . فاهم ؟ الله يلعن ود حامد . بحم ورماد . فيها المرض والموت ووجع الراس . اولادنا كلهم يطلعوا افندية . فاهم ؟ زراعة ابدا . وحياة محجوب اخوي زراعة ما نزرعها ابدا . »

أحسست بها خفيفة بين ذراعي وانا انزل بها في القبر . كان نهدها يضغط على صدري ونحن متماسكان في الماء ، نغطس ونطفو ، وغضت طرفها وغضضت طرفي ولم تذهب للمدرسة بعد ذلك ، وكان السر قد انكشف . أغيظها بضحكي واسألها عن أعمال اولادنا ، فتفكر بحزم وتقول وهي تعد على اصابع يدها : ـ

« احمد يطلع مدير »

« مدير شنو ؟ »

« مدير أي حاجة »

« ما شاء الله . ومحمد ؟ »

« محمد يطلع محامي »

« عجايب . ما اخير قاضي يا مريوم » ؟

« محامي عشان يدافع عن المظلومين . القاضي قالوا يدخل النار »

« زين . ومحمود ؟ »

« محمود ... محمود ... محمود يطلع حكيم »

« سجم خشمك . وحامد ؟ »

« حامد كمان يطلع حكيم »

« هاالله هاالله . بقيتي ام الحكماء . والخامس اسمه مين يطلع شنو ؟ »

« حمد . حمد يطلع مهندس »

« مهندس ؟ الله اكبر . والسادس ؟ »

« حمدان يطلع ناظـر »

« ناظر محطة ؟ »

« ناظر مدرسة . »

« مثل مدرسة ود حامد ؟ »

« ود حامد ان شاءالله تغطس في الارض . مدرسة كبيرة من الحجر والطوب الاحمر وسط الجناين »

« وبقية العشرة الكرام ؟ »

« الباقين اذا طلعوا اولاد او بنات يكونوا كلهم معلمين او حكماء »

« البنات كمان ؟ »

« ليـه لا ؟ »

« طيب ومتين تولدي الامة دي كلها ؟ وقت يصل عاشر واحد يكون عمرك خمسين سنة . »

« ابدا . عشرين بالكتير اذا بدينا السنة الجاية »

« تتزوج السنة الجاية ؟ »

« ليـه لا ؟ »

اضحك واتقلب في الرمل من شدة الضحك ، فلم أكن قد بلغت الثالثة عشرة بعد ، وكانت مريم دون العاشرة . تضربني على صدري وظهري بكلتا قبضتيها وتجر عمامتي وثوبـي ، وتغضب حقيقة .

اجلس واقول لها بجد متصنع وانا اعد على اصابع يدها : ــ

« اسمعي يا غشيمة . اولادنا يطلعوا زي كده . احمد زراع . محمد زراع . حمد يطلع شيخ الصعاليك . حامد يطلع مداح ، يمدح الرسول مثل حاج الماحي زمان واحمد ود سعيد اليوم في العفاض »

تقول مريم بغيظ : ــ

« الرسول صلى الله عليه وسلم . »

ثم تزيد ، وعيناها العسليتان الواسعتان تلمعان بالغضب : ــ

« محمد أول وبعدين محمود »

« قبله او بعـده ، الحكاية واحدة . كلهم مزارعين » تقول

مريم ، وهي مثل نسر يوشك ان ينقض : ــ

« أها وحمدان ؟ »

أسكت برهة وأنا أكاد لا أقوى على حبس الضحك ، وصدر مريم يصعد ويهبط بالغيظ : ــ

« حمدان عندي ليه وظيفة كبيرة . حمدان يا ست الحسن والجمال ، يطلع رئيس ... رئيس ... رئيس الحرامية في المديرية الشمالية »

تنشب أظافرها في وجهي وتضربني بقبضة يدها الصغيرة ، وتعضني ، وتركلني برجلها ، وانا اضحك متقلبا في الرمل ، وهي تصرخ : ــ

« ابدا . ابدا . ابدا »

ونحن على تلك الحالة ، يجيء محجوب، فأحكي له الحكاية. يقول محجوب : ــ

« ليش تؤخر الزواج للسنة الجاية ؟ باكر على طول نعمل العقد . مريم خلاص استوت للزواج ولا يمكن نخليها تنتظر سنة كمان »

ونظل نعابثها هكذا حتى تشرد منا باكية .

لكننا كنا أعز انسانين لديها ، انا قطب احلامها مستقبلا في

المدينة ، ومحجوب اخوها الاوحد بين أربع بنات ، مريم صغراهن . نظرت اليه وسط الجمع ذلك المساء ، وقـد لفتـه اشعة الشمس الغاربة ، غاضبا شرسا ، كأن الموت خصم ارسلته الحكومة . كان يأمر وينهى بصوت اخرش ، وقد اسلم الناس قيادهم اليه . كـان زعيما مطلق السلطان ذلك المساء ، كمـا لـن يكون بعد ، نشطا متحفزا كحيوان مفترس يتأهب للانقضاض في أية لحظة ، وسلطان الموت لا يطال . اما أنا فقد كنت حزينا بشكل آخر . كنت أراها سابحة على موجة تسافر وتعود ، والدنيا تبتسـم بوجـه طفل . عيناها العسليتان تزحمـان الوجـه ، وحاجباها النبيلان ينعقدان فوقهما ، وثغرها مثل برق يشيل ويحط . كان الطريفي يبكي حتى كاد يهلك ، وانا أحس في قلبي بفجيعة مثل الفرح . مضوا يحفرون القبر وانا أرى مريم طفلة دون الرابعة ، تقرأ معنا القرآن في خلوة حاج سعد ، فعلت ذلك قدرة واقتدارا ، لا راد لرغبتها العارمة في فك طلاسم الحروف . تجيء فنطردها فلا تنطرد ، فاضطررنا انـا ومحجوب ان نعلمها ، فكأننا اطلقنا جنا من قمقم . أخذت تقـرأ وتحفظ وتفهم ، حتى لحقت بنا وكادت تفوتنا . وصارت تقارعنا الآية بالآية والسورة بالسورة ، حتى ضقنا بها ذرعا . ولما دخلنا المدرسة سعدنا اننا نتعلم اشياء لا تفهمها ، ونرجع فنقرأ لها التاريخ والجغرافيا والحساب ، نغيظها بذلك . فأخذت تماللنا وتستعطفنا لنأخذها معنا . قلنا لها : ــ

« المدرسة للاولاد . ما في بنات في المدرسة »

قالت وكأنها قد فكرت في الامر مليا :

ـ « يمكن اذا شافوني يقبلوني »

ضحكت وقلت لها :

ـ « وانت ايه العجيب فيك اذا شافوك يقبلوك ؟ »

واضاف محجوب :

ـ « انت فاكره نفسك بدر البدور ؟ قبيحة ونحيفة زي الجرادة »

لم تكترث لمعابثتنا وقالت بجد :

ـ « اذا شافوني اقرأ واكتب . الحكاية مش قراية وكتابة ؟ أيه الفرق بين الولد والبنت ؟ »

قال محجوب :

ـ « نظام الحكومة كدا . مدرسة للاولاد يعني للاولاد . أنت عاوزه الحكومة تعمل لك نظام مخصوص ؟ »

قالت :

ـ « ليه لا ؟ »

ضحكنا ، لان تلك كانت عادة مريم ، تظن كل شيء ممكنا . بغتة قالت ، وكانت قد قلبت الامر في ذهنها الحديد ، وانتهت الى حل ، قالت وعيناها الجميلتان الذكيتان تستشرفان فوق رأسينا الى

بعيد :

ــ « خلاص • ما دام الحكومة لا تقبل غير الاولاد ، أصير ولـــد • »

كتمنا دهشتنا واستوضحناها قصدها •

« يعني امشي معاكم للمدرسة كأنني ولد • »

محجوب سألها بسخرية :

« أنتِ تبقي ولد ؟ »

وأنا سألتها بسخرية أشد :

ــ « انت تبقي ولد ؟ »

قالت وقد تعلقت عيناها الجميلتان بأفق بعيد ، تراه هي ونحن لا نـــراه :

ــ « ليه لا ؟ ما دامت الحكومة ما تقبل الا الاولاد • ألبس جلابية وعمة وامشي معاكم ، متلي متلكم • ما في أي انسان يعرف أي حاجة • أيه الفرق بين الولد والبنت ؟ »

ضحكنا انا ومحجوب بوسائل شتى ؟ سخرية بها ، واغاظة لها ، واعجابا وحبا • قال لها محجوب :

ــ « عندك ان البنت متل الولد ؟ »

« ليش لأ ؟ »

وأنا سألتها :

ـ « ما في أي فرق ؟ »

قالت :

« ابدا »

وقال لها محجوب :

ـ « الخالق الناطق ؟ »

« ليش لأ ؟ »

قلت لها :

ـ « متلي متلك ؟ »

« الا ... »

قلت استحثها :

ـ « الا ... ؟ »

قالت :

ـ « السجم »

قال محجوب وهو يقهقه ساخرا :

ـ « سجم خشمك »

لكنها لم تكن خجلة . واجهتنا بغتة ، فرأينا اضواء ذلـك

الافق البعيد ، تتوهج على جبهتها وحول عينيها • نظرنا بعضنا الى بعض كالمسحورين ، وقلنا أنا ومحجوب بصوت واحد ، وقد بدأ ذلك الافق البعيد يتراءى لنا نحن ايضا :

ـ « صحيح • ليش لأ ؟ »

خلت اصواتنا من السخرية واتخذت نبرات فيها رهبة •

قال محجوب :

ـ « اصل الفصول في المدرسة ناقصة •• »

وانا قلت :

ـ « والناظر كل يوم على حماره قبلي وبحري يترجى الناس يجيبوا اولادهم للمدرسة ••• »

وقالت مريم :

« وانا طول اليوم ما عندي شغل ، ادخل بيت وامرق من بيت • »

وقال محجوب :

« ومريم فالحة »

وانا قلت :

« وعندها رغبة »

ومريم قالت :

« وخسارة ما ... »

قلنا نحن الثلاثة بصوت واحد ، كأننا جوقة تنشد لفجر أخذ يطلع : ـ

« صحيح ليش لا ؟ »

قالت في ذلك الضحى ، ولم أكن اعلم حينئذ ان الحبل الذي بيني وبينها سوف ينقطع وشيكا والى الابد : ـ

« خلاص الزواج الليلة . لكين انا لسّع ما حضرت حالي »

محجوب لم يفهم، ولكنني ادركت فورا ما تعني. قلت لها :ـ

« ان شاء الله كل شيء يتم بخير . ما تشفقي ابدا »

لم تكن بها علة ، ولم تلزم فراشها غير يوم واحد ، كأنها قررت ان ترحل فجأة . كأن كل الذي حدث لم يحدث . هو على يمينها وانا على يسارها ، وحدنا معها ، كما ارادت . كانت خضلة مثل عروس ، ليس بها شيء ، سوى بعض حبات العرق على جبهتها . كان وجهها متألقا وعيناها تتلامعان مثل البروق . نظرت الي وهلة كأنها لا تعرفني ثم قالت وهي تنظر الى محجوب : ـ

« بس مريود لسّع ما وصل . كيف يحصل الزواج ومريود لسّع ما رجع من السفر . »

حينئذ فهم محجوب ، فأجهش بالبكاء . قال لها وهو يبكي :

« مريود وصل . كل شيء حاضر للزواج . »

قالت بفرح : ــ

« رجع ؟ متين ؟ »

قلت لهــا : ــ

« انا مريود يا مريوم . طبعا العقد يتم الليلة . كــل شــيء جاهز »

تمعنت في وجهي ، وبان الغضب في عينيها ، وعادت كمــا اذكرها منذ اربعين عاما او يزيد : ــ

« أنت ما مريود . انت بكري . ابــدا مــا اتزوج بكري . ابدا . ابدا »

قال لها محجوب : ــ

« كيفن ما هو مريود ؟ يا هو ذاته ذاته . يا دوب وصل مــن السفر . »

تفرست في وجهي من جديد . قلت لها : ــ

« انت غبيانة ولاّ شنو يا مريوم ؟ »

قالت بصوت آخر ، كأنها شخص آخر : ــ

« العيون عيون مريود . والخشم خشم مريود . والحس حس مريود . لكين انت ما مريود . مريود اصغر . ابدا انت مــا مريود . انت منو ؟ »

صمتت قليلا ، ثم قالت : ـ

« يمكن انت مريود • انت مريود وما مريود • زول وما زول • انت لا أي زول ولا أي شيء • » ثم بكت وقالت : ـ

« خسارة • مريود مات • وانا يزوجوني بكري • ابدا • احسن انا كمان اموت ولا اتزوج بكري • »

بعد ذلك غفت وسكتت ، فحسبناها قد ذهبت عنا • لكنها استيقظت فجأة ، وكان وجهها وكل ما بها ، ونحن واياها ، كأن هوادج أحباب أخذت ترحل • قالت : ـ

« بسراع بسراع • المواعيد جات • الوقت قرب • خلاص انا بقيت للسفر • أحسن تتوادع من هسّع • مع السلامة • مع السلامة • أبقوا عشرة على رقبتكم • والوليدات ••• »

محجوب قبل خدها وهو يغالب الدموع فتغلبه • وانحنيت عليها وقبلت جبهتها ، فتشبثت بي وطوقتني بذراعيها ، فأحسست بها مثل سر عزيز ، مثل شيء عسير مستحيل • ذلك العطر • ذلك الشباب • ذلك الحلم • دارت عجلة الزمان القهقرى ، حتى توقفت عند ليلة صيف قمراء ، ليست من ليالي هذا الزمان ولا هذه الارض • وسمعت حس بكائي كأن احدا غيري يبكي الدموع التي ظلت حبيسة كل تلك الاعوام • هذه حصتي من كل شيء • هذا نصيبي وارثي • مات عنها وتركها لي لتموت على صدري • لعلني لهذا عدت •

كانت مثل طائر • رفعها محجوب مـن نعشهـا فشهق ضوء المصابيح على حافة القبر ، وسمعت هبوب أمشير تناديني بلسان مريم « لا شيء • لا أحد • » خطا بها نحو القبر ، فاعترضت طريقه ومددت يدي • نظر الي برهة ، ورأيت عينيه ترقـان وتغرورقان ، فتركها لي • كانت خفيفة مثل فرخ طائر وانا اسير بها في طريق طويل يمتد من بلد الى بلد ومن سهل الى جبل • لم يكن حلما • ابدا • كانت مريم نائمة على كتفي • سرت بهـا على ضفة نهـر الى وقت الضحى ، فأيقظها لفح الشمس على وجهها • انفلتت مني وقفزت في الماء • كانت عارية • أشحت عنها ، ولكنني لم أطق صبرا فأدرت لها وجهي • نظرت ، فاذا هي في بركة من الضوء ، وكأن اشعة الشمس هجرت كل شيء وتعلقت بجسدها • كـانت تغطس وتقلع ، وتختفي هنا وتظهر هناك ، وتضحك لي مـن جهة اليمين ، ثم اذا هي تناديني من جهة اليسار • نعم • نعم • نعم • أريد ان اغرق في نبع ذلك الضوء الـذي ليس مـن اضواء هذا الزمان ولا هذه الارض • لكنني ترددت ، ليس اكثر مما يطرف جفن العين • في تلك اللحظة ، عـاد الشعاع الـى منبعه ، وذهب الطيف ، لا أعلم الى أين • ناديت بأعلى صوتي « يا مريوم • يـا مريوم • » فعـاد الصدى مجسما بألسنة شتـى « يا مريود • يا مريود • » ضربت دون هدى فـي صحراء عقبـة تويوي ريحها وتتهايل رمالها ، حتى بلغ اليأس واخذ مني الجهد • ثم اذا شجرة طلح يلمع نوارها • تهالكت عندها • فجأة احسست بمريم• بـُعيد

العشاء او قبيل الفجر ، لا اعلم . لكنني اذكر ظلاما رهيفا وضوءا ينسكب على وجهي من عينيها ، شربت منه حتى بلغ منـي الظمأ غايته . قلت لها : ـ

« ألا أسير معك ؟ فانني الآن اقوى . »

قالت : « لا . انت تعود ادراجك وانا اسير من هنا وحدي . »

قلت : « لكنني ... »

قالت : « انك لن تستطيع معي صبرا . فوراء هذه البيداء جبال . ووراء الجبال بحر . ووراء البحر لاذا ولاذا . النداء لي وحدي . أنت تعود وانا امضي . »

ثم أخذت رأسي ووضعته في حجرها ، وهدهدتني زمنا بصوت كأنه دبيب نمال في تلال رمال ، وقالت لي : ـ

« لا تبتئس يا ضوء عيني فانني لن ابعد . سوف تراني وتسمع صوتي . »

قلت وانا لست انا « هيهات . هيهات . »

حينئذ قبلتني بين عيني ، وابتسمت بكل جمال وجهها في وجهي ، وقالت : ـ

« بلى بلى يا رمانة قلبي . اذا احتجتني فادعني فسوف أجيء »

قلت : ــ

« هيهات . هيهات »

قالت : ــ

« ولكن عليك ان تصبر وتذعن »

قلت : ــ

« اذاً اجعلي لي آية »

قالت : ــ

« آيتك ماء . آيتك ماء . ابدا تتلفت خلفك . آيتك ان تظل يقظان الى آخر العهد . ستراني وسوف اعينك قدر المستطاع . »

« فلأسر معك خطوات اقدمك . »

قالت : ــ

«لا يا تفاحة فؤادي . هنا مفترق الطرق وانه الوداع . »

عصر الحزن قلبي عصرا ، ولم أجد الدمع الذي أبرّد به حر جوفي لانها سلبتني نعمة البكاء .

قلت لهـا : ـ

« اذاً زوديني • »

قالت : ـ

« لا »

قلـت : ـ

« زوديني • »

قالت : ـ « لا »

قلـت : ـ

« زوديني »

قالت : ـ « لا »

قلـت : ـ

« زوديني • »

قالت : ـ

« واحسرتا عليك يـا محبوبي • خـير الزاد انـا • وانني مفارقتك من هنا • لا شبع لك من بعدي ولا ري ، ولا شفيع ولا نجـي • فاضرب حيث شئت ، وتزود ان استطعت واطلب النجاء • الى ان تلقاني فأعطيك المن والسلوى • »

ثم ابعدت . وسمعت صوتها كأنه ينزل من السماء ، ويحيط بي من النواحي كافة ، تطويه رياح وتنشره رياح : —

« يا مريود . انت لا شيء . انت لا احد يا مريود . انــك اخترت جدك وجدك اختارك جدُّك وجدُّك اختارك لانكما ارجح في موازين اهل الدنيا . وابوك ارجح منك ومن جدك في ميزان العدل . لقد أحب بلا ملل ، واعطى بلا أمل ، وحسا كمــا يحسو الطائر ، واقام على سفر ، وفارق على عجل . حلم أحلام الضعفاء ، وتزود من زاد الفقراء ، وراودته نفسه على المجد فزجرها ، ولما نادته الحياة ... لما نادته الحياة ... »

قلت نعم . قلت نعم . قلت نعم . ولكن طريق العودة كان أشق لانني كنت قد مشيت .

دومَـــة ود حَـــامِـــد

سبع قصص

الاهـــداء

إلى أخي فتح الرحمن البشير

نخلة على الجدول

« يفتح الله ! » ...

« عشرون جنيهاً يا رجل ، تحل منها ما عليك من دين ، وتصلح بها حالك . وغداً العيد ، وانت لم تشترِ بعد كبش الضحية ! واقسم لولا انني اريد مساعدتك ، فان هذه النخلة لا تساوي عشرة جنيهات » .

وتململ حمار حسين التاجر في وقفته . ولم يكن صاحبه قد ترجل عنه ، فانه لم يرد ان يظهر لشيخ محجوب تلهفه على شراء النخلة ذات البنات الخمس ، التي يسميها السودانيون في الشمال « الاساسق » ، وقد قامت وسطهـا النخلة الام ، ممشوقة متغطرسة ، تتلاعب بغدائرها النسمات الباردة التي هبت من الشمال تحمل قطرات من مياه النيل . ورأى الحمـار الابيض البدين حمارة انثى ترعى عن بعد بين سيقان الذرة . فنهق نهيقاً اجهش ممتداً ، ثم رفع رجله الخلفية اليسرى ووضعها ، ورفع رجله الامامية اليمنى ووقف على حافة حافره ، وتشاغل بخصل من نبات « السّعدة » الريانة التي نمت على حافة الجدول ،

وكأنه قد تبرم بهذه المساومة التي لم يكن من ورائها طائل .

والحق ان حسين التاجر ، بثيابه البيضاء الفضفاضة ، وعباءته السوداء التي اشتراها في زيارة له للخرطوم ، وعمامته من « الكرب » نمرة واحد ، وحذائه الاحمر الذي لم تخرج ايدي صناع « المراكيب [1] » في الفاشر اجود منه،وحماره الابيض البدين اللامع ، والسرج الاحمر المدهن ، والفروة البنيـة التي تدلت وكادت تمس الارض ، كان صورة مجسمة للكبرياء والغطرسة .

ولكن شيخ محجوب لم يحر جواباً ، وكان يبدو في وقفته تلك كالمشدوه ، يرنو الى افق بعيد متناه . ورويداً رويدا خفتت في اذنيه ضوضاء « اهل الخير » الذين تجمعوا ليتوسطوا بين التاجر وشيخ محجوب ، وخفت صوت الساقية الحزين المتصل .

ولف ضباب الذكريات معالم الاشياء الممتدة امام ناظري شيخ محجوب . الناس والبهائم وغابة النخيل الكثة المتلاصقة ، والحواض الذرة الناضجة التي لم تحصد بعد،والاحواض الجرداء العارية قطعت منها الذرة، ومرحت على بقاياها قطعان الضأن والماعز . كل ذلك تحول الى اشباح يتراقص في وسطها جريد نخلة محجوب . وفي أقل من لحـــة الطرف استعرض الرجل حاضره . أجل ، غداً عيد الاضحى حين يخرج الناس مع شروق الشمس في ثيابهم النظيفة الجديدة ، ويصلون مجتمعين

(١) هي الأحذية السودانية الشعبية ..

على مقربة من ضريح الشيخ صالح . وإذ يعودون إلى بيوتهم تنضح وجوههم بالبشر والسعادة ، وتسيل دماء الاضاحي ، ويقبل الأضياف ويخرجون ، ويتردد في الحي صدى ضحكاتهم اما هو ... اما بيته ... ؟ انه لا يملك ثوباً نظيفاً يخرج به إلى الصلاة ، وليس عند زوجته غير « ثوب زراق » اشتراه لها قبل شهرين نال منه البلى وتراكمت عليه الأوساخ . اما ابنته خديجة فقد كادت تفتت قلبه ببكائها من أجل ثوب جديد تعرضه على لداتها وتعيّد به مع صاحباتها. ومن أين له جنيهات ثلاثة يشتري بها خروفاً يضحي به ؟

وتمتم شيخ محجوب في صوت لا يكاد يسمع ، شيء يشبه التوسل والابتهال : « يفتح الله » وزم شفتيه في عصبية،وعاد بعقله خمسة وعشرين عاماً إلى الوراء . الا ما أعجب تقلبات هذا الزمن ! لقد كان يومئذ شاباً قوياً أعزب لم يبلغ الثلاثين بعد ، يعمل في ساقية أبيه مقابل كسوته وشرابه . فلم يكن يحتاج إلى المال ، ولم يكن يعرف له قيمة . وفي ذات صباح مشرق من أصباح الصيف ، مر بابن عمه اسماعيل ، وكان الأخير منهمكاً يقلع الشتل ليغرسه في أماكن أخرى من أرض الساقية . ووقع نظر محجوب على شتلة صغيرة رماها اسماعيل بعيداً ، على انها خالية من « الأضراس » لا تصلح . فالتقطها محجوب ونفض عنها التراب ، وقال لابن عمـه ضاحكاً : باكر تشوف دي تبقى تمرة زي العجب » . وتبسم اسماعيل في سخرية ، واستغرق في عمله . وعلى حافة الجدول قريباً من

الساقية ، شق محجوب حفرة صغيرة وضع فيها « النخيلة » وواراها التراب وفتح لها الماء بعد أن تلا آيات من القرآن وردد في شيء من الخشوع . « بسم الله ، ما شاء الله، لا حول ولا قوة الا بالله » ، مثلما يفعل أبوه كلما غرس شتلة أو حصد نبتاً . ولم ينسَ أن يصب في الحفرة قليلاً من ماء الابريق الذي يتوضأ به أبوه تيمناً وتبركا .

وانزل محجوب غصة صعدت في حلقه ، ثم مرر أصابع يده النحيلة المعروقة بين شعيرات لحيته المتفرقة . الا ما كان ابرك ذلك العام ! بعد ستة أشهر فقط من غرسه « النخيلة » تزوج من ابنة عمه، ولم يكن يملك من مال الدنيا شروى نقير . ولا هو يدري إلى الآن كيف تمت المعجزة . انه لم يكن يظن أبداً انه سيتزوج في يوم من الأيام ، هو الذي عاش أيام صباه منبوذاً محتقراً من أهله مجفوا من الحسان، يتهمه كل أحد بالغباء والخيبة . وطالما ترنم وهو يخوض الماء في لذعة البرد ، عاري الرأس ، عاري الصدر :

« الدنيا بتـْهينك والزمانْ يُوريكْ
وقـَلْ المالْ يفرْقك من بنات واديكْ »

غير انه تزوج ، ولبس حريرة العرس ، وتمسح بالدلكة ، ووضع على رأسه « الضريرة » ، وأحاطت به الصبايا يهزجن بالأغاني . ولكم شعر بالعظمة والكبرياء وقتها . كل ذلك بعد غرسه النخلة بستة أشهر . وفي العام التالي ولدت زوجته بنتاً اسماها آمنة تيمناً بقدمها ، ووفاء لذكرى جدته التي كانت

تعطف عليه من بين اهله جميعاً. وحينما وصل به تيار الذكريات الى مولد آمنة ، ترقرق في عينيه الدمع . اين الآن آمنة ؟ انها زوجة لابن اخته ، الذي حملها الى اقاصي الصعيد في الجزيرة ، وقد كانت تبره وتعطف عليه .

ليتَ حسناً كان مثلها عطوفاً باراً . حسن ! وعض الرجل على شفته السفلى بعنف حتى كاد يغرس اسنانه في لحمها المتهدل. حسن إبنه الوحيد ، سافر قبل خمسة أعوام إلى مصر ، ومن وقتها لم يرسل لهم حتى خطاباً واحداً يطمئنهم فيه عن صحته. لقد حاول الرجل جاهداً أن ينساه ، ويمحوه من ذاكرته ، ويعده من الأموات . وكانت زوجته تبكي كلما ردد محجوب في صوت حزين متهدج بيت الدوبيت الذي كان له خير سلوى ، كلما جاشت بنفسه الذكرى ، وكلما تمثل ابنه طفلاً صغيراً حلواً يبول في حجره ، ثم صبياً يساعده في أعمال الساقية ، ثم شاباً يافعاً يشب عن الطوق ، ويهجر الأهل والدار ، وينسى حقوق الابوة ، ولا يسأل عن الاحياء ولا الأموات . أجل والله — « الزول ان أباك خليه واقنع منه ، وكم لله من دفن الجنى وفات منه » .

وكأن القدر أراد أن ينسيهم كل شيء يربطهم بحسن ، فرمى آخر ما في جعبته من سهام قاسية مسمومة ظل يسددها منذ عامين، تباعاً ودون توقف. وأصاب السهم الأخير النعجة « البرقاء » التي رباها حسن ، وجمع لها الحشيش وأشركها طعامه وأنامها في فراشه . ماتت وما عادت تثغو في بكرة

الصباح حين كان حسن يقفز نشيطاً خفيفاً من فراشه فيطعمها ويسقيها ويأخذها معه إلى الساقية ، ترعى وتمرح وتتلف الزرع ريثما يفرغ هو من عمله . ماتت ، وكذلك اجتاح المحل والقحط كل القطيع الذي رباه شيخ محجوب .

ثم رفرف طائف من السعادة على الوجه الخشن المجعد ، وجه محجوب . وغابت المرارة التي أحدثها ذكر حسن عندما تذكر الرجل قطيع الضأن الذي رباه في ذات العام الذي شهد مولد آمنة . قطيع كامل من نعجة واحدة اشتراها بما تجمع عنده من ثمن حيضان البصل . كان يعاملها كما يعامل أبناءه ، يحلب لبنها بنفسه ويكوم القش في مراحها ويفك لها صغارها ويلبث الساعة والساعتين يداعبها وينظف وبرها ، وتغمره السعادة وهو يشاهدها تناغي صغارها وتشرب الماء المخلوط بالدريش ، وتتناطح فيما بينها . كان يطلق عليها الاسماء كما يسمي الناس أطفالهم ، يعرف كل واحدة منها بسيماها . ذات الذيل الأبيض، وذات البقعة السوداء على أم الظهر الظهر كسرج الدابة ، والخروف ذو القرن المكسور ، والخروف ذو القرون الملتوية . وبعد عامين من زواجه اشترى عجلة صغيرة عجفاء والاهاسبر بالم والحبوب حتى استوت بقرة جميلة كحيلة العينين لها غرة في جبينها تجر الساقية وتدر اللبن . وفي أثناء ذلك أثمرت نخلة الجـــدول ، أول شيء يمتلكه في حياته . وسارت الحياة رغداً كأنما استجاب الله دعاءه يوم شق في الأرض على حافة الجدول وغرس النخلة . لقد استغنى عن

أبيه ، وبنى لنفسه بيتاً يؤويه مع عائلته ، وصار ثرياً يعد المال مثل أي تاجر ، يجلس في السوق منتصباً تملأه الثقة أمام كوم الذرة ، يكيل منه للمشترين وينتهر زملاءه غير هياب ولا مكترث . وصار يلبس النظيف ، ويأكل الطيب ، وينام على الفراشَ اللين ، ويتدثر في برد الشتاء ببطانيـــة ثقيلة من الصوف انفق فيها جنيهين . وحينما كان الناس يتبرعون في الأعراس بخمسة قروش كان يتبرع هو بعشرة ، وبزجاجة مليئة من سمن الضأن النقي ، وكيلة من أجـــود أنواع التمر « القنديل »، حتى لقب بالظريف بعد أن كان يلقب بالغبي . ولولا تعلقه بزوجته لتزوج بنتاً بكرا يتهافت عليها خـــيرة شبان البلد .

كل هذا عفـّى على آثاره الزمن . لقد مات الزرع ، ويبس الضرع ، وعم القحط فأغرق الرخاء ، وحبا الشيب فطغا على الشباب ، وكان النيل يفيض بين ضفتيه زاخراً موارا، يسقي الارض ويخرج ما في باطنها من الخير ، فما عاد يفيض إلا بحساب ومقدار . اتراها الخزانات التي أقاموها عليه فحجزت الماء ؟ أم تراها نبوءة الشيخ ود دوليب تحققت ؟ لقد أنذر الناس في يوم من الأيام انه سيأتي عليهم يوم ، يصير فيه اللبن كثيراً تافهاً مثل الماء ، وتصير كيلة الذرة بقرشين ، ويصبح ثمن النعجة ريالين . ولكن الناس كدأبهم أبداً سيضيقون بهذا الخير ، وسينهمكون في الغي وينسون الله ، فيأخـــذهم الله بذنوبهم . وفكر شيخ محجوب برهة ، وحدث نفسه بأنه لم

يرتكب كثيراً من المعاصي . صحيح أنه كان يشرب الخمر أحياناً ويرقص في الأعراس ويخالس الحسان النظر على غفلة من أم حسن . ولكنه لم يؤخر فرضاً ولم يهتك عرضاً ولم يفعل شيئاً من هذه المعاصي التي يقول فقهاء القرية انها كبائر تغضب الله . لا بد انه الكبر الذي فت من عضده وأرخى من مفاصله ، فما عاد يحتمل لذعة البرد ولا قائظ الحر . ولم يكن حريصاً على ما عنده من خير ، فبدّده أولاً بأول . وفي غمرة أتعابه ومرير شيخوخته هجره ابنه حسن ، وهو أحوج ما يكون إلى ساعده الفتي . وهكذا ظل محجوب يكابد الفاقة وحده ، فاستدان ورهن وباع . وليس عنده اليوم من مال الدنيا إلا بقرة واحدة وعنزتان وهذه النخلة التي ظل جاهداً يحاول استبقاءها .

وقطع عليه ذكرياته نهيق حمار التاجر ، وصوت صاحب الحمار وهو يقول له : يا راجل انت ساكت زي الأبله مالك ؟ ما تدينا كلمة واحدة خلينا نمشي ؟ ، وكان رمضان قد جاء من طرف الساقية ، وقال لمحجوب ان عشرين جنيهاً ثمن معقول ، خاصة وهو أحوج ما يكون إلى المال . وفكر الرجل برهة متردداً بين الرفض والقبول . عشرون جنيهاً يستطيع أن يحل منها دينه ، ويشتري ضحية العيد ، ويكسو نفسه وأهل بيته . ولكن ريحاً قوية هبت تتلاعب بجريد النخلة ، فأخذ يوشوش ويتمارك ويتلاطم كغريق يطلب النجاة . وبدت النخلة لمحجوب في وقفتها تلك رائعة أجمل من

أي شيء في الوجود . وهفا قلبه لابنه في مصر . ترى هل يحن لنداء الرحم ؟ هل تؤثر في قلبه الدعوات التي أرسلها محجوب في هدأة الليل ، وأحس الرجل بفيض من الأمل يملأ كيانه ويطغي على إحساسه ، وترقرق في عينه دمع حبسه جاهداً ، وتمتم : « يفتح الله . أنا تمرتي ما ببيعها » . وردد الرجل في نفسه : « يفتح الله » ، وقاده ذلك إلى التفكير في سورة الفتـــح من القرآن الكريم — « إنا فتحنا لك فتحاً مبينا » — الفاتحـــة — الفرج . وأحس لأول مرة بأنّ في عبارة « يفتح الله » شيئاً أكثر من كلمة تنهي بها المبايعة ، وتقفل الباب في وجه من يريد الشراء . انها مفتاح لمن أعسره الضيق وأمضه البؤس وأثقلت كاهله أعباء الحياة . وما كان أحوج محجوب إلى الفتح والفرج حينئذ .

وجذب التاجر عنان حماره في صلف ، ثم همز بطن الحمار بكعب رجله ، وقال في صوت بارد كوقع الصوت : « يفتح الله ، يفتح الله ، باكر بتجي تدور الدين) .

وقبل أن ينطلق الحمار بعيداً أبصر محجوب ابنته الصغيرة تهرول نحوه مضطربة فرحة . فتحرك في قلبه أمل بدأ عسيراً مستحيلاً أبعده عنه . ولم ينتظر الطفلة ريثما تصل ، بل أسرع نحوها يسألها عن الخبر : (شنو ؟ مالك ؟) وحاولت الصبية أن تفض إليه النبأ بصوت متكسر الثغ : (النــاس ... دالو ودست البنات دا من مسر ... وداب لنا معاه دواب من حسن اخوي) .

جواب من حسن ؟ وانطلق الرجل كالمجنون لا يفكر

ولا يعي بنبض قلبه معربداً - بين جنبيه . يطغي الأمل بين حناياه مرة على اليأس ، ويفيض اليأس تارة فيغرق الأمل . وابنته الصغيرة تمسك بطرف ثوبه المتسخ ، تسرع جاهدة لـكي تمشي معه ، وهي أثناء ذلك تتباكى محتجة على خطوات أبيها المسرعة .

وفي بيت (ناس ست البنات) انتظر محجوب بـين صفوف المستقبلين . وفي غمرة اضطرابه لم يفت عينه المستطلعة رجال يعرفهم جاؤوا يسألون عن أبنائهم وأقاربهم ونسوة يعرفهن جئن يسألن عن ازواجهن وابنائهن . كلهم آمال مثل آماله ، تجاذب اليأس ويغالبها اليأس . ولم تخطىء عينه الشاب الذي عاد من مصر ، ودست البنات يرتدي ملابس نظيفة ككل عائد من السفر ، ويتكلم لهجة غريبة على شيخ محجوب ، بادي الثقة بادي الكبرياء . وأخيراً لمح الشاب شيخ محجوب بين المستقبلين فدلف نحوه مبتسماً . وشعر الرجل بالضيق والحرج ، إذ تحوّلت كل الأبصار نحوه . ولم يـع شيخ محجوب من كلام محدثه إلا (حسن مبسوط — قال لك تعفي عنه . أرسل لك ثلاثين جنيه وطرد ملابس) .

وفي الطريق إلى بيته تحسس الرجل رزمة المال التي صرها جيداً في طرف ثوبه ، ثم غرس أصابعه في الطرد السمين تحت إبطه ، وانحـــدر طرفه من علٍ إلى غابة النخل الكثيفة الممتدة عند أسفل البيوت ، وتميز في وسطها نخلته ، ممشوقة متغطرسة جميلة تتلاعب بجريدها نسمات الشمال . وخيل إليه أن سعف النخلة يرتجف مسبحاً : (يفتح الله ، يفتح الله) .

حفنة تمر

لا بد انني كنت صغيراً جداً حينذاك. لست اذكر كم كان عمري تماماً ، ولكنني أذكر أن الناس حين كانوا يرونني مع جدي كانوا يربتون على رأسي ، ويقرصونني في خدي ، ولم يكونوا يفعلون ذلك مع جدي . العجيب انني لم أكن أخرج أبداً مع ابي ، ولكن جدي كان يأخذني معه حيثما ذهب ، إلا في الصباح حين كنت أذهب إلى المسجد ، لحفظ القرآن . المسجد والنهر والحقل ، هذه كانت معالم حياتنا . أغلب أندادي كانوا يتبرمون بالمسجد وحفظ القرآن ولكنني كنت أحب الذهاب إلى المسجد . لا بد أن السبب انني كنت سريع الحفظ ، وكان الشيخ يطلب مني دائماً أن أقف وأقرأ سورة الرحمن ، كلما جاءنا زائر . وكان الزوار يربتون على خدي ورأسي ، تماماً كما كانوا يفعلون حين يرونني مع جدي . نعم كنت احب المسجد . وكنت أيضاً أحب النهر . حالما نفرغ من قراءتنا وقت الضحى ، كنت أرمي لوحي الخشبي ، واجري كالجن إلى أمي ، والتهم

إفطاري بسرعة شديدة واجري إلى النهر وأغمس نفسي فيه. وحين أكلُّ من السباحة ، كنت أجلس على الحافة. واتأمل الشاطيء الذي ينحني في الشرق ويختبىء وراء غابة كثيفة من شجر الطلح . كنت أحب ذلك. كنت اسرح بخيالي وأتصور قبيلة من العمالقة يعيشون وراء تلك الغابة ... قوم طـــوال فحال لهم لحى بيضاء وأنوف حادة مثل أنف جدي . أنف جدي كان كبيراً حاداً . قبل أن يجيب جدي على أسئلتي الكثيرة ، كان دائماً يحك طرف انفـه بسبابته . ولحية جدي كانت غزيرة ناعمة بيضاء كالقطن . لم أرَ في حياتي بياضاً انصع ولا اجمل من بياض لحية جدي . ولا بد أن جدي كان فارع الطول ، إذا انني لم أرَ احداً في سائر البلد يكلم جدي إلا وهو يتطلع إليه من اسفل، ولم ارَ جدي يدخل بيتاً إلا وكان ينحني انحناءة كبيرة تذكرني بانحناء النهر وراء غابة الطلح. كان جدي طويلاً ونحيلاً وكنت احبه واتخيل نفسي ، حين استوي رجلاً ، اذرع الأرض مثله في خطوات واسعة. واظن جدي كان يؤثرني دون بقية احفاده. ولست الومه ، فأولاد اعمامي كانوا اغبياء وكنت انا طفلا ذكياً . هكذا قالوا لي . كنت اعرف متى يريدني جدي ان اضحك ومتى يريدني ان اسكت ، وكنت اتذكر مواعيد صلاته ، فاحضر له « المصلاة » واملأ له الابريق قبل ان يطلب ذلك مني . كان يلذ له في ساعات راحته ان يستمع اليّ اقرأ له من القرآن بصوت منغم ، وكنت اعرف من وجه

جدي انه ايضاً كان يطرب له . سألته ذات يوم عن جارنا مسعود . قلت لجدي : (اظنك لا تحب جارنا مسعود ؟) فاجاب بعد ان حك طرف انفه بسبابته: (لانه رجل خامل وانا لا احب الرجل الخامل) . قلت له : وما الرجـــل الخامل ؟) فاطرق جدي برهة ثم قال لي : (انظر الى هذا الحقل الواسع . ألا تراه يمتـــد من طرف الصحراء الى حافة النيل مائة فدان ؟ هذا النخل الكثير هل تراه ؟ وهذا الشجر؟ سنط وطلح وسيال . كل هذا كان حلالاً بارداً لمسعود ، ورثه عن أبيه) . وانتهزت الصمت الذي نزل على جدي ، فحولت نظري عن لحيته وادرته في الارض الواسعة التي حددها لي بكلماته . (لست ابالي من يملك هذا النخل ولا ذلك الشجر ولا هذه الارض السوداء المشققة . كل ما اعرفه انهـا مسرح احلامي ومرتع ساعات فراغي).بدأ جدي يواصل الحديث : (نعم يا بنيّ . كانت كلها قبـل اربعين عاماً ملكاً لمسعود . ثلثاها الآن لي انا) . كانت هذه حقيقة مثيرة بالنسبة لي ، فقد كنت احسب الارض ملكاً لجدي منذ خلق الله الارض . (ولم اكن املك فداناً واحداً حين وطئت قدماي هذا البلد . وكان مسعود يملك كل هذا الخير . ولكن الحال انقلب الآن، واظنني قبل ان يتوفاني الله سأشتري الثلث البـاقي ايضاً) . لست ادري لماذا احسست بخوف من كلمات جدي . وشعرت بالعطف على جارنا مسعود . ليت جدي لا يفعل ! وتذكرت غناء مسعود وصوته الجميل وضحكته القوية التي تشبه صوت

الماء المدلوق . جدي لم يكن يضحك أبـداً . وسألت جدي لماذا باع مسعود ارضه ؟ (النساء) . وشعرت من نطق جدي للكلمة ان (النساء) شيء فظيـع . (مسعود يا بنيّ رجـل مزواج كل مرة تزوج امرأة باع لي فدناً او فدانين) .
وبسرعة حسبت في ذهني ان مسعود لا بد ان تزوج تسعين امرأة ، وتذكرت زوجاته الثـلاث وحاله المبهدل وحمارته العرجاء وسرجه المكسور وجلبابه الممزق الايدي . وكدت اتخلص من الذكرى التي جاشت في خاطري ، لولا انني رأيت الرجل قادماً نحونا ، فنظرت الى جدي ونظر اليّ . وقـال مسعود : « سنحصد التمر اليوم ، ألا تريـد أن تحضر ؟ »
وأحسست انه لا يريد جدي ان يحضر بالفعل . ولكن جدي هب واقفاً ، ورأيت عينه تلمع برهة ببريق شديد، وشدني من يدي وذهبنا الى حصاد تمر مسعود . وجاء أحد لجدي بمقعد عليه فروة ثور . جلس جدي وظللت أنا واقفاً . كانوا خلقاً كثيراً . كنت أعرفهم كلهم،ولكنني لسبب ما أخذت أراقب مسعوداً . كان واقفاً بعيداً عن ذلك الحشد كأن الأمر لا يعنيه ، مع ان النخل الذي يحصد كان نخله هو ، وأحياناً يلفت نظره صوت سبيطة ضخمة من التمر وهي تهوي من علٍ.
ومرة صاح بالصبي الذي استوى فوق قمة النخلة، وأخذ يقطع السبيط بمنجله الطويل الحاد : « حاذر لا تقطع قلب النخلة ».
ولم ينتبه أحـد لما قال ، واستمر الصبي الجالس فوق قمة النخلة يعمل منجله في العرجون بسرعة ونشـاط ،

واخذ السبط يهوي كشيء ينزل من السماء . ولكنني انا اخذت افكر في قول مسعود : « قلب النخلة » وتصورت النخلة شيئاً يحس له قلب ينبض . وتذكرت قول مسعود لي مرة حين رآني اعبث بجريد نخلة صغيرة : « النخل يا بنيّ كالآدميين يفرح ويتألم » . وشعرت بحياء داخلي لم أجد له سبباً . ولما نظرت مرة أخرى إلى الساحة الممتدة أمامي رأيت رفاقي الأطفال يموجون كالنمل تحت جذوع النخل يجمعون التمر ويأكلون اكثره . واجتمع التمر اكواماً عالية . ثم رأيت قوماً أقبلوا واخذوا يكيلونه بمكاييل ويصبونه في أكياس . وعددت منها ثلاثين كيساً . وانفض الجمع عدا حسين التاجر وموسى صاحب الحقل المجاور لحقلنا من الشرق ، ورجلين غريبين لم ارَهما من قبل . وسمعت صفيراً خافتاً ، فالتفت فاذا جدي قد نام ، ونظرت فإذا مسعود لم يغير وقفته ولكنه وضع عوداً من القصب في فمه وأخذ يمضغه مثل شخص شبع من الأكل وبقيت في فمه لقمة واحدة لا يدري ماذا يفعل بها . وفجأة استيقظ جدي وهب واقفاً ومشى نحو أكياس التمر وتبعه حسين التاجر وموسى صاحب الحقل المجاور لحقلنا والرجلان الغريبان. وسرت انا وراء جدي ونظرت إلى مسعود فرأيته يدلف نحونا ببطء شديد كرجل يريد أن يرجع ولكن قدميه تريد ان تسير إلى أمام .وتحلقوا كلهم حول اكياس التمر واخذوا يفحصونه وبعضهم اخذ منه حبة او حبتين فأكلها. واعطاني جدي قبضة من التمر فاخذت امضغه . ورأيت مسعوداً يملأ راحته من التمر ويقربه من أنفه

ويشمه طويلاً ثم يعيده إلى مكانه . ورأيتهم يتقاسمونه .حسين التاجر أخذ عشرة أكياس ، والرجلان الغريبان كل منهما أخذ خمسة أكياس . وموسى صاحب الحقل المجاور لحقلنا من ناحية الشرق أخذ خمسة أكياس ، وجدي أخذ خمسة أكياس . ولم أفهم شيئاً . ونظرت إلى مسعود فرأيته زائغ العينين تجري عيناه شمالاً ويميناً كأنهما فأران صغيران تاهـا عن جحرهما . وقال جدي لمسعود : مـا زلت مديناً لي بخمسين جنيهـا نتحدث عنها فيما بعد » ونادى حسين صبيانه فجاؤوا بالحمير ، والرجلان الغريبان جاءا بخمسة جمال . ووضعت أكياس التمر على الحمير والجمال.ونهق أحد الحمير وأخذ الجمل يرغي ويصيح. وشعرت بنفسي أقترب من مسعود . وشعرت بيدي تمتد اليه كأني أردت أن المس طرف ثوبه . وسمعته يحدث صوتاً في حلقه مثل شخير الحمل حين يذبح . ولست أدري السبب ، ولكنني أحسست بألم حاد في صدري . وعدوت مبتعداً . شعرت انني أكره جدي في تلك اللحظة . وأسرعت العدو كأنني أحمل في داخـل صدري سرا أود أن أتخلص منه . ووصلت إلى حافة النهر قريباً من منحناه وراء غابة الطلح. ولست أعرف السبب ، ولكنني أدخلت أصبعي في حلقي وتقيأت التمر الذي أكلت .

رسالة إلى إيلين

عزيزتي إيلين ،

الآن أنتهيت من فض حقائبي . أنت عظيمة ولست أدري ماذا أفعل بدونك . كل شيء يلزمني وضعْتِهِ في الحقائب . تسعة قمصان « فان هوسن » ثلاثة منها لا تحتاج للكيّ . « أغسلها ونشفها والبسها » . وأنت تعلمين انني لن أفعل شيئاً من هذا القبيل . ربطة العنق التي أشتريتها لي في العام الماضي في بوند ستريت ، وجدتها مع خمس كرافتات أخرى . « خمس كرافتات تكفيك. أنت لن تخرج كثيراً ولن يدعوك أحد لحفلة . وإذا دعيت فلا تذهب » . كم أحببتك لأنك لم تنسي أن تضعي في حقائبي هذه الربطة ... ربطة عنق قرمزية اللون ، واحدة من ملايين الأشياء الصغيرة التي تشد قلبي إليك ... في مثل هذا الوقت من العام الماضي ، بعد ثمانية أشهر من معرفتي إياك ، في القطار الذي يسير تحت الأرض ، الساعة السادسة والناس مزدحمون ، ونحن واقفان وأنت متكئة عليّ ، فجأة قلت لك : « انني أحبك . أريد

أن أتزوجك » . احمرّ خداك والتفت الناس إلينا . طيلة ثمانية أشهر عرفتك فيها لم أقل لك أنني أحبك . كنت أتهرب وأداري وأزوغ . ثم فجأة وسط الزحام ، في الساعة السادسة مساء ، حين يعود الناس التعبين مرهقين إلى بيوتهم بعد عمل شاق طيلة اليوم ، فجأة خرجت الكلمة المحرمة من فمي وكأنني محموم يهذي . لا أعلم أي شيطان حرك لساني ، أي ثائر أثارني ، ولكنني شعرت بسعادة عظيمة ، في تلك الساعة ، في ذلك الجو الخانق ، بين تلك الوجوه الكالحة المكدودة التي أختفت وراء صحف المساء . ولما خرجنا ضغطت على يدي بشدة ، ورأيت في عينيك طيفاً من دموع ، وقلت لي: « انك مهووس . أنت أهوس رجل على وجه البسيطة . ولكنني أحبك . إذا رأيت أن تتزوجني فأنت وشأنك » .

ثمانية أشهر وأنا أتهرب وأحاور وأحاضر . أحاضرك في الفوارق التي تفرقنا . الدين والبلد والجنس . أنت من ابردين في سكتلندا وأنا من الخرطوم . أنت مسيحية وأنا مسلم . أنت صغيرة مرحة متفائلة ، وأنا قلبي فيه جروح بعد لم تندمل . أي شيء حببني فيك ؟ أنت شقراء زرقاء العينين ممتلئة الجسم ، تحبين السباحة ولعب التنس ، وأنا طول عمري أحن إلى فتاة سمراء ، واسعة العيون ، سوداء الشعر ، شرقية السمات ، هادئة الحركة . أي شيء حبّبك فيّ ، أنا الضائع الغريب ، أحمل في قلبي هموم جيل بأسره ؟ أنا المغرور القلق المتقلب المزاج ؟ « لا تتعب عقلك في تفسير

كل شيء . أنت حصان هرم من بلد متأخر ، وقد أراد القدر أن يصيبني بحبك . هذا كل مـا في الأمر . تذكر قول شيكسبير . كيوبيد طفل عفريت . ومن عفرتته أنه أصاب قلبي بحب طامة كبيرة . مثلك » . وتضحكين ، ويقع شعرك الذهبي على وجهك فتردينه بيدك ، ثم تضحكين ضحكتك التي تحاكي رنين الفضة . وذهبنـا إلى مطعم صيني واحتفلنا ، وكنت نسيت أن اليوم هو يوم ميلادي . أنا لا أحفل بأمسي ولا بيومي وأنت تحفلين بكل شيء . أنت تذكرت ، فأحضرت ربطة العنق القرمزية هذه . كم أحبك لأنك وضعتها بين متاعي .

عزيزتي إيلـين ،

هذه هي الليلة الأولى بدونك ... منذ عام . منذ عام كامل. ثلاثمائة وخمس وستون ليلة،وأنت تشاركينني فراشي ، تنامين على ذراعي ، تختلط أنفاسنا وعطر أجسادنا ، تحلمين أحلامي ، تقرأين أفـكاري ، تحضرين أفطاري ، نستحم معاً في حمام واحد ، نستعمل فرشـاة أسنان واحـدة ، تقرأين الكتاب وتخبرينني بمحتواه فأكتفي بك فلا أقرأه . تزوجتني، تزوجت شرقاً مضطرباً على مفترق الطرق ، تزوجت شمساً قاسية الشعاع ، تزوجت فكراً فوضوي ، وآمـالاً ظمأى كصحاري قومي . الليلة الأولى عداك يا طفلة من ابردين – وضعتهـا الأقدار في طريقي . تبينتك وآخيتني . « يا أختاه . يا أختاه » . البذلة الرمادية الـتي تؤثرينها –

« ثلاث بدل أكثر من الكفاية . رجل متزوج يقضي شهراً مع أهله لن يحفل بك أحد ، ولن تهتم بك صبايا بلدك ، ولا حاجة بك الى هندمة نفسك والاعتناء بشكلك . ومهما يكن فان شكلك لا تجدي معه هندمة . أذهب وعد اليّ سليماً : إذا ضحكت لك منهن فتاة فكشر في وجهها » .

اطمئني فلن تضحك لي فتاة . أنا في حسابهن كنخلة على الشاطيء اقتلعها التيار وجرفها بعيداً عن منبتها . أنا في حسابهن تجارة كسدت . لكن ما أحلى الكساد معك .

الليلة الأولى بدونك . وبعدها ليالٍ ثلاثون كمفازة ليس لها آخر . سأجلس على صخرة قبالة دارنا وأتحدث إليك . أنا واثق أنك تسمعينني . أنا واثق ان الرياح والكهرباء التي في الأثير والهواجس التي تهجس في الكون ، سترهف آذانها ، وستحمل حديثي إليك . موجات هوج من قلبي ، تستقبلها محطة في قلبك . حين تنامي مدّي ذراعك حيث أضع رأسي على الوسادة ، فانني هناك معك . حين تستيقظين قولي « صباح الخير » فانني سأسمع وأرد . أجل سأسمع . أنا الآن أسمع صوتك العذب الواضح تقولين لي : « اسعد في عطلتك ولكن لا تسعد أكثر مما يجب . تذكر انني هنا أتضوى وأنتظرك . ستكون مع أهلك فلا تنسَ انك برحيلك ستتركني بلا أهل » .

أتم الخطاب وثناه أربع ثنيات ووضعه في الغلاف ، ثم كتب العنوان . ورفعه بين اصبعيه وتمعنه طويلاً في صمت كأن فيه

سراً عظيما . نادى اخاه الصغير وأمره بالقائه في البريد .مرت بعد ذلك مدة لم يعرف حسابها ، لعلها طالت أو قصرت ، وهو جالس حيث هو لا يسمع ولا يرى شيئاً . وفجأة سمع ضحكة عالية تتناهى اليه من الجناح الشمالي في البيت.ضحكة أمه . واتضح لأذنيه اللغط ، لغط النساء اللائي جئن يهنئن أمه بوصوله سالماً من البلد البعيد . كلهن قريباته . فيهن العمة والخالة وأبنة العم وأبنة الخاله . وظل كذلك برهة . ثم جاء أبوه ومعه حشد من الرجال . كلهم اقرباؤه . سلموا عليه وجلسوا . جي بالقهوة والشاي وعصير البرتقال وعصير الليمون . شيء يشبه الاحتفال . سألوه اسئلة رد عليها ، ثم بدأوا في حديثهم الذي ظلوا يتحدثونه طول حياتهم . وشعر في قلبه بالامتنان لهم أنهم تركوه وشأنه . وفجأة تضخمت في ذهنه فكرة أرتاع لها . هؤلاء القوم قومه . قبيلة ضخمة هو فرد منها . ومع ذلك فهم غرباء عنه . هو غريب بينهم . قبل أعوام كان خلية حيّة في جسم القبيلة المترابط.كان يغيب فيخاف فراغاً لا يمتليء حتى يعود . وحين يعود يصافحه أبوه ببساطة وتضحك أمه كعادتها ويعامله بقية أهله بلا كلفة طوال الايام التي غابها . أما الآن .. أبوه أحتضنه بقوة وأمه ذرفت الدموع وبقية أهله بالغوا في الترحيب به . هذه المبالغة هي التي أزعجته . كأن احساسهم الطبيعي قد فتر فدعموه بالمبالغة .

« طويل الجرح يغري بالتناسي » .

وسمع صوت ايلين واضحاً عذباً تقول له وهي تودعه :

« أرجو من كل قلبي أن تجد أهلك كما تركتهم ، لم يتغيروا . أهم من ذلك من أن تكون أنت لم تتغير نحوهم » .

آه منك يا زمان النزوح !

دومة ود حامد

لو جئت بلدنا سائحاً ، فأغلب الظن يا بنيّ انك لن تمكث فيها طويلاً . تجيئنا شتاء وقت لقاح النخل ، فترى سحابة داكنة ربضت على البلد · ليس هذا يا بنيّ غباراً ولا هو بالضباب الذي يثور بعد وقوع المطر . هذا سرب واحد من أسراب (النـّمتّة) التي تربط على الداخلين الينا أفواه الطرق . لعلك رأيت هذه الآفة من قبل . لكن هذا النوع منها احلف انك ما رأيته قط . هاك يا بنيّ هذه الشبكة من « التل » فضعها على رأسك . انها لن تقيك هذه الشياطين ، ولكنها تقويك على احتمالهم . اذكر صاحبا لابني يزامله في المدرسة ، استضافه عندنا قبل عام في مثل هذا الوقت . أهله من البندر ، بات عندنا ليلة ، وأصبح متورم الوجه محموماً مزكوماً . وحلف لا يبيت ليلة أخرى عندنا .

وتجيئنا صيفاً فتجد عندنا ذباب البقر — ذباب ضخم كحملان الخريف ، كما نقول بلهجتنا . ومن هذا البلاء أهون

عليك « النمتة » الف مرة . انه يا بنيّ ذباب متمرس ، يعض ويلسع ويطن ويزن ، وعنده حب عظيم لبني آدم ، إذا شم رائحتهم لازمهم ملازمة .هش عنك يابنيّ — قاتل الله«النمتة».

وتجيئنا في وقت ليس صيفاً ولا شتاء ، فلا تجد شيئاً . أنت ولا شك يا بنيّ تقرأ الجرائد كل يوم ، وتسمع الاذاعات وتزور السينما مرة أو مرتين في الاسبوع . إذا مرضت فمن حقك أن تعالج في المستشفى ، وإذا كان لك ابن فمن حقه ان يتعلم في المدرسة . أنا أعرف يا بنيّ انك تكره الطرقات المظلمة ، وتحب أن ترى ضوء الكهرباء يتوهج ليلا . وأنت لست شغوفاً بالمشي ، وركوب الحمير يحدث ندوباً في مقعدك . ياليت يا بنيّ ، يا ليت ... الطرقات المرصوفة في المدن . المواصلات الحديثة .. العربات الجميلة المريحة . ليس عندنا من كل هذا شيء .. نحن قوم نعيش على الستر

سترحل عن بلدنا غداً ، أنا واثق من ذلك، وحسناً تفعل ، مالك ولهذا العناء ؟ نحن قوم جلودنا ثخينة ، ليست كجلود سائر الناس . لقد اعتدنا هذه الحياة الخشنة ، بل نحن في الواقع نحبها ، لكننا لا نطلب من أحد أن يجشم نفسه مشقة الحياة عندنا . سترحل في غد يا بنيّ — اني أعلم ذلك ولكن قبل أن ترحل دعني أريك شيئاً واحداً — قل اننا نعتز به . عندكم في المدن المتاحف — أماكن تحفظ تاريخ القطر والأمجاد السالفة . هذا الشيء الذي أحب أن أريكه ، قل انه متحف. شيء واحد نصر ان يراه زوارنا .

مرة جاءنا واعظ ارسلته الينا الحكومة ليقيم عندنا شهراً. وحلّ علينا في موسم لم يرَ ذباب البقر أسمن منه في ذلك الموسم. تورّم وجه الرجل في اليوم الأول. وتصبر وصلى بنا صلاة العشاء في الليلة الثانية، وحدثنا بعد الصلاة عن مباهج الحياة في الفطرة. وفي اليوم الثالث أصابته حمى الملاريا، وأصابته الدسنتاريا وانسدت عيناه تماماً. زرته في عصر ذلك اليوم فوجدته طريح الفراش، يقف على رأسه غلام يهش عنه الذباب. فقلت له: «يا شيخ، ليس في بلدنا شيء نريكه، ولكني أحب أن ترى دومة ودحامد». ولم يسألني ما دومة ود حامد – وان كنت أرجح انه سمع بأمرها، فمنذا الذي لم يسمع بها؟ – ولكنه رفع إليّ وجهاً كأنه رئة بقرة ذبيح، وكانت عيناه كما قلت لك مغلقتين، ولكنني كنت أعلم أن وراء أهدابها مرارة. وقال لي: «والله لو كانت دومتكم هذي دومة الجندل، وكنتم المسلمين تقاتلون مع علي ومعاوية، وكنت أنا حكماً بينكم في يديّ هاتين مصائركم، ما تحركت من مكاني هذا شبراً». وبصق على الأرض كأنه يشتمني وأشاح عني بوجهه. وسمعنا بعدها ان الشيخ أرسل برقية إلى مرسليه يقول لهم فيها: «ذباب البقر أكل رقبتي، والملاريا حرقت جلدي، والدسنتاريا غرست أسنانها في أحشائي. أقيلوا عثرتي يرحمكم الله. هؤلاء قوم لا حاجة لهم بي ولا بواعظ غيري». ورحل الرجل، ولم ترسل لنا الحكومة واعظاً بعده. لكن قريتنا يا بنيّ شهدت والله رجالاً كباراً ذوي

حول وطول وأسماء في البلد مثل الطبول ، ما ظننا يوماً مجرد ظن أنهم سيأتون إلى هنا – جاءوا والله أفواجاً أفواجا .

ها قد وصلنا .. تصبّر يا بنيّ – ماهي إلا ساعة وتهب نسمة العصر ، فتخفف من تكالب هذه الآفة على وجهك .

هاهي ذي .. دومة ود حامد . انظر اليها شامخة برأسها إلى السماء . انظر اليها ضاربة بعروقها في الأرض . انظر إلى جزعها المكتنز الممتلىء كقامة المرأة البدينة ، وإلى الجريد في أعلاها كأنه عرف المهر الجامحة . حين تميل الشمس وقت العصر ، ترسل الدومة ظلها من هذه الربوة العالية عبر النهر ، فيستظل به الجالس على الضفة الأخرى . وحين تصعد الشمس وقت الضحى ، يمتد ظل الدومة فوق الأرض المزروعة والبيوت حتى يصل إلى المقبرة . أتراها عقاباً خرافياً باسطاً جناحيه على البلد بكل ما فيها ؟ قررت الحكومة مرة قطعها عندما أرادوا أن ينظموا مشروعاً زراعياً ، وقالوا أن موضع الدومة هذا هو خير موضع لاقامة مكنة الماء . أهل بلدنا كما تراهم منصرفون كل إلى همّ يومه ، ولا أذكر انهم ثاروا على شيء قط . ولكنهم لما سمعوا بأمر قطع الدومة ، هبوا عن آخرهم هبة رجل واحد ، وسدوا على مفتش المركز السبل. كان ذلك في عهد الحكم الأجنبي . وأعانهم الذباب أيضاً ، ذباب البقر . وعلا اللغط من حول الرجل يقولون له إذا قطعتم الدومة فاننا سنحارب الحكومة حتى نموت عن آخرنا . وفعل الذباب فعله في وجه الرجل . فشتت أوراقه في الماء وسمعناه

يصيح : « خلاص .. في دومة .. ما فيش مشروع » . ولم تأتِ مكنـــة ماء ولم يأتِ مشروع ... ولكن بقيت لنا دومتنا .

هيا بنا يا بنيّ إلى البيت ، فليس هذا وقت الحديث خارج البيوت . هـذا الوقت قبل المغيب بقليل ، وقت يتسع فيه نشاط جيش « النمتة » قبل أن ينام . وفي هـــذا الوقت لا يقوى على لسعه إلا من عاشره عشرة طويلة ، وثخن جلده مثلنا. انظر اليها يا بنيّ – إلى الدومة – شامخة آنفةمتكبرة، كأنها .. كأنها صنم قديم . أينما كنت في هذه البلدة تراها ... بل انك لتراها وأنت في رابع بلدة من هنا .

سترحل عن بلدنا غـــدا ، ما في ذلك شك ، هذي آثار الجولة الصغيرة التي قمنا بها بادية على وجهك ورقبتك ويديك أيضاً . لكن قبل أن تذهب سأتم لك قصة الدومة ، دومـة ود حامد . تفضل يا بنيّ . البيت بيتك .

تقول من زرع الدومة ؟

ما من أحد زرعها يا بنيّ . وهل الأرض التي نبتت فيهـا أرض زراعية ؟ ألم ترَ انهـا حجرية مسطحة مرتفعة ارتفاعـاً بيناً عن ضفة النهر كأنها قاعـدة تمثال ، والنهر يتلوى تحتها كأنه ثعبان مقدس من آلهة المصريين القديمة ؟ لا يا بنيّ ، ما من أحد زرعها . اشرب الشاي يا بنيّ ، فأنت محتاج اليه بعد المحنة التي تعرضت لها .. أغلب الظن انها نمت وحدها،ولكن ما من أحد يذكر انه رآها على غير حالتها التي رأيتها عليهـا

الآن . ابناؤنا فتحوا أعينهم فوجدوها تشرف على البلد. ونحن حـــين ترتد بنا ذكريات الطفولة إلى الوراء ، إلى ذلك الحد الفاصل الذي لا تذكر بعده شيئاً ، نجد دومة عملاقة تقف على شط في عقولنا ، كل ما بعده طلاسم فكأنها الحـد بين الليل والنهار . كأنها ذلك الضوء الباهت الذي ليس بالفجر ولكنه يسبق طلوع الفجر . أتراك يا بنيّ تتابع ما أقول ؟ هل تلمس هذا الشعور الذي أحسه في ذهني ولاأقوى على التعبير عنه؟كل جيل يجيء يجد الدومة كأنما ولدت مع مولده ونمت معه . أجلس إلى أهل هذه البلد واستمع اليهم يقصون أحلامهم . يصحو الرجل من نومه فيقص على جاره انه رأى نفسه في أرض رملية واسعة رملها أبيض كلجين الفضة. مشى فيها فكانت رجلاه تغوصان فيقتلعها بصعوبة . ومشى ومشى حتى لحقه الظمأ وبلغ منه الجوع ، والرمل لا ينتهي عند حد . ثم صعد تلا ، فلما بلغ قمته رأى غابة كثة من الدوم في وسطها دومة — دومة طويلة ، بقية الدوم بالنسبة اليها كقطيع الماعز بينهن بعير . وانحدر الرجـــل من التل وبعدها وجد كأن الأرض تطوى له . فما هي إلا خطوة وخطوة وخطوة ، حتى وجد نفسه تحت دومة ود حامـــد . ووجد اناء فيه لبن رغوته معقودة عليه كأنه حلب لساعته ، فشرب منه حتى ارتوى ولم ينقص منه شيء . فيقول له جاره : « ابشر بالفرج بعد الشدة » .

وتسمع المرأة منهن تحكي لصاحبتها : « كأنني في مركب

سائر في مضيق في البحر ، فإذا مددت يدي مسست الشاطىء من كلا الجانبين . وكنت أرى نفسي على قمة موجة هوجاء تحملني حتى أكاد أمس السحاب ، ثم تهوي بي في قاع سحيق مظلم . فخفت وأخذت أصرخ وكأن صوتي قد انحبس في حلقي . وفجأة وجدت مجرى الماء يتسع قليلاً . ونظرت فإذا على الشاطئين شجر أسود خال من الورق له شوك ذو رؤوس كأنها رؤوس الصقور . ورأيت الشاطئين ينسدان عليّ وهذا الشجر كأنـــه يمشي نحوي ، فتملكني الذعر وصحت بأعلى صوتي : « يا ود حامد » . ونظرت فاذا رجل صبوح الوجه له لحية بيضاء غزيرة قد غطت صدره ، رداؤه أبيض ناصع ، وفي يده سبحة من الكهرمان . فوضع يده على جبهتي وقال : « لا تخافي » . فهدأ روعي . ونظرت فاذا الشاطىء يتسع والماء يسيل هادئاً. ونظرت إلى يميني فاذا حقول قمح ناضجة، وسواقٍ دائرة ، وبقر يرعى . ورأيت على الشاطيء دومة ود حامد . ووقف القارب تحت الدومة ، وخرج منه الرجل قبلي ، فربط القارب ومد لي يده فأخرجني . ثم ضربني برفق بسبحته على كتفي ، والتقط من الأرض دومـــة وضعها في يدي . والتفت فلم أجده » وتقول لها صاحبتها : « هذا ود حامد .. تمرضين مرضاً تشرفين منه على الموت . لكنك تشفين منه . تلزمك الكرامة لود حامد تحت الدومة » .

وهكذا يا بنيّ . ما من رجل او امرأة . طفل أو شيخ ، يحلم في ليلة إلا ويرى دومة ود حامد في موضع ما من حلمه .

تسألني لمَ سميت بدومة ود حـــامد ؟ صبراً يا بنيّ .. هاك كوباً آخر من الشاي .

في أول العهـد الوطني جاءنا موظف في الحكومة ، وقال لنا أن الحكومة تنوي أن تنشيء لنا محطة تقف عندهـــا الباخرة . وقال لنا أن الحكومة الوطنية تحب أن تساعدنا وتطورنا ، وكان متحمساً يتحدث ووجهه متهلل . ونظر فإذا الوجوه التي حوله لا تستجيب لشيء مما يقول . نحن يا بنيّ لا نسافر كثيراً ، ولكننا إذا أردنا السفر لأمر مهم – كتسجيل أرض أو النظر في قضية طلاق – فاننا نركب حميرنا ضحى كاملاً ، ثم نأخذ الباخرة من المحطة في البلد المجاورة . لقـــد اعتدنا يا بنيّ على ذلك ، بل نحن من أجل هذا نربي الحمير . فلا غرو أن الموظف لم يرَ على وجوه القوم ما يـدل على انهم سعدوا للنبأ . وفتر حماس الموظف وأسقط في يديه وتلعثم في كلامه . وبعد فترة من الصمت سأله أحـدهم : « أين تكون المحطة ؟ » وقال الموظف انه لا يوجد غير مكان واحـد يصلح محطة – عند الدومة . ولو انك في تلك اللحظة جئت بامرأة وأوقفتها عارية كما ولدتها أمها وسط اولئك الرجال ، لما أثرت دهشتهم اكثرمما فعلت تلك الجملة . وسارع أحدهم فقال للموظف: والباخرة تمر عـادة هنا يوم الأربعاء فإذا عملتم محطة هنا فانها ستقف عندنا عصر الأربعاء » . فقال الموظف ان الموعد الذي سيحدد لوقوف الباخرة في محطتهم سيكون في الرابعة بعد الظهر من يوم الأربعاء . فردّ عليه الرجل : « لكن هذا

هو الوقت الذي نزور فيه ضريح ود حامد عند الدومة ، ونأخذ نساءنا وأطفالنا ، ونذبح نذورنا — نفعل ذلك كل أسبوع » . فرد الموظف ضاحكاً : « إذاً غيروا يوم الزيارة » . ولو ان ذلك الموظف قال لأولئك الرجال في تلك اللحظة أن كلاً منهم ابن حرام ، لما أغضبهم كما أغضبتهم عبارته تلك . فهبوا لتوهم هبة رجل واحـــد ، وعصفوا بالرجل وكادوا يفتكون به ، لولا أني تدخلت فانتزعته من براثنهم ، وأركبته حماراً وقلت له انجُ بنفسك . وهكذا ظلت الباخرة لا تقف عندنا . وما نزال إذا حز بنا الأمر وأردنا السفر ، نركب حميرنا ضحى كاملاً ونأخذ الباخرة من البلد المجاورة ، لكن حسبنا اننا نزور ضريح ود حامد ومعنا نساؤنا وأطفالنا ، نذبح نذورنا كل يوم أربعاء ، كما فعل آباؤنا وآباء آبائنـــا من قبلنا .

امهلني يا بنيّ ريثما أصلي صلاة المغرب ... يقـــولون ان المغرب غريب ، إذا لم تـــدركه في وقته فاتك ... « عبـــاد الله الصالحين .. أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ... السلام عليكم ورحمة الله ... السلام عليكم ورحمة الله » .

وي . وي . هذا الظهر يوجعني منذ أسبوع . ماذا تظنه يا بنيّ ؟ ولكنني أعرف أنه الكبر ... ألا ليت الشباب ... كنت في شبابي آكل نصف الخروف في إفطاري وأتعشى بلبن خمس بقرات وأرفع كيس التمر بيد واحدة . وكذاب من

قال انه صارعني فصرعني . كانوا يسمونني « التمساح » . مرة عمت النيل أدفــع بصدري مركباً موسوقة قمحاً إلى الشاطىء الآخر ... ليلاً . وكان على الشاطىء الآخر رجال على سواقيهم . فلما رأوني أدفع المركب نحوهم ألقوا ثيابهم وفزعوا وفروا . فناديتهم : « يا قوم ما لكم قبحكم الله ؟ ألا تعرفونني ؟ أنا التمساح . أنتم والله الشياطين تخاف من خلقتكم القبيحة » .

هل قلت لي يا بنيّ ماذا نفعل حين نمرض ؟

اني أضحك لأنني أعلم ما يدور في رأسك ... أنتم في البنادر تسارعون إلى المستشفيات لأدنى سبب . إذا جرح اصبع الواحد منكم هرع به إلى « الحكيم » ، فلفه في عصابة وعلقه على رقبته أياماً ، وهو مع هذا لا يطيب . مرة كنت أعمل في حقلي فعض شيء اصبعي ، هذا الاصبع الخنصر . فانتصبتُ قائماً وتلفتّ أبحث عن العشب . فإذا ثعبان لابد . أحلف لك انه في طول ذراعي هذا . فمسكته من رأسه وسحقته بين اصبعي . ثم عضضت اصبعي الملدوغ ومصصت منه الدم . وأخذت حفنة من التراب فدلكته بها !

بيد أن مثل هذا أمر طفيف . مــاذا نفعل في الملمات ؟

جارتنا هذه ... ذات مرة تورم حلقها فاقعدها طريحـة الفراش شهرين . وذات ليلة تكاثرت عليها الحمى ، فنهضت من فراشها سحراً وتحاملت على نفسها حتى اتت .. اجل يا بني.. اتت دومة ود حامد . وتروي المرأة مــا حدث فتقول :

« وقفت تحت الدومة وانالا أ كاد اقوى على الوقوف. وناديت باعلى صوتي : « يا ود حامد – جئتك مستجيرة وبك لائذة.. سارقد هنا عند ضريحك ، وتحت دومتك ، فأما أمتّني واما أحييتني . ولن ابرح مكاني هذا الا على احـــدى الحالتين » . وتستمر المرأة في قصتها فتقول : « وتقلصت على نفسي وانا استشعر الخوف ، وسرعان ما اخذتني النومة . وبينما انا بين النائمة واليقظة ، اذا اصوات ترتل القرآن ، واذا نور حاد كأنه شفرة السكين قد سطع حتى عقد بين الشاطئين .فرأيت الدومة وقد خرت ساجدة . وهلع قلبي ووجب وجيبا حتى ظننته سيخرج من فمي . ورأيت شيخاً مهيباً ابيض اللحية ناصع الرداء ، يتقدم نحوي وعلى وجهه ابتسامة . وضربني بسبحته على رأسي وانتهرني قائلا : « قومي » . وقسماً انني قمت وما ادري انني قمت ، وجئت الى بيتي ولا اعلم كيف جئت . ووصلت عند الفجر ، فايقظت زوجي وولدي وبناتي وقلت لزوجي اوقد النار وضع عليها وعاء الشاي . وقلت لبناتي زغردن . فانكبت علينا البلد . وقسماً ما خفت بعدها ولا مرضت بعدها » .

نعم يا بنيّ ، نحن قوم لا نعرف دروب المستشفيات . في الامور الصغيرة ، كلدغات العقارب والحمى والفكك والكسر ، نلزم الاسرة حتى نشفى . وفي المعضلات نذهب الى الدومة .

هل اقص عليك يا بنيّ قصة ود حامد ؟ ام انك تريد ان تنام؟اهل البندر لا ينامون الا في اخريات الليل–ذلكما اعلمه

عنهم . أما نحن فننام حين يسكن الطير ، ويمتنع الذباب عن مشاكسة البقر ، وتستقر اوراق الشجر على حـــال واحد ، وتضم الدجاج اجنحتها على صغارها ، وترقد الماعز على جنوبها تجتر ما جمعته في يومها من علف. نحن وحيواناتنا سواء بسواء نصحو حين تصحو وننام حين تنام ، وانفاسنا جميعاً تتصاعد بتدبير واحد .

حدثني ابي نقلا عن جدي قال : « كان ود حامد في الزمن السالف مملوكا لرجل فاسق ، وكان من اولياء الله الصالحين ، يتكتم ايمانـــه ولا يجرؤ على الصلاة جهاراً حتى لا يفتك به سيده الفاسق . ولما ضاق ذرعاً بحياته مع ذلك الكافر ، دعا الله ان ينقذه منه . فهتف به هاتف ان افرش مصلاتك على الماء، فاذا وقفت بك على الشاطيء فانزل . وقفت بـه المصلاة عند موضع الدومة الآن ، وكان مكاناً خراباً . فأقام الرجـــل وحده يصلي نهاره ، فاذا جاء الليـــل اتاه امرؤ مـــا بصحاف الطعام ، فيأكل ويواصل العبادة حتى يطلع عليه الفجر ، كان هذا قبل أن تعمر البلد . وكأنما هذه البلدة باهلها وسواقيها وعمارها قد أنشقت عنها الأرض . كذاب من يقول لك انه يعرف تاريخ نشأتها . البلاد الأخرى تبدأ صغيرة ثم تكبر . ولكن بلدنا هذا قـــام دفعة واحدة . أهله لا يزيد عددهم ولا ينتقص ، وهيأته لا تتغير . ومنذ كانت بلدتنا ، كانت دومة ود حامد. يحكى ان أحد لا يذكر كيف قامت ونمت، كذلك لا يذكر

أحد كيف نمت الدومة في أرض حجرية ترتفع على الشاطىء ، وتقوم فوقه كالديدبان » .

حين أخذتك لزيارتها ، هل تذكر يا بني السور الحديدي حولها وهل تذكر اللوح الرخامي القائم على نصب من الحجر ، وقد كتب عليه « دومة ود حامد » ؟ وهل تذكر القبة ذات الأهلة المذهبة فوق الضريح ؟ هـــذا هو الشيء الوحيد الذي وجد على بلدنا منذ ان أنبتها الله. وقصة ذلك كله اقصها عليك الآن.

حين ترحل عنا غداً – وأنت لا شك راحل : متورم الوجه ، متوهج العينين – فأحرى بك يا بني الا تلعننا ، بل ظن بنا خيراً وفكر فيما قصصته عليك الليلة ، فلعلك واجد ان زيارتك لنا لم تكن شراً كلها .

أنت تذكر انـــه كان لنا قبل أعوام نواب وأحزاب ، وضوضاء كبيرة ما كنا نعرف أولها من آخرها. كانت الدروب تسوق الينا أحياناً غرباء تلقيهم على أبوابنـــا ، كما يلقي موج البحر بالحشائش الغريبة . ما منهم أحد زاد على ليلة واحدة عندنا : ولكنهم كانوا ينقلون الينا أنباء الضجة الكبيرة في العاصمة . حدثونا يومها أن الحكومة التي طردت الاستعمار قد استبدلت بحكومة أخرى أكثر ضجة ونوابا . وكنا نسألهم : « من الذي غيرها ؟ فلا يردون علينا جواباً ، ونحن منذ أبينا أن تقوم المحطة عند الدومة ، لم يعد يعكر علينا صفونا أحد. وانقضى عامان ونحن لا نعرف شكل الحكومة ، سوداء هي أو بيضاء ، ورسلها يمرون ببلدنا ولا يقفون فيه ، ونحن نحمد

الله انه كفانا مؤونة استقبالهم . حتى كان قبل أربعة أعوام ، حين حلت حكومة جديدة محل الحكومة الاولى–وكأن هذه السلطة الجديدة شاءت أن تشعرنا بوجودها . صحونا ذات يوم فإذا موظف ذو قبعـــة ضخمة ورأس صغير ومعه جندیان ، وهم عند الدومة يقيسون ويحسبون . سألناهم ما الخبر ، فقالوا ان الحكومة تريد ان تبني محطة تقف عندها الباخرة تحت الدومة . قلنا لهم : « ولكننــــا رددنا عليكم ذلك من قبل ، فلماذا تظنون اننا سنقبله اليوم ؟ » قالوا : « الحكومة التي سكتت عنكم كانت حكومة ضعيفة ، ولكن الحال قد تغير الآن » . ولا أطيل عليك فقد اخذنا بنواصيهم وألقيناهم في الماء ، وانصرفنا الى أعمالنا . وما هو إلا أسبوع حتى أتتنا كوكبة من الجند،وعلى رأسهم ذلك الموظف الصغير الرأس ذو القبعة الكبيرة فنادى بهم ان خذوا هذا وخذوا هذا وخذوا هذا ، حتى أخذوا عشرين رجلاً منا كنت أنا بينهم. وحملونا إلى السجن . ومضى علينا شهر . وذات يوم جاء الجند أنفسهم الذين سجنونا ففتحوا علينــــا الأبواب . وسألناهم ما الخبر . فلم يكلمنا أحد . ولكننا وجدنا حشداً كبيراً خارج السجن – أول ما رأونا هتفوا ونادوا وعانقنا اناس نظيفو الثياب ، تلمـــع على معاصمهم ساعات مذهبة وتفوح نواصيهم برائحة العطر . وحملونا في موكب كبير إلى أن أتينا أهلنا . فوجدنا خلقـاً كبيراً لا أول له ولا آخر ، وعربات واقفة وخيولاً وجمالاً . وقال بعضنا لبعض : « ان ضوضاء

العاصمة قد وصلت عندنا » . وأوقفونا نحن الرجال العشرين صفاً يمر علينا الناس يصافحون أيدينا ... رئيس الوزراء ... رئيس مجلس النواب ... رئيس مجلس الشيوخ ... نائب دائرة كذا ... نائب دائرة كذا ... ونظر بعضنا الى بعض دون ان نفهم ما يدور حولنا ، إلا أن سواعدنا كلت من طول ما صافحت من أولئك الرؤساء والنواب . ثم أخذونا في حشد عظيم إلى حيث الدومـــة والضريح . ووضع رئيس الوزراء الحجر الأساسي للنصب الذي رأيته ، والقبة التي رأيتها ، والسور الذي رأيته . وكما يهب الاعصار برهة ثم يذهب ، اختفى ذلك الحشد كما جاء فلم يبت ليلة عندنا ... وأحسبه ذباب البقر. فقد كان عامها سميناً بديناً يطن ويزن كالعام الذي جاءنا فيه الواعظ .

وقد روى لنا أحد هؤلاء الغرباء الذين تلقيهم الدروب عندنا قصة تلك الضجة فيما بعد فقال : « لم يكن الناس راضين عن تلك الحكومة منذ أن جاءت ، وهم يعلمون انها لم تأتِ إلا بشراء عدد من النواب . وظلوا يتربصون لها الفرص . كانت المعارضة تبحث عن شرارة توقد بها النار . فلما حدث حادث الدومة معكم وأخذوكم فألقوا بكم في السجن ، نشرت الصحف النبأ ، وخطب رئيس الحكومة المقالة في البرلمان خطبة نارية قال فيها : « لقد بلغ من طغيان هذه الحكومة انها أصبحت تتدخل في معتقدات الناس ، في أقدس الأشياء المقدسة عندهم » . ووقف الخطيب وقفة ذات أثر ، ثم قال

وصوته يتهدج بالعاطفة : « اسألوا رئيس وزرائنا الموقر عن دومة ود حامد . اسألوه كيف أباح لنفسه أن يرسل جنده وأعوانه فيدنسوا ذلك المكان الطاهر المقدس ؟ » وحمل الناس الصيحة. واستجابت أفئدة الناس في سائر القطر لحادث الدومة كما لم تستجب لحادث من قبل . لعل السبب أن في كل بلد من بلدان هذا القطر علماً كدومة ود حامد ، يراه الناس في أحلامهم . وبعد شهر من الضوضاء والصراخ والشعور الملتهب ، اضطر خمسون من نواب الحكومة أن يسحبوا تأييدهم منها . فقد أنذرتهم دوائرهم انهم إما أن يعلنوا ذلك ، وإلا فهذه الدوائر التي انتخبتهم تنفض أيديها منهم . وهكذا سقطت الحكومة وعادت الحكومة الأولى إلى الحكم، وكتبت الصحيفة الأولى في القطر تقول : « ان دومة ود حامد أصبحت رمزاً ليقظة الشعب » .

ومن يومها ونحن لا نحس للحكومة الجديدة وجوداً . من يومها لم يزرنا أحد من القوم الكبار العمالقة الذين زارونا . وحمدنا الله انه كفانا مشقة مصافحتهم . عادت حياتنا إلى سيرتها الأولى ، لا مكنة ماء ، ولا مشروع زراعة ، ولا محطة باخرة . وبقيت لنا دومتنا تلقي ظلها على الشاطىء القبلي عصراً ، ويمتد ظلها وقت الضحى فوق الحقول والبيوت حتى يصل إلى المقبرة . والنهر يجري تحتها كأنه أفعى مقدسة من أفاعي الأساطير . بيد أن بلدنا قد زاد نصباً رخامياً وسوراً حديدياً وقبة ذات أهلة مذهبة .

ولما فرغ الرجل من كلامه ، نظر إليّ وعلى وجهه ابتسامة غامضة ترفرف على جانبي فمه كضوء المصباح الخافت . فقلت له : « ومتى تقيمون طلمبة الماء والمشروع الزراعي ومحطة الباخرة ؟ » فأطرق برهة ثم أجابني : « حين ينام الناس فلا يرون الدومة في أحلامهم » . قلت له : « ومتى يكون هذا ؟ » فقال : « ذكرت لك أن ابني في البندر يدرس في مدرسة . انني لم الحقه بها . ولكنه هرب. سعى اليها بنفسه. انني أدعوا أن يبقى حيث هو فلا يعود . حين يتخرج ابن ابني من المدرسة ويكثر بيننا الفتيان الغرباء الروح ، فلعلنا حينئذ نقيم مكنة الماء والمشروع الزراعي .. لعل الباخرة حينئذ تقف عندنا .. تحت دومة ود حامد » .

فقلت له : « وهل تظن أن الدومة ستقطع يوماً ؟ »فنظر اليّ ملياً ، وكأنه يريد ان ينقل اليّ خلال عينيه المتعبتين الباهتتين مالا تقوى على نقله الكلمات : « لن تكون ثمة ضرورة لقطع الدومة . ليس ثمة داعٍ لازالة الضريح . الامر الذي فات على هؤلاء الناس جميعاً أن المكان يتسع لكل هذه الأشياء-يتسع للدومة والضريح ومكنة الماء ومحطةالباخرة». وبعد أن صمت برهة نظر إليّ نظرة لا أدري كيف أصفها ، ولكنها أثارت في نفسي شعوراً بالحزن – الحزن على أمر مبهم لم أستطع تحديده . ثم قال : « أنت لا شك راحل عنا غداً. فإذا وصلت إلى حيث تقصد ، فاذكرنا بالخير ولا تقسُ في حكمك علينا » .

... إذا جاءت

« المكتب العالمي لفنون السياحة » .

هكذا بكل بساطة قررت لافتة طولها ثلاثة أمتار ، وعرضها متران ، في إطار أصفر ، لوحتها من خشب البلوط مدهون بطلاء أزرق ، حروف ضخمة بالثلث ، مذهبة ، معلقة على مبنى عتيق ، في الدور الثالث في عمارة متداعية .

أول فكرة خطرت في ذهن أمين ذلك الصباح، عبر عنها بصوت مرتفع : « انه لا يؤمن بتخزين الأفكار » . قال وهو ينظر إلى سقف المكتب . « أنا لا أؤمن بالابتذال في الاعلان. المكتب العالمي لفنون السياحة ؟ هل نحن أصحاب كباريه ؟ هل نحن نبيع العيني ؟ » .

وخطر له وهو يتحدث ان سقف المكتب لا يمانع في طبقة جديدة من طلاء أكثر بهجة . ورفعت سناء أهداب عينيها الطويلة في بطء متعمد . الذي لا يعرفها يحسب انها تدبر إغراء زميلها . « أمين . أنت من هؤلاء المتوهين الذين

ينشدون الكمال في كل شيء » . ولأول مرة ذلك الصباح ، نظر أمين اليها ، نظرة مركزة حاول أن يبالغ في حدتها . سناء فتاة ليست من نوعه . إنها فتاة رخوة : أبوهـــا مدير شركة ، رسبت في امتحان السنة الثانيـــة في الجامعة ثلاث مرات ، وتركتها بمحض إرادتها . لو أرادت البقاء لبقيت . تأتي للمكتب في سيارة فوكسهول موديل ٤٩ ، وتبدو أصغر من سنها . السيارة تبدو أصغر من سنها . قال أمين وقد شعر بألم في جفنه للمجهود الذي بذله في تركيز نظرته . « حين نبالغ في الدعاية لسلعة ، يشعر الناس نحوها بشك تلقائي . يصح أن نسمي هـــذا جهاز الوقاية . العقل الباطن يحمي المستهلك من الوقوع في مأزق . أمين قرأ نتفا من فرويد ، ويروق له أن يزج « العقل الباطن » في ثغرات الحديث .

وبحركة لا إرادية لمست سناء القرطين الطويلين المتدليين من أذنيها كل منهما على شكل هلال ، يتدلى بسلسلة فضية من أذنها . (ترى هل أمين يغمزها ؟) انهـا تبالغ في صبـغ وجهها بالبودرة وشفتيها بالأحمر ، وعطرها قوي لا مفر منه . فساتينها من حرير تحدث حفحفة جافة مثيرة حين تمشي . صوت يابس أملس يشعرك بامتلاء جسدها . وخطر لأمين أن في سناء شيئاً.هي ليست من نوعه ، ولعلها تميل إلى الابتذال. لكن شيئاً فيها يجذبه . وفتح فمه ليتحدث ، فدخل بهـــاء وظل فمه مفتوحاً . وقال بهاء بقسوة مرحة : « ما لك فاغراً فلك هكذا كالأبله ؟ هل باغتتك متلبساً بغزل سناء ؟ »

وضحكت سناء ووقفت . ثم وجدت أن لا داعي للوقوف فجلست . وخطر لأمين أن بهاء شاب مغرور . (ماذايحسب نفسه ؟) ولم تسعفه الذاكرة باسم ممثل من هوليود يشتمه به ، فانقطع حبل الفكرة في ذهنه .

جلس بهاء على مكتبه ، ونفخ على سطحه الزجاجي . لم يكن على المكتب غبار . ولكن بهاء يفعل ذلك كل صباح، كأنه يحشد طاقته للعمل وضع حقيبته الجلدية على المكتب . ضربها بحنان على جنبها . ثم فتحها وأخرج منها دفـــاتر وأوراقاً وكتيبات سياحية نثرها على المكتب : « مررت في طريقي على وكالة كوكس . أعطوني هذه الكتيبـــات . أهم من ذلك انني أغويت فتاة سويدية فرضيت أن تقابلني الليلة » . تنحنحت سناء تلقائياً : « لا بد لي أن أتعلم كيف أسيطر على انفعالاتي » .

فترة صمت .

وقال أمـــين : « هارودز » .

وقالت سناء : « ماذا ؟ » .

ولم يقل بهاء شيئاً .

وقال أمين : « هارودز . اتش . اي . آر . آر . او . دي . اس . متجر في لندن . كم أتوق إلى السفر إلى لندن وشراء سترة صوفية من هارودز » .

وقال بهاء : « ما شاء الله » . ثم قام من مكانه وأدار آلة تكييف الهواء ، فامتلأت الغرفة الصغيرة الرثة بأزيز

مكتوم ، وارتعشت أطـــراف الأوراق ارتعاشاً خفيفاً . آلة تكييف الهواء ، وتلفون جديد أخضر ، ورف لامع أبوابه من الزجاج ، مملوء بكتب كأنها لقطاء اجتمعوا في ملجأ أيتام . مثلاً : « الجزء السابع من دائرة المعـــارف البريطانية » . « المستطرف من كل فن مستظرف » . كتاب عن « القانون الدولي » لمؤلف اسمه ليلينثال . « كيف تتعلم الاسبانية في سبعة أيام دون معلم » . « رحلات ابن بطوطة ». ومن تظن كانت تحـــاكك الركاب مع شيخنا الرحالة ؟ « لو كريشيا بورجيـا » . ثم الجزء الأول من دليل التلفون ، الأسماء بين ألف وجيم . وفي ركن مهجور اختلت « امرأة من روما » بمصطفى صادق الرافعي . وأعجب من ذلك أن « رندلى » سعيد عقل و « مسز ورن » صاحبة برنارد شو ، لم يجد إثماً في أن يناما جنباً إلى جنب . (ما أضيع الأيتام على موائد اللئام) .

لم يجد أمين ما يفعل ، فنظر أمامه . وقع نظره على الجزء الأسفل من جسم سناء خلال فرجة المكتبة . كانت تجلس قبالته ارتعش قليلاً حين رفعت ساقها اليمنى ووضعتها فوق ساقها اليسرى . حوّل أمين بصره إلى خريطة كبيرة للعالم ، معلقة على الجدار لكنه لم يستطع مقاومة الإغراء ، فأدار طرفه ببطء كأنه يقود سيارة بحذر في طريق جبلي . ونظر . أحس بقرصة صغيرة بين كتفيه . وتابع ثنية الفخذ من عند الركبة إلى حيث تاه في طيات الرداء . أحس في أنفه

برائحة الطين المبتل . ثم خطر له خاطر غريب . فخذهـا أبيض وذراعاها محمرتان ونحرها أحمر .

تمطت سناء في تراخٍ مليء بالإيحاء . ونظرت إلى أمين ، وانفرجت شفتاها دون أن تبتسم. وقال أمين في سره : «أنها مبتذلة . أغلب الظن انها سهلة المنال . فتاة بلهاء ، سريعة التأثر ، تقرأ القصص الأوروبية وتحاول ان تحياها . لا يستبعد انهـا قرأت في الليـلة الماضية « عشيق الليدي تشاترلي » ثم خرجت تبحث عن حارس غابة ! » .

أمين قسا في حكمه عليها ففي تلك اللحظة كان بهاء يقول لنفسه : « لماذا تحاول هذه الفتاة أن توهم الناس بانها رخيصة ؟ » تذكر ليلة اخطأ في حكمه عليها فظنها رخيصة طلب منها ان تتعشى معه فقبلت بحماسة . (البرق يلمع أولاً ، ثم يهطل المطر) . تعشيا في مطعم عشاء ما كان ألذ مذاقه وما كان أخف وقعه على القلب ، بين ضحك منها وسحر منه ، وطيف ايروس يرف عليها . أخذ وعطاء . (أول الغيث قطر). ثم خرجا للنزهة في سيارة استعارها من صديق. (في التأني السلامة . وبعض البروق لمعها خلب) . سارا في طريق يحاذي البحر ، هادىء تقل فيه الحركة ، ظلام مثل المخمل ناعم كثيف ، والموج يفعل فعله في الشاطيء ، ونجمة بعيدة تغمز في السماء . (هذا زمان الشد فاشتدي زيم) . وفقدبهاء سيطرته على صوته وهو يقول : « أحب الظلام ، والمطر ، والصحراء . موسمي المفضل هو الشتاء. الربيع أمقته، الربيع

فصل مقيت » . صدق الذي قال : « ايلول للفم فمدّ لي زندك . هل أخبروا أمي أني هنا عندك ؟ » وفكرت سناء ، « محاولة حسنة، من رجل ليست فيه قطرة من شاعرية ».

لم يفهم بهاء شيئاً أول الأمر . لماذا لا تستجيب ؟ ما بالها تجلس هكذا في وقار بعيداً عنه؟ (بعض البروق لمعها خلب). ومد يده فلمس يدها . لم تفعل شيئاً . لم تسحب يدها . لم تصرخ فيه . لم تقترب منه . تركت يدها حيث هي ، ميتة فاقدة الحياة . وكأنها بوسيلة غامضة قد فصلتها عن جسمها . كأن اليد لم تعد جزءاً منها . ظل بهاء كذلك ، يقود السيارة بيد ، ويحاول باليد الاخرى أن ينفخ الحياة في يـد ميتة لا حياة فيها . ثم احس بغباء وحرج ، أحس انه سخيف ، فاستعاد يده من على يدها، وقال لها : « هل نعود ادراجنا؟» فقالت : « من الأفضل » . فكر وهو يدخل في فراشه : « كانت ليلة فاشلة . لكنها تجربة . في المستقبل سأتريث . سأبتعد عن الفتيات الداعرات الظاهر ، العفيفات الباطن . لا يرجى منهن خير» ... ومن أين لأمين أن يفهم سر الابتسامة الساخرة التي ارتسمت على شفتي بهاء ؟

تذكر أمين انه كان يتحدث عن هـارودز ، فتنحنح وقال : « هارودز » . كان بهاء يكتب شيئاً . توقف عن الكتابة . وضع قلمه . نظر إلى أمين مقدار خمس ثوانٍ وسأله بصوت لا يخلو من ضجر : « يا سيدي ماله هارودز ؟ »

« متجر في لندن »

ورفع بهاء صوته : « نعم . أعرف هذا . متجر في لندن في حي اسمه نايتسبردج . أنا أيضاً قرأت عن لندن . لكن ما هي المناسبة ؟ »

ورفع أمين صوته أيضاً : « المناسبة انني لا أحب اسم هذه الوكالة . اسم مبتذل . أنا أؤمن بالاعلان الهادىء . الدعاية الذكية التي تحترم ادراك الزبون . الدعاية في هارودز مثلاً ... »

وقال بهاء : « يا سيدي هارودز شيء ونحن شيء . وعلى أي حال نحن لم نختر الاسم لنرضي نقاد الأدب . اسم والسلام. ماذا في الاسم ؟ »

أمين لم يقتنع . لكنه سكت . (حتماً بهاء مغرور . فيه حب التسلط واضطهاد الغير . لا بد أن أباه قسا عليه في صغره . من أباح له أن ينصب نفسه مديراً للشركة ؟ من يظن نفسه ؟ يأمر وينهي ويوقع على المكاتبات، والحساب في البنك باسمه هو) . هذه الثورة هدأت في قلب أمين ، حين تذكر أن الشركة العالمية لفنون السياحة ، في طول الشهر الذي مضى من عمرها ، لم يكتب لها أحد ، وان فتح الحساب في البنك لم يتعدَّ كونه تعبيراً عن الأمل الوطيد في المستقبل ، من جانب أصحاب الشركة ، وإعراباً عن حسن النية تجاههم من جانب البنك، وان ... وفجأة حدث شيء . شيء حول المكتب الكالح الجدران، والبساط الرث ، وجهاز تكييف الهواء ، وملجأ الكتب اللقيطة ، حولها في برهة

متألقة خارج حدود الزمن ، إلى شيء متكامل ، له معنى وهدف . فجأة بدا كما لو أن الحياة مـا تزال بخير ، وان البروق ليست جميعها تكذب ، وان الآمال ، منها ما يترعرع ويزهر وينضج ويثمر ... دق جرس التلفون . قفزت سناء ، اتسعت فتحة فم أمين ، امتدت يد بهاء في قوة رمزيةمصممة ، ترمز إلى عزم جيل بأسره أن يشق لنفسه طريقاً طريفاً حافلاً ، يعتقد في قمم تضل فيهـــا العين . امتدت يد بهاء فالتقطت سماعة التلفون . تنحنح بهاء ، ولمس شعر رأسه في حركة سريعة قوية ، ومن غور بعيد في جوف صدره ، أخرج صوتاً هادئاً رزيناً ، فيه توثب ، وفيه استعداد للتفاهم . لم يكن صوته المألوف ، لا ، بل هذا هو الصوت الآخر الذي يغري به النجاح . « هالو.المكتب العالمي لفنون السياحة ... ماذا ؟ تريد من ؟ » ثم ، كالثعبان الذي يجمع جسده ويطويه في الجحر ، ضاع الصوت الهادىء الرزين ضاع التوثب . ضاع الاستعداد للتفاهم . لم يعد ثمة نجاح يغري به . وخرج من سقف حلق بهاء صوت أعجف ، نحيل ، حاد النبرات ، هو الصوت الذي ينادي به الخادمة في البيت ، ويعارك به أمه إذا أبت ان تقرضه مالاً ، ويودع به الفتيات في أواخر لياليه الفاشلة . بذلك الصوت قال بهاء للالة الخضراء على مقربة من شفتيه . « يا سيدي هذا ليس المطار . هـذا ، المكتب ، العالمي ، لفنون السياحة » .

(آه منك يا لمع السراب !) .

تعلق بصر سناء بذبابة تدب على الحائط، وتابعت بإحساس متبلد رحلة الذبابة في طريق عسير وعر، فيه جبال وأودية وسهول مصفرة، وحفر تزل القدم فيها على حين غرة، ومنعطفات لم تخطر على بال الذبابة من قبل. وكما يحدث لسناء أحياناً، استيقظت من سباتها فجأة، كأن إنساناً شك إبرة في ذراعها، او كأن ماء بارداً هطل على رأسها دفعة واحدة. وأحست في تلك اللحظة من يقظة الروح، برابطة غريبة تربطها بتلك الذبابة الدائبة السير. (لماذا لا تطير؟ هل قص أحد جناحها؟) كانت الذبابة تكبر في عينيها احياناً، وأحياناً تتضاءل. مرة تسير خبا، مرة تتثاقل خطاها وأحياناً يخيل لسناء انها وقفت تلهث، وتجفف العرق من وجهها. ويقوم في وجه الذبابة، بغتة، نتوء بارز في الحائط، جبل غرسته الأقدار في سبيلها، فتدور حوله، وتتحايل عليه، وترفع رجلها كأنها تريد أن تصعد فيه، فتقع على جنبها، فتقف برهة ساكنة تمتحن الجبل، ثم تواصل السعي. (لماذا لا تطير؟ هل قص أحد جناحها؟) في ذلك الزمان والمكان، ارتبطت «حقيقة» فتاة اسمها سناء، «بحقيقة» ذبابة ليس لها اسم.

أوقف بهاء جهاز تكييف الهواء، فسقطت الذبابة. ولو سألت سناء في تلك اللحظة، لأقسمت لك انها سمعت صرخة حادة مبهمة، وسمعت ارتطام جسم ثقيل بسائل مشلشل كأنه ماء بحر!

وقال أمين وهو يحدق في هوة بعيدة القرار ، وكأنه يخاطب « كا » مجهولاً هو المسؤول عن كل ما حدث : « المكتب العالمي لفنون السياحة . أي نعم ، لفنون السياحة. فتح أبوابه منذ شهر . فهل استفاد أحد من خدماته ؟ أبداً . في مكان ما ، أدار شخص ما قرص التلفون ، وفي نيته أن ينتهي صوته إلى غاية محددة ، فانتهى صوته عندنا . لماذا ؟ »

وكان أحد قد طرق الباب،فلبته سناء ، فإذا صبي كحيل العينين يحمل آلات في حقيبته .

« جئت لأصلح دورة المياه » .

بعد ذلك مرت الدقائق في صخب .

مضى بهاء يقرأ عن بلجيكا ، في أحد الكتيبات التي جاء بها من كوكس وعبر بذهنه طائف سعيد ، شفاف مثل جناح الفراشة ، فقد تراءت له الفتاة السويدية ، ولم يكد يصدق انها بالفعل ستملأ ليلته تلك بأسنانها التي تحاكي اللؤلؤ. ونظر إلى ساعته .

أسبل أمين جفنيه ونظر في استرخاء إلى رقعة العالم الممتدة أمامه على الحائط . وبدت له دنيا عجباً مزرقة مخضرة محمرة . (آه لو طوفت بهذه الدنيا الفسيحة) . مرأى الخرائط ، وجو المطارات ، ورائحة الصيدليات ، هذه الأشياء تثير في قلبه شعوراً من فصيلة واحدة . شعورا

بالحنين لا يبدي كنهه . وتذكر كيف ولد المكتب العالمي لفنون السياحة . كان يقرأ كيف عاش هنري ديفد ثورو في ولدن مكتفياً بذاته . وفجأة لسبب لا يدريـــه أحس في قلبه ذلك الشعور المبين ، ذلك الحنين العجيب . تحولت سطور الكتاب أمام عينيه إلى خرائط واسعة مصقولة ، دنى فسيحة مزرقة مخضرة محمرة . وسمع أزيز ألوف الطائرات تهبط وتصعد في فيافي من الاسفت . وشم ، نعم ، شم رائحة عطور وعقاقير وأدوية وقوارير رشيقة ملفوفة في أوراق ملونة ، تمتد وتورق وتزهر وتفوح في صيدليات لا يحصرها الحصر . من هذا العالم الصافي العطر الرافل ، نبتت فكرة . قامت من حينها كاملة ناضجة فتية .

« ننشىء شركة للسياحة » .

كان قد اجتاز الامتحان النهائي قبل يومين ، وحصل على ليسانس التجارة . (العمل الحر يا بنيّ ، العمل الحر.البحرفي حاجة إلى سباح ، والدنيا هنالك وراء الأفق تنتظر أن‌تبنى) . وقفز من مقعده،فإذا هو عند بهاء في داره . زميله في الصف، شريكه في المخازي ، غريمـــه في المغامرات ، لا بل أخوه وخدن نفسه ، ومع ذلك فقد كانا جد مختلفين .

استقبل بهاء الفكرة دون حماس . ولكن قليلاً قليلاً ، أخذت معالمها تتضح في ذهنه ، أخذت جزئياتهـا تتفاعل وتتداخل وتفترق وتجتمع ، فإذا ثمة أفواج زمر زمر كأنها

الحجيج من أطراف الأرض ، وإذا لهجات ولغات وأزياء ، قبعات وطرابيش وبنادق ، ووحوش مكشرة أنيابها في أدغال وأحراش ، أموال عملات ، أشكالاً ألوانا ، دولارات وسترليني وفرنكات وماركات وليرات . رأى مكتباً عريقاً أنيقاً كأنه كعبة الحجيج في وسط غمام أبيض منقوش كالقطن؛ صبايا حسان مبتسمات الثغور ، ونساء ملتفات الأجسام ، ثغور ونحور واعجاز ونهود ، نساء شقر ملايين ظامئات للحب ، يحومن حول بـــدر في سمائه يدور في أفلاك خارج حدود الكون ... بهاء .

ضرب بقبضة يـده ، وعلى جبينه نزيف الرؤيا ، وقـال وكأنه يتحدى الحياة نفسها ، كأنه يخاطب الأقدار ذاتها : « المكتب العالمي لفنون السياحة » .

لم يسمع أمين شيئاً ، فقد كان هو الآخر تائهاً في دنيا لم يسمع بها أنس ولا جن . ولكن انتفاض المنضدة حمل اليه الخبر ، ان الأمر قد أبرم .

هذا كان قبل شهر . ثم أفلت الأمر من يديه ، واصبحت القسمة قسمة غير عادلة . اصر بهاء على القسم ، وعلى انفاق رأس المال كله في شراء جهاز تكييف الهواء ، والتلفون الأخضر ، وخزانة الكتب ذات الأبواب الزجاجية . اصر على كتابة العقد بخط يده ، العقد الذي يعطيه ستين بالمائة من اسهم الشركة ، مع ان ثلثي رأس المــال ساهمت به سناء ، وفي

العقد بند يذكر شيئاً عن « أعباء الادارة » .

فتحت سناء درج مكتبها ثم اغلقته ، ونبشت في اوراق بين يديها ، ونقبت في حقيبتها ، ثم نسيت عم تنقب ، فكفت ، ووضعت يدها على خدها وتأوهت . وفي لحظة مشحونة بالألم أحست سناء بوطأة العيش .

لو أن الموت زارها في تلك اللحظة القصيرة من عمرها لابتسمت له . أحست بنفسها ممثلة في مهزلة ، نعم ، مهزلة ضالة في متاهة دون هدف . دون هدف . دون هدف . سمعت أهلها ضجة ضخمة في بيت كبير ، وشمت رائحة الثوم . في تلك الليلة الظلماء على شاطىء البحر ، حين لمس بهاء يدها شعرت بالرضا. لمس بهاء يدها فارتعش ابطالها . هل هي تحب بهاء ؟ لعلها تحب بهاء . وصوبت نظرة يائسة نحوه

الصبي الكحيل العينين فرغ من اصلاح دورة المياه ، وخرج والآلات الحديدية تصلصل في حقيبته . خرج دون أن ينظر إلى الأشباح الثلاثة الجالسين هناك . لم يودعهم . وقبل أن يصل إلى الباب التفت نحوهم مذعوراً ، فقد قفزت سناء كأن شيطانا أصابها ، صارخة صرخة بعيدة الغور . انتفض المكتب العالمي لفنون السياحة وارتج . امتلأ بصخب وهرج ، تلاطمت حيطانه ، تأوهت منافذه ، تناثرت أوراقه ثم اتضح أن المذنب صرصار سقط على رأس سناء من الحائط . هدأت سناء من ثورة نفسها ، وهي تحس بالخجل والتبرم

والسخط . وجلست صامتة يهبط صدرها ويعلو ، وفي طويتها شعور بالقلق يفور ويغطس ويطفو ويتمطى ويتقلص ويمتد ، شيء لا بد من التعبير عنه. وفجأة تبلورت الفكرة في ذهنها، كما لو كان سقوط الصرصار على أم رأسها ، برقاً لمع في ديجور دنياها فأنار لها الطريق . وانتصبت واقفة كأنها مدفوعة بقوة خارجة عنها . وجمعت أصابعها على حقيبتها بعزم . (البروق لاتلمع فرادى . البروق تومض ومضات متتابعات ، جماعات جماعات) . وسمعت نفسها تقول : « مهزلة . هذه الشركة مهزلة . لن أعود غدا . سأعود إلى الجامعة . سأتأكد هذه المرة من النجاح » .

« طاخ » .

الاشباح الثلاثة جفلت دفعة واحدة . (البروق لا تلمع فرادى) رعد قصف وفرقـــع في ضوضاء طغت على طنين افكارهم جميعاً ، وحطمت التوتر المسرحي الهائل الذي خلقته سناء بتصريحها الرهيب . وتطاولت اعناقهم جميعاً من خلال النافذة نحو مصدر الصوت في قرار الشارع . وانتفض وجه سناء بغتة ، وضاقت حدقتا عينيها ، ثم غطت وجهها بيديها وجلست ، وظل جسمها كله بما فيه من ثنيـــات ونتوءات وتعاريج ، يهتز بضحك ، جارفاً مبحوحاً متشنجاً ، وهو خليط من نداء الديك للفجر ، وبكاء الأم الثكلى، ونهيق الحمار وتأوه الأنثى في ساعة الخلق . ابتسم أمين ، وعاد بهاء في

صمت فجلس في مكانه . وقال أمين وابتسامته تزيد اتساعاً :
« يا لها من نهاية . هناك في الشارع ، في تلك البئر السحيقة
يرقد جثمان ... » – وهنا ضغط على الكلمات باشمئزاز واضح
« ... المكتب العالمي لفنون السياحة . اسم مبتذل،مكتوب
بحروف مذهبة ، في لافتة سمجة ، ترقد هناك في الشارع » .

وقامت سناء وخرجت، وما يزال يعلق بجسمها اللدن بقايا
ضحك . وتتبعها امين بنظرات فيها جوع ، ثم لحق هو أيضاً
بنظراته .

ظل بهاء جالساً . لم يكُ على وجهه غضب ولا اضطراب
ولا قلق . لا،بل كان طائف من الرضا،نعم،الرضا،يرف على اركان
فمه ، فقد كان يفكر في حسناء سويدية ، ستضيء ظلام ليله
ذاك باسنانها التي تحاكي حبات اللؤلؤ . ونظر الى ساعته ثم
قال بصوت مرتفع ارهفت له الحيطان الرثة،والتلفون الاخضر
والسجاد الذي شهد اياما أكثر رخاء من تلك، والكتب اللاقيطة
في مأواها الزجاجي،وجهاز تكييف الهواء : « اذا جاءت » .

هكذا يا سادتي

هذه الفتاة لم تبتسم لي ؟ ألأنني أجنبي ؟ أم لأن أنفها كبير وفمها واسع وعيناها زرقاوان ؟ أهل هذا البلد يحبون المرأة دقيقة الانف ، صغيرة الفم ، دعجاء العينين . واضح هذا من تحلقهم حول تينك المرأتين .

كانت الفتاة كأنها تقف على الشاطىء الآخر . بيني وبينها بحر من الأمور التافهة . أول ما دخلت القاعة وقعت عيني على فمها الواسع ، رأيت جفنها يرتعش قليلاً . لعلها فهمت . وجاءت ربة البيت ووضعت ذراعها الممتلىء الأملس في ذراعي وساقتني في غمامة من العطر إلى الباقين . لم تفرغ من نطق اسمي حتى افترت ثغور النساء ، مرة واحدة ، ومد الرجال أيديهم . كأنهم كانوا ينتظرون قدومي من زمان طويل . كأنهم دربوا أنفسهم ، واستعدوا للقياي كما يستعد الممثل لمقابلة الجمهور أول مساء أنا الجمهور . من هم اذاً ؟

بلدنا يرحب بك » .
« أهلاً وسهلاً شرفت » .
« نحن جميعاً تحت أمرك » .
« تكرم عينك » .
« ألا تعتقد أن بلدنا أجمل بلد على وجه الأرض ؟ »

كيف أجيب على سؤال كهذا ؟لم أجد مفراً من أن أحول بصري عن صدر المرأة ، وألقيه على الجبل . صحيح ، هو بلد لا يخلو من حسن الجبل متوهج السفوح ، والبحر عند قدميه هادىء شفاف . في أول الليل . هذا صحيح . أما أن هذا البلد هو أجمل بلد على وجه الأرض ...

« صدقت يا سيدتي . بلدكم روعة . لم أكد أصدق عيني . حين حلقت الطائرة فوق شعلة النور هذه ، حسبت انني في في حلم . وما أزال اعتقد انني في حلم » .

وفهمت المرأة ما أعني ، فحمّرت خديها حمرة خفيفة علامة الخجل . اقسم انها دفعت الدم إلى خديهابتعمد وارادة، كأنها تسيطر على شرايينه ومنافذه ومصباته . وتذكرت الفم الواسع فالتفت بعيني دون أن أحول وجهي عن محدثتي . ما تزال تنظر إليّ . هل هي أجنبية مثلي ؟ والتفتت محدثتي بطرف عينها ايضاًإلىحيث وقع نظري ،ولما نظرت إليّ كانعلى وجهها طيف مرح ، كأنها تقول لي : « فهمت » هذه المرأة يجب أن احسب حسابها ، سيكون المساء بيني وبينها ساحة

حرب صامتة ، فاما هزمتني وأما نجوت . هذه الساعة التي تتكتك في جمجمتي ، ليتني استطيع شلها . اذاً لاستمتعت بالسهرة . اذاً لضحكت وغازلت ونافقت ، وأي ضرر ؟ لكنني اعلم انها ستظل تدور . سأفكر ليتني أعطل فكري هذه الليلة ، فأنا متعب وهؤلاء القوم عندهم استعداد ، واريد أن أنام كالطفل . هذا لن يحدث . شيء في داخلي سيقف بمعزل ، يراقبني ويراقب الناس . هذا الصوت الصغير ، سيظل يهمس من داخلي : « خطأ » ، « لا تفعل هذا » ، « سخيف سيوعز إليّ بأن أضحك في الموقف الذي تكفي فيه هزة الرأس . سيدفعني إلى زم شفتي في عناد ، في الموضوع الذي يحسن فيه الضحك . وهذا الطيف الساخر في عيني ماذا أفعل به ؟ سيسمع الناس صوتاً لا يخلو من عذوبة يقول كلاماً معسولاً وقبل أن يقع الكلام حيث أريد له أن يقع، ينظرون إلى الطيف الساخر في عيني ، يكذب كل ما قلت . وضع معقد . لكنني هذه الليلة سأمحو الطيف الساخر، بأي وسيلة . سأشرب إذا استدعى الأمر .

« ويسكي ؟ »

« لا . اشكرك . عصير برتقال » .

ونظر إليّ رب البيت مستغرباً ، نظرة شملتني من رأسي إلى قدمي .

« انت عشت وقتاً طويلاً في انكلترا ، أليس كذلك » ؟

« بلى »

« ومع ذلك لا تشرب ؟ »

«لا عن ورع ، ولكنني ذقت الشراب فلم يرقني. سأشرب هذه الليلة اذا استدعى الأمر » .

وتلفت الرجل حوله كمن يبحث عن معين . وكانت المرأة قد أدارت لنا ظهرها . كانت تضاحك فتاة مسبلة الشعر ، على عينيها نظارة . لكن ظهرها كان معي . اقسم ان ظهرها كان يقول لي كلاماً . تحولت نحونا فجأة ، وقال زوجها :

« هذا الرجل لا يشرب » .

وجحظت عينا المرأة كأن زوجها قال لها: « هذا الرجل هارب من السجن » .

« ماذا ؟ »

«سأشرب هذه الليلة إذا استدعى الأمر ».

« تشرب الآن وإلا صحت بأعلى صوتي ، وجمعت عليك الناس » .

واخذت الكأس من يدها ، وقد أغوتني عيناها . عيناها خضراوان محاطتان بزرقة كالبقع الضحلة في البحر ، وانساناهما واسعان أما بفعل الشراب ، وأما للمجهود العظيم الذي تبذله المرأة لهزيمتي . ما شأنها بي ، هذه المرأة ؟ واضح انها قررت ان تهزمني هذه الليلة ، لكن لماذا ؟ في سنوات مراهقتي ، اثرت النيران في جوفي بأحلام عن هذه المرأة . في مطلع شبابي ، علمتني الحب واحدة كهذه المرأة .

امرأة في نحو الأربعين . امرأة . وجه حي ، وصدر صلب شرس ، وكفل كبير ناتىء . صرخة بدائية هذه المرأة . تخون زوجها ، ما في ذلك شك ، وتنام الليل بجواره لايقلقها شعور بالإثم . لو انـــني الآن تركت نفسي على سجيتها ، لهزمتني دون كبير جهد ، لكنني لن استسلم ، بأي حال من الأحوال ، لن استسلم .

احلف لكم انها قرأت مـــا دار في ذهني ، فضحكت ، وقالت : لا تخف مني . انني لا أعض » .

تحسست بطرف لساني السائل الأصفر ، وحاولت أن احدد لذهني طعمه . (ذهني يطلب مني ان احدد له كل شيء) . لكنني لم أستطع . وتذكرت طعماً آخر ، إحساساً آخر ، حاولت كثيراً ان احدده لذهني فلم استطع . بعض الأمور لا يمكن وصفها ، ولعل إغراق بعض الناس فيها نوع من المثابرة .

« لسانك لونه قرمزي ، كأن في فمك غروب شمس » .

وهنا ، هنا ، يا سادتي ، أحلف لكم انني كدت أنهزم . ضربة واحدة مفاجئة ، اتتني من حيث لا احتسب . أعددت لكل شيء عدته ، أغلقت كل الثغرات ، رسمت الخطط ، وعززت خطوط دفاعي . جبهتي السمراء ، شعري المجعد ، عيناي الطويلتا الأهداب . أما لساني ، فهذا لم يخطر لي على بال ، وأما إن في فمي غروب شمس ! وتراجعت من هـــول

الضربة فضحكت ، وضحكت محدثتي ، وهي تتعمد إبراز أسنانها المنتظمة العاجية ، ومدت لي لسانها .

« يا قوة الله » .

وكدت أقع ، لولا أن هب الماضي لنجدتي . لغير ما سبب ، نفر الجرح الذي في قلبي ، وتذكرت عيونا آخرى ، عينين واسعتين كلها زرقة ، مثل الأماكن العميقة في البحر . تذكرت الأنف الكبير ، غيري كانوا يحسبونه قبحاً ، وكنت أراه جميلاً ، جميلا . سمعت بأذني ضحكة صافية عذبة ، كصوت الماء البارد المدلوق . رأيت أسناناً لم تكن منتظمة ولا عاجية ، ولكنني احببتها . رأيت فماً واسعاً . رأيت حاجبين نبيلين في جبهة متغطرسة . أي شيء لم يعجبني فيها !

مضى على كل هذا عامان ، وما يزال الجرح ينفر في قلبي، وما تزال تتراءى لي عند منعطف كل طريق . هذه المرأة ، لماذا لا تفهم انني ضعيف ، وانني اجنبي ، فتتركني وشأني ، ولاتمد لي لسانها؟ واحسب ان الذكرى انعكست على وجهي، مثل سحابة الشتاء ، فأبعدت المرأة وجهها عني ، واغلقت فمها وأخفت ابتسامتها في مكان ما . يا للغرابة ، حينئذ بدا وجهها كأنه وجه أم لعلي نجوت .

وكأنما هدأ روعي ، واستعدت سيطرتي على نفسي ، فسمعت ضحك الناس حولي . النساء أكثر من الرجال ، والجمال أغلب. تخلصت من الكأس التي في يدي وبحثت عنها.

كانت ما تزال تقف على الشط الآخر ، بيني وبينها البحر ما يزال ، تلك الفتاة الواسعة الفم الكبيرة الأنف الزرقاء العينين . وكانت تراقبني ، كمن يهمها أمري . لعلها أجنبية مثلي . وأحسست بقدميّ تنويان السير تجاهها ، لولا أن دهمني رجل ربعة القامة ، أحمر الوجه ، مكتنز الخصر ، في عينيه وعلى شفتيه فجور ، كأنه كان يقص لأحد حكاية منكر فعله ليلة أمس . هل عاشر جون بتجمن هذا الرجل ؟

« Business men with awkward hips,
And dirty jokes upon their lips » .

دهمني الرجـــل وأنا على مفترق طرق ، وورائي اغواء أحسب انني نجوت منه . وأمامي شوق لا أعرفه ، والبحر ما بيننا . نظر إليّ وكأنه لا يحفل بي . ليس معي شيء يدل هذا الرجل على « مكانتي » . أنا في هذه اللحظة « أجنبي » ، وحدي ، وليس معي شيء يدل هذا الرجل على « مكانتي ». ولا بد انه كان حب الانتقام ، فقلت للرجل ، بصلف اعـلم انه من طبعي ، أحاول جاهدا أن أخفيه ، صلف اعلم انه درع أستر به ضعفي ، قلت للرجل :

« انت لا شك مدير شركة أو بنك أو شيء من هـذا القبيل » .

لو انه كان مثلي ، لهمّه « من هذا القبيل » ، لكنه تذرع بأول الجملة ، وقال في سرور : « نعم. لكن كيفعرفت ؟ » .

لو انني كنت كريماً لأعنت هذا الرجـــل على الفرح ، لكنه أساءني ، وأنا لا أغفر الإساءة . قلت له :

« قرأت جون بتجمن » .

وبينما كان الرجـــل المكتنز الخصر ، الداعر الشفتين ؛ البطيء الذهن يحاول أن يفهم ، خطوت أنا خطوة نحوها .

كنت أحسب انني وحدي المحتفى به ، لكن يبدو أن هنا أكثر من واحد ، كلهم ضيوف شرف . ومـــاذا يهمني ما دام على الشاطىء الآخر مرفأ انزح إليه ؟ لو انها خطت خطوتين ، إذاً لقرّبت عليّ الشقة ، لكنني هكذا سأضطر إلى عبور البحر ، وكل هذه العقبات الصغيرة في الطريق كيف أتغلب عليها ؟ ومن الذي يضمن لي الاّ افعل شيئاً، الاّ اقول شيئاً ، قد يعوقني عن السير ؟ لو انني شربت .

« ويسكي ؟ »

« نعم . أشكرك » .

فضلت هذا على خلق أزمة أخرى . وأمسكت الكأس أديرها في يدي ، وأحرك الضوء في جوانبها ولا أعرف ماذا أقول لهذه الصبية .

« هل زرت بلدنا من قبل ؟ »

« لا . هذه أول مرة » .

لماذا أقول الحقيقة ؟ ولعلي بهذا أفتح مجـالات جديدة للحديث .

« سيعجبك ، ستحبه جداً ، فهذا أجمل بلد في العالم » .

« صدقت . حين حلقت بي الطائرة فوق شعلة النور هذه، حسبت انني في حلم . وما أزال أعتقد انني في حلم » .

ولم تقم أزمة . إذا تمسكت بهـذه الجملة ، فقد اصل إلى المرفأ هذه الليلة سالماً ، وقد لا احتاج الى الشراب .

وخطوت خطوة اخرى نحوها .

« هل هذه أول مرة ؟ »

« نعم أول مرة » .

« سيطيب لك المقام » .

« أنا واثق من هذا » .

« أنا سعيدة بلقائك » .

« أنا السعيد » .

« أنا سعيدة بالتعرف اليك » .

« بل تم لي أنا الشرف » .

« هل تعجبك بلدنا ؟ »

« لا »

وصعقت ، ونظر إليّ الرجل مشدوهاً . هـــذا ما كنت أخشاه . إذا لم أفعل شيئاً ، فقد ينتهي الأمر بكارثة .

وتلفت حولي أبحث عن ملاذ . ولكن لا ملاذ . خفتت ضجة الناس في أذني وعلا لغط آخر ، لم أعد أرى شيئاً غير وجهها . تلك التي ذهبت منذ عامين ، لم أعد أرى غـــير عينيها الزرقاوين تحدقان في غضب ، لم أعد أسمع غير صوتها يقول متحرشاً :

« أنت كالآخرين كذاب منافق » .

تركتني لأنني كذاب منافق ، ومنذ عامـين وأنا أنتقم من نفسي ، ومن الآخرين . لكن ليس الآن ، ليتها تتركني الآن . ولا جدوى لا مهرب .

« هل هذه أول مرة ؟ »

« لا ليست هذه أول مرة » .

« أقمت هنا شهراً قبل اليوم . سرقوني في الفندق » .

« أقمت هنا شهراً قبـل اليوم . عرض عليّ رجل ابنته فبصقت في وجهه » .

« دعوني إلى العشاء ، ودفعت أنا الثمن » .

وظل الصوت الصغير ، يهمس لي : أحسنت » . لكن هذا ليس وقته ، لو انني أشرب . إنما الذي لا بد منه سيحدث .

« قرأت كتبهم ، ثم رأيتهم ، فوجدتهم يقولون شيئاً ، ويفعلون غيره » .

« بلدكم جميل ، لكنه مليء بالحانات والصحف »

من الذي يشرب كل هذه الخمر ؟ من الذي يقرأ كل هذه الصحف ؟

ولم أعد أسمع غير صوتها والصوت الصغير في داخلي يصرخان: « احسنت ، احسنت » ، ولا بد ان صوتي اخذ يعلو ، فقد بدأ الناس ينظرون إليّ كالمشدوهين .

« بلدكم جميل لكن الأخ منكم لا يحب الخير لأخيه » .

« بلدكم مشرق الوجه ، لكن لماذا تمشون عراة في الشتاء وتلبسون الملابس الثقيلة في الصيف ؟ » .

« فتياتكم ممشوقات القدود ، لكن صدورهن كالينابيع الجافة » .

وظل صوتي يعلو ، ولاحظت الناس يبتعدون .

« انتم طيبون ما في ذلك شك . لكنكم تخشون بعضكم البعض ولا تخشون الله » .

« بلدكم جميل . لكنني لم أرَ فيه لحية ولا شارباً » .

« أقمت هنا شهراً قبل اليوم . قالوا لي اننا نحبك.لكنهم كانوا يكذبون » .

ولاحظت الناس يلتصقون بعضهم ببعض حتى أصبحوا كقطيع الضأن حين يدهمه المطر .

« خزائنكم ملأى بالكنوز . لكن المـــال، تنفقونه على الأطباء » .

« بلدكم جميل ، لكن « الغرباء » فيه قليلون »

« أنتم خير امة اخرجت للناس ، لكنكم تضحكون جماعة وتبكون جماعة ، وليس فيكم صوت واحد يرتفع منفرداً كآلة الكمان » .

« انتم شم الأنوف من الطراز الاول ، لكن ليس فيكم واحد يسبح عكس التيار » .

وسمعت فجأة زجاجاً يتحطم ، واحسست بلطمة قوية على فكي . وكأنني استيقظت من نوم ، فرأيت شاباً أشقر يحملق في وجهي بغضب ، وتلفتّ حولي فإذا القوم كلهم قد تجمعوا كتلة واحدة على مبعدة مني ، بعضهم عابس ، بعضهم غاضب ، بعضهم متحرش ، وبعض الوجوه عليها ذلك التعبير الأجوف الذي رأيته على وجوه المصلين ذات يوم .

واقتربت الفتاة مني حتى وضعت يدها برفق على ذراعي. وخرجت المرأة من الجمـــع وجاءتني بكأس من الشراب ، شربته فوراً ، دفعة واحدة .

ووقفتا تنظران إليّ .

المرأة التي ظننتها خصماً كان وجهها وجه أم .

وقالت الفتاة بصوت لم أسمع مثله في حياتي رقة وعذوبة وصفاء ، فيه شيء من صوت تلك التي تركتني قبل عامـين ، لكنه كان أحلى :

« كدت أيأس من لقائك . تغربت كثيراً وانتظرت ، وأظنك أنت هو » .

« أنت اذاً أجنبية مثلي ؟

ومسحت براحة يدها العرق عن جبيني ، ووضعت يدها في يدي وقالت لي : « هيّا » .

ونظرت فإذا المرأة تراقبنا وعلى وجهها حنو عظيم . كان وجهها وجه أم .

عدت اليها وقلت لها : « سامحيني فقد أسأت بك الظن » فضحكت وقالت : « لا بأس عليك. لعلي شجعتك على هذا» قلت لها : « والباقون هل يسامحونني ؟ » قالت : « لا تقلق. انهم سينسون،النسيان هو فضيلتهم الوحيدة ، لهـذا فهم لا يعرفون الحقد » . ثم نظرت اليّ الفتاة وقالت وهي تبتسم بعطف : « اختي تنكر مثلك.ان كان الفكر هو الذي تبحث عنه ، فانك ستسعد معها » .

ووضعت ذراعي على كتف الفتاة . وضعت ذراعي على كتف الفتاة الواسعة الفم ، الكبيرة الأنف ، الزرقاء العينين ، كما يضع أب ذراعه على كتف ابنته ، وقلت لها : « هيّا » .

وهكذا يا سادتي تزوجت . لعلها تغفر لي ، تلك الـتي تركتني منذ عامين . وأحياناً أنسى أنها تعيش معي ، لكن لي طفلتين تغنيانني عن الأوهام .

مقـــدّمات

أغنـــيَة حُب

كنت دائماً أود أن أغني . لكن صوتي كان نشازاً ، ولم أكن استطيع أبداً أن أجيد نغمة واحدة ، لسوء حظي. إلى أن لقيتها . قالت ان أردت فعلاً أن أغني ، فعليّ اذاً أن أغني ، مهما كان وقع صوتي .

قلت : « لكن صوتي نشاز » .

قالت : « غنّ عن الحب . الناس تستويهم أغاني الحب الحزينة » .

وهكذا ابتدأت.لم يحفل الناس بي أول الأمر . ثم أخذوا يصغون . بل ان بعضهم أحب أغانيّ.كانت عيناها خضراوين وكان فمها واسعاً وحاجباهـا نبيلين مقوسين بروعـة . كانت تحبني وتحب العالم كله ، ما عدا اليابان قتل اليابانيون أخاها في الحرب الأخيرة .

ومع هذا فقد تركتني لأنني ترددت .

أمر محزن ، نوعاً ما ، لأني وإن كنت أحب أن يسمع الناس غنائي ، فانني أغني لها خاصة .

خطـــوة للأمـــام

كانت ممرضة .

وكان معلماً .

تزوجـــا .

كان اسمر داكناً ، أسود إذا شئت . لم تكن سمرتهـــا داكنة ، بيضاء إذا شئت .

كان أنفه أفطس ، لكنه لم يكن قبيحاً . وكان أنفها اغريقياً ، جذاباً بأي قياس قسته .

وكان شعرها نحاسي اللون ، ناعماً وطويلاً ، وكانت عيناها رماديتين ، تذكّران الرائي بأمسيات معينة .

وكانت عيناه سوداوين ، وكذا شعره الذي لم يكن أسود فحسب بل كان اكرت أيضاً .

في مكتب التسجيل في فولام رود ، حيث أخذها وحيث تركته يأخذها ، كانت تصرفات المسجل لا غبار عليها ، لكن خيّل لبعض الحاضرين انه كان محرجاً بعض الشيء .

وأخذها معه إلى أهله .

أخذ يعلّم وأخذت تمرّض ، وولدت له ابناً .

« ماذا تسميه ؟ » .

« سامي . يسهل لفظه ، بالانكليزية وبالعربية » .

ونما صحيح الجسم وافر الحكمة ،فكما الأب كذلك الابن ، والأم ممرضة . أما الغنى فلم يكن مؤكداً .

كانت عيناه رماديتين ،تذكّران الرائي بأمسيات معينة في لندن .

وكان شعره نحاسي اللون ، وكان مع هذا أكرت أشعث.

لم يكن أنفه اغريقياً ولا كان أفطس .

وهو أمر حسن .

« سيكون طبيباً » ، تردد أمه باستمرار .

للسكتي المسمات

كانت تعمل كاتبة اختزال في شركة التلفزيون . وكانت تسكن مع عائلة في فينشلي، وتقضي عطلات الاسبوع مع اسرتها في سيد كب . ولم يكن يبدو انها متعلقة بأهلها كثيراً .

التقيا عشية رأس سنة ١٩٥٩، في حفلة رقص نظمها معهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن .

« ماذا تدرس ؟ »

« أعد رسالة الدكتوراه في التاريخ »

كان رقصه فظيعاً ، لكن معرفته باللغة الانكليزية كانت جيدة. بدا صغير السن جداً – وربما كان هذا مظهراً خادعاً. وكان صوته عذباً ، ورائقاً للاذن . كانت اميل إلى البدانة ، فأعجبه ذلك . كانت تقاطيع وجهه وسيمة حادة ، الأمر الذي لم يغب عنها .

وأعطى كل منهما الآخر رقم تلفونه .

بعد ثمانية أشهر حصلت المعجزة . ومع هذا –

قالت : « لست أدري » .

قال : « أنا أيضاً لست أدري » .

« عد إلى بلدك ، وأنا سأسافر – إلى كندا ربما » .

وهكذا عاد ليدرّس التاريخ في احدى المدارس الثانوية.

وكتبت له من كندا تقول انها قد حصلت على وظيفة في شركة الاذاعة الكندية وان الحياة في أوتاوا لا بأس بها .

وكتب لها رسائل طويلة تلتهب عاطفة ، وكان يختمها دائماً بقوله : « لك حق المهات » – قد يخيل اليك انه كان يبالغ .

كتبت تقول : « الراتب جيد ، وكندا ممتعة ، لكن لماذا علينا أن نكون بعيدين هذا البعد واحدنا عن الآخر ؟ »

أجاب : « لأنه من جهة ، ليس من العدل أن أجرجرك إلى هذا المكان ، البالغ الحرارة والكثيف الغبار ، ولأني فقير لا أستطيع ان أثقل ضميري بك » .

وكانت الرسائل تحمل الحب من أفريقيا إلى كندا ، ومن كندا إلى أفريقيا بانتظام .

وكان الحب يشتد – هكذا كانت تقول الرسائل – وأستطيع أنا أن أصدق ذلك .

مات بالالتهاب السحائي في صيف ١٩٥١ .

ولم يخبرها أحد .

ظلت بعد هذا بأشهر تواصل الكتابة وتسأل : « لماذا لا تجيب ؟ أم انك لم تعد تحبني ؟ » .

ثم توقفت عن الكتابة .

الاختبار

كانا يعيشان في منطقة سويس كوتيج . هو محامٍ من دربان ، وهي ممرضة من نطنغهام وكانا صديقيّ .

كانا يقيمان حفلة عشية كل سبت . يدعوان إليها أناساً من كل نوع ، جلهم ممن يسمونهم اليوم « افرو أسيويين » . تلميذ طب من نيجيريا ، محاضر جامعي من الهند ، فتاة من الصومال تدرس الخدمات الاجتماعية ، تلامذة مصريون حتى إبان معركة السويس ، جميع الأنواع — ذلك الضرب من الأشخاص الذين يشترون صحيفة « الغـــارديان » ويقرأون « الاوبزيرفر » و « انكاونتر » ويتحدثون عن آلان بيتون . وكان صديقاي يصوّتان لحزب العمال .

كان هذا الطالب الغاني أسود كالابنوس ، لكنه — إن أنت لم تكترث للونه — كان وسيماً . خلف حاجز اللون كان خفرا ، لكنك إن سمحت له بالدخول كانت إنسانيته لا تعرف حدوداً . خلف حاجز اللون كنت في أمان . لكنك إن أزحته لم يكن ثمة ضمان . كان ذلق اللسان ، يجيد الرقص ،

يضحك بطلاقة . وكان من عادته أن يمد لسانه بين أسنانه الشديدة البياض عندما يتكلم ، وكانت الفتيات يجدن ذلك جذاباً .

لم يكن ينبغي أن تفعل ذلك - لكنها علقت بحبه . ليس هذا فحسب ، لكنهما ايضاً هربا معاً .

التقيت صديقي صدفة قبل ايام ، على مقربة من مخازن سوان اند ادغار في ساحة بيكاديلي . حييته ، لكنه لم يرد عليّ التحية ، وظل يحدق أمامه بعيداً .

سوزان وعلي

كان اسمه علي . واسمها هي سوزان . الخرطوم . لندن . درست الفن في معهد سليد . درس العلوم السياسية في معهد الاقتصاد بجامعة لندن .

قالت : « تزوجني » .

قال : « لا . صعب » .

قالت : « لكني أحبك » .

قال : « وأنا أيضاً أحبك . لكن .. » .

ومن ثم عاد إلى بلده .

وأخذا يتراسلان .

« لكنني أحبك يا علي » .

« وأنا أحبك يا سوزان ، لكن ... » .

ستة أشهر .

كتبت تقول : « قابلت رجلا . سأتزوجه » .

كتب يقول : « لكني أحبك يا سوزان » .

وانقطعت الرسائل .

يفكر بها في غالب الأحيان .

وتفكر به من حين لآخر .

لكن ....

الفهـــرس